المؤلفات الكاملة

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

الطبعة الثانية

وداع الربيع

شرح دعاء الإمام السجاد عليه السلام في وداع شهر رمضان المبارك

تدوين وتحقيق: عباس كرايي

ترجمة: نوفل بنزكري



وداع الربيع

شرح دعاء الإمام السجاد عليه السلام

في وداع شهر رمضان المبارك



وداع الربيع

شرح دعاء الإمام السجاد عليه السلام
في وداع شهر رمضان المبارك

آية الله الشيخ محمد تقيّ مصباح اليزدي

تدوين وتحقيق

عباس كرايي

ترجمة

نوفل بنزكري

دار الأمير للتعليم والترجمة

الطبعة الثانية

ISBN 978-614-440-180-4

[٢٠٢٠م - ١٤٤١هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - mail: almaarf@shurouk.org

تصميم:

علي بزي

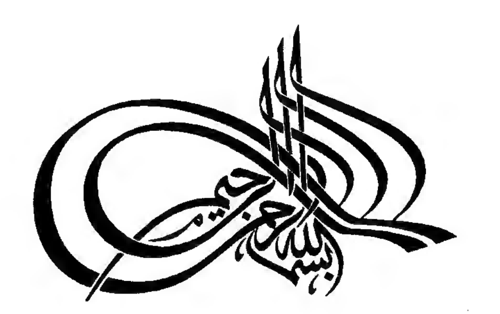
إخراج فني:

ماجد مصطفى

طباعة:



07762001 - 70743117
dpidigitalprinting@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم



الفهرس

مقدّمة معاونيّة البحوث

الحقيقة هي أكثر الأسرار الوجوديّة والرغبات الإنسانيّة أصالةً وخلودًا وجمالًا، والتي بذل في سبيلها المؤمنون والعلماء الصادقون أرواحَهم، وحاكَ لأجل محوها ومسخها الجهّالُ وأهلُ الباطل المؤامرات والدسائس؛ فيا له من واقع مرير يحكي عن مظلوميّة الحقيقة! وما أحلى المقولة التي تُفصح عن أنّ الحقّ عالٍ وخالد، والباطل زاهق ومضمحّل في المواجهة المستمرّة القائمة بينهما! فمع أنّ علوّ منزلة الحقيقة ورفعتها ممّا تقتضيه طبيعتُها، إلّا أنّها مدينة في ذلك أيضًا إلى الجهود الخالصة والدؤوبة لطلّاب الحقيقة الذين شدّوا عزائمهم وشحذوا هممهم في مجال النظر والعمل، وتحرّروا من أغلال الدنيا وأفخاخها، حيث يُعدّ الدور الذي تضطلع به الأديان الإلهيّة ويُؤدّيه الأنبياء الإلهيّون - لا سيّما الإسلام والنبيّ الأكرم ﷺ - في هذا المجال هو الأبرز.

وقد اعتبر علماء الشيعة العظماء أنّ رسالتهم الخطيرة والفريدة تكمن في الاستفادة من العقل والنقل، والغوص في بحر المعارف القرآنيّة، واستخراج جوهرة الحقيقة الصافية من سيرة أولئك الأئمّة، وعرضها على الإنسانيّة، والدفاع المستميت في مقابل هجمات أهل الظلام وأعداء الحقيقة، والتضحية بالأبصار والأرواح في سبيل هذا الهدف.

وفي هذا العصر الذي يشهد أزمة المعنويّات، يسعى أعداء الحقيقة والإنسانيّة في كلّ لحظة إلى السيطرة على العالم من خلال الإنتاج والإصدار المتصاعدين لعدد من الأعمال المكتوبة والمرئيّة، واستخدام أنواع الأدوات البرمجيّة والعتاديّة المتطوّرة في مختلف المجالات؛ ولهذا، فإنّ مهمّة طلّاب الحقيقة والعلماء الحوزويّين والجامعيّين؛ ولا سيّما علماء الدين ستصبح أعظم وأصعب وأعقد بكثير.

ففي العالَم الشيعيّ، يتوفّر المحقّقون الحوزويّون على سجلّ لامع في دائرة العلوم الفلسفيّة والكلاميّة والتفسيريّة والحديثيّة والفقهيّة والأصوليّة وأمثال ذلك، بحيث إنّ أفكارهم وتأمّلاتهم تسطع على قمّة الدراسات الإسلاميّة؛ كما أنّ محقّقينا بذلوا جهودًا لافتة أيضًا في مجال العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة والتقنيات الحديثة، وخطوا في ذلك خطوات واعدة؛ مقتربين من مقامهم الرفيع في العالم، وسائرين في طريق التقدّم، لكي يظفروا عن طريق نشاطاتهم المتصاعدة بالمكانة التي تليق بهم في المجال العلميّ الدوليّ؛ وأمّا في مجال الدراسات الاجتماعيّة والإنسانيّة، فلم تكن المساعي التي بذلها علماء هذا البلد في مستوى تطلّعات النظام الإسلاميّ، واقتصروا أحيانًا على ترجمة النظريّات المطروحة من قبل الآخرين والاقتباس منها؛ فقليلًا ما نعثر لهم هنا على ابتكارات؛ ولا سيّما على إبداعات نابعة من المبادئ الإسلاميّة، بحيث لا يزال أمامنا طريق طويل ومليء بالتحدّيات للوصول إلى المكانة المطلوبة في هذا المجال؛ ومن هنا، فإنّ من أبرز الأهداف والأولويّات التي ينبغي أن تسعى إليها المؤسّسات العلميّة - لا سيّما مراكز الأبحاث في الحوزات العلميّة - هو التحقيق في مسائل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وعرضها من منظور إسلاميّ؛ هذا، فضلًا عن استنباط التعاليم الدينيّة واستخراجها وبيانها وتفسيرها، وتنظيم المعارف الإسلاميّة.

وفي ظلّ رعاية القائد العظيم للثورة الإسلاميّة، والدعم اللامحدود لخلفه الصالح سماحة آية الله الخامنئيّ دام ظله، اهتمّت مؤسّسة الإمام الخميني رضوان الله عليه للدراسات والأبحاث منذ تأسيسها بمسألة التحقيق العلميّ والدينيّ، وخاضت في الأبحاث الحيويّة والمصيريّة من أجل تحقيق التطلّعات الفكريّة والدينيّة للمجتمع؛ وذلك بالاتّكاء على السياسات والأهـداف المرسومة من قبل سماحة آية الله محمد تقيّ مصباح اليزدي (دامت بركاته)؛ ولبلوغ هذا الهدف، فقد عمدت معاونيّة البحوث في المؤسّسة - علاوةً على التخطيط والإشراف على المحقّقين والطلبة الباحثين - إلى نشر مصنّفات بعض المحقّقين، حيث تمكّنت إلى حدّ الآن - ولله الحمد وبقدر وسعها - من تقديم مجموعة من المؤلّفات القيّمة للمجتمع الإسلاميّ.

والكتاب الذي بين أيدينا عبارة عن شرح للدعاء الخامس والأربعين من **الصحيفة السجّادية** ألقاه الأستاذ الجليل سماحة آية الله محمد تقيّ مصباح اليزدي (دامت بركاته) في شهر رمضان المبارك من العام ١٤٣٦ هـ ق (شهر تير من العام ١٣٩٤ هـ ش) في مكتب القائد المفدّى دامت بركاته؛ وقد صُنّفت هذه السلسلة ببركة جهود المحقّق الفاضل حجّة الإسلام والمسلمين عبّاس كرايي، وبإشراف من حجّة الإسلام والمسلمين الدكتور أسد الله طوسي؛ هذا، وترجو معاونيّة البحوث من العلي القدير أن يمنّ على سماحة الأستاذ بطول العمر، وعلى المحقّق المحترم لهذا الكتاب بمزيد من التوفيق.

معاونيّة البحوث
مؤسّسة الإمام الخميني رضوان الله عليه
للدراسات والأبحاث



مقدّمة

وفّقنا الله تعالى سابقًا[١] للجلوس على المائدة المباركة **للصحيفة السجّادية**، والاغتراف من دعائها الرابع والأربعين؛ والذي تُركّز المناجاة فيه على الورود إلى شهر رمضان المبارك (شهر ضيافة الله)، ووصْـفِ الأبعاد الجماليّة لهذا الشهر الكريم، والرغبةِ في الاستعداد للانتفاع منه، وقد تمت بفضل الله تعالى طباعة ما قدمناه في تلك الجلسات في كتاب بعنوان: **صهباى حضور.**

ومنذ ذلك الحين، وأنا أفكّر في مباحثة الأصدقاء في الدعاء الخامس والأربعين من هذه الجنينة؛ والذي يدور حول وداع شهر رمضان المبارك؛ لكن دون أن يُحالفني التوفيق. وقد كان من أسباب هذا التأخير حلول بعض المناسبات التي ارتأيت أنّه من الأولى الخوض فيها؛ إلى أن قُدّر لنا هذا العام بلطف الله تعالى أن نجلس مرّةً أخرى على المائدة النورانيّة للإمام السجّاد عليه السلام، لنصقل أرواحنا بالاغتراف من معين دعاء وداع الشهر المبارك، ودعاء الوداع الذي سنتناوله في هذا الكتاب هو الدعاء

(١) شهر رمضان المبارك للعالم ١٤٢٩ هـ ق؛ والموافق لشهري شهريور ومهر ١٣٨٧ هـ ش.

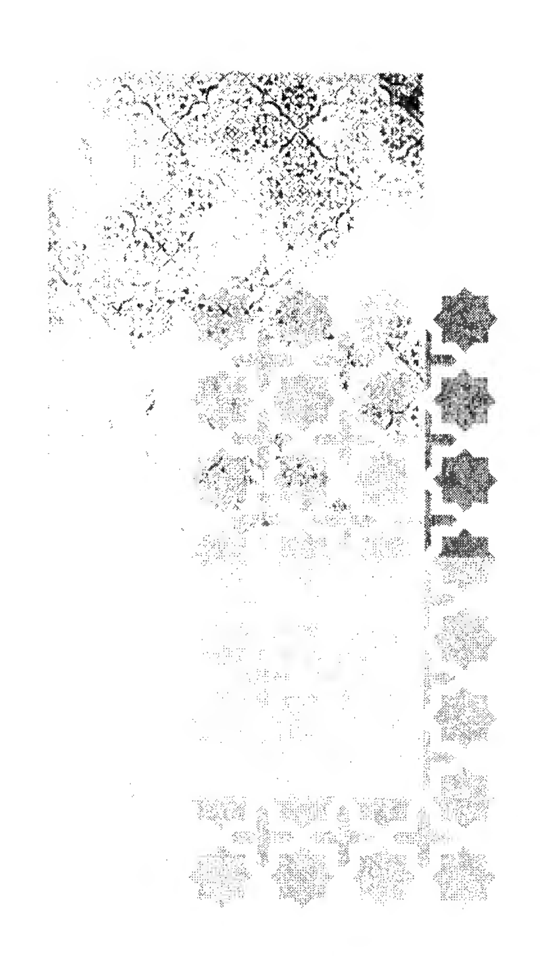
الخامس والأربعون من **الصحيفة السجّادية**؛ وهو دعاء شريف جدًّا، ومفصّل إلى حدّ ما.

عند تحليلنا لهذا الدعاء، قد يبدو لأوّل وهلة أنّه يتضمّن مجموعةً من اللطائف والحكم المختلفة والمتفرّقة؛ وأنّ مضامينه لا ترتبط كثيرًا فيما بينها؛ لكن، إذا أعملنا الدقّة والتأمّل فيه، فإننا سنكتشف أنّ هذا الدعاء الشريف يحتوي على العديد من المسائل الدقيقة والظريفة التي تنتظم وفق نظام جميل وعجيب؛ وأنّه يُعدّنا للاستفادة من نعم شهر رمضان المبارك، وأداء التكاليف الملقاة على عاتقنا تجاهه، ويُعلّمنا - مع اقتراب موعد وداعه - الكيفيّة المناسبة لهذا الوداع.

محمد تقي مصباح اليزدي

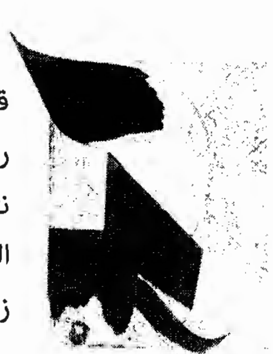
الثاني من شهر رمضان ١٤٣٦ هـ ق؛

الموافق لـ ١٣٩٤/٣/٢٩ هـ ش



إطلالة على دعاء وداع شهر رمضان المبارك





قبل الدخول في البحث المفصّل في فقرات دعاء وداع شهر رمضان المبارك، نُلقي نظرةً عامّةً وعابرةً على مضامينه؛ لكي نتعرّف بنحو مجمل على المعارف المكنونة فيه، ونتمكّن من الحصول على إطلالة واضحة على المدرسة التعليميّة للإمام زين العابدين عليه السلام.

١. الرحمة الإلهيّة: المحور الأساس لدعاء الوداع

يُشكّل الالتفات إلى نعم الله تعالى وفيوضاته المحور الأساس لدعاء الوداع الوارد في **الصحيفة السجّادية**. ولا يخفى أنّنا نتوجّه في مقام العبادة والدعاء والارتباط بالله تعالى إلى مولانا ومالك رقّنا من خلال مجموعة من المفاهيم، وعبر الالتفات إلى بعض الصفات الإلهيّة؛ وفي غالب الأحيان، فإنّنا ننظر في هذا المقام إلى الله تعالى بصفته خالقًا للعالم أوّلًا؛ ثمّ نتوجّه بعد ذلك إلى بعض الصفات الإلهيّة الأخرى التي تتناسب مع ظروفنا وأحوالنا الخاصّة، حيث يُمهّد هذا التوجّه الأرضيّةَ لاكتساب الأهليّة من أجل استنزال الرحمة الإلهيّة؛ هذا، وقد جاء أيضًا في

روايات باب الدعاء ما مفاده: «عند الدعاء، اذكروا بدايةً صفات الله، وأثنوا عليه تعالى بالنظر إلى النعم التي منحكم إيّاها»[1].

ومن هنا، فإنّ أبرز محور في معظم الأدعية التي يدعو بها نظائرُنا هو التوجّه إلى الفيّاضية الإلهيّة؛ فكلّما تمكّنا أكثر من النفوذ إلى عمق هذه الصفة الإلهيّة - وبعبارة أخرى: أدركنا التوحيد بشكل أفضل - اكتشفنا أكثر أنّ أصغر موجود في العالم قد استمدّ وجوده من الحقّ تعالى، ولو عبر مئات أو آلاف الوسائط، وأنّـه عزّ وجلّ هو الرحيم الحقيقيّ، بينما بقيّة المخلوقات مجرّد مجارٍ للفيض الإلهيّ، وأدوات وشروط لتحقّقه؛ فالله تعالى هو الذي يوجد حقيقة المعدوم؛ ولعلّ هذا هو السبب في أنّنا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم، فإنّنا سنجد أنّ أقرب اسم إلهيّ إلى «الله» هو اسم «الرحمان»[2]؛ فقد ورد في الآية الشريفة: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[3]؛ حيث ترجع هذه المجاورة إلى أنّ أقرب مفهوم عند الإنسان عن الله تعالى هو الفيّاضية والرحمة المطلقة؛ أجل، يبقى أن قدرة كلّ إنسان على التعرّف على المصاديق الكثيرة لهذه الصفة الإلهيّة الفعليّة، واكتناه عمق معناها، تتناسب مع مقدار سعته المعرفيّة.

---

(١) من باب المثال، رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إنَّ الْمِدْحَةَ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ فَإِذَا دَعَوْتَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ فَمَجِّدْهُ، قُلْتُ: كَيْفَ أُمَجِّدُهُ، قَالَ: تَقُولُ يَا مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ يَا فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ يَا مَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبِهِ يَا مَنْ هُوَ بِالْمَنْظَرِ الْأَعْلَى يَا مَنْ هُوَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٤٨٤]؛ كما نُقل أيضًا عنه عليه السلام: «إِنَّمَا هِيَ الْمِدْحَةُ ثُمَّ الثَّنَاءُ ثُمَّ الْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ الْمَسْأَلَةُ إِنَّهُ واللَّهِ مَا خَرَجَ عَبْدٌ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ» [المصدر نفسه].

(٢) الرحيم المطلق الذي لا تخضع رحمتُه لأيّ حدّ أو حصر.

(٣) سورة الإسراء، الآية ١١٠.

نجد في الأبحاث الفلسفيّة والكلاميّة، أنّ البحث عن الإله الفيّاض يبدأ بواجب الوجود (الذي يكون وجوده ضروريًّا)، حيث لا يتمّ التطرّق في هذا المستوى إلى كيفيّة علاقة الله تعالى بالوجودات والمخلوقات الأخرى؛ وبعد ذلك، يجري البحث عن الصفات الإلهيّة الذاتيّة والفعليّة؛ إذ لا مجال بعدُ لعقد مقارنة بين الله تعالى والمخلوقات في هذا المستوى المعرفيّ الذي يفوق درجة المعارف العادية، ويحتاج إلى ذهن وقّاد ودقّة فائقة من أجل الفهم الصحيح لتلك المفاهيم الراقية.

وأمّا في الأبحاث التي تتناسب مع المستوى الفكريّ لعامّة الناس، فلا يتمّ طرح هذه المفاهيم التحليليّة، حيث يتمثّل الفهم البدويّ للناس ذوي العقول السليمة والصالحة في أنّ الله تعالى خلقهم وجميع المخلوقات الأخرى، وأنّ الوجود بأكمله نابع من ذاته؛ كما أنّ الله تعالى يدعو هؤلاء الناس إلى الاستعانة بنفس هذه المفاهيم التي تألفها أذهانهم؛ وإذا ما قُدّمت بعض التوضيحات في هذا المجال، فسبب ذلك يكون الرغبة في الاستزادة من العلم بسعة المخلوقات (أعمّ من الموجودات المادّية وغير المادّية، ومن الموجودات المُدركة وغير المُدركة من قبلنا، ومن الموجودات السابقة والتي ستأتي لاحقًا، و...)، وبعمق الكرم الإلهيّ وحقيقته.

وتسري هذه القاعدة في كافّة الأدعية تقريبًا؛ حيث يجري التركيز بنحو دقيق على مسألة الكرم والرحمة الإلهيّة المطلقة، كما أنّ الكثير من مضامينها قد اعتُمد في بيانه على هذه المسألة بعينها.

تُعطينا هذه الملاحظات التي ذكرناها لمحةً عن الدعاء [بنحو مطلق]؛ حتّى نتمكّن من الظفر بتصوّر عامّ عن دعاء الوداع؛ فنعلم كيف يبدأ هذا الدعاء، وكيف يصل إلى ذروته، وكيف يبلغ في الأخير هدفه

الأساس، وينتهي. وعلاوةً على ذلك، فإنّنا سنتمكّن أيضًا من تعلّم أسلوب الدعاء أكثر ممّا تعلّمناه إلى حدّ الآن.

٢. الربوبيّة الإلهيّة الخاصّة لكلّ مخلوق إلهيّ خاصّ

يحمل الإنسان نوعًا من التوجّه البديهيّ والفطريّ إلى الله تعالى؛ وهو توجّه لا شعوريّ، وغير مختصّ بالإنسان فقط، بل تتوفّر عليه كافّة المخلوقات، وذلك بناءً على ما ورد في القرآن الكريم: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[1]. أمّا توجّه الإنسان الأساس والشعوريّ نحو خالقه فيحصل بواسطة المفاهيم، وإنّ المعارف الشعوريّة التي نتصوّرها في الذهن على شكل قضايا ذات حكم إيجابيّ أو سلبيّ، تتمثّل في العلوم الحصوليّة - وغالبًا المفاهيميّة - ذات الصلة بالأفعال الإلهيّة. وكما أسلفنا الذكر، فإنّ أكثر ما يُثير اهتمام عقولنا التقليديّة هو علاقتنا بالله تعالى؛ أي أفعال الحقّ تعالى، نظير الخالقية وسائر الصفات الإلهيّة؛ ولكن، عندما نتوجّه إلى بعض الأفعال، فإنّنا ننتقل إلى مجموعة من اللوازم التي من شأن الذات الإلهيّة أن تكون واجدةً لها حتّى تتمكّن من القيام بتلك الأفعال؛ ومن باب المثال، عندما نقول إنّ الله تعالى خالق الوجود، فإنّنا نحلّل هذه المسألة في أذهاننا بالنحو الآتي: إذا خلق الله تعالى شيئًا، سيلزم بالضرورة أن تكون له القدرة على أداء هذا الفعل؛ وبعبارة أخرى، إنّه يتمتّع بالقدرة على الخلق؛ ممّا يعني أنّ ذهننا لا يتوجّه في البداية إلى قدرة الله تعالى، بل يلتفت أوّلًا إلى أفعاله عزّ وجلّ، ثمّ يتوصّل من خلال تحليل لوازم هذه الأفعال ودراستها إلى نفس تلك الأبحاث العقليّة.

---

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، سورة النور، الآية ٤١.

فلا يخفى أنّ الإنسان يتصوّر في مقام المناجاة والدعاء والابتهال نفسَه في مقابل الله تعالى، ويأخذ بعين الاعتبار تلك العلاقة القائمة بينه وبين ربّه، حيث يقول: «إلهي، خالقي، و...»، وتُعدّ هذه الصفات من الصفات الإضافيّة والمرتبطة بالأفعال الإلهيّة؛ أي الأفعال التي تتعلّق بشيء من الأشياء، ويُنتزع منها مفهوم بلحاظ هذا التعلّق.

وبشكل طبيعيّ، فإنّ ما يحظى باهتمام الذهن بعد خالقيّة الله هي رازقيّته؛ فهو تعالى لا يُهملنا بعد أن خلقنا، بل يُهَيئ لنا أسباب البقاء على قيد الحياة عن طريق منحِنا الرزق وتوفير جميع ما نحتاجه، ويُنتزع من كافّة هذه الارتباطات والأفعال الإلهيّة المتعلّقة بنا مفهوم عامّ يُطلق عليه اسم الربوبيّة؛ ففي سورة الفاتحة المباركة، ورد الحديث بدايةً عن الذات الإلهيّة المقدّسة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ وبعد ذلك، جرى التركيز على مسألة الربوبيّة الإلهيّة: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي كونه تعالى هو الذي يُلبّي حاجات جميع المخلوقات.

وتُطرح هذه الربوبيّة الإلهيّة بالنسبة للإنسان بنحوَين؛ لأنّ الإنسان يمتاز عن بقيّة الموجودات بكونه خُلق مختارًا، ومُنح حريّة الإرادة والعمل لكي يختار طريق حياته بنفسه؛ فلو شاء وضع قدمه في طريق الخير، وانتهج سبيل السعادة؛ ولو شاء أوقع نفسه في هوّة الشقاء، بينما بقيّة المخلوقات ليست بهذا النحو. نعم، الملائكة مختارة أيضًا وغير مجبورة، لكنّها لا تتوفّر على خيار ثنائيّ، بحيث تكون لها القدرة على انتخاب أحدهما؛ فالتذاذ الملائكة وبهجتها، بل وحياتها، متوقّفة على عبادة الله؛ مثل ما ورد في الروايات: «طَعَامُهُمُ التَّسْبِيحُ وشَرَابُهُمُ

التَّهْلِيلُ»[١]. هذا، ونستشفّ من القرآن الكريم وجود مخلوق آخر غير الإنسان يتمتّع أيضًا بهذا الاختيار اسمه الجنّ. ومن هنا، فإنّ الموجودَين المختارَين والمكلّفَين من بين المخلوقات التي نعرفها هما الإنسان والجنّ؛ بمعنى أنّ هناك طرقًا متعدّدة أمام هذَين الموجودَين، وأنّ عليهما أن يختارا طريقهما بنفسهما.

فما يلزم من تدبير الله تعالى لحياة الإنسان أن تكون أرضيّة الاختيار مهيّأةٌ بالنسبة إليه، وهذه الأرضيّة تستدعي أمرين: الأوّل توفير المجال لتأدية الأعمال المختلفة، والثاني الاطّلاع على نتيجة كلّ واحد من هذه الأعمال، بحيث إذا لم يملك الإنسان مثل هذا الاطّلاع، فلن يتمكّن من الاختيار بالمعنى الدقيق للكلمة؛ وكذلك الأمر إذا كان الإنسان مطّلعًا على نتائج الأعمال، لكن لم تُمهّد له الأرضيّة لتأدية أفعاله، فلن يكون هنا أيضًا للاختيار أيّ معنى.

ولهذا السبب، فإنّ الحقّ تعالى وإلى جانب خلقه الإنسان وتهيئة الأرضيّة اللازمة لاختياره الفعل وتأديته إياه، أراه سبل الخير والشرّ. وهذا هو الأمر الذي يمتاز به الإنسان، بحيث تُطرح في شأنه ربوبيّة خاصّة، زيادة على تلك الربوبيّة العامّة التي تتجلّى في خلقته الأولى وقدرته على تأدية الأفعال؛ بمعنى أنّ الله تعالى قد أطلعه على نتائج الأعمال، وحسنها أو قبحها، وهذا هي الربوبيّة التشريعيّة بعينها، والتي تكون في الحقيقة من مصاديق الربوبيّة التكوينيّة، لكنّها ذات بُعد مختلف.

---

(١) محمد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٥٧، الصفحة ٢٤٩.

وقد جرى الحديث عن هذه المسألة في القرآن الكريم بالنحو الآتي: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1]، كما جاء أيضًا في آية أخرى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2]، فحينما سأل فرعون النبيّ موسى عليه السلام: «من هو ربّك؟»، فإنّ الكليم عليه السلام أجابه قائلًا: «إلهي هو الذي أفاض على كلّ شيء وجوده (إشارة إلى أصل الوجود والخلقة)، وعلاوةً على ذلك، فقد هداه، وعيّن له مسار حركته ومنهجه في العمل»؛ وهذه الهداية تنقسم بدورها إلى قسمَين: الأولى الهداية التكوينيّة التي يتمتّع بها كلّ موجود، والثانية الهداية التشريعيّة التي تختصّ بالموجودات المختارة، ويحصل عليها الإنسانُ بواسطة العقل والوحي.

٣. العلاقة المباشرة بين المستوى المعرفيّ ودرجة الطلب

يتمثّل الهدف من خلق الإنسان في هذا العالم في تجاوز مجموعة من الامتحانات الفرديّة والاجتماعيّة الصعبة[3]، حيث يؤدّي الأنبياء والأولياء الإلهيّون دورًا مهمًّا في تحقّق هذا الهدف، ويعملون على إعداد الإنسان من أجل إدراك لذّةٍ أحسن، ورحمة أكثر، وسعادة أكبر، لا تحصل إلّا عن طريق الاختيار؛ أي إنّ هذه الرحمة والسعادة عبارة عن حقيقة يتعيّن على الإنسان أن يُهيّئ بنفسه الأرضيّة لتحقّقها؛ فيختار طريقها، ثمّ يسلك بعون الله هذا الطريق، لكي يوصله تعالى إلى ذلك المقام الذي يتعذّر

---

(١) سورة الأعلى، الآيات ١-٣.

(٢) سورة طه، الآية ٥٠.

(٣) لعلّ مراد المصنّف هنا أنّ الامتحانات هي هدف تمهيديّ، باعتبارها واسطةً في إيصال الإنسان إلى هدفه الحقيقيّ المتمثّل في معرفة الله تعالى وعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، الآية ٥٦]. [المترجم]

وصفه. فمن مميّزات هذه الرحمة الخاصّة أنّها لا تُمنح لأيّ أحد بالإجبار، بل على الإنسان أن يختار بنفسه طريق عبادة الله تعالى، ويطلب بشكل متواصل رحمته؛ حتّى يبلغ بهذه الطريقة حرم معبوده الحقيقيّ. لكن، لا يُمكن للإنسان أن يرغب في رحمة الله تعالى من دون أن يتعرّف عليها. ولهذا، فإنّه يحتاج إلى معرفة النعم الإلهيّة، لأنّ تصوّر هذه النعم والرحمات تُعدّه لطلبها والحصول عليه. وسنزيد هذه المسألة بيانًا فيما يلي من أبحاث.

وقد جرى الحديث في هذا الدعاء الشريف بدايةً عن سعة الرحمة والعطاء الإلهيّين؛ وجاء فيه أنّه إذا أراد محتاجٌ الحصولَ على شيء من إنسان غنيّ، فإنّ أكثر شيء يفتقر إليه هو التعرّف على سعة كرم هذا الإنسان، فكلّما تعرّف المحتاج أكثر على سعة كرم الغنيّ، تهيّأت الأرضيّة له بشكل أفضل لكي يطلب أشياء أكثر من هذا الكريم الغنيّ. فإن اقتصرت معرفته بكرم هذا الإنسان على منح الرزق وإشباع البطن، فإنّ طلبه لن يتعدّى ذلك؛ وأمّا إذا تجاوز هذه المرتبة، وتوجّه إلى نعم أهمّ، فإنّ طلبه سيكون أعلى؛ حتى يصل إلى درجة أن يطلب منه حتّى تلك الأمور التي لا يمتلكها، والتي يمتلكها لكن قد يأتي زمان ويفقدها. ومن هنا، فإنّ طلب الإنسان تابع من حيث الكمّ والكيف إلى تلك الصفات الإلهيّة التي يتوجّه إليها الإنسان.

ومن هنا، فإن من أعلى النعم التي منّ الله بها علينا عن طريق الأئمّة الأطهار عليهم السلام أنّه علّمنا عند دعائه تعالى والطلب منه أيّ الحقائق يتعيّن علينا التوجّه إليها، وبأيّة طريقة ينبغي علينا التحدّث إليه.

ولنعلم أنّه حين قراءتنا لهذه الأدعية، فإنّه وفضلًا عن أنّنا لا نملك أيّ حقّ أو منّة على الله، فإنّه يتعيّن علينا أن نشكره تعالى أوّلًا على أن

منحنا التوفيق لقراءتها؛ وثانيًا أنّه بعث إلينا هؤلاء المرشدين، لكي يُنشؤوا هكذا أدعية؛ وثالثًا أنّه أوصل إلينا هذه الخزائن المعرفيّة؛ حتّى نتعلّمها، ونتعرّف على أسلوب الحديث مع الحقّ تعالى؛ فهذا العطاء الإلهيّ هو بحدّ ذاته نعمة عظيمة علينا أن نشكر الله تعالى عليها. فلو أنّ معادن العلم والمعرفة لم يُعلّمونا هذه المعارف، لكان من الممكن أن يصدر منّا فعل، أو يجري على لساننا كلام في حضرة الحقّ تعالى لا يليقان أبدًا بمقام العبوديّة له عزّ وجلّ، فيكون ذلك سببًا لمؤاخذتنا ومعاقبتنا.

٤. غنى الله تعالى عن مدح المادحين

يبدأ دعاء الوداع الشريف بمدح الله تعالى والثناء عليه؛ ففي العلاقات الاعتياديّة، حينما يُريد الإنسان أن يطلب شيئًا من أحدهم، فإنّه يبدأ بذكر عبارات التحيّة والاحترام في حقّه، والحديث عن محاسنه، ثمّ يتقدّم بعد ذلك بطلبه؛ وقد ظنّ البعض أنّ حثّ الروايات على ابتداء الدعاء بالثناء على الله تعالى هو من باب الأدب الذي ينبغي على الداعي أن يُراعيه عند استرحام المنعم وطلب نواله؛ لكنّ حقيقة الأمر أعلى من ذلك. ففي الواقع، علينا نحن البشر أن نُحصّل في مقام الدعاء استعدادًا خاصًّا لأجل استجلاب الرحمة الإلهيّة، وهو استعداد لا يقع إلّا عند التوجّه إلى الصفات الإلهيّة؛ فكلّما تعرّف الإنسان على الله تعالى بشكل أفضل، صار أهلًا لتلقّي رحمته أكثر؛ وحتّى نوعيّة الطلب وتحديد ما هي الأشياء التي نرجوها من الله تعالى، كلّ ذلك يتوقّف على معرفتنا بالحقّ تعالى.

ولهذا، علينا أن نطّلع على أيّ درر وجواهر تطفح بها الخزائن الإلهيّة؛ إذ إنّ هذا الاطّلاع هو الذي يُهيّئ روحنا وقلبنا، لكي نتوجّه أكثر إلى الله تعالى، ونستعدّ لنيل رحمة أكثر. وعليه، فإنّ ثناءنا لا يزيد في الله شيئًا، وهو تعالى ليس كالإنسان الذي يُسرّ عند مدح الآخرين له وثنائهم

عليه، ويغمر مادحيه بالهدايا؛ لأنّ الحقّ سبحانه لا يحتاج إلى أيّ فعل من أفعال الموجودات، كما أنّ أرقى عبادة يُؤدّيها أفضل مخلوقاته لا تُضيف إلى ملكه مثقال ذرّة؛ فجميع ما خُلق في هذا العالم نابع من علم الباري تعالى وابتهاجه بذاته، وكلّ ما هو موجود صادر من الكرم الذاتيّ الإلهيّ[1]، بمعنى أنّ الرحمة لا تقبل الانفكاك عن وجود الله تعالى. وبالتالي، فإنّها تُعدّ من المبادئ الجوهريّة ذات الصلة بالله تعالى وأفعاله.

ففي بداية هذا الدعاء، يستعرض الإمام هذه الحقيقة، مناجيًا الله تعالى بالنحو التالي: «إلهي، أنت الذي كرمُك واسع وشامل لكلّ شيء، بحيث إنّ كرمك هذا يتميّز بسمات خاصّة: فهو كرم لا تتوقّعُ في مقابله العوضَ من أيّ أحد، بخلافنا نحن البشر الذين نتوقّع بأجمعنا - قلّ ذلك أو كثر - أن ينالنا شيء في مقابل ما نُقدّمه للآخرين؛ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2]»؛ بل إنّ الكرم لا يصدر من العديد من أفراد الإنسان إلّا لهذا الهدف. فمن باب المثال، نجد أنّ الإنسان قد يأتي في بعض الظروف الخاصّة إلى أحدهم بهديّة، على أمل أن يأتيه هو أيضًا في ظروف مماثلة بهدية مشابهة. صحيح أنّه من الممكن أن يكون الهدف الذي يدفع المؤمن للتحبّب إلى الناس، واستضافتهم و ... هو رضا الله تعالى؛ لكن، يبقى أنّ قيام المؤمن هنا بهذه الأعمال الحسنة لأجل جلب الرضا الإلهيّ هو بسبب أنّ هذه الرضا يستتبع ثوابًا. وبالتالي، فإنّ هذه العبادة لا تخلو من توقّع؛ فمع أنّ هذا المؤمن قد لا يكون له أيّ توقّع من الناس، لكنّه يتوقّع من الله تعالى الجزاء.

---

(١) المراد من الذاتيّ هنا الذاتيّ في باب البرهان، لا الذاتيّ في باب إيساغوجي.

(٢) سورة الحجر، الآية ٤٠؛ سورة ص، الآية ٨٣.

وفي الحقيقة، من الصعب جدًّا تصوّر أن يقوم الإنسان بعمل من دون أن يتوقّع في مقابله أيّ شيء؛ فوحده الله تعالى الذي لا يتوقّع الجزاء من أيّ شخص على أيّ شيء منحه، مهما كان مقداره وكيفيّة منحه، لأنّ العطاء ممّا تقتضيه ذاته؛ نظير الشمس - إلى حدّ ما - التي تُشعّ بنورها على جميع العالم، بحيث يُمكننا القول إنّ المجموعة الشمسيّة - كحدّ أقلّ - متوقّفة بأجمعها على نور الشمس، بينما لا تحتاج الشمس إلى أيّ كوكب من هذه الكواكب، إذ جاء في تعريفها: الشمس هي النجم الذي يُشعّ بالنور. فمع أنّ هناك فارقًا كبيرًا بين هذا المثال وبين ما نعتقده في حقّ الله تعالى، إلّا أنّه تشبيه لا يخلو من مناسبة، لأنّ الله تعالى قال بذاته في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]؛ فإذا أردنا أن نُصوّر بعبارة ملطّفة هدفًا لأفعال الله تعالى، فإنّنا نقول: إنّه يتمثّل في كون الله تعالى يُريد من المخلوقات أن يحصلوا على لذّة أكثر، وينالوا الفيض والكمال. وفي الحقيقة، فقد تمّ التركيز في هذه العبارة بشكل أكبر على معنى سلبيّ؛ أي على مسألة أنّ الله تعالى لا ينتفع بذاته [من هذه الأفعال]؛ وأمّا بالنسبة لقولنا: «إنّه يريد إيصال النفع للآخرين»، فهو كلام يحتاج إلى التفسير.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ جزءًا من القسم الأوّل من هذا الدعاء يتعلّق بالعطايا الإلهيّة، ويحكي عن حقيقة أنّه تعالى لا يتوقّع من عباده على هذه العطايا ولو كلمة «الحمد لله»؛ ولا يخفى أنّ حثّ الإنسان على قول «الحمد لله» راجع إلى دور هذه العبادة في تحلّي هذا الإنسان بكمال أرفع، وحصوله على الأهليّة للظفر بنعم أخرى. وبعبارة أوضح، فإنّ السبب في الدعوة إلى شكر الله تعالى على نعمه ليس هو التذاذه

---

(١) سورة النور، الآية ٣٥.

عزّ وجلّ بشكر عباده؛ بل السبب في ذلك هو اكتساب هؤلاء العباد لاستعداد أكبر من أجل نيل رحمة الحقّ تعالى، بحيث إنّ هذا الهدف لا يُمكن تحقّقه إلّا من هذا الطريق؛ فحتّى العصاة الذين يُسيؤون الأدب في محضر الله تعالى لا تكون أعمالُهم مانعةً من الحصول على الرحمة الإلهيّة؛ ومع أنّهم قد يستحقّون أحيانًا العقوبة من الله تعالى، إلّا أنّ حكمة هذه العقوبة ترجع في الأخير إلى رحمته عزّ وجلّ؛ ففضلًا عن كون الذنوب التي تصدر منّا نحن البشر لا تصدّ عن رحمة الله، فإنّ الحقّ تعالى يسعى إلى إصلاح هذه النقائص. ولهذا، فإنّه لا يتعجّل معاقبة عباده، بل يفتح لهم باب الإنابة، ويُعلّمهم كيفيّة التوبة من أجل تدارك المعاصي السابقة؛ أي إنّه يُساعد حتّى ذاك الذي لا يمتلك الأهليّة للرحمة، إلى أن يصير متوفّرًا عليها.

ومن بين أبرز العطايا التي وهبها الله تعالى للإنسان أنّه دعاه إليه، مثل ما نقرأ في القرآن الكريم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1]، وأيضًا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾[2]، وكذلك: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾[3]؛ ففي جميع هذه الموارد، نجد أنّ الباري تعالى يدعونا إليه، حتّى نطلب منه؛ في حين أنّنا نرى كرماء العالَم يسعون لكي يكون عملهم بحيث تكون مضايقة المحتاجين لهم أقلّ، لأنّ ثروتهم ليست بالتي لا تُحدّ، وأمّا الله تعالى، فبما أنّ سعة رحمته غير محدودة، فإنّه يحثّ الجميع لكي يطلب منه ويأتي إليه؛ وكما يقول [الإمام عليه السلام]: ما أطول انتظار الله تعالى لعباده حتّى يُنيبوا إليه!

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٣) سورة النساء، الآية ٣٢.

٥. شهر رمضان المبارك نعمة إلهيّة خاصّة

وفي تتمّة هذا الدعاء، يقول الإمام عليه السلام: من العطايا التي منّ بها الله تعالى على عباده أنّه جعل لهم - علاوةً على الوسائل العامّة كالصلاة والعبادة وذكره عزّ وجلّ - وسائل خاصّة لكي يحصلوا بواسطتها على رحمات استثنائيّة؛ ومن بين هذه العطايا الإلهيّة الخاصّة، أنّه تعالى جعل في أيّام السنة شهرًا خاصًّا ميّزه بخصائص تُعادل آلاف الأيّام الأخرى، وعيّن فيه ليلة القدر التي تفوق ألف شهر (أكثر من ثمانين سنة)؛ فهذه النعمة هي من أفضل العطايا الإلهيّة، ولو أنّ الحقّ تعالى لم يتفضّل على عباده بهكذا نعمة، لما كان لأيّ واحد منهم أن يعترض عليه، ويرى نفسه مستحقًّا لهذا اللطف. فالله تعالى فتح أمامنا طريق التقرّب إليه، بحيث صرنا قادرين على الارتباط به، وعبادته، والتمتّع برحمته. لكن، مع كلّ ذلك، فقد جعل الله تعالى شهرًا واحدًا من بين كافّة الشهور، وليلةً واحدةً من بين لياليه الثلاثين، وقرن بها من الخصائص ما لا يستطيع العباد عدّ قيمته وعظمته؛ مثل ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾[1]؛ فالحقّ تعالى لم يقل هنا «إنّ هذه الليلة أفضل من ألف ليلة»، بل قال: «إنّ هذه الليلة أفضل من ألف شهر»؛ وبحقّ، هل يُمكننا تصوّر لطف أعظم من هذا اللطف؟

فبمناسبة توديع شهر رمضان المبارك، يتطرّق الإمام السجّاد عليه السلام لوصف هذا الشهر، والذي هو في الحقيقة منّة من الله تعالى على الأمّة الإسلاميّة، حيث توجد فيه ليلة القدر التي ينفتح فيها باب الرحمة الإلهيّة أمام الجميع؛ فتفور بحار هذه الرحمة، لتعمّ الشيخ والشابّ، والرجل والمرأة، والصغير والكبير قاطبةً. بعد ذلك، يتغيّر لحن كلام الإمام عليه السلام،

---

(١) سورة القدر، الآيتان ٢ و٣.

فيتوجّه بالخطاب إلى نفس الشهر الكريم، ويتحدّث معه كما لو أنّه يُريد وداع صديق محبوب؛ وفي هكذا حالات، يتّخذ كلام الإنسان صبغةً خاصّة، وبمقدار ما يُكنّ من محبّة لهذا الصديق، فإنّه يُبرز مودّته له، ويشكره على صنائعه، ويُظهر الانزعاج من فراقه. فالسبب من وراء الحزن على فراق شهر رمضان يتمثّل في أنّ هذا الشهر مليء بالعطايا والطاعات والعبادات الإلهيّة؛ كما أنّ وسائل رقيّ الإنسان وكماله وتربيته وتزكيه معدّة فيه، وباب التوبة مفتوح أمام الذي قصّر وارتكب الأخطاء. وخلال هذا الدعاء، يُسلّم الإمام عليه السلام عشرين مرّةً على شهر رمضان، حيث يُعدّ مثل هذا السلام - بحسب العادات السائدة عند العرب - كضرب من ضروب التوديع. هذا، وقد تناول الإمام عليه السلام في ضمن تلك التسليمات مجموعةً من الصفات التي يختصّ بها الشهر الفضيل.

وبعد وداع شهر رمضان المبارك عشرين مرّة، يُخاطب الإمام عليه السلام الله تعالى، ويُشير - في قالب مناجاة مع الحقّ - إلى ثلّة من صفات هذا الشهر الكريم، طالبًا العفو منه تعالى على تقصيره في أداء التكاليف؛ فالعبادات التي يُؤدّيها الإنسان طوال شهر رمضان المبارك تُعدّه لتلقّي رحمة أكبر، لأنّنا ذكرنا سابقًا أنّ فلسفة تشريع هذه العبادات تتمثّل في الظفر بتلك الرحمات المضاعفة. ومن هنا، فقد استغلّ الإمام عليه السلام الفرصة، ليسأل الله تعالى في أواخر الدعاء بعض الحاجات؛ وليختم نجواه في الأخير بالسلام والصلاة على النبيّ الأكرم وأهل بيته عليهم السلام.

وبناءً عليه، بوسعنا تقسيم هذا الدعاء إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل عبارة عن خطاب موجّه للباري تعالى في مقام الثناء عليه، وهو مقدّمة ضروريّة في كلّ دعاء تُراعى فيه آداب العبوديّة؛ والقسم الثاني خطاب موجّه لشهر رمضان المبارك، حيث إنّ أصل الوداع قد ورد في هذا القسم،

وهو عبارة عن تسليمات توديعيّة ذُكرت في خطاب الشهر الفضيل؛ وفي القسم الثالث، يتوجّه الإمام عليه السلام - بعد أن يُكمل حديثه مع شهر رمضان المبارك - إلى الله تعالى، ويعرض عليه حاجاته ورغباته؛ لينتهي بذلك هذا الدعاء الشريف.





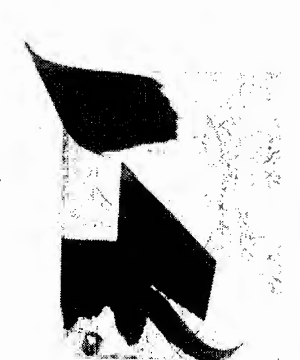
القسم الأوّل: مدح الله تعالى والثناء عليه





كما أشرنا سابقًا، فقد جرى الحديث في القسم الأوّل من هذا الدعاء الشريف عن الصفات الإلهيّة؛ مع التركيز على الرحمة الإلهيّة اللامتناهية. هذا، وقد رتّبنا القسم التالي في أحد عشر فصلًا، حتّى يتسنّى لنا الاقتطاف من بستان مناجاة زين العابدين عليه السلام وفق نظام أحسن.

الفصل الأوّل: مناجاة الغنيّ الودود



«اللَّهُمَّ يَا مَنْ لَا يَرْغَبُ فِي الْجَزَاءِ، ولَا يَنْدَمُ عَلَى الْعَطَاءِ، ويَا مَنْ لَا يُكَافِي عَبْدَهُ عَلَى السَّوَاءِ، هِبَتُكَ ابْتِدَاءٌ [من دون استحقاق من عبادك]، **وعَطِيَّتُكَ تَفَضُّلٌ، وعُقُوبَتُكَ عَدْلٌ».**

١. الغنى المطلق لله تعالى

تتمثّل الحقيقة التي تُفصح عنها هذه العبارة في أنّ الله تعالى لا يُعاني في ذاته من أيّ نقص، حتّى يكون محتاجًا إلى سدّه عن طريق الاستعانة بموجود آخر، إلى درجة أنّه ورد في بعض الأدعية: «إلهي، لم تخلق الخلق لأنّك استوحشت، فأردت أن تظفر بأنيس؛ فأنت لا تسأم من وحدتك، بل وحدتك عين كمالك»[1]؛ وعلى أيّ تقدير، فإنّ الباري تعالى لا يتلقّى أبدًا أيّ شيء من أي-موجود.

---

(١) أقرب نصّ من هذه العبارة وارد عن المعصومين عليهم السلام عثرت عليه في **نهج البلاغة**؛ وجاء بالنحو الآتي: «لَمْ يُؤْدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وخَلَقَهُ، ولَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، ولَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ ونُقْصَانٍ، ولَا لِلِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ، ولَا لِلِاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُشَاوِرٍ [مُثَاوِرٍ]، ولَا لِلِازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، ولَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، **ولَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا...»**، **نهج البلاغة**، الخطبة ١٨٦.

ورد في بداية هذه الدعاء: «**يَا مَنْ لَا يَرْغَبُ فِي الْجَزَاءِ**»، حيث تعني هذه العبارة أن «يا إلهي، أنت لا تحتاج أبدًا للجزاء»؛ فحينما يُقال إنّ الله تعالى لا يتوقّع مكافأةً، فإنّ المراد من ذلك استحالة مكافأته عزّ وجلّ؛ إذ مَن الذي يتسنّى له القيام بذلك؟ لأنّ كلّ ما يمتلكه أيّ مخلوق قد مُنحه من قبل الله تعالى؛ فهذا الأسلوب من الحديث معه عزّ وجلّ ناشئ من قصورنا في التعبير.

٢. قصور العبارة عند الحديث عن الله تعالى ومعه

استعمل الحقّ تعالى في هدايته للناس ومخاطبتهم عبارات يُمكنهم إدراكُها وفهمها. لكن، في بعض الحالات، أشار أيضًا إلى مجموعة من الإطلاقات والمحكمات التي تدلّ على أنّ العبارات الأولى فيها نحو من التجوّز والمسامحة في التعبير، وذلك لأجل تعليم الآخرين. ففي الحوارات الدائرة بين المتديّنين، من الشائع جدًّا أن يُقال: «ينبغي العمل لتحقيق رضا الله تعالى، بل إنّ أعلى كمال للإنسان ألّا يُؤدّي أيّ فعل، إلّا لنيل رضاه عزّ وجلّ». فالمراد من هكذا عبارات أنّه على الإنسان العمل حتّى يكون الله تعالى راضيًا عنه. وقد وردت نظائر هذه التعابير في القرآن الكريم، مثل ما جاء في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾[1]، وأيضًا: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[2]، كما جاء أيضًا في آية أخرى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

(٢) سورة المائدة، الآية ١١٩؛ سورة التوبة، الآية ١٠٠؛ سورة المجادلة، الآية ٢٢؛ سورة البيّنة، الآية ٨.

(٣) سورة الفتح، الآية ١٨.

ممّا لا شكّ فيه أنّه عند محاورة الناس والمخلوقات التي يعرضها التغيير وتقع في ظرف الزمان، فإنّ الماضي والحال والمستقبل يختلف بالنسبة إليهم، فإنّ أفعالهم تنشأ من مبدأ، وتؤول في الأخير إلى منتهى؛ فلا يتسنّى الحديث هنا إلّا بالاستعانة بهذه المفاهيم. نجد الله تعالى يقول في مقام بيان عظمته، وهيمنته على العالم بأجمعه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[١]، وهنا يُواجهنا هذا السؤال: أفلم يكن الباري تعالى مهيمنًا قبل ذلك على العالم؟ ونقرأ في آية أخرى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[٢]، وبمقتضى ظاهر هذه الآية، كأنّ الله تعالى كانت له في السابق نسبة أخرى مع السماء، ثمّ صارت له معها نسبة جديدة.

وقد جرى بيان هذه الآيات بهذا النحو حتّى نتمكّن بواسطتها من تصوّر بعض المعارف وإدراكها؛ إذ لا يتسنّى لنا الارتباط بالله تعالى، إلّا بالاستعانة بهذه العبارات.

ويبقى أنّه ورد في القرآن الكريم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٣]؛ وبناءً على ذلك، لا يُشبه الحقّ تعالى أيّ موجود من الموجودات. وقد جاء أيضًا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا»[٤]. وبعبارة أخرى، فإنّ الله تعالى لا يعرضه حالان، بحيث يقع أحدهما قبل الآخر؛ وببيان آخر، فإنّ تغيّر حاله عزّ وجلّ محال.

---

(١) سورة طه، الآية ٥.

(٢) سورة فصّلت، الآية ١١.

(٣) سورة الشورى، الآية ١١.

(٤) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي صالح، الخطبة ٦٥.

ومع ذلك، فقد جاء في بعض الآيات القرآنيّة الكريمة: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[١]، وأيضًا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾[٢]، حيث تُعدّ هذه العبارات - بأحد المعاني - من العبارات المتشابهة التي يُمكن تفسيرها بالاستعانة بالآيات القرآنيّة المحكمة. وقد ظنّ البعض أنّه حينما يُقال إنّ الله رضي عن إنسان، فإنّ ذلك يستلزم أنّه كان تعالى قبل ذلك فاقدًا لحالة الرضى، ثمّ أدّى ذلك الإنسان عملًا معيّنًا تسبّب في رضى الباري تعالى عنه، ممّا يعني أنّ العبد يُؤثّر بأفعاله في الله تعالى. لكنّ الإمام الحسين عليه السلام يقول في دعاء عرفة[٣]: «إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي»[٤]، أي «يا إلهي، إنّ رضاك أعلى من أن تكون أنت علّة له، فكيف يُمكن أن أكون أنا هو علّته؟».

---

(١) سورة الفتح، الآية ٦؛ سورة المجادلة، الآية ١٤؛ سورة الممتحنة، الآية ١٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٥٥.

(٣) لا يخفى أنّ هذه الفقرة من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام تقع في ضمن مقطع ارتأى العديدُ من العلماء أنّه ليس من إنشاء سيّد الشهداء عليه السلام، بل زيد على دعائه في بعض نسخ **الإقبال**؛ وهو في حقيقة الأمر من إنشاء العارف الشهير ابن عطاء الله الإسكندرانيّ. يقول العلّامة المجلسي: «قد أورد الكفعمي رضي الله عنه أيضًا هذا الدعاء في البلد الأمين وابن طاوس في مصباح الزائر كما سبق ذكرهما، ولكن ليس في آخره فيهما بقدر ورق تقريبًا؛ وهو من قوله: «إلهي أنا الفقير في غناي» إلى آخر هذا الدعاء؛ وكذا لم يوجد هذه الورقة في بعض النسخ العتيقة من الإقبال أيضًا؛ وعبارات هذه الورقة لا تلائم سياق أدعية السادة المعصومين أيضًا، وإنّما هي على وفق مذاق الصوفيّة، ولذلك قد مال بعض الأفاضل إلى كون هذه الورقة من مزيدات بعض مشايخ الصوفيّة، ومن إلحاقاته وإدخالاته. وبالجملة هذه الزيادة إمّا وقعت من بعضهم أوّلًا في بعض الكتب وأخذ ابن طاوس عنه في الإقبال غفلةً عن حقيقة الحال، أو وقعت ثانيًا من بعضهم في نفس كتاب الإقبال؛ ولعلّ الثاني أظهر على ما أومأنا إليه من عدم وجدانها في بعض النسخ العتيقة وفي مصباح الزائر؛ والله أعلم بحقائق الأحوال»، **بحارالأنوار**، الجزء ٩٥، الصفحة ٢٢٧؛ وراجع أيضًا: محمد حسين الحسيني الطهراني، **معرفة الله**، الجزء ١، الصفحة ٢٦٧. [المترجم]

(٤) السيّد ابن طاووس، **إقبال الأعمال**، الجزء ١، الصفحة ٣٤٩.

وعلى أيّ تقدير، فقد وردت العديد من الآيات والروايات لتيسير الفهم علينا؛ لأنّ فهمنا لا يحصل إلّا بالاستعانة بهذه الطريقة. فلكي نُدرك المعاني والمفاهيم، لا توجد لدينا ألفاظ أخرى غير هذه الألفاظ التي وضعناها لحياتنا في هذه الدنيا. ولهذا السبب، فقد تحدّث معنا الحقّ تعالى باللغة ذاتها؛ ولو أنّه سبحانه وضع لفظًا لذلك المعنى الذي يليق بذاته لا يكون مفهومًا بالنسبة إلينا، لما كانت ستتحقق أيّ فائدة، إذ ينبغي أن تُستعمل في مقام التفاهم ألفاظ مفهومة لدى الطرفين.

أجل، لا ينبغي أن ننسى ضرورة إرجاع الآيات المتشابهة إلى محكمات القرآن؛ فمن باب المثال، تعني الآية الشريفة: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[1] في ظاهرها أنّ الله تعالى أتى، وحضرت الملائكة صفًّا صفًّا؛ لكن، علينا أن ننتبه إلى أنّ مجيء الله تعالى ليس كمجيء الإنسان أو بقيّة الموجودات الجسمانيّة، بحيث يسعنا القول إنّ كلمة «جاء» استُعملت هنا بمعنى «ظَهَر»، مثلما نستخدم نحن أيضًا هذه الكلمة في غير معنى المجيء الجسمانيّ، ونقول مثلًا: «جاء شيء على بالي»؛ أي «ظهر لي شيء». ومن هنا، فإنّ المراد من عبارة «وَجاءَ رَبُّكَ» الواردة في الآية المبحوث عنها شيء يُشبه معنى الظهور؛ وبالنظر إلى هذه المسألة، بوسعنا القول إنّ معنى الآية أنّ الله تعالى يظهر للمخلوقات في يوم القيامة.

وعليه، فإنّ المراد من كلام الإمام السجّاد عليه السلام الذي يقول فيه: إنّ الله تعالى لا يتوقّع الجزاء من أيّ أحد أنّ مكافأته عزّ وجلّ مستحيلة من الأساس؛ وبحق، من الذي يُمكنه مجازاة الله تعالى؟ فكلّ شيء يمتلكه أيّ

---

(١) سورة الفجر، الآية ٢٢.

مخلوق هو من عطائه عزّ وجلّ. ولهذا، فإنّ هذا الأسلوب من الحديث مع الله تعالى ناشئ من قصورنا في التعبير.

٣. العطاء من دون حدود ولا ندم ولا استحقاق

نقرأ في هذه الفقرة من دعاء الوداع: «**يَا مَنْ [...] لَا يَنْدَمُ عَلَى الْعَطَاءِ**»؛ فنحن البشر قد نمنح لأحدهم شيئًا، لكنّنا نندم بعد ذلك، بسبب التفاتنا أحيانًا إلى أنّنا نحتاج إليه. ولكن من المسلّم أنّ هذا الأمر محال في حقّ الله؛ لأنّه تعالى لا يفتقر إلى أيّ شيء. كما أنّ ندمنا عن العطاء قد يكون أيضًا بسبب انتباهنا لاحقًا إلى أنّنا أخطأنا بإنعامنا على من لا يستحقّ؛ لكنّ الله تعالى لا يهب أيّ شيء لأيّ شخص، إلّا وفقًا للحكمة، بحيث إنّ كلّ فعل يقوم به يكون خاضعًا لأحسن حالة ممكنة؛ وبالتالي، لا معنى للندم بالنسبة إليه.

وجاء في فقرة أخرى: «**ويا مَنْ لا يُكافِئ عَبْدَهُ عَلَى السّواء**»؛ فالله تعالى يجزينا بمقتضى لطفه وكرمه على الأعمال الحسنة التي نُؤدّيها، لكنّ هذا الجزاء يفوق بأضعاف قيمة تلك الأعمال التي قمنا بها؛ وفي المقابل، إذا أذنب أحدهم، فإنّه تعالى لا يُعاقبه بأكثر من القيمة السلبيّة لهذا الذنب، حيث نقرأ في القرآن الكريم: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[1]، وجاء أيضًا في آية أخرى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾[2]، فإذا أنفق الإنسان مالًا في سبيل الله تعالى، فإنّ الله تعالى يجزيه بسبعمائة ضعف؛ هذا، مع أنّ ذلك لا يُمثّل غاية الجزاء، لأنّ الآية تقول

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾. فالباري عزّ وجلّ يزيد في أجر الذي يستحقّ أكثر بعدّة أضعاف، حيث بوسعنا القول إنّ هذه الزيادة تابعة لمعرفة الفاعل وإخلاصه.

ويقول الإمام عليه السلام في فقرة أخرى من هذا الدعاء: «**مِنَّتُكَ ابْتِدَاء**»؛ وكلمة «المنّة» تعني في اللغة الفارسيّة الامتنان على شخص، بينما تُستعمل في اللغة العربيّة في أربعة معان مختلفة. حيث يُراد منها في بعض الموارد الثقل؛ ولهذا، فإنّ «من تبريز»[1] وأمثال هذه العبارات التي تُستخدم في الوزن قد أخذت من العربيّة. وأمّا المعنى الثاني لكلمة «المنّ»، فهي النعمة الكبيرة جدًّا؛ ففي بعض الأحيان، نجد الحقّ تعالى يستعمل هذه الكلمة للإشارة إلى نعمة كبيرة وثقيلة، نظير ما جاء في الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[2]، في حين أنّه قال عن معظم النعم الأخرى: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾[3]؛ فالمراد إذًا من «المنّة» هنا النعمة العظيمة جدًّا. وأمّا المعنى الثالث لمادّة «المنّ»، فهو قطع الخير[4]؛ مثلما ورد عن بعض المفسّرين[5] في شرحهم للآية النورانيّة: ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[6]، فقالوا إنّ المراد من الأجر غير الممنون اللامتناهي وغير المقطوع. والمعنى الرابع لمفردة «المنّ» هو الامتنان؛ أي أن يقوم الإنسان بإيذاء آخر بسبب الخير الذي قدّمه

---

(١) المنّ التبريزي هو ستّ مئة وأربعون مثقالًا صيرفيًّا؛ كما صرّح به المحقق الهمداني في مصباح الفقيه. إبراهيم سليمان، **الأوزان والمقادير**، الصفحة ١٢٨. [المترجم]

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

(٣) سورة النساء، الآيتان ٦٩ و٧٢؛ سورة المائدة، الآية ٢٣؛ سورة مريم، الآية ٥٨؛ سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين**، ذيل مفردة «المنّ».

(٥) راجع: السيّد محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، الجزء ١٧، الصفحة ٣٦٢.

(٦) سورة فصّلت، الآية ٨؛ سورة القلم، الآية ٣؛ سورة الانشقاق، الآية ٢٥؛ سورة التين، الآية ٦.

إليه، ويتباهى به عليه، حيث نقرأ في كتاب الله العزيز: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[١].

قال زين العابدين عليه السلام في خطابه للرحيم الودود: «**مِنَّتُكَ ابْتِدَاء**»؛ وتعني هذه العبارة أنّ إنعام الله تعالى على عباده لا يرجع إلى استحقاقهم لذلك، بسبب أدائهم عملًا معيّنًا؛ بل إنّ الله تعالى يمنح نعمه لعباده، مع أنّهم لا يستوجبون أبدًا الحصول على هذه النعم. ومن باب المثال، فإنّ الباري عزّ وجلّ يمنّ بالوجود على الإنسان في الوقت الذي لا يكون فيه هذا الإنسان قد خرج إلى الدنيا بعدُ، حتّى يكون مستحقًّا لشيء؛ فهو تفضّل ابتدائيّ. هذا، وقد وردت المسألة ذاتها في بعض الأدعية الأخرى، نظير الدعاء الذي ورد في روايةٍ أنّ جبرائيل أتى به كهدية من الحقّ تعالى إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ووردت فيه عبارة الإمام السجّاد عليه السلام السابقة بالمضمون، وذلك بالنحو الآتي: «يَا مُبْتَدِئًا بِالنِّعَمِ قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا»[٢]. فكلام الإمام السجّاد عليه السلام الذي يُخاطب به الباري عزّ وجلّ بقوله: «**مِنَّتُكَ ابْتِدَاء**» يعني: «يا إلهي، إنّ النعم التي منحتني إيّاها لا ترجع إلى أنّني قمت بعمل؛ فصرت بذلك مستحقًّا لتلقّي إحسانك، بل إنّك تتفضّل على عبادك بمننك من دون أن يكونوا مستوجبين لها من قبلُ».

ونقرأ في فقرة أخرى من هذا الدعاء: «**وَعَفْوُكَ تَفَضُّل**»، حيث يُخاطب الإمام زين العابدين عليه السلام الباري تعالى بقوله: «ليس فقط أنّك تبتدئ العباد بالنعم، بل إنّك تعفو أحيانًا عن ذنوبهم حينما يعصونك

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

(٢) محمد بن عليّ بن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق)، **التوحيد**، الصفحة ٢٢٢.

ويكونون مستأهلين للعقاب، حيث إنّ عفوك هذا لا يرجع أيضًا إلى استحقاقهم، بل نابع من فضلك وكرمك».

٤. العطاء الإلهيّ منشأ الحقّ

وهنا، توجد مسألة دقيقة تتمثّل في أنّه: بناءً على ما ذكرناه إلى حدّ الآن، فإنّ الله تعالى يمنح عباده كلّ شيء ابتداءً ومن دون استحقاق منهم، بحيث إنّهم إمّا لم يكونوا موجودين من الأساس، فأفاض عليهم الباري عزّ وجلّ الوجود والحياة، أو أنّهم كانوا موجودين، لكنّهم لا يملكون أيّ حقّ على الله تعالى. لكن، من ناحية أخرى، نرى أنّ النصوص الدينيّة تحكي عن وجود حقّ للعباد على الله تعالى، مثل الذي ورد في القرآن الكريم: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]؛ فبحسب المعنى الظاهر للآية الكريمة، يملك المؤمنون حقًّا على الله تعالى في نصرتهم وإعانتهم. كما أنّه من المتعارف جدًّا في ثقافتنا الشيعيّة أن نقسم على الله تعالى بحقّ محمّد وآل محمّد عليهم السلام، عادّين هذا القسم أفضل سبب لاستجابة الدعاء، حيث يعني هذا المعتقد الحقيقيّ أنّ هناك حقًّا من هذا القبيل، وأنّ هذا الحقّ مقدّس وله قيمة عند الله تعالى، إلى درجة أنّه يقضي تعالى للناس حوائجهم عند القسم به؛ لكنّ السؤال هو: ما هو المراد من هذا الحقّ؟ ومن أيّ شيء نشأ؟

في فلسفة الحقوق، هناك مسألة معقّدة لها صلة بهذا السؤال، حيث يوجد معتقد سائد يقول إنّ الإنسان يتمتّع بمجموعة من الحقوق الطبيعيّة والأوّلية التي تُطرح تحت عنوان حقوق الإنسان، وتُقسّم إلى عدّة حقوق؛ كالحقّ في الحياة، والحقّ في الكرامة، وحقّ الملكيّة وغيرها.

---

(١) سورة الروم، الآية ٤٧.

لكنّ السؤال هو: ما هي طبيعة هذه الحقوق؟ وكيف يتمتّع الإنسان بها؟ وبعبارة أخرى: لماذا يتوجّب المحافظة على حرمة الإنسان، بحيث لا يجوز لأحد الإساءة إليه، ويحقّ له الدفاع عن نفسه في حالة الاعتداء، و ...؟ لقد أثار هذا البحث معركةً بين الآراء، كما طُرحت في هذا العصر العديدُ من الأبحاث على مستوى المنتديات الجامعيّة في العالم بشأن الجذور التي ينشأ منها الحقّ، لكن من دون التوصّل في النهاية إلى إجابة قاطعة ومقنعة، بحيث إنّ آخر ما توصّلوا إليه في هذا الخصوص هو أنّ هذه الحقوق ممّا تسالم عليه جميع الناس، أو أنّها عبارة عن عقد محض، ولا تمتلك أيّ أساس. هذا، وقد سعى البعض إلى القول إنّ الطبيعة هي التي تمنح هذه الحقوق للإنسان مستندين في ذلك إلى عبارة: الحقوق الطبيعيّة!

وأمّا في كلام أهل البيت عليهم السلام، لا سيّما في **نهج البلاغة**، فقد جرى التصريح بأنّ الله تعالى هو مصدر الحقّ؛ لأنّه المالك الحقيقيّ الوحيد لكلّ الوجود، وقد وضع بمقتضى الحكمة التي يعلمها هو حقًّا لكلّ موجود، وذلك في سبيل تحقّق النظام الأحسن، ولكيلا يُعاني عالم الوجود أيّ نقص أو عيب منسوب إلى الله تعالى. ومن هنا، إذا قيل: لا يملك أيّ أحد حقًّا على الله تعالى، فإنّ المراد من ذلك عدم امتلاك أيّ موجود من نفسه للحقّ على الله تعالى؛ وحينما يقول الله تعالى: للمؤمنين حقّ عليّ، فإنّ ذلك يعني أنّه هو الذي جعل لهم هذا الحقّ، لا أنّهم يمتلكون من أنفسهم حقًّا عليه تعالى.

نشاهد في هذا العصر رواج مسألة سخيفة في الدوائر الفلسفيّة، ويعتقد بها - للأسف - ثلّة من العلماء الكبار في العالم، بحيث إنّ هذه الفكرة تسرّبت - إلى حدّ ما - حتّى إلى بعض المفكّرين المعاصرين

في مجتمعنا. والفكرة هي: أن الإنسان عاش مرحلتين: الأولى هي مرحلة ما قبل الحداثة والتجديد، والثانية هي مرحلة ما بعد الحداثة والتجديد. في المرحلة الأولى، كان اهتمام الإنسان منصبًّا على التكليف؛ وحينما نُطالع الكتب الدينيّة أو الفلسفيّة في هذه الفترة، نرى أنّها تتحدّث بشكل كامل عن هذا الموضوع، وعن: ما هو التكليف الدينيّ أو العقليّ للإنسان؟ وما هي الأمور التي ينبغي عدّها حسنة؟ وما هي المسائل التي ينبغي اعتبارها سيّئة؟ فهذه هي السمة التي كان يتّصف بها عصر ما قبل الحداثة. وأمّا منذ عصر الحداثة فلاحقًا، فإنّ ماهية الإنسان قد تغيّرت بشكل جذريّ، واستُبدلت ماهيته المتمحورة حول التكليف بماهية حقوقيّة. فمنذ ذلك العصر فصاعدًا، لم يعد الإنسان يهتمّ بالتكليف، بل أصبح يُطالب بحقّه من الجميع، بل حتّى من الله تعالى أيضًا. وفي الحقيقة، فقد صار إنسان ما بعد الحداثة متمحورًا حول الحقّ، وبرزت هذه المحوريّة للحقّ بأشكال متعدّدة. فمن باب المثال، لم يعُد الطفل في العائلة يُفكّر في الأشياء التي يأمره بها والداه أو ينهياه عنها، بل أضحى هو الذي يأمرهما، ويُطالبهما بالامتثال لأوامره، فمتى ما تعلّق الطفل بشيء، يُصبح من اللازم تحقيقه له، بحيث يعدّ ذلك من حقوقه الشخصيّة؛ فتراه يعتقد بضرورة أن يُوفّر له الوالدان وسائل الراحة، وبأنّهما مقصّران إذا لم يفعلا ذلك، بل وقد يعمد إلى معاقبتهما إذا كانت له القدرة على ذلك. فهذه هي السمة التي تميّز بها إنسان ما بعد الحداثة. إنّ الإنسان الحداثيّ يُطالب بحقوقه من الجار والحكومة و ...، لكنّه لا يسعى للتعرّف على التكاليف التي تُقابل هذه الحقوق، بل وتراه يعمد إلى المطالبة بحقّه من الله تعالى، وليس في صدد فهم الأوامر الإلهيّة والعمل بها.

فهذه هي العبارات المشينة والبذيئة التي يستعملها - للأسف - العديد من علماء الاجتماع. ثمّ تجدهم يضيفون بأنّ عصر ما بعد الحداثة هو في بدايته فقط؛ وهي بحدّ ذاتها حكاية أخرى.

لكنّ الحقّ أنّ الفكر الدينيّ هو الوحيد الذي استطاع الجواب عن هذه المسألة، فبيّن جذور الحقّ، والمصدر الذي تنبع منه هذه الحقوق، وذلك بالاستعانة بمنطق قويّ. وممّا لا شكّ فيه أنّ أيّ فكر آخر لم يتمكّن إلى الآن من تقديم إجابة واضحة ومقنعة لهذه المسألة. فنحن نعتقد أنّ الله تعالى هو الذي يضع تلك الحقوق، وأنّ الإنسان لا يملك من نفسه أيّ حقّ. ومن باب المثال، فإنّ الله تعالى هو الذي عيّن حقًّا للإنسان بأن يُثيبه على طاعته؛ ومن هنا، إذا أطاع أحدُهم الله، فإنّه يصير مستحقًّا للثواب ودخول الجنّة بناءً على الحقّ الذي جعله تعالى له.

وهنا، يُطرح علينا سؤال دقيق مفاده أنّ الثواب الإلهيّ - سواء أ كان جنّة أم نعمة أخرى - عُدّ بأجمعه في كلام عظماء الأخلاق من باب التفضّل الإلهيّ، بحيث لا يملك أيّ أحد من العباد حقًّا على الله؛ فإذا منح تعالى أحدًا نعمةً ما، فإنّه لم يكن مجبورًا على ذلك؛ وإذا لم يمنحه، فلا أحد له الحقّ في المطالبة به. لكن، من جهة أخرى، نشاهد في النصوص الدينيّة وكلمات أهل العلوم العقليّة أنّ الله تعالى يفيض على كلّ شيء وكلّ أحد بمقدار استعداده، وأنّ هذا الاستعداد يستتبع حقًّا يكون هو الأساس في تلقّي الفيض من الله تعالى.

وينحلّ هذا الإشكال بالبيان الآتـي: إذا نظرنا إلى ذات الشيء، سنكتشف أنّه لا يملك أيّ حقّ. لكن، باعتبار أنّ الله تعالى خلق هذا الشيء لأجل هدف معيّن، فإنّه من اللازم أن يضع في متناوله الإمكانيات الضروريّة للوصول إلى هذا الهدف، وإلّا استتبع ذلك نقض الغرض. فإذا

كان الباري عزّ وجلّ قد خلق الإنسان لكي يسلك سبيل العبوديّة بإرادته الحرّة، فلا بدّ أن يمنحه الإرادة والحرّية والفهم والإدراك، حتّى يتسنّى له الاختيار. فمن حقّ العبد أن يهديه الله تعالى، لكن يبقى أنّ العبد ليس بنفسه هو مصدر هذا الحقّ، بل بما أنّ الله تعالى خلقه لأجل ذلك الهدف، فمن المحتّم أن يكون قد أعطاه هذا الحقّ، وإلا سيكون نقضًا للغرض.

وبهذا النحو أيضًا يُمكننا تفسير الحقوق الطبيعيّة؛ فبناءً على المسائل السابقة، بوسعنا القول: بما أنّ الله تعالى خلق الإنسان ليعيش على الأرض، ويُؤدّي تكاليفه، حتّى يصل إلى السعادة، فمن حقّ الإنسان أن يكون حيًّا؛ فهذه الحقيقة هي التي ينشأ منها حقّ الحياة. وأيضًا، بما أنّ الباري عزّ وجلّ أراد للإنسان أن يبقى على قيد الحياة، والإنسان يحتاج إلى الطعام لكي يبقى حيًّا، فمن حقّه أن يستفيد من الأطعمة التي توجد على الأرض، مثلما أنّه يحتاج أيضًا لشرب الماء، وإلّا سيموت عطشًا؛ ولهذا، فمن حقّه شرب الماء. وبهذه الطريقة تثبت حقوق الإنسان وفقًا للحكمة الإلهيّة البالغة.

وبالتالي، فإنّ الحقّ يصدر من الله تعالى؛ أي: بما أنّه تعالى أراد للإنسان أن يبلغ الكمال، فلا بدّ أن يُهيّئ له المقدّمات للوصول إلى هذا الهدف، وإلّا سيكون نقضًا للغرض؛ وهذا ممّا يتعارض مع الحكمة الإلهيّة. فمن باب المثال، إذا خلق الباري عزّ وجلّ مخلوقًا لكي يطير، لكنّه لم يمنحه جناحًا أو وسيلةً للطيران، فإنّه يكون في الحقيقة قد نقض غرضه. وأيضًا، إذا كان الهدف من خلق الإنسان هو إدراك الحقائق وتمييز السيّئ عن الحسن بواسطة العقل، لكنّه لم يجهّزه بالعقل، فإنّ ذلك سيكون مخالفًا للحكمة.

وهكذا نقول أيضًا فيما يخصّ العفو الإلهيّ؛ أي إذا نظرنا إلى ذات العاصي، فإنّه لا يملك أيّ حقّ على الله تعالى لكي يعفو عنه، ولو تاب؛ لكنّ الله تعالى هو الذي أراد بلطفه أن يبقى باب الرجوع مفتوحًا أمام هذا العبد؛ لأنّ رحمته سبقت غضبه، كما ورد في الأدعية الشريفة: «يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَه»[1]. ولهذا، مع استحقاق العبد للعقوبة بسبب ارتكابه للمعصية، إلّا أنّ لطف الله تعالى ورحمته الواسعة يُمهلانه، عساه يعود. ومن هنا، فإنّ رحمة الباري عزّ وجلّ سبقت غضبه، وليس أنّها فقط تُمهل العاصي لكي يؤوب، بل تُشجّعه أيضًا على التراجع عن طريق العصيان، وسلوك سبيل الغفران؛ وذلك من خلال التوبة. وعليه، فإنّ عفو الله تعالى تفضّلٌ؛ كما أشار الإمام السجّاد عليه السلام بقوله: **«عَفْوُكَ تَفَضُّل»**.

ومن هنا، فإنّ سبب قول البعض إنّ كافّة الأفعال الإلهيّة تفضّلٌ هو أنّ الإنسان لا يستحقّ أيّ شيء من ذاته. فكلام الذين يقولون بتوفّر الإنسان على حقّ جرّاء قيامه بفعل أو شرط عيّنه الله تعالى لا يصحّ، إلّا إذا كان يعني أنّ الله تعالى هو الذي عيّن له هذا الحقّ، وليس أنّه يملكه من نفسه.

٥. العقوبة الإلهيّة العادلة

ونقرأ في فقرة أخرى من هذا الدعاء: **«وَعُقُوبَتُكَ عَدْلٌ»**. فرحمة الله تعالى تقتضي إمهال العبد العاصي؛ عساه يتراجع، ويسلك الطريق السويّ، ويصير مستحقًّا للرحمة وقبول التوبة. فبناءً على مبدأ «سبق رحمة الله لغضبه»، فإنّه تعالى يفتح باب المغفرة لعبده ما دام لم

---

(١) محمد بن محمد بن النعمان العكبريّ البغداديّ (الشيخ المفيد)، **كتاب المزار: مناسك المزار**، الصفحة ١٦١.

يتعارض ذلك مع الحكمة. لكن، قد يصل الأمر إلى حدّ، بحيث يستلزم هذا العفو عدم وجود أيّ فارق بين المؤمن والكافر، وفي هذا الحالة، إذا عفا الله تعالى على الناس، فلن يبقى لهم أيّ دافع لفعل الخير. ولهذا، فإنّ العقوبة الإلهيّة تكون هنا عين العدل.

وتُمثّل هذه المسألة بحدّ ذاتها دليلًا على إثبات المعاد. فأحيانًا، قد يرتكب أحدهم الآلاف من الجرائم، بحيث لا يتّسع هذا العالم للمعاقبة عليها؛ وبما أنّ الله تعالى فرّق بمقتضى حكمته بين المؤمن والكافر، وكذلك بين المؤمن والفاسق، فلا بدّ أن يكون هناك عالم آخر تتحقّق فيه العقوبة العادلة. ولا يخفى أنّه قد يُنزل الله تعالى على العصاة في هذا العالم بعض العقوبات المؤقّتة، والتي تخضع بدورها لحكمة خاصّة، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1]، حيث تُصرّح هذه الآية الكريمة بأنّ المصائب التي تُواجه الإنسان العاصي ما هي إلّا ثمرة لأفعاله المشينة، في حين أنّ الحقّ تعالى يقول: «إنّنا نعفو عن العديد من هذه المعاصي». هذا، ونقرأ في آية آخرى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[2]، ففي هذه الآية الكريمة، يُشير الباري عزّ وجلّ إلى أنّ الفساد الذي يحصل في الأرض سببُه أفعال الإنسان، ويقول: «إنّنا نذيق العصاةَ العذابَ على بعض الأعمال السيّئة التي ارتكبوها في هذه الدنيا لبلوغ هدفَين اثنَين: الأوّل، حتّى يطّلعوا ولو بمقدار معيّن على نتيجة أعمالهم في هذا العالم؛ والثاني، أنّ هذا العقاب وسيلة ليقظة العصاة، عساهم يتراجعون عن مسيرتهم الخاطئة».

---

(١) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(٢) سورة الروم، الآية ٤١.

ولا يخفى أنّ الهدف الثاني يتعلّق بالعقوبات التي لا يكون العذاب فيها عذاب استئصال[١].

وعلى أيّ تقدير، لا يُعدّ العذاب الدنيويّ نتيجةً رئيسيّة للعمل، فالثواب والعقاب الرئيسيّين يتحقّقان في الآخرة. غاية الأمر أنّ قسمًا منهما يظهر في هذه الدنيا لبعض الحكم الخاصّة، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢]. وفي الحقيقة، فإنّ العذاب الذي ينصبّ على بعض المجرمين ما هو إلّا نفحة من العذاب الذي يستحقّونه، وأمّا عذابهم الأكبر، فسيحصل في عالم الآخرة. وخلاصة القول إنّ كلًّا من العذاب الدنيويّ المحدود والعذاب الأخرويّ الأبديّ يتحقّق على أساس العدل.

٦. نتائج أبديّة لأعمال مؤقّتة

إذا قلنا إنّ الله تعالى عادل، فلماذا يُحرق بالنار إلى الأبد إنسانًا ارتكب معصية لمدّة ساعة واحدة مثلًا؛ مع أنّ عدالته تقتضي مقابلة ساعة واحدة من العصيان بساعة واحدة من العذاب؟

من خلال الاستناد إلى كلام الله تعالى في قرآنه المجيد، يُمكننا أن نجيب إجمالًا عن هذا السؤال بالنحو الآتي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾[٣]، وجاء في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤]، فكلّ ما يتحقّق في عالم الآخرة عبارة عن صورة لما حدث في هذا العالم؛

---

(١) عذاب الاستئصال هو العذاب الذي يُفضي إلى الهلاك والموت، ويُبيد العصاة تمامًا.

(٢) سورة السجدة، الآية ٢١.

(٣) سورة يونس، الآية ٤٤.

(٤) سورة الطور، الآية ١٦؛ سورة التحريم، الآية ٧.

أي إنّ كلّ حادثة تقع في الدنيا تصير أبديّةً في الآخرة، وذلك بسبب الارتباط القائم بين هذين العالمين. ومن باب المثال، إذا تجرّع أحدهم سمًّا قاتلًا، فإنّه سيموت في الحال، ولا يُمكنه أن يقول: «لقد تحقّق فعلي في لحظة واحدة، فلماذا ينبغي أن أموت، وأرحل عن هذه الدنيا إلى الأبد؟». وعليه، من الممكن أن يكون فعل مؤقّت سببًا لبروز نتائج طويلة الأمد؛ كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾[1]، فإذا تسبّب الإنسان في الدنيا في عماء عينه الباطنيّة، فإنّه سيُحشر أعمى يوم القيامة، وحينما سيسأل: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[2]، فإنّهم سيجيبونه بالقول: «لقد وفّرنا لك أسباب الهداية، لكنّك تغافلت عنها، ونسيتها، وأغمضت عينيك في مقابلها؛ ولأنّك أغمضت بنفسك عينيك عن هذه الحقائق، وتجاهلتها عمدًا، فإنّك لا تراها الآن». وفي الحقيقة، فإنّ الله تعالى لا يحشر أيّ أحد أعمى ظلمًا وعدوانًا، لكنّه يُعلِم كافّة الناس بأنّ حصيلة التغاضي العمديّ عن الحقائق هي العمى، وأنّهم سيظلّون عميانًا إلى الأبد. ومن هنا، مع أنّ الأعمال التي نُؤدّيها خاضعة لزمن محدود، إلّا أنّها تكون سببًا للحصول على نتائج خالدة؛ فمن الممكن أن يتحقّق السبب في لحظة قصيرة، إلّا أنّ نتيجته قد تكون طويلة الأمد. وعليه، فإنّ الله تعالى لا يظلم أحدًا، بحيث إنّ عقابه يكون عين العدل؛ ولو كان أبديًّا.

---

(١) سورة طه، الآية ١٢٤.

(٢) سورة طه، الآية ١٢٥.



الفصل الثاني: القضاء والقدر والنظام الأحسن

«وَقَضَاؤُكَ خِيَرَةٌ»: وقضاؤك وقدرك أفضل خيار.

١. مسألة القضاء والقدر

في هذه الفقرة، يُخاطب الإمام زين العابدين عليه السلام الباري تعالى بقوله: «إلهي، إنّك تصطفي في قضائك الخيار الأفضل». وقد يكون في هذه الجملة نوع من الغموض، كما أنّ البحث عنها عميق، وقليلًا ما تمّ التطرّق إليه أيضًا. ولهذا، يتحتّم علينا التوقّف عند هذه العبارة قليلًا، حيث بوسعنا استعراض الغموض الذي يلفّ هذه المسألة في قالب الأسئلة التالية: ما هو المراد من القضاء الإلهيّ؟ ما هو المدى الذي تبلغه دائرة القضاء الإلهيّ؟ ما هو نوع العلاقة القائمة بين القضاء والأفعال الإنسانيّة؟ هل يتعارض القضاء الإلهيّ مع الاختيار الإنسانيّ؟

يستمدّ مفهوم القضاء والقدر - بهذا الشكل المطروح في أبحاثنا - جذوره من ثقافتنا الدينيّة، وهو في الأصل من المفاهيم الدينيّة، حتّى أنّه لم يكن مطروحًا في الأدبيّات الفلسفيّة بهذا النحو. فالأنبياء هم الذين تحدّثوا عن هذه العبارة، كما وردت أيضًا في الكتب السماويّة، ثمّ

عمد أهل العلوم العقليّة بعد ذلك إلى تفسيرها. ففي الآداب الفارسيّة، تُستعمل كلمتا «القضاء» و«القدر» عادةً ككلمتين مترادفتين، وأحيانًا، يجري الحديث عن «القضاء» و«البلاء» في الوقت ذاته، كما نقول مثلًا: «الصدقة تدفع القضاء والبلاء»، لأنّنا عرفنا بالتجربة أن بعض القضاءات تُلحق الضرر بالإنسان، وتتسبّب في حوادث مؤلمة. وعلى أيّ تقدير، يُمكننا أن نقول بشكل قطعيّ إنّ القضاء مفهوم معقّد.

يقول الحقّ تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]؛ إلّا أنّ هذه الآية لا تحدد هل أنّ القضاء الإلهيّ يشمل كلّ شيء، وهل أنّ شؤون الإنسان الاختياريّة مجرى للقضاء والقدر أيضًا أم لا. وعلى العكس من هذه الآية، فقد جرى التصريح في بعض الآيات والروايات الأخرى بأنّ القدر - خصوصًا - شامل لكافّة الأشياء؛ نظير الآية النورانيّة التي يقول فيها الباري عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[2]؛ وفي هذه الحالة، يُطرح علينا التساؤل الآتي: هل يشمل «الشيء» حتّى أفعالنا أم لا؟ ويُشير ظاهر الآية الكريمة إلى أنّ هذه الأمور مشمولة بدورها بالقدر الإلهيّ، وأنّ الله تعالى قد جعل لكلّ شيء تقديرًا خاصًّا؛ مثل ما ورد في آية أخرى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾[3]، إذ إنّ لفظة «مقدار» تُستعمل أحيانًا في معنى القدر، كما جاء في المناجاة الشعبانيّة: «وَقَدْ جَرَتْ مَقَادِيرُكَ عَلَيَّ يَا سَيِّدِي»[4]، حيث يُراد من المقدار هنا التقدير.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١١٧؛ سورة آل عمران، الآية ٤٧؛ سورة مريم، الآية ٣٥؛ سورة غافر، الآية ٦٨.

(٢) سورة القمر، الآية ٤٩.

(٣) سورة الرعد، الآية ٨.

(٤) السيّد بن طاووس، **إقبال الأعمال**، الجزء ٢، الصفحة ٦٨٦.

٢. حكمة بيان مسألة القضاء والقدر

في هذا البحث، يُواجهنا تساؤل آخر مفاده: لماذا لجأت الأديان الإلهيّة إلى طرح هذا النوع من التعبيرات التي تجلب الأسئلة للناس، وتوقعهم في الغموض، بل وقد تكون لها أحيانًا بعض الإيحاءات السلبيّة؟

ونجيب إجمالًا عن هذا السؤال بأنّ الحكمة من بيان مسألة القضاء والقدر هو الارتقاء بمعرفة الإنسان بالله تعالى وصفاته وأفعاله، لأنّ السعادة الحقيقيّة لا تحصل إلّا في ظلّ التقرّب إليه تعالى. وهذا التقرّب لا يتحقّق من دون معرفة؛ فكلّما ازدادت معرفة الإنسان بربّه، صارت عبادته له أفضل، وقربه منه أكبر. ولهذا، فإنّ أحد الأهداف الكبرى التي يصبو إليها الأنبياء هو منح الإنسان معرفةً صحيحةً بالباري عزّ وجلّ، وكذلك بصفاته وأفعاله.

تُعدّ مسألة التوحيد أهمّ مسألة معرفيّة، كما أنّ بيانها وإثباتها أعظم الأهداف النبويّة، حيث تضمّ هذه المسألة كلًّا من التوحيد في الذات، والتوحيد في الصفات، والتوحيد في الأفعال. وفيما يخصّ الذات والصفات، نحن على ثقة بأنّنا لا نستطيع إدراك كنهها، ولسنا نحن فقط، بل كلّ مخلوق هو كذلك؛ فلا طمع لنا في هذا الأمر. وأحيانًا، قد يبدو لنا أنّنا تمكّنا من الحصول على معرفة بالذات؛ لكن، حينما نتأمّل في هذه الموارد، نجد أنّ متعلّق معرفتنا هو الصفات الإلهيّة؛ وحينما نصل إلى هذه الصفات، نجد أيضًا أنّ كنهها خارج عن متناول أيدينا؛ اللهمّ إلّا بالنسبة إلى بعض الأنبياء والأولياء الإلهيّين الذين تمكّنوا من إدراك أو شهود مراتب منها، وأمّا الإنسان العادي، فإنّ هذه المعرفة متعذّرة بالنسبة إليه.

فمن باب المثال، إدراكنا لعلم الله تعالى هو بنحوٍ نعتقد معه أنّ هذا العلم يُشبه علمنا نحن؛ كمسألة - مثلًا - أنّنا لا نستطيع الاطّلاع على وجود شيء لم يتحقّق بعدُ، اللهمّ إلّا أن نكتشف عن طريق الأسباب والعلل أنّ هذا الشيء سيتحقّق في المستقبل؛ ففي هكذا موارد، ينبغي أن نكون قد اطّلعنا سابقًا على بعض المصاديق والنماذج التي نحكم على أساسها بأنّ تلك الحادثة ستتحقّق لاحقًا بواسطة مجموعة من الأسباب والعلل الخاصّة. لكن، حينما نسمع أنّ الله تعالى عالم قبل خلق العالم بجميع ما سيوجد، وبمقدار عمره، وبآثاره وعاقبة أفعاله، فإنّ استيعاب هذا الأمر سيصعب علينا كثيرًا؛ لا سيّما إذا أضفنا إلى ذلك أنّ صفات الله تعالى غير زائدة على ذاته. ومن هنا، فإنّنا غالبًا ما نحفظ هذه المعارف - المتمثّلة في أنّ لله تعالى صفات كالعلم والقدرة والحياة، وأنّ هذه الصفات عين ذاته، وأنّ ذات الحقّ لا تتوفّر على شيء زائد - على شكل معادلات؛ وفي الأخير، وبعد الخوض في أبحاث طويلة جدًّا وتخصّصية، نعترف بالعجز عن معرفة كنه حتّى الصفات الإلهيّة.

وكذلك الشأن بالنسبة للأفعال الإلهيّة، حيث قد يبدو لنا لأوّل وهلة أنّنا نُدركها جيّدًا؛ فنظنّ مثلًا أنّنا تمكّنا من التعرّف على حقيقة رزّاقية الله تعالى. لكن، حينما نُدقّق النظر، نكتشف أنّنا عاجزون عن إدراك حتّى هذه الأفعال الإلهيّة. فنبيّ الله إبراهيم عليه السلام هو أحد أعاظم الأنبياء، وحاز على مقامات رفيعة، وتمكّن من بلوغ مقامَي الإمامة والخلّة، علاوةً على امتلاكه للنبوّة والرسالة، إلّا أنّ أحد طلباته لله تعالى كانت بالنحو الآتي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ

بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[١][٢]؛ فهنا، يطلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى أن يُطلعه على كيفيّة إحياء الموتى، ونرى أنّه عليه السلام لم يتعرّف على كنه هذا الفعل، وطلب من الباري عزّ وجلّ أن يكشف له عن هذه الحقيقة، مع كلّ تلك المقامات التي كان يمتلكها. هذا، وقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «وَمَا عَرَفناك حقَّ معرِفَتِكَ»؛ ولعلّ المراد من هذه الرواية أنّنا لا نستطيع أن نعرفك كما تعرف أنت نفسك.

٣. حكمة نزول الآيات المتشابهة

بعث الله تعالى الأنبياء والكتب السماويّة والأولياء في سبيل تنمية معرفة الإنسان؛ لكنّ السؤال المطروح هو: هل من الممكن بيان كافّة هذه المعارف الراقية عن طريق الرسل والكتب السماويّة؟ فكما أسلفنا الذكر، حتّى الباري تعالى حينما يُريد أن يُبيّن حقيقةً ما، فإنّه يستعمل مفاهيم وألفاظًا مفهومة بالنسبة إلينا، حتّى يتسنّى لنا استيعابها. لكنّ المشكلة أنّه يتعذّر عرض هذه الحقائق كما يعلم بها الله تعالى، ولا يخفى أنّه ليس المراد من ذلك عجزه تعالى عن هذا الفعل، بل المراد منه أنّ هذا الأمر متعذّر من الأساس. ومن هنا، فقد نزلت الآيات المتشابهة من باب الضرورة؛ لكي يتمكّن كلّ واحد من فهمها بما يتناسب ومستواه المعرفيّ، لأنّ قابليّات الناس على الفهم مختلفة جدًّا.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

(٢) لا شكّ في أنّ طلب إبراهيم عليه السلام إحياء الموتى كان قبل نيله مرتبة الإمامة بسنين؛ لأنّ هذا الطلب ترافق في الروايات مع حادثة إراءته للملكوت، وهي حصلت قبل بلوغه لمرتبة الإمامة؛ راجع: **تفسير الصافي**، الجزء ١، الصفحة ٢٩٣. [المترجم]

ونحن نجد مثل هذا الأسلوب في العلوم الأخرى أيضًا، كالرياضيّات مثلًا، إذ لا يستطيع المعلّم في المراحل الابتدائيّة للتعليم أن يُلقّن التلميذ ذا الستّ أو السبع سنوات مبادئ الرياضيّات العالية، بحيث إنّ مسائل من قبيل الاشتقاق والتكامل تخرج تمامًا عن دائرة تصوّر الطفل الذي لم يطّلع بعدُ على قوانين الجمع والطرح؛ لكنّنا نجد أنّ هذا الطفل بعينه متى ما تعلّم المسائل الأساسيّة، وصار أكثر حنكةً، ونما استعداده، فإنّ قدرته على استيعاب المفاهيم المعقّدة تزيد؛ وحينئذ، يتمكّن من إدراك هذه المفاهيم بنحو أفضل قليلًا. وفي المقابل، نجد أنّ طبقة النخبة والمبرّزين في هذا العلم لهم القدرة على إدراك مفاهيم دقيقة ولطيفة جدًّا يعجز غالبيّة الناس تمامًا حتّى عن تصوّرها.

فباعتبار هذا التنوّع في مستوى استعداد الناس، والفارق في القدرة على الاستيعاب لديهم، لا بدّ أن يُصاغ البرنامج والمنهج التربويّين بنحو لا يُؤدّي إلى تلقّي ذوي الاستعدادات الدانية تعاليم سيّئة، ويُمهّد الأرضيّة لأصحاب الاستعدادات العالية لكي يستفيدوا أكثر؛ وبشكلّ عامّ، ينبغي أن يتمكّن كلّ واحد من الاستفادة بما يتناسب ومستوى قابليّته؛ وهذا من الفنون التعليميّة والتربويّة العظيمة التي تبنّتها المعارف السماويّة، ولا سيّما القرآنيّة، والمتمثّلة في تعليم الناس بحسب درجات استعدادهم المختلفة. فأحيانًا، نجد أنّ بعض الألفاظ قد بُيّنت في القرآن الكريم، بحيث يفهم منها كلّ واحد معنى يتناسب مع مستوى إدراكه؛ وبما أنّه من الممكن وقوع البعض في الخطأ، فقد تمّ الاحتراز عن هذه الأخطاء من خلال اللجوء إلى طريق آخر، واستعراض مجموعة من الآيات المحكمة.. يقول الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ

ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[١].

إذًا، تتمثّل وظيفة الآيات المتشابهة - أساسًا - في بيان المسائل التي لا يتسنّى لكافّة الناس فهمها بمستوى واحد، بنحوٍ يصير كلّ واحد قادرًا على إدراك مستوى معيّن من هذه المستويات. وقد تطرّقت العديد من الروايات إلى بيان حقيقة أنّ للقرآن ظاهرًا وباطنًا[٢].

وقد استُعمل هذا المنهج في كلمات الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام أيضًا. ولهذا، نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يُجيبون مستفهمين مختلفين عن سؤال واحد بأنحاء مختلفة. ومن بين هذه المسائل نُشير إلى مسألة القضاء والقدر، حيث ورد عنها في **نهج البلاغة**: «بَحْرٌ عَمِيقٌ فَلَا تَلِجُوه»[٣]؛ هذا، مع أنّنا نرى في الروايات أنّ أهل البيت عليهم السلام ذكروا لأصحابهم بعض التفسيرات لهذه المسألة. ولعلّ الاختلاف في الجواب يرجع إلى أنّ استعداد البعض كان ضعيفًا جدًّا، فأمروه بعدم الخوض في تلك المسألة، بينما كان البعض الآخر يتّصف بقابليّة أكبر، فبُيّنت له المسألة بنحو بسيط، وكان بعض ثالثٌ ذا استعداد يفوق الطائفتَين السابقتَين، فبُيّنت له مسائل دقيقة جدًّا يعجز عن فهمها حتّى بعض العلماء.

٤. التعليم التدريجيّ للتوحيد الأفعالي

تتوفّر مسألة التوحيد الأفعالي على مستويات ومراتب متعدّدة؛ فبحسب ما يتصوّره عامّة الناس، لا يكون الله تعالى هو مصدر تحقّق جميع

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

(٢) راجع: محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٤، الصفحة ٥٤٩.

(٣) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، الحكمة ٢٨٧.

الأفعال، بل إنّ بعضها فقط هو الذي يكون من فعله، بينما البعض الآخر يتحقّق بواسطة الناس، أو بواسطة الطبيعة، حيث تحكي حواراتنا العامّة عن هذا التصوّر بعينه. بينما نجد البيانات القرآنيّة تختلف مع هذا الفهم العامّ. ففي القرآن الكريم، ينسب الباري عزّ وجلّ أحد الأفعال تارةً إلى نفسه، وتارةً أخرى إلى المخلوقات. ومن باب المثال، فإنّه يقول من جهة إنّ الشمس تشعّ، والسحاب يُمطر، والمطر يُنبت الشجر على الأرض، ومن جهة أخرى، يقول: «أنا الذي أؤدّي هذه الأفعال». كما أنّ هناك العديد من الأفعال التي نعلم بأنّ الناس هم الذين يقومون بها، لكنّنا نجد أنّ الله تعالى ينسبها إلى ذاته.

لو تتذكّرون، ففي زمان الدفاع المقدّس، قال القائد الراحل الإمام الخمينيّ قدس سره: «خرّمشهر حرّرها الله تعالى»؛ هذا، مع أنّنا كنّا على علم قطعي ويقيني بالمشقّات العظيمة التي تحمّلها المجاهدون، والتضحياتٍ الجسيمة التي قدّموها، والمواقف الشجاعة التي اتّخذوها حتّى تحرّرت خرّمشهر؛ فلم يكن الأمر أن نام الناس ليلًا، واستيقظوا صباحًا، فرأوا في الصباح أنّ هذه المدينة قد انعتقت، ثمّ قالوا بعد ذلك: «خرّمشهر حرّرها الله تعالى»؛ لكنّ القائد الراحل قال بكلّ جدّية: «خرّمشهر حرّرها الله تعالى». وقد اعتقد البعض أنّه نطق بعبارة تتضمّن اسم الله تعالى من باب المجاملات العادية والمتعارفة؛ نظير قولنا: «جزاكم الله خيرًا!» أو «بارك الله تعالى لك في رزقك!» أو...؛ وأنا أعرف أحدهم كان ماركسيًّا وملحدًا، لكنّه حينما كان يريد أن يفترق عنّا، فإنّه كان يقول: «في أمان الله!»؛ فهو في الحقيقة كان غير معتقد بوجود الله تعالى، لكنّه كان يتلفّظ بهذه العبارة من باب المجاملة. لقد ظنّ البعض أنّ كلام القائد الراحل قدس سره كان من قبيل هذه المجاملات، وأمّا الذين كانت لهم معرفة به، فقد كانوا يعلمون أنّه لا يُجامل أيّ أحد، وأنّه كان يعتقد حقيقةً أنّ

الله تعالى هو الذي حرّر خرّمشهر. وفي الحقيقة، فإنّ هذا الكلام لا يعني أنّه كان غير عالم بالتضحيات الجسيمة التي قدّمها المجاهدون في سبيل تحرير خرّمشهر، بل هو كان مطّلعًا تمامًا على كيفيّة فداء شباب هذا البلد المؤمن والملتزم بروحه وماله في سبيل خلق هذه الملحمة، إلّا أنّه كان يعلم أيضًا أنّ فوق إرادة المجاهدين وفاعليّتهم هناك نوع آخر من الفاعليّة أكثر علوًّا وأشدّ عمقًا وتأثيرًا؛ يتمثّل بإرادة الله تعالى وفعله. فهذه الفاعليّة من نوع آخر، وهي أرقى من الأشياء التي نتعامل معها في حواراتنا؛ فنحن البشر نظنّ أنّ الذي يقوم بالفعل إمّا الله تعالى وإمّا نحن، لكنّ القرآن الكريم يقول: «إنّ ذلك الفعل الذي تُؤدّيه أنت يُؤدّيه الله تعالى أيضًا، أي إنّه فعلك أنت وفعل الله تعالى في الوقت ذاته من دون أن يكون بينهما أيّ تعارض». فمن منظور القرآن، يكون فعلٌ واحدٌ مخلوقًا لله تعالى وللإنسان، ومن آثارهما معًا بكلّ ما للكلمة من معنى. ولهذا، فإنّ الله تعالى يُثيب الإنسان أو يُعاقبه، دون وجود أيّ تعارض في البين، لأنّ لدينا هنا مستويَين من الفاعليّة؛ وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]، ونجد في هذه الآية الكريمة أنّ الفاعليّة نُسبت في «ما تعملون» إلى الله تعالى، وكذلك إلى الإنسان، لكن في مستوى آخر.

فالباري عزّ وجلّ يُريد أن يربّي الإنسان، بنحو يصير بالتدريج مستعدًّا لفهم هذه الحقيقة. ولهذا، فقد أخذ بالاعتبار مجموعةً من المراحل: ففي البداية، نجده يلفت النظر إلى حقيقة أنّه تعالى مطّلع على جميع أعمال الإنسان، الذي لا ينبغي له أن يعتقد أنّ الأفعال التي يُؤدّيها خُفْيَةً تبقى مخفيةً عن الله، لأنّه تعالى عالم بخطرات الصدور؛

---

(١) سورة الصافّات، الآية ٩٦.

فضلًا عن علمه بأفعالنا نحن البشر: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[١]. فهذه هي الخطوة الأولى في التربية الإلهيّة للإنسان، حيث يُريد الباري عزّ وجلّ أن يربّيه، لكي يفهم بالتدريج أنّ الاعتقاد بكونه تعالى مستقرًّا في أعلى السموات، ولا علم له بالأماكن الأخرى هو اعتقاد خاطئ. فقد كان البعض يظنّ أنّ الله خلق هذا العالم وتركه لحاله، نظير من صنع ساعةً وعبّأها، ثمّ تركها تعمل لحالها، بحيث لم تعُد هذه الساعة بحاجة إلى ذلك الصانع. وبحسب كلام الله تعالى في كتابه المجيد، فإنّ هذه الظنون باطلة ولا حظّ لها من الواقعيّة، لأنّ الموجودات قاطبةً تحتاج في كلّ لحظة إلى الفعل الإلهيّ، بل إنّه تعالى مطّلع على كافّة الأشياء، ولا يخفى عليه أيّ شيء.

في المرحلة الثانية، نجد أنّ كلام الله يتّصف بعمق أكثر إلى حدّ ما، حيث يقول تعالى: «كلّ فعل تُؤدّونه خاضع لإذني؛ فلا يُمكن القيام بأيّ شيء في العالم من دون إذني». ولا يخفى أنّ فهم هذه الحقيقة والاعتراف بها والإيمان بها هو أمر يتّصف بالصعوبة نوعًا ما؛ فكلّ واحد يفهمها ويُفسّرها بما يتناسب وسعة إدراكه. فقد يُتصوّر بدايةً أنّ الله تعالى جهّزنا بمجموعة من الأسباب كالأيدي والأرجل من أجل القيام بالأفعال، بحيث يكون ذلك هو المراد من أنّ جميع الأفعال تتمّ بواسطة إذن الله تعالى. لكن، إذا وسّعنا قليلًا من دراستنا للآيات الكريمة، فإنّنا سنكتشف بأنّ هذا الإذن لا يختصّ بالأسباب: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٢]؛ فليس فقط حياة المخلوقات تكون بإذن الله تعالى، وإنّما موتها أيضًا يكون بيده عزّ وجلّ. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا

(١) سورة الحديد، الآية ٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٥.

كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١]؛ إذ يكفي أن يترك الله تعالى الإنسان لحاله، أو يسلب منه التوفيق أو قدرة التعقّل، حتى يضحي غير مؤمن. فبهذه البيانات، نقترب أكثر من حقيقة أنّ حضور الله تعالى يفوق كثيرًا ما كنّا نتصوّره. وفيما يخصّ مشيئتنا نحن بني الإنسان، ورد في الكتاب العزيز: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢]؛ بمعنى أنّ مشيئتنا لا تتحقّق من دون مشيئة الحقّ. وفي الحقيقة، فإنّه تعالى يريد أن يقول في كتابه المجيد: «إذا لم يشأ الله تعالى، فلن تكون لكم أيّة مشيئة من الأساس، لكي تقولوا: «نحن نريد أو لا نريد القيام بالفعل الفلاني»». فالله هو الذي منحنا حتّى هذه المشيئة؛ ولولا مشيئته تعالى، لما كان لدينا أيّ شيء. وعندما يتعرّف الإنسان على هذه المقدّمات، سيُؤمن تدريجيًا بأنّه: حتّى الأفعال التي يُؤدّيها مباشرةً تقع تحت إذن الله تعالى ومشيئته وإرادته. وبالتالي، سيعتقد بأنّ كافّة الأحداث تقع في دائرة علم الله تعالى، وفضلًا عن ذلك، فإنّها تتحقّق بأجمعها بإذنه ومشيئته. فلولا مشيئة الله تعالى، لما تحقّقت أبدًا؛ أي ينبغي أن يأذن الله تعالى، لكي تقع هذه الأحداث. وفي الحقيقة، لا يُمكن لأيّ أحد أن يتصرّف في ملك الله تعالى دون إذنه.

إنّ الهدف من بيان هذه المعارف هو الوصول إلى التوحيد، وتربية أناس موحّدين، غير أنّ ذلك لا يعني سلب الإرادة من الإنسان وتحمّله للمسؤوليّة؛ أي إنّ كلّ واحد مسؤول عن أفعاله. وهنا تظهر الصعوبة في الجمع بين هذين النوعَين من المعرفة. ولهذا السبب، فقد بيّن الباري عزّ وجلّ هذه المعارف تدريجيًا وبمستويات مختلفة. أجل، يبقى أنّه من

---

(١) سورة يونس، الآية ١٠٠.

(٢) سورة الإنسان، الآية ٣٠؛ سورة التكوير، الآية ٢٩.

المتعذّر علينا نحن إدراك كنه فاعليّة الله الحقيقيّة، بالنظر إلى المستوى الذي نتوفّر عليه من العقل والذهن؛ اللهمّ إلّا أن يُطلعنا تعالى بنفسه على هذه المسألة من طريق آخر. إذ لا ينبغي علينا أن ننسى أنّه متى ما كان العبد شاكرًا في مقابل الهداية الإلهيّة، فإنّ الحقّ تعالى سيرفع من مستواه الإدراكيّ بالتدريج، ويكشف له عن أشياء أخرى مختلفة عن تلك الحاصلة من الفهم والعلم الحصوليّين، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، حيث تدلّ هذه الآية بظاهرها على أن نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بلغ مقامًا بحيث صار أهلًا لرؤية عالم الملكوت، أو قسم منه؛ وقد كانت هذه المشاهدة بنحوٍ صار عليه السلام بعدها حائزًا على اليقين، ليتمكّن بذلك من بلوغ مقام اليقين، كما جاء في الكتاب المجيد: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[1]. هذا، ونستنتج من بعض الآيات والروايات أنّ الوصول إلى مراتب من مقام رؤية الملكوت مُتاح لغير الأنبياء عليهم السلام أيضًا، بل وقطعيّ بالنسبة للأئمّة عليهم السلام. ولا يخفى أنّه يُمكن حتّى لتلامذة مدرسة أهل البيت عليهم السلام بلوغ بعض هذه المراتب.

٥. الفارق بين القضاء والقدر

في هذا المقام، يُطرح علينا تساؤل بالنحو الآتي: لماذا تحدّث الله تعالى من الأساس عن مسألة القضاء والقدر، والتي قد توحي لبعض الأفراد بتعاليم سيّئة، ويفهموا منها الجبر. وبوسعنا أن نقول في الجواب: من بين الأهداف المنشودة لطرح هذه المسألة تعليمُ التوحيد الأفعاليّ، حيث نجد الباري عزّ وجلّ قد بدأ بالعلم، ثمّ تحدّث بعد ذلك عن الإذن

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٧٥.

والمشيئة، ليصل في الأخير إلى بيان حقيقة أنّه بذاته المهندس للعالم (التقدير). فالمراد من التقدير أنّ الله تعالى هندس العالم، وخلقه وفقًا لتصميم معيّن، مثلما أنّ المهندس حينما يُريد تشييد بناية، فإنّه يُعدّ في البداية تصميمًا لها، يقول الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام: «هِيَ الهندَسَةُ»[1]. ومن هنا، فإنّ المراد من القدر أنّ الله تعالى جعل تقديرًا للعالَم.

وحينما يريد المهندس أن يُشيّد بناية، فإنّه يُجسّم في ذهنه صورةً عن هذه البناية، ويعقد العزم في نفسه على إنشاء بناء مطابق لتلك الصورة، وبعد ذلك يرسم تصميمًا لهذا البناء، ويُهيّئ المقدّمات والأسباب اللازمة لتشييده؛ فيُحدّد مثلًا حاجة البناية إلى أرض مربّعة أو مستطيلة أو دائريّة الشكل، ويُعيّن مواد البناء اللازم تهيئتها... فهذه هي المهام الملقاة على عاتق مهندس البناء. لكن، بعد ذلك، فإنّ هذا المهندس يُوظّف بنّاءً أو معماريًّا، ويضع في متناوله التصميم والمواد، ويطلب منه أن يُنشئ البناية وفقًا لذلك التصميم، وبواسطة هذه المواد.

فبمقتضى الرواية الآنفة الذكر، يقول الإمام الرضا عليه السلام: إنّ المراد من القدر أنّ الله تعالى قدّر العالم وهندسه، ثمّ عيّن بعد ذلك كيف يوجَدُ كلّ شيء. واللافت أنّا نجد انسجامًا بين هذا التعبير وبين مفهوم القدر. فـ«القدر» يعني «المقدار»، و«الهندسة» تعني «التقدير»، حيث إنّ علماء اللغة واللسانيّات قد عثروا على جذور مشتركة بين العديد من المفردات في اللغات الفارسيّة والعربيّة والعبريّة و...؛ كما ارتأى البعض أنّ كلمتي «الهندسة» و«اندازه» ترجعان إلى أصل

(١) راجع: محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ١، الصفحة ١٥٨.

واحد، وأنّ كلمة «المهندس» مشتقّة من الكلمة الفارسيّة «هندزه» بمعنى «اندازه» [المقدار]، والتي صارت تُلفظ بعد تسرّبها إلى اللغة العربيّة على شكل «هندسة»[1]. وبهذا التفسير، يُمكننا أن نبيّن مصطلح «القدر» بكلّ وضوح، حيث بوسعنا القول: إنّ الله تعالى قدّر كلّ شيء؛ أي هندس جميع الأشياء، ووضع لها مقدارًا، وعيّن لكلّ فعل وقتًا خاصًّا وطريقة محدّدة في الأداء؛ كما عيّن أيضًا أن يكون الفاعل إنسانًا، وجعل المسؤوليّة على عاتقه.

ولا يبدو، إلى حد هذا المستوى، وجود أيّ مشكلة في فهم مراتب التوحيد الأفعاليّ. ولكنّا نصل، بعد هذا، إلى مستوى آخر اسمه «القضاء» يصعب فهمه وإدراكه؛ إذ لا يوجد، بحسب الاصطلاح القرآنيّ، ترادف بين مفردتَي «القضاء» و«القدر»، كما أنّ القدر متقدّم في الروايات على القضاء؛ والذي يعني البتّ في الفعل بعد تقديره وإعداد مقدّماته. وهنا، يُطرح علينا السؤال التالي: من الذي يبتّ في الفعل: نحن أم الله تعالى؟ حيث إنّ هذا الموضع هو بالضبط الذي يتسلّل فيه إلينا الاعتقاد بأنّ الفعل إمّا نقوم به نحن، أو يقوم به الله تعالى، دون أن نتمكّن من الجمع بين الحالتين.

يتمثّل المبدأ الأساس في التوحيد الأفعالي في أنّ البتّ والحكم فعلنا نحن، وفعل الله تعالى في الوقت ذاته، لكن في مستويين اثنين؛ حيث يُراد من هذين المستويين الاثنين بيان عدم وجود تزاحم بين الفعلين؛ وإلّا، فإنّنا لا نستطيع أبدًا إدراك حقيقة هذا الأمر. إنّ معنى التوحيد الأفعاليّ أنّ للفعل نسبة إليّ «أنا»، ونسبة إلى الله تعالى، بحيث تكون

(١) راجع: الخليل بن أحمد الفراهيديّ، **العين**، ذيل كلمة «هندس».

كل من النسبتين حقيقية[1]، وذات آثار خاصّة. ومن هنا، نجد البارئ عزّ وجلّ تارةً ينسب في الآيات القرآنيّة الفعلَ إليه، وتارةً أخرى إلى موجود آخر؛ ومن باب المثال، جاء في موضع من الكتاب المجيد: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[2]، وفي موضع آخر: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[3]، حيث من الممكن أن يقع القارئ لهذه الآيات في الحيرة، ولا يدري لمن ينسب هذا الفعل. وفي الجواب، بوسعنا القول إنّ جميع هذه النسب صحيحة في مكانها؛ لأنّ الشيطان مخلوق لله تعالى، وكلّ قدرة يتّصف بها إنّما حصل عليها من خالقه عزّ وجلّ؛ فكلّ فعل يقوم به يُنسب في مستوى أعلى إلى الله عزّ وجلّ؛ كما أنّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[4]، وهذه النسبة ناتجة عن العلاقة القائمة بين الفاعلَين الطوليّين. ومن هنا، فبرغم كوننا عاجزين عن إدراك حقيقة هذا الأمر، إلا أن بوسعنا تقريبه إلى الذهن بنحو إجماليّ، وبالاستعانة ببعض الأمثلة.

وردت في **تحف العقول**[5] رسالة مفصّلة في ردّ الجبر والتفويض، ضرب الإمام الهادي عليه السلام فيها مثالًا بنفس هذا المضمون، حيث قال ما مفاده: لو اشترى شخصٌ عبدًا ووهبه أرضًا، فإنّ ذلك العبد سيصير بسبب هذا الهبة مالكًا لهذه الأرض؛ لكنّه في الوقت ذاته، لن يكون خارجًا عن

---

(١) يوجد هنا بحث بين الفلاسفة القائلين بالطوليّة، والعرفاء القائلين بالتجلّي؛ فإذا قلنا بوجود طوليّة بين الفعلين، حقّ لنا أن ننسب الفعل حقيقة إلى الله تعالى، وإلى العبد أيضًا بمعنى من المعاني؛ لكن، لو قلنا بأنّ فعل العبد ما هو إلّا تجلٍّ لفعل الله تعالى، فإنّ أصل وجود الفعل يُنسب إلى الله تعالى فقط؛ بينما يُنسب إلى العبد ظهور هذا الفعل ومظهريّته. [المترجم]

(٢) سورة النمل، الآية ٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٤٨؛ سورة النمل، الآية ٢٤؛ سورة العنكبوت، الآية ٣٨.

(٤) سورة فاطر، الآية ٨.

(٥) راجع: الحسن بن عليّ بن شعبة الحرّاني، **تحف العقول عن آل الرسول** صلى الله عليه وآله، الصفحة ٤٦١.

ملكيّة مولاه؛ ولهذا السبب، فإنّ كلّ ما يملكه يرجع إلى مالكه، فهبة المولى العبدَ تلك الأرض تعني أنّ بقيّة العبيد لا يحقّ لهم التصرّف فيها، غير أنّ مالك العبد يكون مالكًا للأرض أيضًا؛ لأنّه منحها لمن يدخل في أمواله. ومن هنا، فإنّ هاتَين المالكيّتَين تقعان في طول بعضهما؛ ما يعني أنّ الأرض مملوكة من قبل العبد، وفي مستوى أعلى، من قبل المولى أيضًا. وبالنظر إلى هذا المثال، يكون كلّ ما يحدث في العالم مشمولًا بالقضاء الإلهيّ؛ أي إنّ الله تعالى هو الذي عليه أن يُصدر الحكم الأخير، حيث ورد في بعض الروايات أنّ بعد القضاء الإمضاءُ؛ ففي نهاية المطاف، ينبغي أن يُمضي الله تعالى كلّ فعل تقرّر أن يحصل.

٦. تبلور النظام الأحسن

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في هذا الدعاء الشريف: «**وَقَضَاؤُكَ خِيَرَةٌ**»؛ أي إنّ كلّ ما يمضيه البارئ عزّ وجلّ يحتلّ المكانة الأفضل في مجموع هذا النظام، بحيث لا يُمكن تصميم وإرساء أيّ نظام أحسن من هذا النظام.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ استيعاب حقيقة أنّ مجموع نظام الخلقة هو الأحسن يُعدّ أمرًا خارجًا عن قدرة العقل، لكنّ العقل يدرك، بنحو عامّ، أنّ الله تعالى كمال محض، ولأنّه كذلك، فلا يُمكن أن يصدر منه إلّا الكمال.

لو عُرض علينا عمل فنّي صمّمه أحد الفنّانين الكبار والمعروفين في مجالهم، وتمكّنا من فهم العديد من جوانبه الدقيقة والظريفة، لكن عجزنا عن استيعاب الوجه في تصميم بعض أجزائه الأخرى، فإنّك تجدنا في هذه الحالة نجيز لأنفسنا أن ننسب ذلك إلى قصور فهمنا وإدراكنا. فكذا في حالتنا نقول: إن مما لا يخفى أنّ بوسعنا التعرّف على الحِكمة

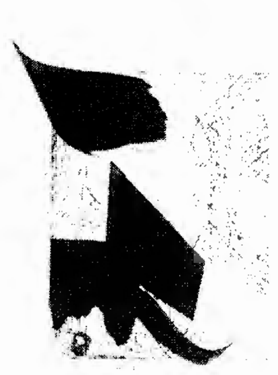
وراء العديد من المقدّرات والقضاءات والإمضاءات الإلهيّة؛ لذا فإنّ لوحة عالم الخلقة - التي تمتدّ بألوانها العجيبة منذ الأزل وإلى الأبد، وحيّرت كلّ زاوية منها عقلاء العالم لسنوات مديدة - أولى بأن ننسب القصور المتوهَّم فيها إلينا إذا ما عجزنا عن فهم الحكمة من هندسة جزء منها.

إنّ اللوحة الجميلة لا تظهر إلّا من خلال التنسيق بين عدّة ألوان مختلفة؛ ومن الممكن أن يُشاهد أحدٌ اللون الأسود في هكذا لوحة، فيظنّ أنّه كان من الأفضل استخدام لون آخر بدلًا عنه؛ غافلًا عن أنّه لولا هذا اللون الأسود، لما برز جمال بقيّة الألوان. إنّ الله تعالى هو الذي ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[1]، فكلّ ما خلقه عزّ وجلّ يتّصف قطعًا في مجموع هذا النظام بأفضل حالة ممكنة، مهما كانت المكانة التي يحتلّها فيه. ولهذا، فإنّ الإمام السجّاد عليه السلام يقول: «**وَقَضَاؤُكَ خِيَرَةٌ**»؛ أي إنّ كلّ ما يشمله القضاء الإلهيّ الكلّي يُعدّ هو أفضل خيار ممكن في تلك المكانة التي يحتلّها.

---

(١) سورة السجدة، الآية ٧.





«إنْ أعْطَيْتَ لَمْ تَشُبْ عَطاءَكَ بِمَنٍّ، وإنْ مَنَعْتَ لَمْ يَكُنْ مَنْعُكَ تَعَدِّيًا، تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ وأَنْتَ أَلْهَمْتَهُ شُكْرَكَ، وتُكافِئُ مَنْ حَمِدَكَ وأَنْتَ عَلَّمْتَهُ حَمْدَكَ».

١. غنى الحقّ تعالى عن الامتنان

شرع الإمام السجّاد عليه السلام في دعاء الوداع بهذه الجملة: «**يَا مَنْ لَا يَرْغَبُ فِي الْجَزَاءِ**»؛ وبعبارة أوضح، فإنّ هذه الجملة تعني: «اللهمّ يا من لا يتوقّع أيّ جزاء». كما جاء أيضًا في الفقرة السابقة في وصف العطايا والنعم الإلهيّة: «**إنْ أَعْطَيْتَ لَمْ تَشُبْ عَطاءَكَ بِمَنٍّ، وإنْ مَنَعْتَ لَمْ يَكُنْ مَنْعُكَ تَعَدِّيًا**»؛ فمواهب الله لا يشوبها المنّ على أيّ أحد، وهو تعالى يمنح عباده النعم من دون أن يمنّ عليهم بذلك. وفي المقابل، إذا حجب نعمة عن أحد، ولم يمنحه إياها، فإنّ ذلك لا يعني أنّه ضيّع حقّه، وظلمه. هذا، ومن شأن البيانات التي ذكرناها سابقًا في شرح الفقرة الأولى أن تُميط اللثام عن هذه العبارات. لكن يُمكننا، بنحو مقتضب، القول: نظرًا إلى أنّ الباري عزّ وجلّ لا يحتاج في جميع الأحوال إلى أيّ شيء أبدًا، فإنّه متى ما وهب شيئًا لأحد، فإنّه لا يحتاج لأن يُذلّه بالامتنان

عليه. وفي الحقيقة، فإنّ مقتضى الفياضيّة الذاتيّة لله تعالى أن يصدر منه الفيض؛ وهذا الفيض هو مطلوب - في الواقع - بالقصد الذاتي؛ وبعبارة أخرى، فإنّ فيض الله يكون مطلوبًا له تعالى باعتبار كونه لازمًا لكمال ذاته؛ فهو عزّ وجلّ يُحبّ ذاته، ويحبّ آثاره الوجوديّة بما هي آثار ذاته. وبتعبير آخر، فإنّ محبوبيّة المخلوقات ومطلوبيّتها تكون بالتبع وبالقصد الثاني؛ أي إنّ الله تعالى يُحبّ هذه المخلوقات لأنّها لازمة لذاته.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ الامتنان يستدعي وجود دافع نفسانيّ؛ وهذا الأمر لا يحدث إلّا حينما يشعر الإنسان بنقص، فيظنّ أنّه لرفع هذا النقص، ينبغي أن يقول لمن يُحسن إليه: «أنا الذي أحسن إليك، ولو أنّني لم أفعل ذلك، لصرت كذا وكذا»، فيكون الهدف من هذا الكلام إخفاء الحقارة الذاتيّة التي يحسّ بها هذا الإنسان. وأمّا الموجود الذي لا يشعر في وجوده بأيّ نقص، فلن يتوفّر على أيّ داعٍ للامتنان، بل سيفيض على الدوام؛ لأنّه يُحبّ أن يصدر منه الفيض إلى الخلائق. إنّ هذه المسألة واضحة تمامًا؛ كما أنّ عدم حاجة الله تعالى إلى الامتنان ممّا تقتضيه القواعد الاستدلاليّة. لكن، في المقابل، اعتقد البعض أنّ كلمة «منّ» الواردة في بعض الآيات من قبيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] هي بمعنى الامتنان؛ مع أنّنا بيّنا آنفًا أنّ كلمة «المنّ» جاءت في بعض الموارد - نظير هذه الآية - بمعنى منح نعمة عظيمة. وفي الحقيقة، فإنّ المراد من هذه الآية الشريفة: «لَقَد أنعَمَ اللهُ على المؤمنينَ بِنعمةٍ عَظيمَةٍ». وفي جميع الأحوال، فإنّ الباري تعالى منزّه عن الامتنان على أيّ أحد، ومضايقة مخلوقاته بهذه الطريقة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

٢. الدعوة إلى الشكر دعوة إلى السعادة

بعد استعراض البيانات السابقة، من الممكن أن يُطرح علينا إشكال مفاده أنّ الامتنان أو توقّع الجزاء قد يحصل بالطريقة الآتية:

بعدما يُؤدّي الإنسان عملًا لآخر، فإنّه يُفهمه - بنحوٍ ما - أنّه يتعيّن عليه في المقابل أن يُقدّم له خدمةً أيضًا، كما هو متعارف بين الناس أن يُقدّموا هديّةً لبعضهم في بعض المناسبات، ثمّ ينتظروا - بمقتضى هذا العرف - أن يأتيهم الطرف المقابل بهديّة في مناسبة مشابهة؛ على أنّ الإنسان قد يكتفي أحيانًا بخضوع ذلك الطرف المقابل أمامه، وذلك بسبب كونه متّصفًا بحبّ التفوّق، وهي صفة دنيئة ينبغي تغييرها بالتدريج، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، حيث تُشير هذه الآية الكريمة إلى الذين لا يُحبّون التفوّق على الآخرين في الأمور الدنيويّة؛ وقد رُوي في الكتب التفسيريّة في ذيل هذه الآية عن الإمام المعصوم عليه السلام أنّ الذي يُحبّ أن يكون شسع نعله أحسن من شسع نعل الآخرين مبتلًى بصفة مذمومة تُؤدّي إلى حرمانه من نعم الآخرة[2]. وعلى أيّ تقدير، إذا قدّم الإنسان خدمةً لأحد، وتوقّع منه أن يخضع ويتصاغر أمامه، فإنّ هذا بحدّ ذاته توقّع للجزاء؛ كما أنّه إذا أراد منه أن يشكره، فإنّ هذا أيضًا نوع من الامتنان.

---

(١) سورة القصص، الآية ٨٣.

(٢) محمد محسن الفيض الكاشاني، **تفسير الصافي**، الجزء ٤، الصفحة ١٠٦. «وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أحسن من شراك نعل صاحبه» [عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، الجزء ١، الصفحة ٢٢٠].

وهنا، تُطرح علينا شبهة مفادها أنّ هذه المسألة تنطبق بحسب

ما يبدو على الله، وأنّه تعالى يتوقّع إلى حدٍّ ما الشكر؛ بل إنّ أحد الأساليب التربويّة التي انتهجها القرآن تتمثّل في بيانه للنعم الإلهيّة حتّى يدفع الناس للشكر، حيث نقرأ في الكتاب المجيد مثلًا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ... أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[1]، ففي هذه الآية، يتحدّث البارئ عزّ وجلّ عن بعض النعم، ثمّ يطلب منّا بعد ذلك أن نؤدّي الشكر؛ كما أنّنا نجده في آية أخرى يُوجّه اللوم على عدم أداء الشكر: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2]، فبمقتضى هذه الآيات الكريمة، يريد الله تعالى - في الحقيقة - أن يدفعنا نحو شكره على نعمه. وحينئذ، يأتي السؤال: ألا يُعدّ ذلك نحوًا من أنحاء التوقّع؟ في حين أنّ الإمام عليه السلام قال في بداية الدعاء: «**يَا مَنْ لَا يَرْغَبُ فِي الْجَزَاءِ**»، وقال هنا أيضًا: «**إِنْ أَعْطَيْتَ لَمْ تَشُبْ عَطائَكَ بِمَنٍّ**»؛ هذا، مع أنّه إذا فسّر أحد عبارة «منّ الله» الواردة في آيات من قبيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] بالامتنان، فإنّ هذا الإشكال سيُطرح بطريق أولى.

والجواب أنّ الله تعالى لا يتوقّع الجزاء من أيّ أحد، كما أنّه لا يشوب نعمه بالامتنان، لأنّه لا يحتاج لهذه المنّة ولا لأي شيء آخر، لكن لا يلزم من غناه تعالى أن لا يُرشد مخلوقه إلى الأمر الذي فيه خيرُه. وبعبارة أخرى، فإنّ الله تعالى خلق الإنسان، لكي يغتنم فرصة الحياة في هذه الدنيا، ويصل في الأخير إلى القرب الإلهيّ، حيث يتمثّل طريق

---

(١) سورة يس، الآيات ٣٣ - ٣٥.

(٢) سورة الملك، الآية ٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

بلوغ هذا الكمال في شكر النعم الإلهيّة. ومن هنا، إذا أرشد الله الإنسان إلى طريق الشكر، فليس لأنّه تعالى يلتذّ بشكر عباده له، أو أنّه يُريد من الإنسان أن يتواضع أمامه ويتملّق له؛ فالمذموم هو توقّع التملّق في مقابل الخدمة المقدّمة، والالتذاذ بذلك؛ مع أنّ الذي يمتلك هكذا توقّع يكون محتاجًا إلى ذلك الشعور باللذّة، والإحساس بأنّه أعلى من الآخرين، لكن المسلّم به أنّ الله تعالى لا يلتذّ بمثل هذه الأمور، لأنّ كلّ ما يُريده متحقّق في ذاته. ولهذا، حينما يطلب من الإنسان أن يشكره، فلأنّه يريد الخير لعباده، ويعلم بأنّ العبد الذي لا يشكر لا يصل إلى الكمال؛ فهذا لطفٌ آخر صدر منه تعالى لكي يُفهم عباده أنّ بلوغ السعادة وإحراز اللياقة لإدراك نعم الجنّة الأبديّة متوقّف على امتلاك خلق وصفة الشكر.

٣. حقيقة الشكر

نقرأ في فقرة من دعاء الوداع: «**تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ وأَنْتَ أَلْهَمْتَهُ شُكْرَكَ، وتُكافِئُ مَنْ حَمِدَكَ وأَنْتَ عَلَّمْتَهُ حَمْدَكَ**».

توجد، في اللغتَين الفارسيّة والعربيّة، مجموعات من الكلمات التي تكون متقاربةً كثيرًا من حيث المعنى، لكن تتوفّر في الوقت ذاته على فوارق دقيقة جدًّا؛ مثل: الحمد والشكر والمدح. فحينما يُريد الإنسان أن يشكر أحدًا، فإنّه يقوم بمدحه أوّلًا؛ ولهذا، فإنّ معنى المدح قريب من الشكر. فإذا عمد الإنسان في ضمن الإطراء على وليّ نعمته إلى بيان صفاته الحسنة (نظير الصفات المذكورة في بداية هذا الدعاء)، بقطع النظر عن أنّ هذه الصفات ستجلب نفعًا له أو لا، فإنّ هذا العمل يسمى في اللغة بالحمد؛ أما إذا توجّه الإنسان - زيادةً على ذلك - إلى حقيقة أنّ صفات وليّ نعمته كانت سببًا في تحصيله لنفع ما، فإنّ ذلك سيُمهّد الأرضيّة لتحقّق الشكر؛ وأمّا إذا لم يهتمّ الإنسان بهذه الأمور، والتفت

فقط إلى محاسن الممدوح (ولو كان هذا الممدوح فاقدًا للشعور)، فإنّ هذا الفعل مدحٌ.

فمن باب المثال، حينما نُطري على وردة أو جوهرة ثمينة، فإنّنا نكون قد مدحناها، غير أن هذا النوع من المدح لا يُقال عليه إنه شكرٌ لأنّ هذه الأشياء لم تقم لأجلنا بأيّ فعل. لكن، متى ما قدّم لنا أحد خدمةً، وكانت هذه الخدمة نابعةً من صفاته المتعالية، فإنّ مدحنا له وإشادتنا به يُقال عليهما إنهما شكر. فلو أنّ الإنسان مدح عالمًا كبيرًا دون أن يجلب له هذا العالم أيّ نفع، فإنّ هذا الفعل لا يُسمّى شكرًا؛ كما أنّه متى ما صدر من الممدوح فعلٌ ترتّب عليه وصول خير إلى الإنسان، وقام هذا الإنسان في مقابل هذا الخير بردّة فعل تنمّ عن إشادته وتقديره، فإنّ هذا الفعل يُسمّى شكرًا. وإن علينا، قبل الوصول إلى مرحلة الشكر، أن نعرف من هو الذي منحنا هذه النعم؛ أي علينا أن نتعرّف عليه، ونُدرك أنّ له صفةً متعاليةً كانت هي السبب في أن يقوم لأجلنا بفعل، ويصلنا في الأخير خيرٌ؛ فعلينا أن نعلم بهذه الأمور، حتّى يُشكّل ذلك دافعًا لنا.

ولا يخفى أنّه رغم كلّ هذه الموارد، فإنّ هناك أفرادًا لا يملكون أيّ دافع للشكر، وبعبارة عرفيّة، أنّهم من أهل الجحود وعدم الاعتراف بالجميل؛ مع أنّ انبعاث الدافع للشكر له عامل فطريّ، حيث إنّ البارئ تعالى فطر الإنسان على أن تظهر عنده، متى ما قدّم له أحد خدمةً، حالةٌ جديدة، تنتج عنها الرغبة في إبراز ردّة فعل تجاه تلك الخدمة. وفي الحقيقة، فقد عمل هؤلاء الأفراد على وضع موانع أمام ذلك العامل الفطريّ.

حينما حدث زلـزال في مدينة رودبـار، كنت متواجدًا في أميركا من أجل المشاركة في مؤتمر حول الفلسفة؛ ومن باب الصدفة، كانت

تلك الليلة ليلة الاحتفال بذكرى استقلال أمريكا، والمعروف بعيد الرابع من يوليوز[1]؛ حيث تُقام في تلك الليلة العديد من الحفلات الكبيرة، ويقضي الناس أوقاتهم بأنواع من الاحتفالات. لقد كان برنامجنا يقضي الحضور في نيويورك ليلة العيد، بينما كان يقع محلّ إقامتنا في مدينة نيوجرسي. ونيويورك مدينة كبيرة جدًّا يصل عدد سكّانها في النهار إلى ضعف عدد السكّان في الليل؛ لأنّ أغلب بناياتها إمّا تجاريّة أو إداريّة، فتتوافد إليها من المدن المجاورة أعداد كبير من الناس للعمل فيها نهارًا، ثمّ يقفلون عائدين إلى مدنهم ليلًا. في ذلك الحين، كان موظّفو مكتب رعاية المصالح الإيرانيّة يعيشون في مدينة نيوجرسي، فكان علينا نحن أيضًا الذهاب إلى هذه المدينة برفقة مضيفنا الذي كان أحد أعضاء ذلك المكتب. في تلك الأيّام، كان العديد من أعضاء زمرة المنافقين قد رحلوا إلى أمريكا، وكانوا يتردّدون هناك بكلّ حرّية؛ فكانوا إذا رأوا أحد الموالين للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة غالبًا ما يعمدون إلى إهانته، بل واضطهاده أحيانًا. كنت يومها جالسًا في السيّارة مرتديًا لباس العلماء، ومتوجّهًا مع مرافقيّ إلى المنزل حينما لفتني أنّ إحدى السيّارت التي يركبها بعض الفتيات والفتيان - وكان مظهرهم غير لائق - تسعى للاقتراب منّا، وكان راكبو هذه السيّارة يُشيرون إلينا باستمرار، طالبين منّا أن نسمح لهم بالاقتراب من سيّارتنا. ظننا، في البداية، أنّ هؤلاء وفي ذلك الوقت المتأخّر من الليل - علاوةً على أنّها ليلة الاحتفال بذكرى استقلال أميركا - كانوا يُريدون إزعاجنا؛ ولهذا، فإنّنا لم نأخذ طلبهم على محمل الجدّ؛ لكن، في الأخير، وبسبب إصرارهم الكبير، طلبنا من السائق أن يسمح لهم بالاقتراب، وحينما صاروا إلى جانبنا، رفعت الفتاة التي كانت جالسةً

---

(1) Fourth of july.

في الأمام من السيّارة يدها، وصاحت: «اسمحوا لنا أن نعبّر عن تعاطفنا وتضامننا معكم بسبب الزلزال الذي وقع في رودبار!»، حيث أدركت أنّني إيرانيّ من نوع اللباس الذي أرتديه؛ ولم يكن يهدأ لها بال، حتى تبرز تعاطفها معنا. لقد كانت تلك الشابّة تمتلك دافعًا فطريًا هو الذي أثارها لكي تُظهر انزعاجها من تلك الحادثة.

فهذا هو حال الفطرة؛ حيث لا حديث عن الدين والدنيا والعرق والعنصر و...، بل المطروح فقط هو الشعور الباطنيّ الذي ما لم يبرز، فإنّ الإنسان لا يهدأ أبدًا. وعلى أيّ تقدير، فإنّ مرادنا هو الإشارة إلى العامل الفطريّ الذي غرسه الله تعالى في وجود الإنسان؛ فعندما يكون عاملٌ مكنونًا في الإنسان بنحو فطريّ، فإنّك تجده يرغب في إبرازه حتّى لعدوّه، والشخص الذي يقع في الطرف المقابل له؛ ولو لم تترتّب عليه أيّ نتيجة أو أثر. وإن من بين الأحاسيس التي جعلها الله تعالى في وجود الإنسان فطريًّا، أنّه متى ما أحسن إليه أحد، فإنّه يسعى لإبراز ردّة فعل مناسبة؛ حيث بوسعنا مشاهدة آثار هذا العامل الفطريّ حتّى عند الأطفال إذا ما دقّقنا النظر في سلوكهم. فمن باب المثال، حينما يشعر طفل ذو سنة واحدة لا يقدر على الكلام بنحو صحيح بأنّك قدّمت له خدمة، فإنّه يبرز ردّة فعل تجاه ذلك، ولو كان ذلك بواسطة ضحكة؛ فهو يسعى لتقديم الشكر على هذا المعروف، كما أنّه يلتذّ بإبراز ذلك الشكر، وتنتابه حالة من الطمأنينة. فتجدنا نحن البشر نشعر أنّنا مدينون تجاه كلّ من أسدى إلينا معروفًا، وأنّ من الواجب علينا شكره، حتّى لو كان معروفه عبارة عن إرشادنا إلى عنوان. فهذا الشعور له مبدأ إلهيّ؛ وفي الحقيقة، فإنّ الله تعالى هو الذي خلقنا على هذه السجية.

لقد بلغ إحسان البارئ عزّ وجلّ إلينا درجة، بحيث لو أنّنا ضممنا إلى عمرنا مئات الأعمار الأخرى، فإنّنا لن نتمكّن من عدّ هذه النعم؛ كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1]؛ وفي هذه الحالة، يُطرح علينا التساؤل الآتي: إلى أيّ حدّ ينبغي أن نكون شاكرين لله تعالى؟ هذا، مع أنّ الله تعالى هو أيضًا الذي غرس باعث هذا الشكر في وجودنا.

٤. شكر الله لعبده هو ثوابه

وهنا، يبلغ بنا المقام للبحث عن مسألة المراد من شكر الله تعالى لعبده في مقابل شكره له؛ إذ من المعلوم أنّ «الشكور» من الأسماء الإلهيّة؛ يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم على لسان أهل الجنّة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾[2]، حيث إنّ كلمة «الشكور» عبارة عن صيغة مبالغة.

والسؤال التالي هو: من هم الذين يشكرهم الله تعالى؟ يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «**تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ**»؛ فإذا شكر الإنسان الله، فإنّه تعالى يشكره أيضًا؛ في حين أنّه: «**وَأَنْتَ أَلْهَمْتَهُ شُكْرَكَ**»؛ حيث إنّ معنى هذا الإلهام يصير واضحًا عند التأمّل في ما ذكرناه آنفًا بشأن فطريّة دافع الشكر؛ أي إنّ هذا الإلهام هو نفس ذلك الدافع الفطريّ الذي غرسه الله تعالى في وجودنا نحن البشر، فصار لدينا شعور نريد أن نبرزه للآخرين تجاه الخدمات التي يُقدّمونها إلينا. لكنّ السؤال هو: ما معنى أن يشكر الله تعالى عبده الشاكر له؟ فإذا اعترفنا بأنّ الشكر يقع في مقابل الخدمة، فما هي الخدمة التي بوسع العبد الحقير أن يقدّمها لله

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٤؛ سورة النحل، الآية ١٨.

(٢) سورة فاطر، الآية ٣٤.

تعالى الغنيّ، فيشكره الله تعالى عليها؟! لقد بيّنا سالفًا أنّه لا يستطيع أيّ موجود أن يُؤثّر في البارئ عزّ وجلّ، وأنّ عروض التغيّر والانتقال من حال إلى حال آخر على الله تعالى محال؛ كما ورد في الرواية: «لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا»[1]، وقد قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة أيضًا: «تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي»[2]. ومن هنا، ما هو المراد من شكر الله تعالى لعبده الشاكر له؟

إنّ هذا الشكر الذي يُنسب إلى الله تعالى هو من قبيل المفاهيم التي إذا استُعملت في حقّه عزّ وجلّ، فإنّها تكون متشابهة، ولهذا، فعلينا أن نجرّدها من العناصر الدالّة على النقص والاحتياج لكي يصحّ لنا إطلاقها عليه تعالى، حيث يُعدّ هذا الاستعمال من منظور الصناعة الأدبيّة مجازًا مرسلًا من جهة ما، واستعارةً من جهة أخرى، بل وحتّى يُمكننا اعتباره نحوًا من أنحاء الكناية، والتي تعني ذكر الملزوم وإرادة اللازم. وبالمناسبة، فإنّ معظم هذه المفاهيم هي بهذا النحو؛ ولهذا، فإنّ العديد من المفسّرين فسّروا شكر الله للعبد بالثواب الذي يمنحه تعالى له على أعماله الصالحة[3]. وهنا، يأتي السؤال: كيف يُسمّى منح الثواب شكرًا؟

سبق وذكرنا أنه حينما يشعر الإنسان بأنّه حصل على نعمة من الغير، فإنّ حالةً انفعاليّةً تعرض على نفسه في البداية، وتكون منشأً لإبراز ردّة فعل؛ لكنّ شكر الله يخلو من هذه المقدّمات، لأنّه تعالى منزّه

---

(١) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، الخطبة ٦٥.

(٢) السيّد ابن طاووس، **إقبال الأعمال**، الجزء ١، الصفحة ٣٤٩.

(٣) ذُكر هذا المعنى من قبل مشهور المفسّرين ذيل الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٥٨]؛ وكنموذج على ذلك، راجع: السيّد محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، الجزء ١، الصفحة ٣٨٦.

عن الحالات الانفعاليّة. وبعبارة أخرى، إنّه لا ينفعل عن أيّ شيء؛ ولهذا، فإنّ مراده عزّ وجلّ يتعلّق بآثار الشكر واللوازم المترتّبة عليه. وبالتالي، فإنّه استعمل الملزوم وأراد اللازم، حيث يندرج هذا الأمر في الصناعات الأدبيّة التي يُبحث عنها في علمي المعاني والبيان. فمن باب المثال، جاء في سورة الزخرف: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[١]، فنحن نعلم أنّ الانتقام لا يتحقّق إلّا إذا ألحق أحدٌ ضررًا بالإنسان، فيعمد هذا الأخير إلى الاقتصاص منه، في حين أنّ الله تعالى لا يُؤثّر فيه أيّ شيء، فما المراد إذًا من الأسف هنا؟ بحسب بعض الروايات، يكون المراد منه أسف أولياء الله الذين جعل تعالى رضاهم رضاه وغضبهم غضبه[٢]، لكن، من أجل تفسير عبارات أخرى من قبيل: «غضب الله عليهم»، والتي ذُكر فيها لفظ الجلالة «الله» لوحده؛ ونظير الآية السابقة التي لم تُستعمل فيها صيغة المتكلّم مع الغير، فإنّنا نلجأ إلى البيانات السابقة التي أشارت إلى مسألة ذكر الملزوم وإرادة اللازم.

وبوسعنا الاستفادة من هذا التفسير بعينه في خصوص رحمة الله تعالى، حيث يرى علماء اللغة أنّ أصل معنى كلمة «الرحمة» هو الشفقة. فحينما يرى الإنسان شخصًا في وضعيّة مؤلمة، فإنّ قلبه يحترق، ويُطلق على هذه الحالة اسم الرحمة؛ وهي من جنس الانفعال. وبعدما تعرض الرحمة على الإنسان، فإنّه يسعى لرفع السبب في تعرّض الطرف المقابل للخسارة والضرر، حيث يكون تحقّق هذا العمل أمرًا ملازمًا للشفقة؛ وأمّا بالنسبة لله تعالى، فإنّه يذكر الملزوم، ويريد لازمه.

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٥٥.

(٢) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ١، الصفحة ١٤٤.

وخلاصة القول، حينما يُقال إنّ الله تعالى يشكر، فإنّ المراد ليس هو المعنى الحقيقيّ للشكر؛ والذي يتحقّق عندما يحصل أحد على نعمة وخير فيه نفع، فيُؤدّي الشكر على ذلك؛ فما يصحّ لنا قوله عن الله أنّه: إذا شكرنا البارئ عزّ وجلّ، فإنّه تعالى يمنحنا في مقابل شكرنا له جزاءً أكبر؛ فهذا الجزاء هو الشكر الذي يُنسب إلى الله تعالى. وقد ذكرنا آنفًا أنّ الكثير من المفسّرين يعتقدون أنّ المراد من الشكر هو الثواب الذي يمنحه الحقّ سبحانه للمخلوقات على شكرها.

ومن هنا، بوسعنا أن نقول في بيان الفقرة من الدعاء التي يقول فيها الإمام عليه السلام: «**تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ**» أنّ المراد من شكرنا لله تعالى هو المعنى الحقيقيّ للشكر؛ أي: بعد أن يُدرك الإنسان أنّ أحدًا قدّم له خدمة، تعرض له حالة انفعاليّة تجاه هذا المعروف، فيُقرّر نتيجةً لهذا الانفعال أن يقوم بردّة فعل مناسبة، حيث يُقال لردّة الفعل هذه شكرًا. وأمّا فيما يخصّ شكر الله عزّ وجلّ لعبده الشاكر، فإنّنا نقول: إنّه تعالى لا يحتاج إلى هذه المقدّمات، بل لا يُمكن لأيّ أحد أن يُقدّم خدمةً له تعالى، أو يجلب له نفعًا، كما أنّه من المحال عروض حالة انفعاليّة عليه تعالى. وفي الحقيقة، فإنّ الله تعالى يريد أن يمنح لعباده ثوابًا على شكرهم له؛ فنحن الذين يطرأ علينا التغيير، ونقع مصاديق لمتعلّق الصفات الإلهيّة المختلفة؛ فحينما نطيعه عزّ وجلّ، فإنّنا نقع متعلّقًا للرحمة والثواب الإلهيّين؛ وأمّا الله تعالى، فلا يعرض عليه أيّ تغيير.

إنّ البارئ عزّ وجلّ يُحبّ الأعمال الحسنة، وحينما نقوم بأحد هذه الأعمال، فإنّنا نصير مستحقّين للحصول على الثواب؛ فهو تعالى يُحبّ المحاسن، وحبّه هذا عين ذاته؛ كما أنّه يُعادي المساوئ، وهذه المعاداة أيضًا عين ذاته؛ وفي الحقيقة، فإنّ الاثنينيّة بين المحبّة والعداوة تظهر

على مستوى المفهوم فقط؛ وإلّا، فإنّ جميع هذه الأمور واحدة على مستوى الذات؛ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في **نهج البلاغة**: «كَمَالُ الْإِخْـلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ»[1]، فحينما نقول مثلًا: «هذه الورقة بيضاء»، فإنّ الورقة موصوف، والبياض صفة لها؛ وما نُدركه من معنى الصفة والموصوف أنّ الموصوف شيء، والصفة شيء آخر يعرض على الموصوف، فالورقة جوهر جسمانيّ، وبياضها عرض. ولهذا، من الممكن أن توجد الورقة، لكن لونها يتغيّر، وبالتالي، فإنّ اللون مغاير للورقة. فهذا هو الفهم الذي نمتلكه عادةً عن الصفة والموصوف. لكن، حينما نقول إنّ الله تعالى حيّ وعالم وقادر، هل يكون المراد من ذلك أنّ الله تعالى شيء، والحياة والعلم والقدرة شيء آخر؟ فهل تكون هذه الصفات عارضة على ذاته عزّ وجلّ؟ وهل تكون قدرته مثل قدرتنا نحن التي من الممكن أن تتناقص أو تنعدم؟ لعلّ هذا الاعتقاد بانفصال صفات الله تعالى عن ذاته هو الاعتقاد السائد بين إخواننا من أهل السنّة، بل لقد بلغت الحالة الاعتقاديّة للبعض إلى أن يقولوا: «لدينا ثمانية قدماء أحدها الذات الإلهيّة، والباقي صفاته»[2].

ولعلّ أمير المؤمنين عليه السلام هو أوّل شخصيّة في العالَم الإسلاميّ، بل وفي عالم الفكر، قالت بشكل صريح: كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ ولا يخفى أنّ معنى الصفة في هذه العبارة ذلك الأمر الذي يكون مغايرًا للموصوف والذات. فمراد الإمام عليه السلام أنّه لا ينبغي لنا نسبة هكذا أمر لله تعالى، بل يتعيّن علينا نفيه عنه. ومن هنا، بوسعنا القول: ليس لله تعالى صفة مغايرة لذاته. فمن باب المثال، الله تعالى عالم، لكنّ

---

(١) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، الخطبة ١.

(٢) الشريف الجرجاني، **شرح المواقف**، الجزء ٨، الصفحة ٤٤.

علمه عين ذاته، وذاته عين العلم؛ كما أنّه أيضًا قادر، إلّا أنّ قدرته عين ذاته، وذاته عين قدرته. وفي الحقيقة، فإنّ للبارئ عزّ وجلّ ذات بسيطة ننتزع منها عدّة مفاهيم: مفهوم الذات، مفهوم العلم، مفهوم القدرة و...؛ فهذه عبارة عن أفخاخ يضعها ذهن الإنسان لكي يتسنّى له اقتناص هذه المفاهيم.

وعليه، كم ستكون رحمة الله تعالى واسعةً إذا وُفّق العبد لشكر الله تعالى على نعمه! وفي هذه الحالة، فإنّ الله تعالى سيشكره أيضًا؛ هذا، مع كون الرحمة الإلهيّة لا حدّ لها ولا حصر، لأنّ يده تعالى ليست مغلولة، ولا ينقص منه شيء بالعطاء؛ فكلّما توجّه الإنسان أكثر إلى حقيقة أنّه مدين لله تعالى، وأظهر عجزًا أكبر في مقابله عزّ وجلّ، ازدادت عطايا الله الكريم له.

وتأسيسًا على ما ذكرنا، فإنّ الدعوة إلى الشكر تهدف إلى تحصيل الإنسان للاستعداد اللازم لتلقّي رحمة جديدة، وليس المراد منها أنّ الله تعالى يريد أن يستعرض عظمته أمام الإنسان أو أن يُهينه؛ فالهدف من منح هذه النعم هو إيصال الإنسان إلى الكمال، وتحويله إلى موجود رفيع، حتى يصل إلى مكانة تصير فيه الملائكة خادمة له، حيث يتمثّل طريق بلوغ هذه السعادة في الشكر.

«تَسْتُرُ عَلى مَـنْ لَـوْ شِئْتَ فَضَحْتَهُ، وتَجُودُ عَلى مَنْ لَوْ أَرَدْتَ مَنَعْتَهُ، وكِلاهُما أَهْلٌ مِنْكَ لِلْفَضِيحَةِ والْمَنْعِ؛ غَيْرَ أَنَّكَ بَنَيْتَ أَفْعالَكَ عَلَى التَّفَضُّلِ، وأَجْرَيْتَ قُدْرَتَكَ عَلَى التَّجاوُزِ، وتَلَقَّيْتَ مَنْ عَصاكَ بِالْحِلْمِ، وأَمْهَلْتَ مَنْ قَصَدَ نَفْسَهُ بِالظُّلْمِ، تَسْتَطرِدُهُمْ [تَسْتَنْظِرُهُمْ] بِأَناتِكَ إِلَى الإنابَةِ، وتَتْرُكُ مُعاجَلَتَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ، لِكَيْلا يَهْلِكَ عَلَيْكَ هالِكُهُمْ، ولا يَشْقى بِنِعْمَتِكَ شَقِيُّهُمْ إِلا عَنْ طُولِ الإِعْـذارِ إِلَيْهِ، وبَعْدَ تَـرادُفِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، كَرَمًا مِنْ فِعْلِكَ يا كَرِيمُ وعائِدَةً مِنْ عَطْفِكَ يا حَلِيمُ».

١. الثناء على الله مقدّمة للولوج في بحار الرحمة

تُشكّل هذه الفقرة قسمًا آخر من دعاء وداع شهر رمضان المبارك، يُمهّد الأرضيّة للاستفادة من العنايات الإلهيّة عن طريق استعراض بعض نعم الله تعالى ومظاهر رحمته وبركاته، حيث يُقال عادةً إنّ هذا النوع من الثناء يُذكر في بداية الدعاء من باب الأدب في المناجاة. لكنّ البعض يرى أنّ ذلك يرجع إلى أنّه: مثلما أنّ الإنسان إذا أراد طلب شيء من إنسان آخر - ولو كان كريمًا - فإنّه يتحدّث أوّلًا عن كرمه وجوده، حتّى يُثير استعطافه، فإنّ أدب الدعاء يقتضي أيضًا أن يأتي الإنسان بكلام يبعث على فيضان بحار الرحمة الإلهيّة! غير أنّ الحقّ هو كون شلّال الرحمة الإلهيّة اللامتناهية في حالة هطول دائـم، ولهذا علينا تغيير حالنا واستعدادنا حتّى نتنعّم بهذه الرحمة. وفي الحقيقة، فإنّ الهدف من استعراض هذه الصفات الإلهيّة والثناء على الله هو توجيه قلوبنا نحو رحمته تعالى؛ لا أنّ تغييرًا يطرأ على حاله عزّ وجلّ.

يُبيّن الإمام السجّاد، في هذه الفقرة، حقيقة أنّ العديد من الناس يرتكبون بسوء اختيارهم أعمالًا مشينة تستوجب الفضيحة، غير أنّ الحقّ تعالى لا يفضحهم مباشرةً، بل يسترهم، ويُغطّي عيوبهم. كما أنّ هناك من يمنحهم الله تعالى نعمه، لكنّهم لا يقتصرون على عدم استعمالها في الخير، بل يستخدمونها أيضًا في طريق معصيته عزّ وجلّ، حيث تقتضي هذه الأفعال معاقبة هؤلاء الأفراد، وسلبهم النعم، غير أنّ الله تعالى لا يفعل ذلك، إلّا في بعض الحالات الاستثنائيّة. فالله عزّ وجلّ لا يُؤاخذ العصاةَ في الحين، بل وحتّى الذين يُؤذون الآخرين، بل يُمهلهم عسى أن ينتبهوا، ويتراجعوا عن أعمالهم السيّئة؛ اللهمّ إلّا أن يصل بهم الحال إلى عدم الاقتصار على سوء استخدام تلك النعم، وإضافة عذاب إلى عذابهم،

بل والقيام أيضًا بسدّ باب الهداية أمام الآخرين، والصدّ بذلك عن تحقّق الهدف من الخلق، والذي يكمن في تهيئة الأرضيّة للإنسان من أجل قيامه بالاختيار الصائب الملازم لتمتّع جميع الناس بالهداية الإلهيّة. فإذا أصرّ هؤلاء العصاة على عصيانهم، بحيث أدّى ذلك إلى إغلاق طريق الهداية في وجه الآخرين، فإنّ الحكمة الإلهيّة تقتضي عدم إبقائهم، لكيلا يتمادوا في أخطائهم. ولهذا، فإنّ الله تعالى يُنزل عليهم عقابه، ويُهلكهم، ليذيقهم في هذا العالم أيضًا طعم العذاب.

فبالنظر إلى هذه الحقائق، يقول زين العابدين: «**تَسْتُرُ عَلى مَنْ لَوْ شِئْتَ فَضَحْتَهُ**»؛ وعليه، فإنّ هناك عصاة لو شاء الله تعالى أن يفضحهم لفعل، لكنّ الإله الرؤوف يسترهم، ولا يسمح بهتك أسرارهم.

«**وتَجُودُ عَلى مَنْ لَوْ أَرَدْتَ مَنَعْتَهُ**»؛ فبحسب هذه الفقرة، يستحقّ بعض العصاة الحرمان من الرحمة الإلهيّة بسبب إساءة استخدامها، وكفران النعم الإلهيّة؛ لكن مع ذلك، فإنّ الله تعالى يجود عليهم، ولا يحرمهم من رحمته.

«**وكِلاهُما أَهْلٌ مِنْكَ لِلْفَضِيحَةِ والْمَنْعِ**»؛ فهاتان الطائفتان جديرتان بأن يفضحهما الله ويُعرّضهما للحرمان، لكنّه تعالى لا يفعل ذلك، بل يمهلهما.

«**غَيْرَ أَنَّكَ بَنَيْتَ أَفْعالَكَ عَلَى التَّفَضُّلِ**»؛ يقول الإمام عليه السلام إنّ البارئ عزّ وجلّ ولأجل تدبير شؤون الناس في هذا العالم، فإنّه وضع سنّةً وقاعدةً ناشئة من رحمته الواسعة، وهي تفوق ما يقتضيه العقل العامّ، وتتجاوز القاعدة التي يبني عليها الناس أفعالهم وتصرّفاتهم؛ حيث إنّ مقتضى العقل العامّ سلب النعمة عن الذي يكفر بها، ويُسيء استخدامها؛ لكي يتمّ الاحتراز عن السقوط في كفران النعمة، لكنّ الله تعالى وضع

سنّته على أساس التعامل مع الناس بالتفضّل، وليس على أساس ما يستحقّونه. وفي الحقيقة، فإنّ العصاة يستأهلون العقاب والحرمان، إلّا أنّ الله تعالى لم يبنِ أفعاله على الجزاء العاجل لكلّ من يستحقّ العقاب، بل يُعامله بالتفضّل.

«وأَجْرَيْتَ قُدْرَتَكَ عَلَى التَّجاوُزِ»؛ لقد جعل الله تعالى جريان قدرته مبتنيًا على العفو، وليس متمحورًا حول استحقاق الأفراد. وفي الحقيقة، فإنّ الله تعالى بنى أفعاله على التغاضي عن الأعمال السيّئة لعباده؛ هذا، مع أنّه كان قادرًا على أن يُجري قدرته وفقًا للجزاء العاجل أو أن يواصل رحمته، لكنّه جعل مجرى قدرته متّكئًا على التجاوز.

«وتَلَقَّيْتَ مَنْ عَصاكَ بِالْحِلْمِ، وأَمْهَلْتَ مَنْ قَصَدَ نَفْسَهُ بِالظُّلْمِ»؛ فالإنسان المذنب إنّما يظلم نفسه في الحقيقة؛ وحتّى حينما يعتدي على الآخرين، فهو يعتدي بالدرجة الأولى على نفسه، ثمّ يعتدي في المرتبة الثانية على الآخرين، حيث يعمل من خلال معصيته على إنفاق القدرة والمكنة التي منحه الله تعالى إيّاها - وهي في الحقيقة نعمة إلهيّة - في طريق سيُلحق به الضرر في الأخير. ومن هنا، فإنّ الذين يرتكبون المعاصي والأعمال المشينة إنّما يظلمون أنفسهم في الحقيقة؛ لكن مع ذلك، يقول الإمام عليه السلام: «إلهي، بدلًا من أن تُؤاخذ هؤلاء، فإنّك تصبر عليهم، وتمهلهم عساهم أن يتوبوا».

«تَسْتَطرِدُهُمْ [تَسْتَنْظِرُهُمْ] بِأَناتِكَ إِلَى الإنابَةِ، وتَتْرُكُ مُعاجَلَتَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ»؛ ويُبيّن الإمام عليه السلام مداراة الله تعالى للعصاة بالنحو الآتي: «إلهي، إنّك تُداري هؤلاء الأفراد وتُؤخّر عقابهم، وتريد من ذلك أن تُمهلهم عسى أن يُنيبوا ويرجعوا إليك».

«لِكَيْلا يَهْلِكَ عَلَيْكَ هالِكُهُمْ، ولا يَشْقى بِنِعْمَتِكَ شَقِيُّهُمْ إلا عَنْ طُولِ الإعْذارِ إلَيْهِ، وبَعْدَ تَرادُفِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، كَرَمًا مِنْ فِعْلِكَ يا كَرِيمُ وعائِدَةً مِنْ عَطْفِكَ يا حَلِيمُ»؛ ففي نهاية المطاف، هناك من سيختار طريق الضلال، ويهوي في وادي الهلاك، لكنّ فعل الله تعالى هو بنحو لا يُمكن بحسبه نسبة هذا الهلاك إليه، بحيث لا يكون تعالى مسؤولًا عن هلاك هؤلاء الأفراد؛ فلا يحلّ بأيّ أحد الشقاء بدلًا عن السعادة بواسطة نقمة الحقّ سبحانه. إنّ الله تعالى لا يُؤاخذ أيّ أحد ولا يُعذّبه في هذه الدنيا، إلّا بعد أن لا يترك أمامه أيّ عذر، حيث يعمل تعالى - مهما أمكن - على توعية هؤلاء الأفراد، وتذكيرهم، وإقامة الحجّة عليهم مرّات ومرّات، وليس لمرّة واحدة فقط؛ فإذا لم يترك هذا الفعل الكريم تأثيره فيهم، ففي ذلك الحين، قد يُعرّضهم الله تعالى لعقابه؛ فيكون مثل هؤلاء العصاة مصداقًا للذين إذا استمرّ الله في الإنعام عليهم، فإنّهم سيتسبّبون في إضلال الآخرين، ونقض الغرض من الخلقة. إنّ هذه الأفعال عبارة عن نموذج لكرم الحقّ تعالى الناشئ من عفوه وكرمه، وتجلّ لعطفه ورأفته.

وفي هذه الفقرة، يتحدّث الإمام السجّاد عليه السلام وبأنحاء مختلفة عن حقيقة أنّ الله تعالى لا يُعجّل عقاب العصاة ومؤاخذتهم، بل يعمل على إعداد وسائل لتنبّههم عسى أن يتراجعوا، ويتوبوا؛ فجميع هذه الأمور ما هي إلّا تجلّيات للرحمة الإلهيّة اللامتناهية، والتي يُبرزها لعباده بصور مختلفة.

٢. الامتحان فلسفة المحن الدنيويّة

في هذا المقام، قد يُطرح علينا تساؤل بالنحو الآتي: مع كلّ هذا التدبير الإلهيّ الذي هيّأ للناس وسائل التنعّم، إلّا أنّ هناك ثلّة منهم يستوجبون العقاب في هذا العالم؛ فلماذا لم يخلق الله تعالى الدنيا بنحوٍ لا يوجد

فيها أيّ عذاب أو شقاء؟ فإذا قلنا إنّ رحمة الله غير متناهية، فلماذا لم يخلق تعالى العالم بشكل ينعم فيه الجميع بالراحة والهناء؛ شأنهم في ذلك شأن أهل الجنّة؟ فمن المؤكّد أنّ ملكه تعالى لن ينقص مثقال ذرّة لو أنّه خلق عالمًا بهذه الأوصـاف. وبالتالي، لماذا لا تقتضي رحمته الواسعة أن ينعم كافّة الناس في هذا العالم بالراحة؟ فبالنظر إلى هذه الرحمة الإلهيّة الواسعة، لماذا لا يكون جميع الناس في دعة، بل الأنكى من ذلك قد نراهم يُبتلون أحيانًا بمحن عجيبة، سواء تلك التي تحدث جرّاء الحوادث الطبيعيّة، أو نتيجةً لظلم الناس بعضهم لبعض؟ أجل، نحن نعلم أنّ الله تعالى قال في كتابه المجيد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[1]، بمعنى أنّ الحياة لن تتحقّق في هذا العالم من دون تعب؛ كما أنّنا نعلم أنّ الإنسان يُمكنه أن يُهيّئ لنفسه بالتدريج وسائل راحة أكثر من خلال التدبير الإلهيّ، وبالاستعانة بالأدوات التي وضعها الله تعالى بين يديه؛ أعمّ من العقل والذكاء والنعم الخارجة عن الوجود الإنسانيّ، بحيث توفّرت للإنسان في هذا العصر وسائل ترفيهيّة لا يوجد لها نظير في العصور السابقة.

وهنا، ننقل كلامًا عن المرحوم الشيخ محمّدي جيلاني - والذي له حقّ خاصّ على المصنّف - مستعينين في ضمن ذلك بالتأثير العجيب للحكاية القصصيّة؛ إذ تترك القصّة أحيانًا تأثيرًا على الإنسان يفوق تأثير الأبحاث العقليّة المفصّلة؛ يقول الشيخ محمّدي: «كنت قد تزوّجت حديثًا حينما حلّ آية الله الشيخ بهجت رحمه الله في منزلنا لأجل التهنئة؛ فقمت لأجله بتشغيل مروحة إلكترونيّة صغيرة حصلت عليها كهديّة، حتّى ألطّف له الجوّ؛ وحينما التفت إلى أنّني شغّلت أداةً كهربائيّةً كانت حديثةً

---

(١) سورة البلد، الآية ٤.

في ذلك العصر، ولم تصر بعدُ عموميّة، وكانت تُعدّ آنذاك من الأجهزة الفاخرة. فإنّه نظر إليّ وقال: «بالإمكان تلطيف الجوّ أيضًا بواسطة مروحة يدويّة»؛ وفي الحقيقة، فقد كان يهدف من هذا الكلام إلى أن يقول: «لماذا تستعمل أداةً لا يمتلك مثلها كلّ الناس؟»».

وأمّا الآن، فقد صارت حتّى أكثر الطبقات الاجتماعيّة استضعافًا تمتلك مروحة كهربائيّة، بل ومبرّدًا كهربائيًّا، كلّ ذلك ببركة العقل الذي وهبه الله تعالى للإنسان. لكن، مع ذلك، فإنّ التدبير الإلهيّ هو بنحو تترافق فيه كلّ أداة أعدّت لراحة الإنسان وهنائه مع ظهور وسيلة جديدة لإدخال الغمّ والحزن عليه؛ فمع أنّ السيّارة أدّت إلى تقليل مدّة السفر من شهر مثلًا إلى يومين أو ثلاثة أيّام، إلّا أنّها قد تتسبّب أحيانًا في وقوع حادثة ينجم عنها هلاك العشرات من الناس دفعة واحدة؛ ففي معظم الحالات، يوجد نوع من التعادل بين الأفراح والأتراح، كما أنّ الحزن والسرور مقترنان ببعضهما في هذه الدنيا على الدوام. وهنا يُطرح علينا التساؤل التالي: لماذا خلق الله تعالى العالم بهذا النحو، ولم يخلقه بنحوٍ ينعم فيه الجميع بالراحة؟ فإذا كان من المقرّر أن تبلغ التقنيات درجة من التطوّر، بحيث يتمكّن الإنسان من الوصول إلى العديد من وسائل الراحة، لماذا تأخّر الاختراع إلى هذا القرن، ولم تكن هذه الوسائل في متناول الإنسان منذ بداية الخلقة؟ ولماذا كلّما تهيّأت الأدوات الترفيهيّة للبشر، ظهرت وسائل ابتلائه وشقائه بشكل آخر، ولم تنته مشاكله؟ ولا يخفى أنّ هذه المشاكل قد تُصيب الإنسان في قالب حوادث طبيعيّة (كالسيول والزلازل)، كما أنّها قد تتحقّق نتيجةً لبعض التطوّرات العلميّة والصناعيّة التي يُحرزها الإنسان. وبحقّ، لماذا تترافق هذه اللوازم الشاقّة والمريرة مع تلك المسرّات التي تنتج عن التقدّم العلميّ والصناعيّ؟ ولماذا صار سلوك الإنسان الفرديّ والاجتماعيّ يُسبّب له مجموعة

من المشاكل؟ ففي بعض الأحيان، تُؤدّي إساءة الاستفادة من الثروات الطبيعيّة إلى دمار حياة الإنسان؛ وكمثال على ذلك: المواد المخدّرة التي حصل عليها الإنسان نتيجةً لتقدّمه العلميّ، فأصابت العديد من الناس بالإدمان، وأدّت عمليًّا إلى هلاكهم. فلماذا يتوفّر العالم على القابليّة لظهور هكذا مشاكل، ممّا يُفضي في الأخير إلى نزول عذاب الاستئصال، والهلاك التامّ لقوم من الأقوام؟ فإذا كان بحر الرحمة الإلهيّة غير متناه، لماذا لم يغمر يابسة هذه المشاكل، لتبرز بذلك تلك الجزر ذات المظهر المَقيت؟ إنّ حلّ هذه المسألة يستدعي بحثًا مفصّلًا يجدر بالفضلاء والمحقّقين تناول أبعاده المختلفة من أنحاء متعدّدة، مستعينين في ذلك بالآيات والروايات والمصادر العقليّة.

وفي الجواب عن هذا السؤال، بوسعنا القول: كما ذكر البارئ عزّ وجلّ، فإنّ أصل وجود هذه الشدائد في العالم له حكمة عامّة بالنسبة لكافّة أفراد الإنسان؛ فمنذ اليوم الأوّل الذي وضع فيه الإنسان قدمه في هذا العالم، شكّلت المصاعب والمحن جزءًا من هندسة خلقه؛ فهذه المسألة غير عرضيّة، والسرّ فيها أنّ الدنيا محلّ اختبار، حيث نقرأ في الكتاب العزيز: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1]؛ مع أنّ وجود السرّاء والضرّاء لازم في الاختبار، لكي يُعلم كيف يتصرّف الإنسان بالنعم التي يضعها الله تعالى في متناوله، وماذا يفعل حين العُسر، حيث يجري تقييم مستوى معرفته وطاعته وعبوديّته وعلوّ همّته من خلال هذه الأفراح والأتراح المقترنة ببعضها. فلو كانت الملذّات هي الموجودة فقط، لما تبيّن المستعدّ للتضحية أكثر في طريق عبوديّة الحقّ تعالى؛ ولو أنّ واقعة كربلاء لم تحدث، كيف كانت ستتبيّن لنا الدرجة الرفيعة

(١) سورة الأنبياء، الآية ٣٥.

التي يتوفّر عليها سيّد الشهداء عليه السلام في مقام العبوديّة، وإلى أيّ حدّ بلغت تضحيته في سبيل الله تعالى. لقد كان من اللازم حصول واقعة كهذه حتّى تتّضح أيّة جوهرة عجيبة موجودة بين الناس.

وعليه، فقد صُمّمت الحياة الدنيا في أساسها لامتحان الإنسان، حيث تبدأ هذه الامتحانات من الحياة الفرديّة، ثمّ تتّخذ شكلًا آخر في الحياة العائليّة؛ لتظهر في الحياة الاجتماعيّة بنحو آخر، وتتبلور في قالب مختلف في العلاقة بالإنسانيّة جمعاء. فلو أنّ هذه المصاعب لم تكن موجودة، لما تبيّن من هو المستعدّ للتضحية من أجل الآخرين، وبأيّ مقدار، وما هو مستوى عمله بتكليفه تجاه الآخرين. ومن هنا، فإنّ أصل وجود الشدائد في العالم جزء من تصميم الخلقة؛ إذ ينبغي على الإنسان أن يسير في طريق الكمال باختياره.

٣. الشدائد مقدّمة للإيمان

تشترك الطبيعة الإنسانيّة في أصل خلقتها مع الحيوانات من الناحية المادّية. إلا أن إفراط الإنسان أو تفريطه في تلبية رغباته المادية قد يمنعانه من تحقيق السعادة، ومن هنا، فهو بحاجة إلى الهداية. وقد بعث الله تعالى أنبياءه لهذا الغرض. غير أنّ الإنسان وبسبب أنسه باللذائذ المادّية، فإنّه لا يرضخ لدعوتهم بكلّ سهولة، حيث تدلّنا التجارب التاريخيّة على هذه الحقيقة، وعلى تعرّض جميع الأنبياء إلى مواجهة كبراء القوم وزعمائهم، بل ومواجهة سائر الناس. ولهذا، فقد جعل الله تعالى برحمته الواسعة وسيلةً أخرى لجلب انتباه الناس تتمثّل بتلك الشدائد الخاصّة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ

وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[١]، ونظيره ما جاء في سورة الأعراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[٢]؛ حيث يقول الله في هذه الآيات إنّ فلسفة بعض المحن الدنيويّة تكمن في إعداد طريق للتوجّه إليه أكثر، إذ الإنسان متى ما صار ثملًا بالنعم الدنيويّة ينسى الآخرة؛ غير أنّ الشدائد التي لا يُمكن رفعها بالوسائل الظاهريّة تسوقه إلى باب الله تعالى والتوسّل بأوليائه، وتُعينه على التوجّه إلى ساحة البارئ عزّ وجلّ، فرأينا أنّه تعالى بيّن صراحةً وفي سورتَين متتاليتَين هذه المسألة بوصفها قاعدةً كلّية، معتبرًا أنّ تلك المحن جزء من تصميم خلق الإنسان، وتدبير حياته. ولا يخفى أنّه تعالى أخبرنا عقب بيانه لعلّة المحن عن جحود الإنسان، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣].

وعلى أيّ تقدير، فإنّ أصل تحقّق محن كهذه في المجتمع الإنسانيّ يعود إلى الرحمة الإلهيّة، لكي تُتاح الفرصة للإنسان من أجل النجاة من الانحراف وتجنّب الوقوع في حبائل الشيطان، وللتوجّه إلى الله تعالى، وتلبية دعوة أنبيائه. فهذا النوع من الشدائد الخاصّة ليس سوى تلك المتاعب والمشاقّ التي تتحقّق في عالم الطبيعة، والتي تظهر بالمقارنة مع مجيء الأنبياء، لكي تتهيّأ الأرضيّة المناسبة لإيمان الناس.

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٩٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

٤. المحن إنذارات

يسقط بعض الناس بعد إيمانهم في المعصية نتيجة تغلّب الشيطان عليهم، وقد ورد في مجموعة من الأدعية أنّ الله تعالى لا يُعجّل عقابه في هكذا موارد، بل يبعث حججه الواحدة تلو الآخرى؛ فإذا لم يترك هذا الأمـر أيّ تأثير في هداية العصاة، فإنّه وبسبب رحمته الواسعة لا يُؤاخذهم فورًا، بل يضع أمامهم نوعًا آخر من الشدائد التي تتشكّل وفقًا لمبدأ التنبيه، وليس لمعاقبتهم بنحو تامّ، حيث يهدف البارئ عزّ وجلّ من ذلك إلى تنبيههم لعلهم يتراجعون؛ وذلك كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١]. وفي بعض الأحيان، يُصيب الله تعالى الإنسان بمحن يسيرة ناتجة عن أفعاله، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٢]، وفي الحقيقة، فإنّ إله العالمين يُنزل هذه المحن حتّى يُذيق الإنسان ثمرة بعض أفعاله السيّئة، فتتهيّأ له الأرضيّة لليقظة والانتباه، وهذا ما ذكره سبحانه كعلّة لخلق هذه المصائب: ﴿لِيُذِيقَهُم [نتيجة] بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾[٣]؛ فهو تعالى يُريد للناس أن يُدركوا النتائج والآثار التي تترتّب على هذا الطريق. فعندما لا يبقى للكلام والموعظة أي نفع، فإنّ الله تعالى يُذيق الإنسان جزءًا من النتائج العينيّة للمعاصي، حتّى يُدرك أنّه سقط في الغفلة. وخلاصة القول، إنّ هذه المحن والعذابات صادرة بدورها من الرحمة الإلهيّة.

---

(١) سورة السجدة، الآية ٢١.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(٣) سورة الروم، الآية ٤١.

٥. عذاب الاستئصال نهاية إمكانيّة الهداية

أحيانًا، قد يصل الأمر إلى حدّ أنّه متى ما أمهل الله تعالى العصاة مرّةً أخرى، فإنّهم لن يقتصروا على سلوك سبيل الغواية، بل سيتسبّبون أيضًا في ضلالة الآخرين، نظير قوم النبيّ نوح عليه السلام الذين دعاهم ٩٥٠ عامًا إلى التوحيد الذي يُمثّل سبيل الوصول إلى السعادة الحقيقيّة - وإنّ الكلام على وجود شخص لعب دور المبلّغ والهادي والواعظ في مجتمعه طيلة هذا المدّة دون أن يكلّ كلام سهل، لكنّ تحقّقه في ميدان العمل محال تقريبًا - وفي نهاية المطاف بلغ المقام بهم أن قال نوح عليه السلام في حقّهم مخاطبًا ربّه تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[١]؛ فهنا تقتضي الحكمة الإلهيّة عدم إمهالهم بعد ذلك، ونزول عذاب الاستئصال عليهم. أجل، يبقى أنّ هذا العذاب لا يعني عقوبتهم التامّة؛ لأنّ هذا العالم ليس هو محلّ الثواب والعقاب، كما أنّه لا يتوفّر على القابليّة اللازمة لتحقّق الجزاء التامّ. فإذا تقرّر أن يُعاقب في هذا العالم مثل صدّام أو أحد الطواغيت الذين قتلوا الآلاف من الأشخاص بقنبلة واحدة، فكيف سيكون عقابهم المستحَقّ؟ فلو أنّ أحدًا قتل آخر ظلمًا، فإنّ بوسعنا الاقتصاص منه، لكن كيف يتسنّى لنا الاقتصاص في هذا العالم من الذي أسال دماء آلاف الأبرياء؟ حيث تدلّ القابليّة الضعيفة والضيّقة للدنيا على ضرورة وجود عالم آخر يتوفّر على القابليّة اللازمة لهكذا ثواب وعقاب عظيمَين.

وأمّا الاحتمال الآخر، فأن يُنزل البارئ عزّ وجلّ في هذا العالم ثوابًا وعقابًا محدودَين في حقّ جميع الناس. وقد تحدّث سبحانه عن هذا الاحتمال أيضًا، ولم يُهمل في قرآنه الكريم شيئًا - فإن لم نرجع إلى هذا

---

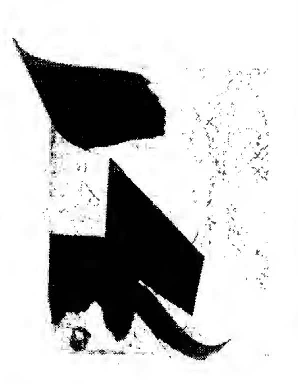
(١) سورة نوح، الآية ٢٧.

الكتاب السماويّ، ولم نستفد منه، فإنّ ذلك يعود إلى تقصيرنا نحن - وقد ورد في آخر سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ [فإنّهم سيُعاقبون وفقًا لأعمالهم] فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾[1]. فلو تقرّر أن يُجازي البارئ عزّ وجلّ كلّ من ارتكب في هذا العالم معصيةً في الحين، وبوسع قابليّة هذا العالم، فإن أيًا من الموجودات لن يبقى حيًا. ومن باب المثال، حينما وقع طوفان نوح، فإنّ الهلاك لم يقتصر على بني البشر، بل شمل حتّى الحيوانات، سوى تلك التي ركبت السفينة. وفي الحقيقة، فإنّ الله تعالى يُؤخّر عذاب العصاة إلى أجل معيّن يطّلع عليه هو فقط.

ومن هنا، فإنّ عدم تناهي الرحمة الإلهيّة لا يعني عدم ابتلاء أيّ أحد بالمحن، ونقول أكثر من ذلك، إنّ الرحمة منشأ للعديد منها، حيث جُعلت هذه الشدائد سببًا لاستحقاق الإنسان كمالات وجزاءات أكثر، أو للاحتراز من وقوع الآخرين في الضلال.

---

(١) سورة فاطر، الآية ٤٥.



«أنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لِعِبادِكَ بابًا إِلَى عَفْوِكَ، وسَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ، وجَعَلْتَ عَلَى ذلِكَ الْبابِ دَلِيلًا مِنْ وَحْيِكَ لِئَلَّا يَضِلُّوا عَنْهُ، فَقُلْتَ تَبارَكَ اسْمُكَ: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾**، فَما عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذلِكَ المنزلِ بَعْدَ فَتْحِ الْبابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ».**

١. باب التوبة

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في هذه الفقرة من دعاء الوداع مناجيًا ربّه: «أنت الإله الذي فتح لعباده بابًا إلى عفوه»، وكأنّه عليه السلام يشبّه محلّ

العفو بساحة عظيمة جعل الله تعالى لها بابًا مفتوحًا في وجه الناس اسمه التوبة، لكن أين يقع هذا المحلّ؟ يعتبر الإمام السجّاد عليه السلام الوحي دليلَ هذه الساحة، والذي يُقاد العبادُ بواسطته نحو باب التوبة، حتّى لا يقعوا في الضلال؛ فعنوان محلّ العفو هو هذه الآية الشريفة التي يقول فيها الله عزّ وجلّ: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، في ذلك اليوم الذي لا يُخزي فيه الله تعالى الرسول وأتباعه، بل يُعزّهم؛ وهو اليوم الذي يسير فيه أولياء الله تعالى نحو الجنّة الموعودة، في حين أنّ نورهم يشعّ أمامهم وعن أيمانهم؛ ومع أنّهم يتوفّرون على هذا النور، إلّا أنّهم يطلبون من الله تعالى أن يُتمّ نورهم ويغمرهم بغفرانه.

وفي نهاية هذه الفقرة، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «حينما فتح الله تعالى مثل هذا الباب، ودلّ على عنوانه، لم يبق لأيّ أحد العذر لعدم دخول ذلك الباب». وبحقّ، كيف يتسنّى لنا بيان عظمة ذلك اليوم وذلك الباب وآثاره وبركاته بالقلم والكلام؟ لقد مهّد لنا مالكنا الرؤوف هذه الطريق، ودعا عباده الفقراء إلى هذه الوجهة بندائه العذب؛ وفي هذه الحالة، إذا كان المستجدي كسولًا، وذا همّة ضعيفة، ولم يمدّ يده لهذه المائدة الكريمة، وبقي محرومًا وجائعًا، وسلك سبيل الانحراف، فمن الذي يستحقّ اللوم؟ أهو الكريم لكرمه، أم اللئيم للؤمه؟ «**فَما عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذلِكَ المنزلِ**».

وبكلّ تأكيد، إنّ هذه الفقرات الواردة في ذكر الصفات الإلهيّة تُعِدّ العبد لنيل الرحمة الإلهيّة، وتُهيّئه للتوبة وطلب المغفرة؛ فاختيار هذه الصفات يرجع إلى تناسبها مع نهاية شهر رمضان المبارك، لأجل أن يرجو العبد من ربّه الغفران إذا كانت لا تزال لديه بعض الـزلّات، ويلج في

منزل عفوه ورحمته، فهناك العديد من الآيات التي تتحدّث عن التوبة في القرآن الكريم، نظير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[1]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[2]، لكنّنا نرى أنّ هذه الفقرة قد اختارت من بين جميع الآيات التي تحدّث فيها الله تعالى عن التوبة آيةً جرى فيها استعراض مجموعة من الصفات الخاصّة.

٢. التوبة رحمة أعلى بكثير من العدل

في هذا المقام، يُطرح علينا التساؤل الآتي: إذا قضى الإنسان مدّة من عمره في الأعمال الحسنة، ومدّة أخرى في الأعمال السيّئة، فإنّ من المؤكّد أنّ الله تعالى لن يعتبر كافّة أفعاله سيّئة، بل سيجعل له ثوابًا على أفعاله الحسنة. وحينئذ، يأتي السؤال: ما هو الدور الذي تضطلع به التوبة في تحديد مصير الإنسان؟

في الجواب، بوسعنا القول: إذا فرضنا عدم وجود التوبة، وكان من المقرّر أن يُثاب كلّ واحد على حسناته، ويُعاقب على سيّئاته، فإنّ الذي قضى نصف حياته في أعمال حسنة، ونصفها الآخر في أعمال سيّئة ينبغي أن تُقسّم حياته الأخرويّة إلى قسمَين أيضًا، فيعيش في الفترة الأولى من عمره مثلًا في جهنّم، والثانية في الجنّة؛ وهذا هو عين العدل. لكن، إذا تاب العبد العاصي، ولم يعد إلى ارتكاب الذنوب، فإنّ معاصيه السابقة سيُتجاوز عنها بسبب التوبة، وتُمحى عقوبتها، بحيث يصير كأنّه لم يرتكب معصية أبدًا. وهذه هي الخاصّية التي تمتاز بها التوبة، وهو تفضّل عظيم جدًّا. فلو أنّ الله تعالى عذّب المذنب على ذنوبه، وأثابه على

---

(١) سورة الروم، الآية ٥٣.

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٥.

حسناته، لكان ذلك عين العدل؛ لكنّ الإله الذي «سبقت رحمتُه غضبَه»[١] بنى أفعاله على التفضّل الذي يفوق العدل بكثير. فالتفضّل الإلهيّ الخاصّ الذي يتعلّق بالتوبة يكمن في أنّه تعالى يغفر للعبد - الذي يتوب توبة حقيقيّة ويُؤدّي ما يلزم التوبة النصوح - جميع ذنوبه السالفة؛ فرغم كونه قد لوّث وجوده برجس الذنوب لعشرات السنين، وقضى معظم حياته في المعاصي الكبيرة، إلّا أنّ التوبة تأتي كالماء الزلال، وتهطل على جسد هذا الإنسان، فيصبح كأنّه لم يعبر أبدًا من وادي النجاسات؛ فيا له من فضل وكرم عظيم!

فبأيّ مقياس يُمكننا أن نقيس سعة هذا البحر؟! إنّ هذا العفو الكبير لا يُمكننا مقارنته أبدًا بتلك الرحمة التي تحكي عن مضاعفة ثواب العبادة عشر مرّات. وهذا هو كلام الله تعالى الذي يقرؤه عبادُه: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ﴾[٢]، ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾[٣]، فبمقتضى هذه الآيات، فإنّ الله تعالى يعفو، ويتغاضى، ويغفر، ويُبدّل شجرة العصيان الخبيثة بشجرة الحسنات: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾[٤].

٣. الندم والتعويض شرطان أساسيّان لقبول التوبة

السؤال الآخر الذي يُطرح هنا هو: هل تعمّ التوبة جميع الذنوب أم لا؟ فظواهر الآيات القرآنيّة مختلفة بشأن هذه المسألة، بحيث قد يُتصوّر وجود تعارض بين هذه الآيات. ومن باب المثال، يقول الله تعالى في

---

(١) محمد بن محمد بن النعمان العكبريّ البغداديّ (الشيخ المفيد)، **كتاب المزار**، مناسك المزار، الصفحة ١٦١.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٧١؛ سورة الأنفال، الآية ٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية ٥٢.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٧٠.

سورة الزمر النورانيّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[١]، كما نقرأ في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[٢]؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الظاهر من بعض الآيات أنّ لتأثير التوبة في غفران الذنوب شروطًا؛ فلا يكفي قول: «أتوب إلى الله»، أو «أستغفر الله» في العفو عن كافّة المعاصي السابقة التي ارتكبها التائب، حتى ولو كان صادقًا في توبته، بل إنّ قبول هذه التوبة متوقّف على مجموعة من الشروط؛ مثل قول الباري عزّ وجلّ في سورة الفرقان: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾[٣]، حيث اشتُرط على بعض العصاة القيام بعمل صالح خاصّ؛ وهؤلاء هم الذين يكتمون الحقائق الدينيّة، ولا يُبلّغون الناس بما هو لازم وضروريّ، لا سيّما علماء أهل الكتاب الذين أخفوا الحقائق المتعلّقة بالإسلام ورسول آخر الزمان مع أنّهم كانوا ملزمين ببيانها للناس، حيث لن يُغفر لهم، إلّا أن يتوبوا، ويُظهروا للناس ما كانوا أخفوه من قبل. ويقول الله تعالى عن هؤلاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤]؛ فهذه في الحقيقة هي لوازم التوبة الخالصة والنصوح.

ففي معظم الحالات، إذا ندم المذنب على ذنبه حقيقة، واعتقد أنّه قد أقدم بفعله هذا على تدمير سعادته، وبيع النعم الإلهيّة بنار جهنّم،

---

(١) سورة الزمر، الآية ٥٣.

(٢) سورة النساء، الآيتان ٤٨ و١١٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٧١.

(٤) سورة البقرة، الآيتان ١٥٩ و١٦٠.

فإنّ الدموع ستنهمل من عينيه، وسيلقي اللوم على نفسه، ويسعى لتدارك ما فاته؛ ومن باب المثال، إذا ترك أداء صلاة الصبح، ثمّ ندم على ذلك، فإنّه سيعمد إلى قضائها؛ وإذا ضيّع حقوق الآخرين، فإنّه سيسعى لتعويضهم. فلو أنّ العاصي ندم حقيقةً على فعله، فإنّ ندمه سيستتبع تلك اللوازم. ولهذا، حينما قال شخص في محضر أمير المؤمنين: «أستغفر الله»، وشعر الإمام عليه السلام أنّ هذا الذكر مجرّد لقلقة لسان، فإنّه عاتبه، وقال له: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ أَ تَدْرِي مَا الِاسْتِغْفَارُ؟»، ثمّ قال:

«الِاسْتِغْفَارُ [...] اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، والثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَدًا، والثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ [...] والرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، والْخَامِسُ [وهو الأعجب من البقيّة] أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ [وبعبارة أخرى، إذا ندم الإنسان حقيقةً على ذنبه، عليه أن يُطهّر ساحة وجوده من كلّ ما نما منها من المال الحرام؛ وكما أجاز لنفسه نموّ هذا اللحم على بدنه من السحت، عليه أن يسعى للتخلّص منه؛ لأنّ هذه النجاسات لن تسمح له بدخول الجنّة]، والسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ»[1].

فمن خلال هذا العزم الراسخ، يُمكن الكلام، وقول: «أستغفر الله ربّي وأتوب إليه»؛ وفي هذه الحالة فقط، يُمكنه أن يسمع كلام الله تعالى الذي يقول فيه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[2]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[3].

---

(١) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي صالح، الحكمة ٤١٧.

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٥.

(٣) سورة الزمر، الآية ٥٣.

لكن، حذار أن نظنّ أنّ طريق التوبة مغلق أمامنا إذا لم نملك الهمّة للقيام بكلّ هذه الأعمال؛ إذ قيل لنا من أجل تشجيعنا: «كلّما تقدّمتم في هذا الطريق خطوة، وفي كلّ لحظة تذكرون الله تعالى وتندمون على أفعالكم السيّئة، ينقص عقابكم». ولكن إذا أردنا أن تتمّ توبتنا، ونكون من التوّابين الذين اعتبرهم القرآن الكريم من محبوبي البارئ عزّ وجلّ، الذين قال عنهم الحقّ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[1]، علينا أن نلتزم بتلك اللوازم. إذ للتوبة مراتب أوّلها أن يندم العاصي حقيقةً، وقد جاء في الرواية: «كَفَى بِالنَّدَمِ تَوْبَةً»[2]، فلو أنّ المذنب ندم حقيقةً، فإنّ ندمه هذا توبةٌ؛ وعلامة الندم الحقيقيّ أن يمتنع النادم عن ارتكاب المعصية إذا تهيّأت الأسباب في اللحظة التالية لتكرارها. لكن، إذا كان ندمه سطحيًّا، فإنّه سيرتكب الذنب مرّةً أخرى، ويختفي أثر توبته، شأنه في ذلك شأن الأمواج العاتية التي تثور عند هبوب الرياح، ثمّ تهدأ بعد مدّة قصيرة، وتسكن فورتها مثل السابق؛ فهل من الممكن القبول بهكذا توبة؟

ولا يخفى أنّ القرآن الكريم صرّح بعدم الرضى عن توبة بعض الأفراد مطلقًا، نظير ما جاء في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾[3]، حيث عمل هؤلاء في الحقيقة على سدّ باب التوبة أمام أنفسهم. ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ [...] وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾[4]،

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٢) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٤٢٦.

(٣) سورة النساء، الآية ١٣٧.

(٤) سورة النساء، الآيتان ١٧ و١٨.

والمصداق التامّ لهذه الآية فرعون الذي لم يُؤمن حتّى حان وقت غرقه، فكان يعد موسى على الدوام قائلًا: «إذا قمت بالمعجزة الكذائيّة، فإنّني سأؤمن بك»، غير أنّ قلبه كان مكبّلًا بأمر آخر، ولم يكن مصمّمًا على الاعتراف بالحقّ، إلى أن حلّ يوم الانتقام؛ وفي النهاية، وحينما أصبح على مشارف الغرق، قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[1]، لكنّ جبرائيل عليه السلام وضع في فمه حفنةً من الطين وقال: «لم يعُد هناك مجال لهذا الكلام، فبماذا سينفعك قول «آمَنتُ» في هذا الوقت الذي ترى فيه أنّك ستموت ذليلًا؟». ففي هذه الآية، يقول الباري عزّ وجلّ إنّ هذه التوبة غير مقبولة، وهي توبة - بأحد المعاني - زائفة، بل إنّها مجرّد حيلة. فلو فرضنا أنّ هذا الإنسان ندم وسعى للتراجع في اللحظات الأخيرة قبل موته، فإنّه لن يكون قصد التوبة حقيقةً؛ ولو أنّه لم يكن قد واجه الموت، لما كان أقدم على التوبة أبدًا؛ فهكذا إنسان مستثنى من القاعدة، ولن تُقبل توبته بتاتًا، بل إنّ توبته لم تكن حقيقيّة من الأساس، وفي الحقيقة، فإنّ توبته نوع من أنواع الاحتيال.

٤. الجهل النظريّ والجهل العمليّ

توجد في الآية التي أشرنا إليها سابقًا مسألة مبهمة تجب إماطة اللثام عنها، تتمثّل بقيد «بِجَهالَةٍ»، حيث ذكر البعض أنّ مراد هذه الآية أنّه إذا كان أحد جاهلًا بقبح الفعل، وارتكبه، ثمّ علم بعد ذلك بأنّه قام بفعل قبيح، وتاب، فإنّ توبته ستكون مقبولةً؛ وأمّا إذا كان يعلم منذ البداية بقبح ذلك الفعل، ومع ذلك قام به، فإنّ الله تعالى لم يجعل له الحقّ في قبول توبته. أجل، إذا رضي الباري عزّ وجلّ بتوبة هذا العبد بتفضّله، فإنّه

---

(١) سورة يونس، الآية ٩٠.

سيكون قد رفق به كثيرًا؛ وإلّا، فلا مجال هنا للعبد لكي يعترض ويُطالب بشيء، كما أنّه لا يملك أيّ حقّ على الله تعالى. هذا، وقد بيّنا آنفًا أنّ المراد من الحقّ الذي نمتلكه على الله تعالى هو ذلك الحقّ الذي جعله الله تعالى على نفسه لعباده. ومن هنا، فإنّ مقصود هؤلاء العظماء أنّ الله تعالى لم يجعل حقّ التوبة للذين يرتكبون المعصية مع علمهم بقبحها وسوئها. لكن، هناك طائفة أخرى من العظماء تعتقد أنّ المراد من الجهالة هنا ليس هو الجهل وعدم الاطّلاع على الحكم، بل المراد منها السفاهة[1].

وعمومًا، فإنّ للجهل والجهالة نوعَين من الاستعمال في اللغة العربيّة: فتارةً يُستخدم الجهل في مقابل العلم (العلم النظريّ الذي يعني التعرّف على واقعيّة ما)، وتارةً يُستخدم في معنى العمل غير العقلانيّ، فيقع حينئذ في مقابل العقل. وقد جُعل الجهل في موسوعاتنا الروائيّة - نظير كتاب **الكافي** الشريف الذي يُعدّ من أقدمها وأكثرها اعتبارًا - في مقابل العقل، حيث إنّ أوّل باب منه هو باب «العقل والجهل»، ثمّ يأتي بعده باب «العلم». واستُعمل «الجهل» في القرآن الكريم في موارد يوجد فيها علم ظاهريّ، من دون أن يكون الإنسان فيها جاهلًا مطلقًا.

وإن للجهل الواقع في مقابل العلم ثلاث حـالات: الأولـى، أن لا يكون الإنسان ملفتًا إلى المسألة أبدًا، فلا يُطرح عليه كلّ من الموضوع والمحمول (سلب العلم)؛ نظير حال العديد من الأفراد العاديّين تجاه العلوم الدقيقة، لا سيّما الرياضيّات العالية التي لا تُطرح علينا بتاتًا بعض اصطلاحاتها ومسائلها، ولا نملك عنها أيّ سؤال، وذلك لخلوّ أذهاننا عن

(١) راجع: محمد محسن الفيض الكاشاني، **الأصفى في تفسير القرآن**، الجزء ١، الصفحة ١٩٩.

أيّ تصوّر عنها. والحالة الثانية، أن يُواجه الإنسان سؤالًا، لكنّه يكون جاهلًا بجوابه، وهذا هو الجهل البسيط (عدم العلم عمّا من شأنه أن يُعلم). والثالثة، أن يظنّ الإنسان أنّه عالم بجواب السؤال، لكنّ جوابه يكون خاطئًا (الجهل المركّب). إنّ هذه الحالات بأجمعها تتعلّق بقضايا خبريّة تحكي عن أنّ الفعل الكذائيّ هكذا، أو ليس كذلك؛ فإمّا أكون عالمًا بأنه بهذا النحو، أو أنّه ليس كذلك.

وأمّا الاستعمال الآخر للجهل، فيتعلّق بالفعل السفيه وغير العقلانيّ، حيث جرى في العديد من مواضع القرآن الكريم استخدام هذه الكلمة في هذا المعنى؛ مثلما قال نبيّ الله لوط مخاطبًا قومه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1]، حيث تعني عبارة ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ في هذه الآية: «أنّكم أناس يقومون بأفعال جاهلة»، ففعل «تجهلون» لا يعني «أنّكم لا تعلمون بقيامكم بفعل قبيح»، إذ ليس الجهل عيبًا كبيرًا، وكلّ شخص يجهل بمسائل كثيرة، لكن «أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» عبارة عن أسوأ إهانة يُمكن توجيهها لهؤلاء الأفراد، ومعناها: «ما أسفه العمل الذي تقومون به!».

وقد وردت في سورة البقرة قصّة عن بني إسرائيل استُعملت فيها عبارة من هذا القبيل، جاء فيها أنّ طائفتين من بني إسرائيل اختلفتا فيما بينهما، وحدثت في هذه الأثناء جناية، واتُّهم القوم الذين عُثر على جثّة المقتول في منطقتهم بالقتل، ممّا أفضى إلى وقوع خلاف شديد بين تلكما الطائفتَين؛ فذهبوا في الأخير عند نبيّ الله موسى للحكم بينهم. ولإنهاء المشكلة، أمر البارئ عزّ وجلّ بذبح بقرة، وضرب المقتول بذيلها،

---

(١) سورة النمل، الآية ٥٥.

ليحيا الميّت بإذنه تعالى ويُخبرهم عن قاتله. ولهذا السبب، سُمّيت هذه السورة الكريمة بسورة البقرة. وقد قام نبيّ الله موسى عليه السلام بإطلاع الناس على الأمر الإلهيّ، لكنّهم بعد سماع كلامه قالوا متعجّبين: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[١]، فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٢]، حيث كان يريد القول: إذا سخرت من الناس، فإنّني سأكون قد قمت بفعل جاهل.

ولا يخفى أنّ تعبير القرآن الكريم عن هذه المسألة في قصّة نبيّ الله يوسف عليه السلام أصرح؛ ففي ذلك الموضع، يُخاطب النبيّ الكريم عليه السلام إخوته قائلًا: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾[٣]؛ ففي هذه الآية النورانيّة، ليس المراد من «الجاهلون» أنّ أولاد يعقوب لم يكونوا على علم بأنّ يوسف أخوهم، وبأنّ إلقاء الأخ في البئر أو قتله عمل قبيح، بل المراد من هذه الكلمة أنّهم ارتكبوا في حقّ يوسف عملًا غير عقلائيّ.

ومن الجدير بالذكر أنّه في اللغة الفارسيّة أيضًا تُستعمل مفردة «نادان» للدلالة على المعنيين معًا (الذي لا يعلم بإحدى الحقائق، والذي يقوم بعمل أخرق)؛ بينما تُستخدم كلمة «نابخرد» في حقّ الذي لا يُحسن الاستفادة من عقله، ويرتكب أفعالًا طائشة.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٦٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ٦٧.

(٣) سورة يوسف، الآية ٨٩.

٥. التوبة من العمل الجاهل

١١٢ في هذه الآية الكريمة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾[١]، ويُراد فيها من الجهالة العمل غير العقلائيّ والأخرق، ولا تعني هنا عدم العلم، بل المراد منها تلك الطائفة من الناس التي تمتلك العقل، إلّا أنها عطّلته، ولم تستعمله؛ فعقلها إمّا منطفئ وخامد، وإمّا خاضع للشهوة والغضب.

ففي هذه الآية النورانيّة، يُراد من الذين يرتكبون المعصية بجهالة أولئك الذي يقومون بفعل سيّئ نتيجةً لحماقتهم وطيشهم، ثمّ يندمون مباشرةً، ويسعون لتدارك الأمر، حيث يُعدّ أمرًا طبيعيًّا بالنسبة للمؤمن أن يرتكب المعصية، ثمّ يتوب في الحين؛ والله تعالى يُشجّع هكذا إنسان، لكنّه في المقابل يقول: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾[٢]؛ إذ لن تُقبل هذه التوبة، لأنها في الحقيقة ليست توبة.

فالمراد من عبارة «من قريب» في هذه الآية: قبل حلول الموت؛ أي إنّ الله تعالى يقبل توبة أولئك الذين يرتكبون المعصية عن جهالة، ويتوبون قبل رؤية آثار الموت، مع أنّهم قد يكونوا مطّلعين على قبح عملهم. وفي الحقيقة، فإنّ الموت قريب جدًّا، ولو طالت مدّة حلوله لسنوات مديدة، كما نقرأ في الكتاب المجيد: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية ١٧.

(٢) سورة النساء، الآية ١٨.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٥.

فالإنسان العاقل متى ما التفت إلى الضرر الذي يترتّب على فعل ما، فإنّه لا يُقدم عليه؛ اللهمّ إلّا أن تقف في تلك اللحظة بعض الموانع أمام عقله. وعليه، فإنّ الله تعالى لا يُريد أن يقول في هذه الآية إنّ التوبة مختصّة بالذين لم يكن لهم علم بقُبح الفعل، وإنه لا يخفى أنّ عدم اطّلاع هؤلاء على هذا التكليف ناجم عن تقصيرهم في تعلّم التكاليف الإلهيّة، ولهذا، فقد ارتكبوا في الحقيقة معصية، وتنبغي مؤاخذتهم على ذلك، لأنّ تحصيل العلم واجب. لكن، إذا كان الجاهل غير مقصّر في جهله، فإنّه لن يكون قد وقع في المعصية حقيقة، حتّى تلزمه التوبة.

فيبدو أنّ تفسير الجهل في هذه الآية بالحمق والطيش أقوى من التفسير الأوّل. وخلاصة القول، إذا قام الإنسان بعمل سيّئ، ثمّ ندم، وعزم على قضاء بقيّة عمره من دون معصية، في حين أنّه كان لا يزال يحتمل الحياة، ويمتلك القدرة على تكرار الذنب مرّة أخرى، فإنّه سيكون في الحقيقة قد وُفّق للتوبة النصوح، سواء بقي من عمره - فعليًّا - ساعة واحدة، أو مئة سنة. ومن هنا، يُستفاد من الروايات المتظافرة أنّ المراد من التوبة النصوح توبة الذي يستوي ظاهره وباطنه، وحينما يقول: «لقد ندمت»، فإنّه يكون نادمًا على ما ارتكبه من أعماق قلبه، وعازمًا على ترك المعصية للأبد.

وعليه، فإنّ الذي يتحصّل من هذا الفقرة من دعاء الوداع الشريف أنّ الإمام السجّاد عليه السلام يُناجي ربّه قائلًا: «إلهي، علاوةً على أنّك لا تستعجل في معاقبة العصاة، فإنّك فتحت لهم بابًا للعفو، ودعوت عبادك لولوج هذا الباب»، حيث تتمثّل الخاصّية العجيبة لهذه الساحة في غفران كافّة ذنوب العاصي عند دخولها؛ ولو كان قد لوّث روحه وجسده بالعصيان لمائة سنة؛ والأرقى من ذلك أنّ كلّ هذه المعاصي سوف

تُستبدل بالحسنات، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾[1].

(١) سورة الفرقان، الآية ٧٠.

«وَأَنْـتَ الَّـذِي زِدْتَ فِي السَّـوْمِ عَلَى نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ، تُـرِيـدُ رِبْحَـهُـمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ، وفَوْزَهُمْ بِالْوِفَادَةِ عَلَيْكَ، والـزِّيَـادَةِ مِنْكَ، فَقُلْتَ تَـبَارَكَ اسْمُكَ وتَعَالَيْتَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[1]**، وقُلْتَ:** ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾[2]**، وقُلْتَ:** ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾[3]**، ومَا أَنْزَلْتَ مِنْ نَظَائِرِهِنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَضَاعِيفِ الْحَسَنَاتِ».**

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

١. التجارة مع الله تعالى مظهر آخر للرحمة الإلهيّة

١١٦ في الفقرة السابقة، اطّلعنا على مظاهر هذه الرحمة اللامتناهية من خلال كلام زين العابدين، وفي تتمّة الدعاء، يتحدّث عليه السلام عن هذه المظاهر بأسلوب آخر، ويقول: «إلهي، من زيادة لطفك واهتمامك بهداية عبادك وكمالهم، وحرصك على إعدادهم لنيل رحمتك الخاصّة أن شجّعتهم على سلوك هذا الطريق مستعملًا بيانات مختلفة؛ من بينها أنّك صوّرت حال عبادك معك كحال فردَين يعقدان صفقة، مع فارق أنّ المشتري يريد هنا دفع مال أكثر، بينما نحن نعلم أنّ كلّ واحد من طرفَي المعاملة يسعى عادةً لتحصيل ربح أكبر، حيث يعمد البائع إلى الرفع من سعر بضاعته، ويعمل المشتري في المقابل على دفع ثمن أقلّ. ففي هذه العلاقة التي أقمتها، اعتبرت أوّلًا أنّ العبد مالك لأعماله؛ وثانيًا، لم تُحدّد ثمن البضاعة وفقًا لسعر السوق العادل، بل قيّمتها بعشرة أضعاف أو أكثر؛ وثالثًا، دعوت البائع لكي يبيعك بضاعتك؛ وهذا هو غاية اللطف».

فقد استعمل البارئ عز وجل، في العديد من الآيات، كلمة «التجارة» لأجل حضّ عباده على الحركة تجاه السعادة؛ نظير الآية الكريمة التي نقرأ فيها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]؛ ففي حين أنّ البائع والمشتري يكون لديهما ما يُبادلانه، إلّا أنّ العبد لا يملك هنا أيّ شيء من نفسه حتّى يُقدّمه لله، بل إنّ كلّ ما يملكه هو منه، حيث إنّ الباري عزّ وجلّ قد اعتبر بلطفه العبد الفقير مالكًا لأفعاله، وقال له: «اعرض عليّ بضاعتك لكي أشتريها منك بسعر باهظ لا يُعادل قيمتها الحقيقيّة في السوق، بل أُضاعفها عشرات ومئات المرّات».. فما الذي تعنيه هذه الدعوة، سوى لطف المولى الرؤوف الذي لا حدّ له ولا حصر؟

---

(١) سورة الصفّ، الآية ١٠.

٢. أحسن مشترٍ لأعمال الإنسان وأسماله

«أَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السَّوْمِ عَلَى نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ»؛ فكلمة «السوم» تعني تفاوض البائع والمشتري على الثمن زيادةً ونقصًا؛ حتّى يصلا إلى اتّفاق. في هذه الفقرة، يُناجي الإمام عليه السلام ربّه قائلًا: «في هذه الصفقة، رفعت السعر على حسابك ولمصلحة عبادك، ووأيت على نفسك أن تشتري شيئًا له ثمن محدّد بعشرة أضعاف قيمته؛ فهل يوجد من يعقد صفقةً بهذا السخاء؟».

«تُرِيدُ رِبْحَهُمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ، وفَوْزَهُمْ بِالْوِفَادَةِ عَلَيْكَ، والزِّيَادَةِ مِنْكَ»؛ فالله تعالى يُريد في هذه الصفقة مع عباده ربحَهم، فهو لا يحتاج إلى ربح، بل يعقد تلك الصفقة ليفتح بابًا لعباده من أجل تحصيل منفعة؛ أي إنّ الإله الرؤوف يُريد من عباده أن يتوجّهوا إليه، ويفِدوا عليه، لكي يُحسن ضيافتهم أكثر، ويجود عليهم أكثر.

هذا، ويستعين الإمام السجّاد عليه السلام ببعض الآيات القرآنيّة الكريمة لاستعراض نحو آخر من مظاهر الرحمة الإلهيّة، نظير الآية التي يقول فيها الباريُ عزّ وجلّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[1]، حيث إنّه تعالى يُضاعف ثواب العمل الحسن، لكنّه يُعاقب الذي عمل السيّئة بنفس مستوى القيمة السلبيّة لعمله القبيح؛ مع أنّ سبب هذا العقاب أنّ اختياريّة أفعال الإنسان تقتضي حصوله على ثواب في مقابل حسناته؛ بينما تترتّب على أفعاله السيّئة نتيجة سيّئة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

وذكر الإمام عليه السلام الآية التالية أيضًا: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1]، حيث نجد الله تعالى، ولكي يحضّ عباده على العمل الحسن المتمثّل بالإنفاق في سبيل الله تعالى، يُشبّه إنفاقهم ببذرة تُزرع في حقل، فتنتج عنها سبعمئة حبّة؛ فكأنّ البارئ عزّ وجلّ هيّأ لعباده أرضًا، لكي يزرعوا فيها بذورًا بواسطة أعمالهم الحسنة، مع أنّه تعالى مالك للأرض والبذور وناثر البذور؛ إلّا أنّه بيّن المسألة كأنّ الأرض ليست له، وناثر البذور يعمل بقدرته الخاصّة، ويُريد أن يُستفيد من زراعته. فبمقتضى هذا الفرض، يُخاطب الله تعالى عباده قائلًا: «إذا كان هذا البذر الذي زرعتموه منسجمًا مع الطريق الذي عيّنتُه، فإنّ المحصول الناتج عنه سيعود عليكم بسبعمئة ضعف». فالإله الغفور حدّد سابقًا ثواب العمل الصالح بمقدار عشرة أضعاف، لكنّه هنا يُضاعفه إلى سبعمئة مرّة. هذا، وإنّ السبعمئة ضعف ليست هي النهاية، بل إنّه تعالى يزيد على ذلك لمن يريد: ﴿ٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾. ولعلّ الآية المبحوث عنها تحكي عن حقيقة أنّ درجات قيمة الأعمال مختلفة، بحيث يكون مستوى معرفة الناس وإخلاصهم وإيثارهم مؤثّرًا في تحديد قيمة أعمالهم؛ فكلّ من كانت معرفته أكبر، وأدّى أعماله بإخلاص أعلى، واتّصف بالعفو، وضحّى أكثر، استحقّ ثوابًا أكبر. وبالنظر إلى وجود هذه التجارة المربحة، فمن الأولى علينا أن نزرع في طريق حدّده الله تعالى.

ولعلّ ما يقتضيه الكلام في هذه الآية بدوًا أن يقول الله تعالى «تُنبت» بدلًا عن «أنبتت»؛ لكنّه أتى بالفعل الماضي، لكي يبيّن المسألة بنحو يقينيّ لا يقبل التشكيك؛ فكأنّ البئري عزّ وجلّ يقول: «لقد نبتت

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

هذه السنابل فعلًا، بحيث تتوفّر كلّ سنبلة على مئة حبّة»؛ كما جاء في نهاية الآية: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، لكي تُشير إلى أنّ السبعمئة ضعف لا تُمثّل غاية الجود الإلهيّ؛ وحينما قال الله عزّ وجلّ: «لمن يشاء»، فإنّنا نعلم بأنّ مشيئة الله تعالى ليست اعتباطيّة، لكي يُعطي أحدًا أكثر، والآخر أقلّ من دون سبب؛ بل إنّ مشيئه تابعة لحكمته. ومن هنا، متى ما اقتضت حكمة الحقّ تعالى، فإنّه يمنح أكثر من سبعمائة حبّة، وذلك في مثال الموارد التي يُؤدّى فيها العمل بإخلاص وإيثار أكبر.

٣. اقتراض الله تعالى من خزائنه

جاء في الآية الأخرى التي تلاها الإمام السجّاد عليه السلام: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾[1]، وهذه الآية عبارة عن بيان آخر لتشجيع الناس على فعل الحسنات، لكي يصيروا بذلك أهلًا لنيل الفيوضات الإلهيّة الخاصّة، حيث إنّ هذه الأهليّة لا تحصل إلّا عن طريق الأفعال الإراديّة، فحتّى الملائكة لا تملك القدرة على الوصول إلى هذه الفيوضات. فالبيان الإلهيّ الجميل في هذه الآية هو ألطف بيان يُمكن عرضه في هذا المقام، إذ إنّ مالكنا وسيّدنا خلع علينا خلعة الوجود، ومنحنا مجموعة من القوى، وسخّر لنا العديد من النعم كالأرض والماء والهواء والشمس والقمر، ووهبنا كثيرًا من الوسائل كالعلم والفهم والقدرة على العمل، حتّى صرنا قادرين على جمع القليل من المدّخرات لأنفسنا؛ مع أنّ حقيقة الأمر هي أنّنا مملوكون نحن وأموالنا لصاحب الوجود برمّته، وجميع الوسائل التي نستعين بها ملك له؛ إلّا أنّ هذا الإله العطوف اعتبر كافّة هذه الأمور ملكًا لنا، وكأنّنا خلقناها نحن، وهي

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

مملوكة لنا حقيقةً، ثمّ قال عزّ وجلّ بعد ذلك: «أقرضني مالك هذا!». ففي حين قال في الآيات السابقة: «بعني بضاعة»، أي إنّه تعالى فرض أنّه يملك بضاعة، ونحن أيضًا نملك بضاعة، فنقايضها ببعضها؛ نجده يقول هنا: «أقرضني!»، فكأنّه في مقام لا يملك فيه شيئًا، ويريد أن يستدين منّا، حيث نجده عزّ وجلّ يلجأ حتّى إلى استعمال هذا البيان لكي يحثّنا على الإنفاق في سبيله؛ فيعدّ هذا الإنفاق استدانةً منّا.

ولعلّ هذه العبارات هي التي دفعت بعض الجهّال إلى القول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾[1]. فالسبب في تلفّظهم بهذا الكلام غير المؤدّب هو ظنّهم بأنّ الله تعالى يقترض منّا فعلًا لحاجته إلى مالنا وثروتنا؛ ولهذا، أراد من خلال هذه الآية الاستدانة منّا. لقد صار هذا الكلام الإلهيّ الذي يعكس غاية لطف الله تعالى ورحمته بعباده ذريعةً للجهّال الذين أساؤوا الاستفادة منه، ليتحدّثوا بمثل هذا الكلام المشين، في حين أنّ الباريء عزّ وجلّ كان يريد بهذه الكلمات حثّ الناس على القيام بالأعمال الحسنة؛ حتّى يُحقّقوا في أنفسهم القابليّة لنيل الفيوضات الإلهيّة اللامتناهية. ولهذا السبب، جرى ذكر هذه الأساليب والأمثلة في القرآن الكريم بطرق مختلفة، وقال الإمام السجّاد عليه السلام: **«وَمَا أَنْزَلْتَ مِنْ نَظَائِرِهِنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَضَاعِيفِ الْحَسَنَاتِ»**؛ ولهذا السبب أيضًا، وردت آيات أخرى بالمضمون نفسه، وسُعي فيها إلى حضّ الإنسان على فعل الحسنات واجتناب السيّئات بالاستعانة ببيانات مختلفة. ذلك كلّه لكي يُحصّل الإنسان الأهليّة لنيل الرحمة اللامتناهية، والتي لا يُمكن حتّى تصوّرها لفرط عظمتها.

---

(١) سوور آل عمران، الآية ١٨١.

٤. الحكمة في الأمثلة الإلهيّة

من المسائل التي قلّ ما يُلتفت إليها، أنّ البارئ عزّ وجلّ ولكي يحضّ عباده على تحصيل الثواب الأخرويّ ونيل الفيوضات الأبديّة، استعمل في القرآن الكريم بعض العبارات التي قد نعثر على نظائرها في هذا العالم. فمن باب المثال، نجده تعالى يقول: «سنُدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار»، وإنّ عبارات كهذه تحظى بجاذبيّة كبيرة لدى الأفـراد الذين يعيشون في الأراضي القاحلة والجبليّة الخالية من العشب والماء؛ كما أنّ الفواكه التي تحدّث عنها القرآن الكريم بشكل أكبر هي العنب والتمر، إذ إنّ مخاطبي هذا الكتاب السماويّ لهم اطّلاع أكبر على هاتَين الفاكهتَين، فلو كان الكلام جرى عن أمور أخرى لم يتذوّقوهما بعدُ، لما شكّل ذلك لهم حافزًا كبيرًا. وهذا يصدق علينا أيضًا؛ فلو وُصفت لنا بعض الفواكه التي لم نرها قطّ، ولم نُجرّب طعمها وبقيّة خصائصها، فإنّنا لن نندفع لتحصيلها، مهما حكوا لنا عن مذاقها اللذيذ والرفيع؛ اللهمّ إلّا أن نرغب في تجربتها من باب حبّ الاطّلاع. وقد شاهدت في بعض أسفاري إلى بلدان شرق آسيا كأندونيسيا وماليزيا بعض الفواكه التي لم أرَ نظيرًا لها من قبل، بحيث إنّ طعمها لم أتذوّق شبيهه سابقًا. إنّ وصف الأشياء التي لا يمتلك الإنسان عنها أيّ تجربة لا يدفعه كثيرًا للحركة والسعي إلى تحصيلها؛ لكن، إذا وُعد الإنسان بأشياء استعملها بنفسه، واختبر لذّتها، فإنّه سيتحفّز أكثر للحصول عليها. ويُمكننا أن نُشاهد هذه الحقيقة في سلوك الطفل؛ فمتى ما أعطي الطفل الفطن طعامًا جديدًا لم يره من قبل، فإنّه لا يتناوله مباشرة، بل يتذوّق لقمةً منه، لكي يتأكّد أنّ طعمه مقبول.

وربما لو اكتفى الحقّ تعالى في دعوتنا إلى نعم الجنّة التي لا تخطر على بالنا ببيانٍ يُشير فيه إلى أنّ الجنّة تحتوي على نعم عظيمة

لا يُمكنكم تصوّرها بتاتًا، لما تحفّز الكثير من الناس إلى نيلها؛ فرغم أنّ الجنّة تحوي نعمًا كهذه حقيقةً، إلا أنّ الله تعالى لم يكتف في كتابه المجيد بذكر هذه النعم الاستثنائيّة، بل تحدّث إلى جانبها عن نعم نعرفها نحن؛ نظير لحم الطير، والعنب، والتمر، و...، حيث إنّ ذكر هذه الأمثلة التي جرّبها الناس يكون تأثيره أكبر في إيجاد الحافز لديهم.

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم في حقّ أهل قيام الليل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[١]. فنحن بأجمعنا نعلم أنّ هذا الوعد صادق، وأنّ لذائذ استثنائيّة أعدّت لهؤلاء الأفراد؛ لكنّ وعودًا كهذه لا تُحفّز الجميع عادةً؛ بينما لو وُعد على نفس ذلك العمل بمنح حوريات ذات صفات كذا وكذا، لكان تأثير ذلك أكبر. فبمقتضى لطفه، استعرض البارئ تعالى هذه الحقائق بكلام يُتيح لنا رسم صورة عنها؛ ولا يخفى أنّ ذلك لا يعني عدم وجود عنب وتمر في الجنّة، إذ من المتيقّن توفّر الجنّة على كلّ ما نرغب، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[٢]. ومن هنا، فإنّ السبب في اختيار الحديث عن العنب والتمر في القرآن هو معرفة مخاطبيه هذه النعم؛ ولو أنّ مخاطبي الكتاب العزيز كانوا أفرادًا مختلفين يعيشون في بلدان أخرى، لكان من المرجّح إيراد أمثلة أخرى فيه. ومن الشواهد على ما ذكرنا أنّ العبارة التالية استُعملت في القرآن الكريم لأجل وصف نعم الجنّة: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٣]، غير أنّ هذه الآية لا تملك ذلك التأثير الذي تتركها فينا آيات من قبيل: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[٤].

---

(١) سورة السجدة، الآية ١٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٧١.

(٣) سورة ق، الآية ٣٥.

(٤) سورة محمّد، الآية ١٥.

ونؤكّد مرّة أخرى على أنّ هذا الكلام لا يعني كون الأمثلة الواردة في الكتاب العزيز غير واقعيّة، بل إنّها موجودة كلّها قطعًا؛ لكن، ما أكثر النعم الأكبر والأرقى التي يجدر بالإنسان طلبها، غير أنّنا لا نندفع وراءها لعدم امتلاكنا لأيّ تصوّر عنها.

ولهذا السبب، فـإنّ الله تعالى ولكي يحثّنا على الإنفاق في سبيله، فقد رجّح هذا البيان الذي يستعمله عادةً الناس المتحضّرون الذين يعيشون جنبًا إلى جنب في المدن والقرى في بيعهم وشرائهم ومعاملاتهم ومبادلاتهم. وكما نعلم، فإنّ كلًّا البائع والمشتري يسعى إلى تحصيل ربح أكبر من المعاملة. فلأنّنا مبتلون دائمًا بهذه المسألة، فإنّ الله تعالى طرح هكذا أمثلة، وقال: «أنت بائع، وأنا مشترٍ؛ وكيفما كان السوق الذي تُتاجر فيه، فإنّك لن تحصّل إلّا ربحًا محدودًا؛ بينما سأعوّضك أنا عن البضاعة التي أريدها منك بعشرة أضعاف». فإذا كان الإنسان من أهل التدبّر والتفكير، فإنّه لن يشغل باله أبدًا بغير التعامل مع الله تعالى.

٥. إقراض الله تعالى هو الربح الحقيقيّ الوحيد

فإذا ما كان هناك مكان يمنح الاستثمارُ فيه ربحًا لا حدّ له، فهل سيوجد إنسان عاقل يذهب إلى مكان غيره؟ إنّ مالك الوجود برمّته يقول لنا نحن البشر: «أقرضوني مالكم وثروتكم، وسأهبكم ربحًا لا حدّ له وحصر»؛ فالكرم الإلهيّ غير محدود بأيّ حدّ، ولم يُعيّن له أيّ سقف، والسبب الذي من أجله يستعمل البارئ عزّ وجلّ هذا البيان في دعوتنا إليه: أنّ جميع الناس يُدركون معنى الربح، حيث يقول تعالى في خطابه للناس: «إذا كنتم ترغبون في إقراض مالكم لأحد، وتحصيل فائدة منه، فأقرضوني أنا؛ واعلموا أنّكم إذا أردتم إقراض مالكم لأيّ أحد، أو في أيّ مكان، لكي تحصلوا على زيادة وربا، فإنّكم لن تتمكّنوا من ذلك أبدًا»، كما جاء في

القرآن الكريم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[1]، حيث يظنّ أهل الربا أنّ مالهم يزداد، لكنّ الله تعالى يقول إنّها ليست زيادة، بل ضرر، غير أنّهم لا يُدركون ذلك. فهذا وعد إلهيّ صرّح فيه بأنّه: «إذا أقرضتموني، فإنّكم سترِبحون عدّة أضعاف؛ ومن أصدق من الله حديثًا؟».

المشكلة هي أنّ هذه الآيـات والروايات ذات الصلة بها طرقت مسامعنا كثيرًا؛ فاعتدنا على هذا الأسلوب من الكلام، ولم نعُد نأخذه على محل الجدّ. وإلا فحينما يُؤمن الإنسان بوجود مكان موثوق يُعطون فيه بإزاء البضاعة عدّة أضعاف من الربح، ما الذي قد يمنعه عن الاستثمار فيه؟ إن عدم الاستثمار مع الله تعالى ناجم عن ضعف الإيمان. وفي الواقع، فإنّنا لم نؤمن جدّيًا بوعود الحقّ تعالى. ولهذا السبب، حثّنا البارئ عزّ وجلّ بأشكال مختلفة على التعاقد معه، حيث جاء في القرآن المجيد على شكل بيان كريم ما يلي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، فهذه الكلمات تُمثّل غاية اللطف الإلهيّ بعباده الضعفاء والقصّر وذوي المعرفة الناقصة؛ لكي يُدركوا قيمة المعاملة مع الله تعالى وعبوديّته. إنّ البارئ عزّ وجلّ يعلم مقدار محبّتنا للربح، وإلى أيّ حدّ نسعى لتحصيله، ولهذا فإنّه يُنبّهنا إلى أنّ جميع التجارات الدنيويّة والمنافع الناتجة عنها محدودة، وستنتهي في الأخير؛ غير أنّ هناك تجارة بوسعها إسعاد الإنسان وتخليصه من العذاب للأبد، حيث يسألنا الله تعالى ببيان كريم وعطوف: «هل ترغبون أن أرشدكم

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٩.

(٢) سورة الصفّ، الآية ١٠.

إلى هذه التجارة ذات الربح الوفير؟». فإذا تأمّلنا قليلًا، فإنّنا سنخجل من كلام الله تعالى مع عباده الفقراء بهذا النحو؛ إذ ما هي الثروة التي يمتلكها الإنسان الضعيف والفقير، حتّى يسعى إلى إقراضها لله تعالى؟! لكن، مع ذلك، فإنّ الإله الرؤوف يستخدم هكذا بيانات في حديثه معنا، حتى ولو قال الاستغلاليّون: «من الواضح أنّ الله فقير». فحقيقةً، علينا نحن العباد المساكين أن ندعو الباريءَ عزّ وجلّ لكي يوفّقنا للاستفادة من هذه الفرصة القيّمة.

الفصل السابع: اذكروني لكي أذكركم



«وَأَنْتَ الَّذِي دَلَلْتَهُمْ بِقَوْلِكَ مِنْ غَيْبِكَ وتَرْغِيبِكَ الَّذِي فِيهِ حَظُّهُمْ عَلَى مَا لَوْ سَتَرْتَهُ عَنْهُمْ لَمْ تُدْرِكْهُ أَبْصَارُهُمْ، ولَمْ تَعِهِ أَسْمَاعُهُمْ، ولَمْ تَلْحَقْهُ أَوْهَامُهُمْ، **فَقُلْتَ:** ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، **وقُلْتَ:** ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾».

١. الدعوة إلى الذكر والشكر باعتبارهما مظهرَين آخرَين للرحمة

في القسم الأوّل والفقرات السابقة من دعاء الـوداع، استعرض الإمام السجّاد عليه السلام من خلال الآيات القرآنيّة مجموعةً من الأسماء الإلهيّة الحسنى ومظاهر رحمة الله ولطفه التي يقتضي كلّ واحد منها شكره تعالى مدى الحياة، حيث كان الهدف من ذكر هذه المظاهر الرحمانيّة إعداد القلوب لنيل رحمة أكثر.

أما هنا، فيُشير الإمام عليه السلام إلى مسألة أخرى، ويُغيّر كذلك أسلوب كلامه قائلًا: «إلهي، أنت الذي أرشدت عبادك إلى شيء لو أنّك أخفيته عنهم، لما رأته أيّ عين، ولا سمعته أيّ أذن، ولا بلغه أيّ وهم أبدًا؛ فأنت وحدك الذي أخبرت من غيبك الناس بهذه المسألة بواسطة رسولك، ودللتهم على وجود هذه الحقيقة التي هي على درجة من الأهمّية، بحيث يعجز كلّ كلام عن بيانها، ولا يُمكن لأيّ لفظ توضيحها بشكل صحيح؛ فهذه الحقيقة هي التي أخبرت عبادك عنها في الآيات الكريمة بقولك: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾،[1] وأيضًا: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾»[2].

وقد طُرحت العديد من الأبحاث بشأن الآيات السابقة، وبخصوص مسألة الذكر والشكر[3]، كما أنّنا تحدّثنا عن هذا الموضوع في العديد من المناسبات بمقدار ما وفّقنا الله تعالى لذلك، لكنّني لا أذكر أنّني استفدت في أي مورد من عبارة الإمام السجّاد عليه السلام التي يقول فيها: «لقد بيّن الله تعالى لعباده في هذه الآيات مسألةً لم يكونوا ليطّلعوا عليها لولا أنّه أطلعهم عليها»، فحينما قرأت هذه الدعاء، أثارت هذه الجملة انتباهي كثيرًا، فكأنّني أشاهد عبارة كهذه لأوّل مرّة.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٧.

(٣) في السنوات السابقة، تباحثنا مع الأصدقاء في مكتب السيّد القائد حول مسألة الذكر، حيث طُبعت خلاصة هذه الأبحاث في كتاب تحت عنوان: **به ياد او**. [المؤلف]

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية وطُبع في دار المعارف الحكمية في العام ٢٠١٧ م بعنوان **ذكر الله**. [المحرر]

فيما يلي، سنتحدّث بدايةً عن الآيتَين السابقتَين قليلًا، ثمّ نعمد - بقدر المستطاع - إلى بيان مسألة من شأنها تمييز هذا الإرشاد الإلهيّ عن بقيّة النعم الإلهيّة.

٢. تفسير ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١]

في هذه الآية، يقول الله عزّ وجلّ: «اذكروني حتّى أذكرَكم»، وهذه العبارة من جملة الموارد التي بُيّنت في القرآن الكريم بنحو متناظر. إذ قد تكلم الحق تعالى، في بعض الموارد، عن علاقته بعباده بعبارات لا تصدق على علاقة عباده به، نظير الخلق والرزق والثواب، حيث لا يُمكننا القول مثلًا: «اخلقوا الله لكي يخلقكم هو أيضًا»، كما لا ينبغي القول كذلك: «ارزقوا الله حتّى يرزقكم»، لأنّه سبحانه غنيّ مطلق، ولا يحتاج إلى رزق، ولا يُمكن لأيّ أحد إعطاءه شيئًا. وكذلك، ليس بوسعنا القول: «إذا أثبتم الله، فإنّه سيُثيبكم بدوره»، لأنّ الثواب عطاء أحاديّ من جانب الله تعالى إلى خلقه. هذا، وتوجد عبارات لا تصدق إلّا على علاقة العباد بربّهم، نظير العبادة، حيث من المسلّم عدم جواز استعمال هذه العبارة بعينها لبيان علاقة الله تعالى بعباده؛ فليس بوسعنا، مثلًا، القول: «إذا عبدتم الله، فإنّه سيعبدكم أيضًا»، بل يجب أن نقول فقط: «يتوجّب على العباد أن يعبدوا ربّهم». ومن هنا، نجد أنّ هناك عبارات تختصّ بالله تعالى ولا تصدق على عباده، وعبارات تختصّ بالعباد ولا تصدق في حقّ الباري عزّ وجلّ.

لكن، نشاهد في القرآن الكريم بعض العبارات التي وردت بنحو متناظر، بحيث إنّها قد استُعملت لبيان علاقة الله بعباده، ولبيان علاقتهم

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٢.

به تعالى في الوقت ذاته. فعلى سبيل المثال، يقول الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، وعليه، فإنّ المحبّة قد تكون من الله تعالى تجاه خلقه، وقد تكون من العبد تجاه ربّه. وفي موضع آخر، يُصرّح عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[2]، ففي هذه الآية، يُخاطب الله تعالى المسلمين في صدر الإسلام بقوله: «إذا تخلّيتم عن الإسلام، وصرتم مرتدّين، فإنّ ذلك لن يكون مدعاة للقلق؛ لأنّ الله تعالى سيأتي بأفراد يُحبّهم ويُحبّونه». هذا، ومن المسلّم أنّ الله خاطب المسلمين بدايةً بهذه العبارة لوجود مناسبة خاصّة؛ وإلّا، فإنّه تعالى لم يكن ليقول: «أيّها المؤمنون، إذا ارتددتم...» دفعةً واحدة ومن دون مناسبة، حيث ينبغي البحث في محلّه عن هذه المناسبة. وخلاصة القول إنّ المحبّة توجد من طرف الله تعالى تجاه عباده، ومن طرف العباد تجاه ربّهم. وإنّ كلمة «الرضى» هي أيضًا من الكلمات «ثنائيّة الجانب»، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[3].

ومن بين الألفاظ التي جاءت في القرآن بنحو متناظر، لفظ «الذكر»، كما قال البارئ تعالى في خطابه لعباده: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[4]. ولا يخفى أنّ هذا المعنى يصدق أيضًا على «الشكر»، إذ بوسعنا القول إنّ الله تعالى يشكر الذي يشكره، وقد ورد في دعاء الوداع: «**تشكُرُ مَن شَكَرَكَ**»؛ ومن هنا، فمن الممكن أن يشكر العبد ربّه، ويشكر الربّ أيضًا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ١١٩؛ سورة التوبة، الآية ١٠٠؛ سورة المجادلة، الآية ٢٢؛ سورة البيّنة، الآية ٨.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٥٢.

عبده، كما جاء في الكتاب المجيد: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١]، غير أنّ ذلك التعبير المتناظر الذي استُعمل في القرآن الكريم بحقّ الذكر لم يُستخدم في مورد الشكر. وعلى أيّ تقدير، فإنّ هناك أوصافًا يُمكن - بحسب العبارات الموجودة في الكتاب العزيز - استعمالها لبيان علاقة العباد بالله تعالى، واستخدامها في الوقت ذاته لبيان علاقة الله تعالى بالعباد. لكنّ السؤال المطروح هو: ما هي حقيقة معنى الذكر؟ وما هو المراد من ذكر الله تعالى؟

بنحو إجماليّ، بوسعنا القول إنّ حقيقة الذكر هي التوجّه القلبيّ، بحيث يكون الذكر له ارتباط بالقلب. ويُطلق الذكر أيضًا على استحضار شخص من خلال الإتيان باسمه، ويعود ذلك إلى وجود مناسبة بين هذه المسألة، وبين المعنى الحقيقيّ للذكر؛ لأنّها علامة على ذلك الذكر القلبيّ، ولهذا تُسمّى بالذكر اللفظيّ؛ ويُطلق على الأفعال التي تحكي عن الذكر القلبيّ اسم الذكر العمليّ.

يوجد تقسيم آخر يُمكننا اعتباره للذكر، ويُقسّم بحسبه الذكر إلى نوعَين: صريح وضمنيّ. ففي بعض الأحيان، يذكر الإنسان الله تعالى بنحو صريح من خلال التلفّظ ببعض الأذكار؛ نظير: «يا الله» و«يا أرحم الراحمين». لكنّه في أحيان أخرى يقرأ القرآن، بحيث تكون قراءته هذه عبارة عن توجّهه لكلام البارئ عزّ وجلّ؛ ومن المؤكّد أنّه هنا يكون ذاكرًا لله تعالى، فيندرج هذه الذكر تحت عنوان الذكر الضمنيّ.

وفي هذا المقام، تُواجهنا التساؤلات التالية: ما هو المراد من الذكر المأمور به في آية: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟ هل المراد منه أنّه إذا قلنا

---

(١) سورة فاطر، الآية ٣٤.

«يا الله»، فإنّ الله تعالى يقول بدوره «لبّيك يا عبدي»؟ أم المراد منه معنى آخر؟ طُرحت في الكتب التفسيريّة تفسيرات مختلفة لهذا المعنى، استند العديد منها إلى الروايات؛ غير أنّ أحد التفسيرات المشهورة للآية الكريمة هو القول إنّ المراد من ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾: «اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب»؛ بمعنى أنّ المقصود من ذكر الله تعالى طاعتُه، ومن ذكر الله تعالى لنا منحه إيّانا الثواب على الخير. ولهذا، فإنّ هذا البيان قد يكون نوعًا من الكناية، أي: ذكرُ الملزوم وإرادة اللازم، وإلّا فإنّ حقيقة الذكر ليست هي الطاعة. هذا، وبوسعنا القول إنّ الطاعة عبارة عن ذكر ضمنيّ، إذ حينما يُؤدّي الإنسان عملًا بعنوان طاعة الله تعالى، فمن غير الممكن تصوّرُ أن يكون ناسيًا لله تعالى وهو يُطيعه. وعليه، لعلّ أرجح تفسير هنا أن نقول إنّ أصل الذكر مرتبط بالقلب وتوجّهه؛ إلّا أنّ للذكر لوازم كالطاعة مثلًا تترتّب على هذا الملزوم. ولهذا، فإنّ التعريف بالملزوم ليس تعريفًا خاطئًا، وبوسعنا اعتبار «فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب» معنى صحيحًا للآية المذكورة؛ فتعريف الأشياء بلوازمها أمر رائج في العلوم المختلفة، وغالبًا ما نُصادفه في العلوم الطبيعيّة، بل قد يُستعمل هذا النحو من التعريف حتّى في الاصطلاحات الفقهيّة والأصوليّة، من دون أن يُعدّ ذلك عملًا خاطئًا.

لكن، يبقى السؤال: هل إنّ تفسير هذه الآية منحصر بهذا المعنى، أم أنّه مجرّد لازم واحد من لوازم الذكر؟ والمسألة الأخرى هي أنّ عبارة «أطيعوا الله»[1] تكرّر ذكرها في القرآن الكريم؛ فما هو الداعي - والحال هذه - للتعبير عنها بعبارة: «فَٱذۡكُرُونِيٓ» إذا كان المراد منها الأمر بطاعة الله تعالى؟ بل وما هي الخاصّية التي تمتلكها هذه العبارة؟

---

(١) نظير: سورة آل عمران، الآية ٣٢؛ سورة النساء، الآية ٥٩؛ سورة المائدة، الآية ٩٢.

٣. أعلى لذّة للعاشق

إنّ حقيقةَ أنّ الإنسان إذا أطاع ربّه فإنّه يحصل على الثواب هي حقيقة يُمكن إدراكها عن طريق التفكّر، كما أنّه قد وردت تعبيرات من هذا القبيل في موارد أخرى متعدّدة، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[١]؛ فهذه الحقيقة ليست من الأمور التي يستحيل على الإنسان إدراكها، ويعجز وهمه عن بلوغها ما لم يُلهمها الله تعالى لأوليائه عن طريق الغيب. لكن نجد الإمام السجّاد عليه السلام يقول: «لقد دللتهم على شيء لم تكن لتصل أوهامهم إليه ما لم تُخبرهم به»، فيتبيّن أنّ هذه الحقيقة ينبغي أن تكون حقيقةً أعلى تختلف عن الطاعات والمعاصي ونتائجها التي ذُكرت في مواضع أخرى. وبحقّ، ما هي الميزة التي يتوفّر عليها هذا الذكر، ولا توجد في أيّ موضع آخر؟ أنا على يقين من أن أحدنا لو لم يكن قد طالع الآيات والروايات الواردة في هذا المجال، فإنه ما كان سيخطر على باله أبدًا أنّه إذا ذكر الله فإنّه تعالى سيذكره أيضًا، بحيث يكون ذلك هو ثواب الإنسان من الذكر؛ فإن من العجيب أنّ يكون الله تعالى، ولأجل حثّ الناس على ذكره، قد قال لهم: «إذا ذكرتموني، فإنّني سأذكركم أيضًا».

وقد ورد في إحدى الروايات: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي فِي نَفْسِكَ أَذْكُرْكَ فِي نَفْسِي، ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي فِي خَلَاءٍ أَذْكُرْكَ فِي خَلَاءٍ، ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي فِي مَلَإٍ أَذْكُرْكَ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِكَ»[٢]. فالله سبحانه يُريد، بحسب هذه الرواية، من عبده أن يذكره في ثلاثة مواضع، حتّى يذكره

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥.

(٢) أحمد بن محمد بن خالد البرقيّ، **المحاسن**، الجزء ١، الصفحة ٣٩.

هو أيضًا في ثلاثة مواضع: الأوّل في قلبه، والثاني عندما يكون لوحده، والثالث بين الناس؛ ويُمكننا تقريبًا أن نستوعب كون ذكر الله تعالى في خلوة أو وسط جماعة يُؤدّي إلى ذكر الله تعالى لعبده في خلوة أو وسط جماعة، بحيث إنّه متى ما نادى العبد في خلوته ربّه قائلًا «يا الله»، أو ذكره وسط جماعة، فإنّ البارئ عزّ وجلّ يلتفت إليه، ويردّ عليه بإجابة لائقة، أو أنّه تعالى يذكره بخير وسط ملائكته. لكن، ما معنى: «اذْكُرْنِي فِي نَفْسِكَ أَذْكُرْكَ فِي نَفْسِي»؟ وما هو الشيء الذي يُمكنه أن يجذبنا في مسألة ذكر الله لنا، لكي يجعله تعالى كثواب لعبده؟

فعادةً، يكون الدافع الذي يحضّ الإنسان على الخوض في أمور من قبيل الدين والعبادة هو الحصول على الثواب الإلهيّ أو التحرّز عن العقاب الربّاني، بحيث نجده يرغب من أعماق قلبه بنيل الألطاف الإلهيّة؛ ولو فرضنا أنّ البارئ عزّ وجلّ يقول: «لن أدخل أيّ أحد الجنّة، ولن أضع أيّ إنسان في النار، مهما كان العمل الذي قام به»، فكم إنسانًا عابدًا لله تعالى يُمكن لنا أن نجد رغم ذلك؟ إنّ سبب كون ذكر الله تعالى لنا في نفسه غير مُثير لاهتمامنا هو عدم معرفتنا بالله تعالى، وعدم بلوغنا تلك الكمالات التي تحصل في ظلّ هذه المعرفة؛ ولهذا، فإنّنا لا نُدرك أهمّية ما سيحصل إذا ذكرْنا الله، وذكرَنا هو أيضًا؛ أي إنّنا لا نستوعب قيمة ذكر الله تعالى لنا في نفسه إن لم تكن هناك جنّة أو جهنّم في البين. ولأجل الوصول إلى هذه السعادة، يلزم التوفّر على قليل من لطافة الروح، لكي يتمكّن الإنسان من استيعاب أنّ هذه الحقيقة من أعظم الحقائق. ولفهم هذا النوع من المسائل، نجد أنفسنا مضطرّين لإيراد بعض الأمثلة من حياتنا العادية، والاستعانة بعلاقاتنا ببقيّة الناس، مع كون هذه الأمثلة أدون كثيرًا من الممثَّل، لكنّها تُقرّب تلك الحقيقة إلى أذهاننا إلى حدّ ما.

فمن بين المسائل السائدة بين أفراد الإنسان كافّة، مسألة العلاقات العاطفيّة، سواءً كانت طبيعيّة كعلاقة الوالدَين بأبنائهما وبالعكس، أو كانت حاصلة عن طريق أنس الناس ببعضهم؛ ففي هكذا علاقات، يرغب الناس في الحصول على خدمة من بعضهم، أو أن يروا كمالات ظاهريّة أو باطنيّة في الطرف المقابل. إنّ معظم المحبّة التي نكنّها للآخرين ترجع في جذورها إلى ذلك الخير والنفع الذي يصلنا منهم. فمن باب المثال، حينما يرى الابن عطف أمّه وحنانها تجاهه، أو يرى ما هي الخدمات التي ستُقدّمها له في المستقبل، فإنّه يشعر بالمحبّة تجاهها. وعلى سبيل المثال، متى ما آمن الإنسان بالتأثير العظيم لدعاء الأمّ ونذرها والتماسها في فيضان بحار الرحمة الإلهيّة، وفي حلّ مشاكله، فإنّه سيُحبّها. وإنّ انعدام مثل هذه العواطف يُؤدّي إلى حصول اختلال في العلاقات الاجتماعيّة. ولذا لا نُشاهد مثل هذه العلاقات المبتنية على المحبّة في المجتمعات الغربيّة أو اللادينيّة التي لم تنمُ فيها تلك العواطف.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ أطهر محبّة في مجال العلاقات العاطفيّة الإنسانيّة هي تلك القائمة بين الأمّ والابن؛ ومع ذلك، قلّما نعثر على أمّ لا تقول في نفسها: «سيكبر ابني، ويُحسن إليّ، ويخدمني عوضًا عمّا قدّمته إليه من خدمة وإحسان»؛ فصحيح أنّ الأمّ تلتذّ عند رؤية ابنها، وتستمتع بكافّة حركاته وسكناته، لكنّ هناك شعور أيضًا يختلج في صدرها بأنّ هذا الابن سيكبر، وحينما تُصبح مسنّة، وعاجزة عن العمل، فإنّه سيهتمّ بها، ويُحقّق لها رغباتها. وجدير بالذكر أنّ أصدقاء الإنسان تجدهم يحملون نفس هذا التوقّع في بالهم، ويسعون كحدّ أقلّ إلى الاستمتاع برؤية صديقهم، والأنس برفقته، والتخلّص من الوحدة.

أما في العلاقات العشقيّة، فإنّ المحبّة تكون بنحوٍ لو أنّ هذه الخيرات ولوازمها وآثارها لم تصل من المحبوب إلى المحبّ، لظلّ العاشق محبًّا لمعشوقه؛ ففي هكذا علاقات، تبقى المحبّة قائمة، ولو انتفت تلك اللوازم. وذلك نظير قصص العشق التي بوسعنا العثور على العديد منها في الثقافة الإيرانيّة والعالميّة، حيث ترى العاشق مفلسًا قد ضحّى بكلّ وجوده في سبيل معشوقه، لكنّه لا يتوقّع من أعماق قلبه إلّا أن يذكره معشوقه، فمع أنّ هذا التوقّع يكون لا شعوريًّا، غير أنّه مكنون في باطن قلب العاشق، الذي لا يبلغ غاية اللذّة إلّا حينما يُدرك أنّ معشوقه يذكره، بل الأكثر من ذلك أنّه يُحبّه أيضًا. فليس هناك لذّة أعلى بالنسبة إلى العاشق من أن يعلم أنّ محبوبه، فضلًا عن أنّه يذكره، قد احتفظ له بمكانة في قلبه أيضًا.

٤. البوح بالعشق الغيبيّ

إذا تمكّن الإنسان من تصوّر هذه الحقيقة بنحو واضح، وبأنّ أطهر العشّاق يتوقّعون في أعماق قلوبهم أن يذكرهم المحبوب، فإنّه سيُدرك أنّه وبغضّ النظر عن الذكر الذي تحدّثت عنه التفاسير التي اعتمدت على جملة: «اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب»، فإنّ هناك ذكرًا آخر جرى بيانُه في قالب عبارة: «اذْكُرْنِي فِي نَفْسِكَ أَذْكُرْكَ فِي نَفْسِي». وقد استُعملت كلمة «نفس» في القرآن الكريم في حقّ الله تعالى مرّةً واحدةً فقط، وذلك حينما قال نبيّ الله عيسى عليه السلام مخاطبًا ربّه: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[1]؛ فمن المؤكّد أنّه لا يُمكن لأيّ مخلوق أن يُحصّل هذا العلم، ولا يستطيع أيّ واحد غير

---

(١) سورة المائدة، الآية ١١٦.

الله تعالى أن يطّلع على ما في نفسه - بأيّ معنى من المعاني الصحيحة للنفس التي تصدق على الله تعالى - حيث إنّ الحديث هناك عن مقام الذات الإلهيّة التي يمكن لأحد بلوغها سوى الذات. فلو أنّ الله تعالى لم يقل: «أَذْكُرْكَ فِي نَفْسِي»، فأيّ عقل كان سيُدرك هذه المسألة؟ وأيّ ملك كان سيقدر على الإخبار عن نفس الله تعالى؟ فكلّ من اطّلع على هذه الحقيقة، فإنّ الله تعالى هو الذي أطلعه عليها؛ وإلّا، فإنّ هذا العلم من العلوم الغيبيّة التي لا سبيل لأيّ أحد إليها، وهي من مصاديق الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[١].

يقول الإمام السجّاد في دعاء الوداع الشريف: «وَأَنْتَ الَّذِي دَلَلْتَهُمْ بِقَوْلِكَ مِنْ غَيْبِكَ»، حيث استعمل عليه السلام هنا عبارة: «مِنْ غَيْبِكَ»؛ فقبل هذه الفقرة من الدعاء، كانت الأمور التي وُعد بها خارجةً عن ذات الحقّ؛ لكنّنا نجد الإمام عليه السلام في هذه الفقرة يُخاطب ربّه قائلًا: «لقد أخبرت عبادك من غيبك بأمر لم تكن أسماعهم ولا آذانهم ولا أوهامهم لتصل إليه، لولا إخبارك هذا»؛ ففي فقرة: «دَلَلْتَهُمْ بِقَوْلِكَ مِنْ غَيْبِكَ وَتَرْغِيبِكَ الَّذِي فِيهِ حَظُّهُمْ...»، تكون الجملة من كلمة «بقولك» إلى «فيه حظّهم» كالجملة المعترضة. وقد استخدم عليه السلام كلمة «الوهم» بدلًا عن «العقل»، لأنّ الوهم يُمكنه تصوّر أشياء يعتبر العقل وجودها محالًا.

يقول زين العابدين عليه السلام: «لقد ذكرت شيئًا لا يستطيع حتّى الوهم تصوّره؛ وتتمثّل هذه الحقيقة الغيبيّة في قولك: «اذكروني حتّى أذكركم في نفسي»»، فأيّة عظمة أعلى بالنسبة للإنسان من أن يذكره الله تعالى في نفسه التي لا نهاية لعظمتها؟ هذا، مع أنّ الإنسان عبارة عن مخلوق

---

(١) سورة النمل، الآية ٦٥.

يُعبّر عنه القرآن الكريم بأنّه ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[1]، وحتّى إذا توفّر الإنسان على شيء يستحقّ الذكر، فإنّ الله هو الذي وهبه إيّاه، بحيث لو حجبه تعالى عنه، لصار أرذل من كلّ الحيوانات؛ لكن، مع ذلك، فإنّ البارئ عزّ وجلّ وعد عبده بأن يذكره في نفسه إذا ذكره؛ وبحقّ، كيف لنا أن نُدرك هذه الحقيقة؟! إنّ الإمام المعصوم عليه السلام هو الذي بيّنها؛ وهي في الواقع شرفٌ يتلاشى في مقابله كلّ شيء آخر.

٥. تجلّي رأفة الله تعالى في دعوته عباده للشكر

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في تتمّة مناجاته، وتكملةً لكلامه: «**وقُلْتَ:** ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2]»، فالإنسان يعرف الله تعالى من خلال صفاته، ويذكره بالاستعانة بهذه الصفات، لا سيّما في ذلك الذكر الذي يكون مقترنًا بالوعي. ومن باب المثال، حينما يحتاج الإنسان إلى العفو، فإنّه يتذكّر رحمة الله تعالى، وعندما يذكر الله تعالى، فإنّه يستحضر النعم الإلهيّة بطريقة أو بأخرى؛ ولو أنّ الإنسان حين استحضاره لنعم الله تعالى يكون ذا فطرة ودوافع فطريّة يقظة، فإنّه سيندفع تلقائيًّا للشكر، ويتذكّر حقيقة أنّ البارئ عزّ وجلّ هو الذي منحه تلك النعمة، وإلّا فما الذي كان سيمتلكه هذا العبد الحقير؟! وحينئذ، سيُناجي الإنسان نفسه قائلًا: «لو لم أكن أملك هذا الجمال الظاهريّ، لاشمأزّ منّي الناس، ولما رغب أيّ أحد في النظر إليّ؛ ولو لم أكن قادرًا على الكلام، لما تسنّى لأيّ أحد التواصل معي؛ وبالتالي، لن يوجد من يطلب مؤانستي؛ ولو أنّني كنت مفتقرًا

(١) سورة الإنسان، الآية ١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٧.

لنعمة البصر، لما تمكّنت من رؤية أيّ مظهر من مظاهر الجمال في العالم». إنّه من الواضح بمكان أنّ كلّ زاوية من العالم يتأمّل فيها الإنسان يجدها مشحونةً بالنعم الإلهيّة، فيرى نفسه خاضعًا لحقيقة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1]. هذا، مع أنّ الشعور الفطريّ بالاعتراف بالجميل يقتضي أن يُبرز الإنسان - بنحو من الأنحاء - ردّة فعل تجاه النعم الإلهيّة، ويُؤدّي حقّ الشكر، حيث يُنقل عن حالات الأئمّة الأطهار عليهم السلام أنّهم كانوا إذا تذكّروا نعمةً أو حظوا بنعمة خاصّة حين ركوبهم للخيل يسجدون على عرف الفرس علامةً على الشكر؛ وأمّا إذا كانوا يمشون، فإنّهم يلقون بأنفسهم على الأرض، ويضعون جباههم على التراب، ويشكرون الله تعالى.

وباعتبار أنّ البارئ عزّ وجلّ يعلم مقدار تأثير هذا الشكر في ترقّينا وتكاملنا وتقرّبنا، فإنّه يريد أن يُقويّ فينا هذا العامل الفطريّ؛ ولهذا السبب، نجده يحضّ الإنسان بطرق مختلفة على الشكر، نظير قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾.

هذا، ومن الممكن أن يعتقد بعض الذين ليس لديهم اطّلاع على اللغة العربيّة بأنّ معنى ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ هو: «إذا شكرتم، سأكثّركم، وأزيد من تعدادكم». لكنّ حقيقة الأمر أنّ المفعول في جملة ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ محذوف، وهو «نعمتي»؛ كما أنّ التمييز في جملة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ محذوف أيضًا، ويُعلم من مفعول العبارة السابقة أنّه كلمة «نعمةً». وبالتالي، يكون معنى الآية هو: «إذا شكرتم نعمتي، فإنّني سأزيدكم نعمةً». وفي تتمّة هذه الآية الشريفة، وبحسب معنىً يُقابل

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٤؛ سورة النحل، الآية ١٨.

الجملة السابقة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾، ولا نجده يقول: «لَئِنْ كَفَرْتُمْ لأعذّبنّكم»، فهو يقول بأسلوبٍ ينمّ عن الكرم: «إذا كفرتم بنعمتي، فاعلموا أنّ عذابي شديد»؛ فمع أنّ هذه الجملة تُفيد نفس معنى الجملة التي سبقتها، إلّا أنّ التعبير فيها يحكي أكثر عن عظمة وكرم القائل عزّ وجلّ.

إنّ الله تعالى يعلم بمقدار مساهمة ذكره في ترقّي روح الإنسان، وتهيئته الأرضيّة المساعدة لنيله فيوضات أكثر؛ ولهذا، فإنّه يستخدم هذه العبارات من أجل حثّ الإنسان على أن يذكره في قلبه، ويشكره على نعمه، لكي يزيده من هذا النعم أكثر فأكثر.



«وَقُلْتَ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وتَرْكَهُ اسْتِكْبَارًا، وتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ، فَذَكَرُوكَ بِمَنِّكَ، وشَكَرُوكَ بِفَضْلِكَ، ودَعَوْكَ بِأَمْرِكَ، وتَصَدَّقُوا لَكَ طَلَبًا لِمَزِيدِكَ، وفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُمْ مِنْ غَضَبِكَ، وفَوْزُهُمْ بِرِضَاكَ، ولَوْ دَلَّ مَخْلُوقٌ مَخْلُوقًا مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مِثْلِ الَّذِي دَلَلْتَ عَلَيْهِ عِبَادَكَ مِنْكَ كَانَ مَوْصُوفًا بِالْإِحْسَانِ، ومَنْعُوتًا بِالِامْتِنَانِ، ومَحْمُودًا بِكُلِّ لِسَانٍ، فَلَكَ الْحَمْدُ مَا وُجِدَ فِي حَمْدِكَ مَذْهَبٌ، ومَا بَقِيَ لِلْحَمْدِ لَفْظٌ تُحْمَدُ بِهِ، ومَعْنًى يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ».

١. التذكير بمظاهر الرحمة الإلهيّة

يعبّر القسم الأوّل من دعاء الوداع الشريف عن مقام حمد الله تعالى، بالاستعانة بصفات تتناسب مع هذا المقام؛ ولهذا السبب، نجد الإمام السجّاد عليه السلام يُناجي ربّه قائلًا: «إلهي، إنّك تُعامل عبادك بهذا النحو: إذا ارتكبوا معصية، واجترحوا سيّئة، فإنّك ترفق بهم، وتُمهلهم؛ عساهم أن يتراجعوا عن أعمالهم السيّئة، وعلاوةً على ذلك، فإنّك فتحت لهم بابًا لا يقتصر تأثيرُه على تمكينهم من فعل الحسنات، بل يتعدّاه إلى محو آثار سيّئاتهم السابقة». فلو أنّ كلّ واحد قام بعمل قبيح جَرَت معاقبته بالعدل، وبشكل فوري، لكان من المحتمل أن لا تبقى أيّ فرصة لاستمرار الحياة. وعليه، فإنّ أوّل لطف لله تعالى هو أنّه أمهل عباده العصاة، لكي يتمكّنوا من الرجوع إلى الطريق الصحيح، إن هم أرادوا ذلك. فمن عناية الله تعالى أنّه لا يُؤاخذ عباده ولا يُعاقبهم سريعًا، بينما نجده في الوقت ذاته يرضى عنهم بسرعة. وأمّا اللطف الإلهيّ الثاني، فيتمثّل في أنّه تعالى فتح للمذنبين طريقًا يُمكّنهم من محو آثار أخطائهم تمامًا، وتدارك ماضيهم، وهو باب التوبة الذي أشرعه البارئ عزّ وجلّ في وجه عباده. واللطف الإلهيّ الثالث الذي تحدّث عنه الإمام عليه السلام أنّ الله تعالى ولكي يحضّ عباده على أداء الأعمال الحسنة، فإنّه قد جعل نفسه في مقام التعاقد معهم، وقال: «سوف أقدّم لكم على كلّ فعل خير قمتم به عشرة أضعاف من الثواب؛ وإذا أنفقتم في سبيلي، ستحصلون على سبعمئة ضعف»، وذلك لا يُشكّل سقف الثواب، بل إنّ الله يُضاعف الثواب لمن يُريد: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1]، حيث إنّ هذا التقدير الإلهيّ هو طريق آخر أيضًا لتشجيع العباد على أداء الخيرات، ودفعهم نحو الكمال

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

والترقّي والوصول إلى القرب الإلهيّ. ومن هنا، فإنّ الرفق بالعصاة، وفتح باب التوبة في وجههم لتدارك ما فاتهم، وجعل ثواب مضاعف عشر مرّات وسبعمئة مرّة وأكثر هي بأجمعها نماذج للألطاف الإلهيّة.

والأرقى من ذلك كلّه أنّ الله تعالى حثّ عباده على أن يطلبوا منه هباته وفيوضاته، ليضعها بين أيديهم مجّانًا، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1]؛ فتفضّل الكريم على السائل واستجابته لطلبه لطف، وأمّا دعوته للمحتاجين من أجل الاستجابة لطلباتهم، فهو لطف مضاعف. ومع ذلك، فإنّ الله تعالى لم يكتف بذلك، بل حذّر بقوله: «إذا لم تطلبوا منّي، فإنّكم ستكونوا من زمرة المستكبرين، لتستحقّوا بذلك جهنّم»، حيث ورد في القرآن الكريم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2].

٢. الدعاء بوصفه اعترافًا بالفقر وتحرّزًا عن الكبر

كلمة «ادعوني» مأخوذة من أصل «الدعاء»، وهو نحو من العبادة؛ والمراد من العبادة إقرار الإنسان أمام ربّه بفقره وحاجته وتسليمه، بحيث يقول من أعماق قلبه: «أنا عبد وأنت ربّ». فالتعبير عن هذه الحقيقة سواء بالألفاظ أو بأعمال من قبيل الركوع والسجود عبادةٌ. وقد رُوي عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَة»[3]، فكما أنّ المخّ يحتلّ في بدن الإنسان مكانةً رفيعةً بالنسبة لبقيّة الأعضاء، بحيث إذا تعرّض للإصابة، فإنّ حياة الإنسان تكون في خطر، فإنّ الدعاء أيضًا يحتلّ هكذا

---

(١) سورة فاطر، الآية ٦٠.

(٢) سورة فاطر، الآية ٦٠.

(٣) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٩٠، الصفحة ٣٠٠.

منزلة. هذا، ورُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاء»[1]، ويبدو أنّ السرّ في ذلك يرجع إلى أنّ الدعاء من دون الإقرار بالعبوديّة مجرّد هيكل يابس وفارغ.

فليس المراد من الدعاء أن يطلب الإنسان من رفيقه إعارته شيئًا، أو منحه إيّاه؛ بل الدعاء يعني أن يُبرز الإنسان فقره، ويعترف بحقيقة أنّه لا يملك أيّ شيء، وأنّ الله تعالى مصدر كلّ شيء، وهذا بعينه إقرار بالعبوديّة، بحيث كلّما كان ذلك أصرح وأخلص، صار فضله أكبر. فحينما يدعو الإنسان ربّه، فإنّ مفاد دعائه: «إلهي، أنا لا أملك أيّ شيء، بينما تملك أنت كلّ شيء؛ وها أنا ذا أعترف بهذه الحقيقة في محضرك!». فهذا الدعاء هو مخّ العبادة؛ وبتعبيرنا نحن الطلبة: صحيح أنّه ليس عبادة بالحمل الأوّلي، حيث إنّ الداعي لم يستعمل هنا كلمة العبادة والعبوديّة، إلّا أنّه عبادة بالحمل الشائع؛ أي إنّه يتضمّن المعنى التالي: «أنا عبد وأنت ربّ؛ أنا فقير وأنت غنيّ».

ولكي يمدّ العبد يده بالدعاء، فإنّ الله تعالى يقول: «إذا استنكف أحد عن الدعاء، وبعبارة أوضح: إذا اعتبر أحدهم أنّ الدعاء ينقص من منزلته، فإنّه سيكون قد استكبر على الله تعالى»؛ لأنّه في الحقيقة يقول: «عوضًا عن أن أقرّ بفقري أمام الله تعالى، وأدعوه، فإنّني سأتحمّل العناء، وألبّي حوائجي بنفسي». وإن بوسعنا، إلى حدٍّ ما، أن نختبر أنفسنا، لنرى كم نحن صادقون في هذا المقام. فعلى سبيل المثال، إذا ابتلينا بألم في الرأس، وكان الدواء في متناولنا، هل سنتوجّه إلى الله تعالى لرفع الألم عنّا؟ فحينما نُصاب بالصداع، هل نتوجّه إلى الله تعالى أوّلًا، ونطلب منه

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٤٦٦.

الشفاء، أم نقول: إنّ الدواء متوفّر، فلا نحتاج بعد ذلك إلى أن نكل آلامنا إليه سبحانه؟ فإذا كان العبد من أهل الدعاء، فإنّه سيتوجّه بدايةً إلى الإله الغنيّ حين إحساسه في ذاته بالحاجة، وحتّى استعانته بالأسباب تعود إلى أنّ الله تعالى هو الذي وضعها، وجعلها طريقًا لإيصال رحمته، وأمر بالاستعانة بها؛ وإلّا، فإنّ الذي يتعلّق قلب العبد به، ويرجو منه أن يُلبّي له حاجته هو الله تعالى وحسب، بحيث إنّ الاعتقاد بأنّه: «يا إلهي، أنت الذي تقضي لي مآربي» مكنون في أعماق روح هذا العبد؛ وحينئذ، إذا رفع الإنسان يده بمثل هذا الدعاء، فإنّه يكون قد أدّى عبادةً تفوق في الثواب كلّ عبادة؛ بل ولو قال أحد إنّ هذا الدعاء يفضُل حتّى الصلاة، فقد لا يكون بالغ في الكلام؛ لكن، بشرط أن يكون دعاؤه مقرونًا بنفس تلك الحالة، وأن يتوجّه عند شعوره بالحاجة بدايةً إلى الله تعالى. فصاحب المعرفة حينما يجوع، فإنّه يقول: «إلهي، أشبعني»؛ وإذا ما انتابه العطش، فمع أنّ الماء البارد قد يكون في متناوله، إلّا أنّه يقول من أعماق قلبه: «إلهي، ارفع أنت عطشي»؛ ومتى ما مدّ يده إلى إناء الماء، فإنّ لسان حاله يقول: «إلهي، إنّني أستعمل هذا الإناء من الماء لأنّك أنت الذي أمرت بذلك».

يقول البارئ عزّ وجلّ: «إنّ الذين لا يهتمّون بالدعاء، معتقدين بقدرتهم على حلّ مشاكلهم بأنفسهم، هم في الحقيقة يتكبّرون على الله تعالى، ولا يريدون الإقرار بالعبوديّة له»؛ ففي هذه الآية، جرى الحديث عن الدعاء، وليس عن عبادة أخرى. ولهذا، فإنّ المراد من الاستكبار عن العبادة هو الاستكبار عن الدعاء، إذ يظنّ المستكبرون عن الدعاء أنّ هذه المسألة نوع من الكرامة والشرف بالنسبة إليهم. لكن في الحقيقة، روح الاستكبار هي الحاكمة على أنفسهم، وهذه الروح تقتضي دخولهم جهنّم

أذلّاء، حيث لا يقتصر عقاب هؤلاء على دخول النار، بل يدخلونها وهم أذلّاء. فكلمة «داخرين» تعني في هذه الآية غاية الإذلال والانكسار.

إنّ أهمّية هذا البيان ولطافته لا تقلّ عن أصل الإذن بالذكر والدعاء؛ فإن أصل المسألة التي قال الله تعالى فيها: «اطلبوا منّي حتّى أعطيكم» لطف عظيم جدًّا، لكنّ الأرقى من ذلك هو قوله سبحانه: «إذا تكبّرتم على دعائي، ستردون جهنّم بذلّة»، حيث إنّ تأثير هذا الكلام في حضّ العباد وتشجيعهم على الدعاء والعبادة أكبر من تأثير كافّة الطرق السابقة؛ لأنّنا جرّبنا بأنفسنا عمليًّا كيف أنّ الشعور بالخطر يدفع الإنسان نحو بذل جهد أكبر. فحينما يمرّ الإنسان بظرف يواجه فيه خطرًا، ويمكنه في الوقت ذاته الحصول على ملذّات، فإنّه يعمد أوّلًا إلى رفع الخطر، ثمّ يتوجّه بعد ذلك نحو الملذّات، إذ من المبادئ المسلّمة كون الخوف من الخطر يُشكّل عنصرًا أقوى من بقيّة العناصر في إثارة نشاط الإنسان ودفعه للعمل. وقد اهتمّ القرآن الكريم كثيرًا بمسألة الإنذار، بل واقتصر أحيانًا على استخدامها فقط، وسمّى الأنبياء عليهم السلام نُذُرًا؛ لأنّ الإنذار يُنبّه الإنسان إلى الأخطار، ممّا يُؤدّي إلى حركته ونشاطه. فنحن خُلقنا لكي نتحرّك ونعمل باختيارنا، فنحظى بالسعادة، والعنصر الذي يُعيننا أكثر على اختيار سبيل السعادة هو الخوف والإنذار. ومن هنا، نجد الباريء عزّ وجلّ وبعدما حضّ على الدعاء، فإنّه يُحذّر بقوله: «إذا لم تستجيبوا، فإنّكم ستلجون جهنّم بذلّة».

يقول الإمام السجّاد عليه السلام مناجيًا ربّه: «**فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً**»؛ ففي بداية الآية الآنفة الذكر، كان الحديث يدور حول الدعاء، لكن بعد ذلك يقول الباريء عزّ وجلّ: «إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيردون جهنّم أذلّاء»، فلا يُمكننا أن نجد أيّ ارتباط بين هاتين الآيتين، إلّا أن يكون

المراد من العبادة خصوص الدعاء. ومن هنا، يقول الإمام عليه السلام: «لقد سمّيت دعاءك عبادةً»، **«وتَرْكَهُ اسْتِكْبَارًا، وتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»**.

٣. محفّزات الإنسان للحركة باتّجاه السعادة

في تتمّة دعاء الوداع، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**فَذَكَرُوكَ بِمَنِّكَ، وشَكَرُوكَ بِفَضْلِكَ، ودَعَوْكَ بِأَمْرِكَ، وتَصَدَّقُوا لَكَ طَلَبًا لِمَزِيدِكَ، وفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُمْ مِنْ غَضَبِكَ، وفَوْزُهُمْ بِرِضَاكَ**».

فبعد حديثه عن ألطاف الله تعالى ونعمه، نظير الرفق بالعصاة، وقبول التوبة، ومنح الثواب الجزيل على الأعمال التي استعرضنا قائمةً بها آنفًا، يناجي الإمام عليه السلام ربّه قائلًا: «إلهي، لقد وهبت هذه الألطاف إلى عبادك، فصار ذلك سببًا في انتفاع البعض من هذه الإرشادات، ليحظوا بقربك. لقد أوصيتهم بذكرك حتّى تذكرهم أنت أيضًا، فسعيهم لذكرك معلول لمنّة عظيمة أنعمت بها عليهم؛ فالناس الذين يُؤدّون شكرك إنّما وُفّقوا لذلك بسبب أنّك شجّعتهم بقولك: «إذا شكرتم، فإنّني سأزيدكم نعمًا». كما أنّ دعاءهم إيّاك راجع إلى أنّك أمرتهم بذلك، واكتشفوا من أمرك أنّ هذا الطريق سبب لتفضّلك على عبادك. كما أنّ الثواب الذي جعلته على الإنفاق حفّزهم على التصدّق والإنفاق من أجل بلوغ هذا الثواب الجزيل. وفي الحقيقة، فإنّ جميع وصاياك هذه وسائل لنجاتهم من العذاب، ونيل السعادة والثواب».

٤. حقّ الحمد الإلهيّ

١٤٨ وجاء في تتمّة هذه الفقرة: **«وَلَوْ دَلَّ مَخْلُوقٌ مَخْلُوقًا مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مِثْلِ الَّذِي دَلَلْتَ عَلَيْهِ عِبَادَكَ مِنْكَ كَانَ مَوْصُوفًا بِالْإِحْسَانِ، وَمَنْعُوتًا بِالامْتِنَانِ، وَمَحْمُودًا بِكُلِّ لِسَانٍ، فَلَكَ الْحَمْدُ مَا وُجِدَ فِي حَمْدِكَ مَذْهَبٌ، وَمَا بَقِيَ لِلْحَمْدِ لَفْظٌ تُحْمَدُ بِهِ، وَمَعْنًى يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ».**

يناجي الإمام السجّاد عليه السلام، في هذه العبارات، ربّه المتعالي قائلًا: «لو وجدنا إنسانًا عاديًّا يُرشدنا إلى إحدى هذه الطرق التي أرشدتنا إليها، فإنّنا سنذكره بكلّ خير، كأن نعثر مثلًا على أحد يقول لنا: «إذا بعتني البضاعة الفلانيّة، فإنّني سأعوّضك عنها بعشرة أضعاف من الأجر»، أو أنّه يضع تحت تصرّفنا أرضًا وبذورًا ينتج من زرعها سبعمئة ضعف، أو أن يقول لنا: «إذا عرفتم حقّ نعمي، وانتفعتم بها جيّدًا، فإنّني سأهبكم نعمًا أكثر»».

بمعنى أنّه إذا دلّ مخلوق مخلوقًا آخر على إحدى الطرق التي فتحها الله تعالى في وجه عباده، فإنّنا سنستعمل في حقّه أقصى عبارات المدح ونقول: «ما أكرمه من إنسان! كم هو سخيّ!»، هذا مع علمنا بكونه مخلوقًا محتاجًا، شأنه في ذلك شأن بقيّة المخلوقات، وكون كلّ ما لديه من الله تعالى. وفي هذه الحالة، كم يبنغي لنا أن نمدح الباريء عزّ وجلّ الذي ينبع منه كلّ الوجود، ومصدر كلّ وجودنا وحياتنا وشعورنا وعقلنا وإيماننا، وهو الذي أنزل علينا القرآن، وبعث الأنبياء لهدايتنا، وأشرع أمامنا أبواب التوبة والشكر، وغيرها كثير! فلو أنّ إنسانًا قدّم لنا إحدى هذه الخدمات، لاعتبرنا أنفسنا مدينين له طيلة حياتنا، ولَلَهج لسانُنا بمدحه؛ وحينئذ، كم يا تُرى من المدح سيستحقّ إله العالم؟ وهو الذي فتح لنا طرق النعم، وأحسن إلينا كلّ هذا الإحسان! فهو الذي منحنا كلّ

هذه الأشياء من عنده، ولم يأخذ في مقابلها أيّ شيء، واستبق دعوتنا إلى الدعاء، ثمّ شجّعنا بعد ذلك بقوله: «إذا شكرتم، سأشكركم» (**«تشكُرُ مَن شَكَرَكَ»**)، حيث وهبنا بنفسه النعم، ووضع بأيدينا وسيلة الشكر، وأوصانا بأن: «إذا شكرتم، سأزيدكم النعم»؛ بل والأرقى من ذلك أنّه قال: «إذا شكرتم، سأشكركم أنا أيضًا»؛ في حين أنّ شكرنا يتحقّق بواسطة اللسان الذي أنعم هو به علينا؛ وحتّى حينما نذكره، فإنّ هذا العمل نُؤدّيه عن طريق القلب الذي وهبنا إيّاه هو. وبحقّ، كم من المدح سيستحقّ هذا الإله! يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «ينبغي حمد هذا الإله ما دام هناك معنى للحمد يخطر على البال، وما دام هناك لفظ يُمكننا أن نعثر عليه للحمد، وما بقي هناك طريق للحمد».

إلى هنا، يكون الإمام عليه السلام قد أشار إلى مجموعة من المسائل التي تُمكّن الإنسان من بلوغ الاستعداد اللازم لمناجاة الله تعالى ونيل فيوضاته الخاصّة. ومن الآن فصاعدًا، سيسعى عليه السلام إلى التمهيد لذكر خصائص شهر رمضان المبارك وبركاته.

٥. المعرفة والسكينة والمحبّة باعتبارها ثمار التفكّر في النعم الإلهيّة

وفقًا لهذه الكلمات، فإن ما يمنح عمل الإنسان القيمة، ويُـؤدّي إلى الزيادة في قربه إلى الله تعالى ليس هو حجم هذا العمل، بل اللطافة التي يحملها فكر ذلك الإنسان وفهمه. لقد تعلّمنا منذ الصغر أن نقول حينما يهبنا الله تعالى نعمة: «الحمد لله»، كأن نقول مثلًا بعد الانتهاء من الأكل: «شكرًا لك يا إلهي»؛ وهي عادة حسنة جدًّا، بل وعبادة تستحقّ الثواب، وتُؤدّي إلى زيادة النعم.. نرجو من الله تعالى أن يغمر آباءنا وأمّهاتنا وأجدادنا برحمته لتأديبهم إيّانا بهذه الآداب الشرعيّة. لكن، شتّان بين هذا الشكر، والشكر المقرون بالمعرفة العميقة! أي تلك المعرفة التي

تتمثّل في أنّ الله تعالى أنعم علينا كثيرًا من خلال دعوتنا إلى الشكر، ففضلًا عن أنّه تعالى وهبنا نعمه، وهيّأ لنا أسباب الشكر، وبيّن لنا ثوابه، فإنّه دعانا أيضًا إلى شكره، وشجّعنا بقوله: «إذا شكرتم، سأزيدكم نعمًا». وبعبارة أخرى، علاوةً على أنّ البارئ عزّ وجلّ اعتبر شكر عبدِه عبادةً، وجعل عليه ثوابًا أخرويًا، فإنّه زاد من نعم عبده الشاكر في هذه الدنيا، ولم يُخصّص هذه الزيادة بالآخرة فقط. وبالإضافة إلى كلّ ذلك، فقد اعتبر الله تعالى نفسه شاكرًا للعباد الذين يُؤدّون شكره، وهذا معنى لطيف جدًّا لا يُدرك قيمته إلاّ أصحاب القريحة اللطيفة، والفهم الدقيق؛ فيعرفون أنّه ينبغي شكر الله تعالى كثيرًا على حقيقة: «**تشكُرُ مَن شَكَرَكَ**». إنّه لمن اللازم علينا أن نشكر البارئ عزّ وجلّ على أصل النعم التي وهبنا إيّاها، وكذلك على الأسباب التي بواسطتها يتسنّى لنا شكره، بل وعلى التوفيق الذي حبانا به، فصرنا مؤهّلين لشكره. أفهل كلّ من له لسان يُوفّق لشكر الله تعالى؟! إنّ قول عبارة «شكرًا لله» واحدة يحتاج إلى توفيق إلهيّ؛ لكن، مع أنّ إعداد الأرضيّة اللازمة للشكر هو توفيق من الله تعالى، كما أنّ الأمر الذي يدفعنا عادةً لأداء الشكر هو السعي نحو نيل نعم مضاعفة، فإنّ الإله الواحد قال: «إذا شكرتموني، فإنّني سأشكركم». وبحقّ، فإنّ هذه النعمة أروع وأرقى وألطف من كافّة النعم، بل وأعلاها مضمونًا، وأشدّها تحفيزًا.

فكلما تأمّلنا في هذه النعم، زادت معرفتنا بالله تعالى، ما يُؤدّي إلى أن تزداد أيضًا محبّته في كياننا، حتى تبلغ هذه المحبّة درجةً لا يطلب معها الإنسان من الله تعالى - وعن وعي - أي منفعة، ولو كان في أعماق باطنه ما يزال يُريد أن يحصل منه تعالى على ثواب أكثر. فهؤلاء العباد الوالهون غارقون في الكمال والجمال الإلهيّين إلى درجة أنّهم ينسون طلب شيء لأنفسهم. فإذا جلسنا، وتأمّلنا في مقدار النعم

التي حبانا الله تعالى إياها، فإنّنا سنجني الكثير من البركات، وأوّلها أنّ الإنسان متى ما أدرك العطايا الإلهيّة وقيمتها، فإنّه لن يهتمّ للنقائص التي قد توجد في حياته، ولن يحزن لوجودها، بل سيقول: «ما هو الداعي للأسى مع وجود هكذا إله؟»؛ وهذا نظير المائدة الكريمة الملأى بأصناف الأطعمة الشهيّة، والتي لا يُلقى فيها بال لقطعة خبز محروقة، وحتّى لو انتبه إليها أحد، فإنّ الآخرين سيلجؤون إلى توبيخه. ومن هنا، فإنّ النقائص تكون من لوازم هذا العالم، بل هي بحدّ نفسها نعم، لكن يحتاج إدراكها إلى نوع من الدقّة.

فحينما يُواجه العبد المؤدّب النقائص والمصاعب الدنيويّة - التي جُعلت عادةً وسيلة لاختبار الناس - ويُقارنها بنعم الله تعالى، فإنّه يخجل، حيث تُعدّ هذه البصيرة أوّل ثمرة يحصل عليها نتيجة التأمّل في النعم الإلهيّة. إنّ هذه الرؤية العميقة تُخلّص الإنسان من الأسى على عدم وجود بعض الملذّات، وتُنبّهه إلى غرقه في نعم الله تعالى.

وأمّا الأثر الثاني للتفكّر في النعم الإلهيّة، فهو تأجّج محبّة الله تعالى في قلب الإنسان. إذ من الطبيعيّ أن يُحبّ الإنسان ويتعلّق بكلّ من قدّم له خدمة. ومحبّة الله تعالى تدفع الإنسان إلى شكره، ليصبح هذا الشكر سببًا لتضاعف النعم، وتستمرّ هذه العمليّة بهذا النحو. ومن هنا، وكما جاء في أدعية شهر رمضان المبارك أيضًا، لا يُمكن لأيّ أحد شكر الله تعالى بنحو تامّ، ولو على نعمة واحدة من نعمه. ومن باب المثال، إذا أراد الإنسان أداء الشكر على نعمة التنفّس، سيلزمه التوفّر على لسان، وتذكّر أنّ التنفّس نعمة إلهيّة، وهذه بحدّ ذاتها نعم أخرى وهبها الله تعالى للإنسان، وكذلك، حينما يلهج لسانه بالذكر، ويقول: «الحمد لله»، فإنّ البارئ عزّ وجلّ يكون قد منحه في الحقيقة نعمة أخرى تحتاج

بدورها إلى شكر، وعليه، لو قام الإنسان بأداء الشكر إلى يوم القيامة، فإنّ المسألة لن تنتهي عند هذا الحدّ، لأنّ كلّ شكر يحتاج إلى شكر آخر، وهكذا، تستمرّ هذه السلسلة إلى ما لا نهاية له. ومن هنا، لا يكفي عمر الإنسان لشكر نعمة من نعم الله تعالى بنحو تامّ، ناهيك عن أن يتمكّن من شكر جميع النعم الإلهيّة، والتي لا يقدر أحد على عدّها، بل ولا حتّى تصنيفها.

فإذا كان الإنسان يتعامل مع هكذا إله، فكيف ينبغي أن يكون خضوعه له؟ إنّ الالتفات إلى عظمة الله تعالى ورأفته ولطفه يدفع الإنسان إلى الالتذاذ فقط بالخضوع أمام ربّه، وينسى بتاتًا ما كان يريد أن يطلبه منه، ويقول من أعماق قلبه: «إذا كنت أتعامل مع إله يتّصف بكلّ هذا العطف واللطف، فإنّني لا أستطيع أن أقوم بأيّ شيء، سوى الخضوع أمامه، والسجود له». وهذه الحالة هي بعينها التي وصف بها الله تعالى في القرآن الكريم عباده المتميّزين: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١٠٩.

الفصل التاسع: الرحمات المعنويّة



«يَا مَنْ تَحَمَّدَ إِلَى عِبَادِهِ بِالْإِحْسَانِ والْفَضْلِ، وغَمَرَهُمْ بِالْمَنِّ والطَّوْلِ، مَا أَفْشَى فِينَا نِعْمَتَك، وأَسْبَغَ عَلَيْنَا مِنَّتَك، وأَخَصَّنَا بِبِرِّكَ، هَدَيْتَنَا لِدِينِك الَّذِي اصْطَفَيْتَ، ومِلَّتِكَ الَّتِي ارْتَضَيْتَ، وسَبِيلِكَ الَّذِي سَهَّلْتَ، وبَصَّرْتَنَا الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ، والْوُصُولَ إِلَى كَرَامَتِكَ».

١. النعمة المختصّة بالأمّة الإسلاميّة

في هذه الفقرة، يقول الإمام السجّاد عليه السلام مُثنيًا على ربّه المتعال: «يا من تعامل مع عباده بالإحسان والفضل، وغمرهم بالنعم والبركات، إلى درجة أنّهم صاروا مجبرين على مدحه[1]». يقول عليه السلام: «إلهي، ما أفشى نعمك بيننا، وما أوفر هطولها علينا، وما أعظم الإحسانات التي اختصصتنا بها!». ويبدو أنّ المراد من هذه الفقرة أنّ الله تعالى وهب للأمّة

(١) «**تَحَمَّدَ إِلَى الناسِ**» يعني أنّه قام بعمل يستوجب الحمد؛ وفي الحقيقة، فإنّه دفع الناس من خلال عمله إلى حمده والثناء عليه.

الإسلاميّة نعمًا لم يهبها للأمم الأخرى. وهنا، قد يُواجهنا التساؤل التالي: وما هي هذه النعمة إذًا؟ في هذا المقام، يقول الإمام عليه السلام: «إلهي، لقد هديتنا إلى الدين الذي اصطفيته»، فالإسلام هو الدين المختار الذي يعلو على كافّة الأديان؛ ولهذا، يقول عليه السلام: «لقد شرّفتنا بدين الإسلام الذي خصصتنا به من دون الأمم السابقة». ولا يخفى أنّه بحسب أحد المعاني، فإنّ الدين الحقّ في كلّ زمان هو الإسلام بمعنى التسليم لله تعالى؛ لكن، أحيانًا، يُطلق الدين على الشريعة، فتقع حينئذ الشريعة الإسلاميّة في مقابل شريعتي اليهود والنصارى، حيث يُراد من الشريعة: الدين باعتبار أحكامه ومميّزاته الخاصّة التي يتميّز بها عن بقيّة الأديان. يقول الإمام عليه السلام: «إنّ هذا دينٌ ارتضيته كثيرًا، وسبيلٌ إليك سهّلته لنا؛ ولقد بصّرتنا بطريق قربك، أي منحتنا البصيرة لكي نُدرك كيفيّة التقرّب إليك، ونعرف ماذا نعمل حتّى نبلغ تلك الكرامة التي ادّخرتها لأوليائك».

ولا يخفى أنّ بقيّة الأديان هي أيضًا طرق للوصول إلى الله تعالى، غير أنّ الإسلام - وفي عين كماله - يتميّز بخلوّه عن العسر والحرج والتكاليف الشاقّة، حيث رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَمْ يُرسِلْنِي اللَّهُ تَعَالَى بِالرَّهْبَانِيَّةِ وَلَكِنْ بَعَثَنِي بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَة»[1]. وفي المقابل، فقد توفّرت الشرائع السابقة على بعض الأحكام الشاقّة، إذ جاء في القرآن الكريم أنّ الله تعالى أنزل على بني إسرائيل بشكل خاصّ بعض هذه الأحكام، نظير قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[2]. فبعض الأشياء كانت محلّلة على الناس قبل نزول شريعة النبيّ موسى عليه السلام، وكانت

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ٥، الصفحة ٤٩٤.

(٢) سورة النساء، الآية ١٦٠.

تُعدّ من الطيّبات، لكنّ الله تعالى حرّمها بعد ذلك على بني إسرائيل عقابًا لهم على عنادهم. هذا، وإنّ من الصفات التي وُصف بها الرسول الأكرم ﷺ في القرآن الكريم، والتي استخدمها الأنبياء السابقون للتبشير بقدومه قبل بعثته أنّه سيضع عن الناس ثقلًا عظيمًا، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، حيث إنّ المراد في هذه الآية الكريمة من وضع الإصر والأغلال إنزال شريعة سهلة جدًّا، وفي الوقت ذاته كاملة.

ويقول الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة أيضًا: «إلهي، لقد بصّرتنا قربك، ووهبتنا البصيرة لنُدرك كيفيّة التقرّب إليك، ونعرف ماذا نعمل حتّى نبلغ تلك الكرامة التي ادّخرتها لأوليائك».

فحينما نُقارن بين هذه الفقرة من الدعاء، وبين العبارات السابقة، نجد هناك فارقًا واضحًا بينها؛ ببيان أنّ الحديث في العبارات السابقة - التي استعرضت ثلّة من خصائص النعم الإلهيّة - كان يدور بأجمعه حول وصف نعم عينيّة، مثل مسألة أنّ المؤمن يحصل على سبعمئة ضعف من الثواب جزاءً لإنفاقه، وأنّه يحصل على عشرة أضعاف الأجر في مقابل كلّ عمل حسن يقوم به؛ وأمّا في هذه الفقرة، فإنّ الكلام يدور حول النعم المعنويّة. وبعبارة أخرى، فإنّ النعم هناك تكوينيّة، وهنا تشريعيّة، حيث يتحدّث الإمام عليه السلام عن نعم أرقى اختصّت بها الأمّة الإسلاميّة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٢. نعمة العقل

١٥٦ عندما يجري الحديث عن النعم، فـإنّ ما يلفت نظرنا نحن البشر - بمقتضى فهمنا الطبيعيّ وحياتنا المادّية - هي المأكولات والمشروبات والملبوسات وكلّ ما يُساهم في راحتنا المادّية، وقلّما نتساءل عن قيمة بعض الأمور كالفهم والشعور والهداية والعقل. مع أنّنا إذا دقّقنا النظر، فإنّنا سنكتشف أنّ جميع النعم المادّية تبدو تافهة في مقابل النعم المعنويّة، بحيث لو أنّ هذه النعم لم تكن موجودة، لما جلبت النعم المادّية أيّ نفع للإنسان، بل ولأدّت إلى خسارته في بعض الأحيان، إذ لا يُمكن لهذه النعم المادّية أن تحظى بمكانتها الحقيقيّة، أو بعبارة أخرى: أن تحقق النفع للإنسان، إلّا إذا أفادته في حياته الأبديّة؛ وإلّا، فإنّ المتع الدنيويّة قد تتسبّب في الإضرار بحياة الإنسان الأخرويّة. فالشيء الذي يجلب اللذّة لعدّة أيّام، ثمّ يستتبع الحزن والعذاب لا يُمكننا عدّه نعمة حقيقيّة. أجل، يبقى أنّ البارئ عزّ وجلّ لم يمنحنا هذه النعم لكي نتعذّب، بل إنّ بعض الناس يُسيؤون استخدامها، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾[1]؛ ففي الحقيقة، قد نحوّل نحن البشر أحيانًا نعم الله تعالى إلى نقم، إذ لن تؤول هذه النعم إلى مصلحتنا، إلّا إذا استخدمناها في طريق رضى الله تعالى، ممّا يعني أنّ الإنسان يحتاج في استفادته من النعم إلى الهداية. ومن هنا، إذا تحقّقت هداية الله تعالى، فإنّ جميع المواهب الإلهيّة تصير في ظلّها نعمًا؛ وأمّا إذا لم تتحقّق، فإنّ هذه المواهب قد تُفضي إلى خسارة الإنسان.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٨.

٣. حدود العقل

يظفر الإنسان بالعديد من المعلومات عن طريق العقل، وهو من النعم المعنويّة التي قلّما يُلتفت إليها. لكن، يعترف عقلاء العالم بأنّ قدرة العقل ومداه محدودان، وأنّه يدلّ الإنسان على ثلّة من الأمور الخاصّة فقط، بحيث لا يستطيع الإنسان الاكتفاء به من أجل التعرّف على كافّة الخيرات والقبائح والطرق المنحرفة. ففي حياتنا الفرديّة، نحتاج إلى أن نعرف ما هي الأشياء التي تُفيد أبداننا، وما هي الأشياء التي تضرّها، وفي الحقيقة، فإنّ سلامة كلّ عضوٍ، بل كلّ خليّة من أجسامنا هي نعمة. وحينما نتحدّث عن سلامة البدن، فإنّ المطروح هنا في الواقع هو الملايين من النعم الإلهيّة التي يهبها البارئ عزّ وجلّ لنا في كلّ لحظة؛ فلكي يستمرّ البدن في أداء وظائفه، ينبغي على العين أن تبصر، والأذن أن تسمع، والجهاز العصبيّ أن يقوم بمهامّه على أحسن وجه، و...؛ لكنّ السؤال المطروح هو: كيف يتسنّى لنا - نحن البشر - المحافظة على سلامة هذه الأعضاء؟ لقد بذل كبار العلماء في العالم منذ القدم، وحتى يومنا، جهودًا مضنية في سبيل العثور على طرق لضمان الصحّة والسلامة وعلاج الأمراض، ومع ذلك، فإنّ علاج العديد من الأمراض لا زال مستعصيًا على الإنسان. ومن هنا، فإنّنا نرى أنّ العقل الإنسانيّ لم يتمكّن بعد كلّ هذه الجهود طيلة آلاف السنين من المحافظة على سلامة البدن بنحو تامّ.

والجدير بالذكر أنّ هذه المشاكل ترتبط بأبداننا؛ مع أنّ حقيقة الإنسان وجزاه الوجوديّ الأشرف هو روحه، وهي أيضًا تُعاني من الأمراض؛ فيأتي السؤال حينئذ: هل بوسع العقل التعرّف على جميع ما يلزم لسلامة روح الإنسان وصحّتها؟ إن عددًا كبيرًا من العلماء ما زال

منكرًا وجودَ شيء اسمه الروح، معتبرًا أنّ ما يُطلق عليه هذا الاسم هو مجموعة الوظائف تقوم بها الخلايا الدماغيّة، فإذا كان العقل لم يستطع إثبات جوهر شريف جدًّا ومنسوب إلى الله تعالى اسمه الروح إلّا بعد جهود مضنية، فأنّى له تشخيص أمراض هذه الروح وبيان طرق علاجها؟ فنحن إلى الآن لم نتعرّف بشكل صحيح على أبداننا، ولم نتمكّن بعدُ من علاج كافّة أمراضها، مع أنّ هذه الأبدان في متناولنا، وبوسعنا إخضاع جميع أعضائها للتجربة، فأنّى لنا - والحال هذه - اكتشاف سلامة أو مرض أرواحنا التي ليست لنا بها معرفة صحيحة؟ وكيف يسوّغ لنا إبراز رأينا بشأن علاجها من الأمـراض؟ فنحن لا نشكّ في وجود العقل، لكنّ هذا العقل بحاجة إلى أداة للوصول إلى هكذا معرفة، والتجربة أداة يستعملها العقل من أجل التعرّف على الأمور المادّية؛ لكنّ السؤال هو: أيّ تجربة واضحة من شأنها الكشف لنا عن سلامة الروح أو مرضها؟

وما استعرضناه كان يتعلّق بحياتنا الفرديّة، مع أن حياتنا الاجتماعيّة تشهد الآلاف من المسائل التي تفوق المسائل الفرديّة، والتي ينبغي علينا حلّها، والإجابة عليها. ولنضرب مثالًا على ذلك بالقضاء، حيث توجد العديد من الجامعات ومراكز البحوث المهمّة في العالم التي تُحقّق بشأن الأحكام القضائيّة، كما أُلّفت الآلاف من الكتب بخصوص الجريمة، وما هي حقيقتها؟ وما هو سبب وقوعها؟ وكيف ينبغي التعامل مع المجرمين؟ وهل يتعيّن معاقبة مرتكب الجريمة بصفته مجرمًا، أم يتوجّب عدّه مريضًا، وبالتالي معالجته؟ علاوةً على آلاف الأسئلة الأخرى. ومع ذلك، فإنّنا لا نمتلك نظامًا حقوقيًّا وقضائيًّا يُجمع عليه كلّ العالم. ففي هذا العصر، توجد العشرات من الأنظمة التي تختلف فيما بينها كثيرًا، مع أنّ الذين وضعوها يتوفّرون بأجمعهم على عقول نشطة، وهم غالبًا يضعون القوانين بناءً على مصالح بلدانهم دون أهداف شخصيّة، لكنّ

عقولهم لا تتجاوز هذا الحدّ. فتراهم يضعون اليوم قانونًا، ثمّ يُقرّون بعد فترة بخطئهم وبضرورة تغييره، وهذه مسألة تحصل في كافّة الأنظمة الحقوقيّة؛ ما يحكي عن ضعف العقل الإنسانيّ في إدارة أموره الحياتيّة.

فالذي يعتقد أنّ عمر الإنسان ليست له نهاية، وأنّ بانتظاره ولادة جديدة في عالم آخر، يُطرح عليه هذا التساؤل: ما الذي يجّب فعله لأجل تلك الحياة؟ قد يظنّ بعضٌ أنّه يمكن له، كما كان يُدير أموره الحياتيّة في هذا العالم بواسطة علمه وعقله، أن يديرها في ذلك العالم بالنحو ذاته، كما نُقل في القرآن الكريم على لسان ذلك الذي لم يكن معتقدًا بيوم القيامة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[1]، حيث يرى هؤلاء أنّهم كما بذلوا الجهد هنا، وهيّؤوا لأنفسهم الإمكانيات، واكتسبوا خبرة بطرق جمع الثروة، وتعلّموا كيفيّة خداع الناس، فإنّهم في العالم الآخر، وباعتبار توفّرهم على عمر أطول هناك، سيتمكّنون من تكديس ثروات أكثر بواسطة الطرق التي تعلّموها، وعند الضرورة، سيعملون على خداع الآخرين، ويُهيّؤوا لأنفسهم وضعًا أحسن من وضعهم في الدنيا. وأمّا بالنسبة للذين يُؤمنون بأنّ الآخرة ليست محلًا للعمل، بل هي محلّ لجني الثمار التي زرعوها أثناء حياتهم في الدنيا لعدّة سنوات، فإنّ السؤال التالي يُطرح عليهم: كيف يتحدّد نوع حياتهم الأخرويّة في هذه الدنيا؟ إنّهم يعلمون أنّ اليوم كما قال أمير المؤمنين عليه السلام «عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»[2]. فبعد الرحيل إلى عالم الآخرة، لا يوجد أيّ طريق للعودة إلى الدنيا، بحيث كلّما ارتجى الناس الرجوع، لم يحصلوا إلّا على عبارة «أبدًا» كجواب؛ كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ

---

(١) سورة الكهف، الآية ٣٦.

(٢) عبد الواحد بن محمد التميميّ الآمديّ، **غرر الحكم ودرر الكلم**، الصفحة ١٧٧.

أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾[1]، لكنّ الجواب الذي سيسمعونه هو: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[2]. فالذي يتوفّر على هكذا اعتقاد سيكون همّه متعلّقًا بكيفيّة إعمار آخرته. وقد يتمكّن العقل من التعرّف على قبح بعض أنواع الظلم، وإدراك أنّ هذه الأعمال مضرّة بالنسبة للحياة الأخرويّة، غير أنّ هذا الجواب لا يستطيع علاج كافّة الآلام، إذ ينبغي بيان العلاقة القائمة بين أيسر المسائل في حياتنا الفرديّة والاجتماعيّة، وبين حياتنا الأخرويّة، ليتّضح ما هي الأشياء التي ينبغي أن ننظر إليها، والأشياء التي لا ينبغي أن ننظر إليها، وأيّ صوت نسمع، وأيّ صوت لا نسمع، وفي أيّ شيء نُفكّر، وفي أيّ شيء لا نُفكّر؛ وكذلك في نطاق العلاقات الاجتماعيّة: ما هي القوانين التي ينبغي علينا إجراؤها، وما القوانين التي ينبغي أن لا نجريها، والآلاف من الأسئلة الأخرى من هذا القبيل. إنّ من المؤكّد أنّ العقل الإنسانيّ عاجز عن تقديم إجابة على هذه الأسئلة.

٤. نعمة التعليم والهداية الإلهيّين

إنّ هذا العجز يبرز أكثر في الأمور التعبّدية التي نعتقد بها. ففي هذا المجال، حتّى لو استخدمنا عقولنا بنحو جيّد، فإنّ غاية ما سنُدركه أنّه يجب علينا الخضوع أمام الله تعالى، لكنّ عقولنا لن تتمكّن من الإجابة عن التساؤلات المطروحة بشأن كيفيّة الخضوع والعبادة، وعدد ركعات الصلاة، ووقت العبادة وحدودها، ومسائل من هذا القبيل. فكيف يُمكن للعقل إدراك أنّه من اللازم بالضرورة أداء سبع عشرة ركعة في الصلوات،

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩ و١٠٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ١٠٠.

وأنّ صلاة الصبح تُؤدّى قضاءً بعد طلوع الشمس، وأنّ كلّ إنسان مكلّف بالصيام من السحر إلى المغرب، وأنّه يتعيّن على كلّ من صار مستطيعًا أثناء حياته الذهاب إلى الحجّ؟ فأيّ عقل يتسنّى له الجواب عن هذه المسائل؟ وبأيّة تجربة وبواسطة أيّـة معادلة يُمكنه ذلـك؟ فجميع التعبّديات المحضة هي بنحو لا يمكن للعقل البتّ فيها بشكل يقينيّ. ولهذا، توجد بعض العبارات في القرآن الكريم التي تُشير إلى لزوم التعليم الإلهيّ حتّى للأنبياء عليهم السلام؛ كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[1]، ويقول البارئ عـزّ وجـلّ في آيـة أخـرى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[2]. ومن هنا، فالبشر بحاجة لأن يتعلّموا من الله تعالى الأشياء التي لا سبيل لهم إلى إدراكها، وإذا تمكّن الإنسان من استيعاب هذه الحقيقة، فإنّه سيُدرك حينئذ الدور الذي يُؤدّيه الدين في سعادته؛ إذ هو الذي يُحدّد حكم أصغر وأكبر مسألة من المسائل ذات الصلة بشؤوننا اليوميّة: بدءًا من أسلوب التردّد على الأماكن المختلفة، ومرورًا بالقضايا المرتبطة بالعلاقات الزوجيّة والعائليّة، وانتهاءً ببقيّة المسائل الاجتماعيّة الصغرى والكبرى التي شُحنت بها كتبنا الفقهيّة.

فلو أنّ هذه المسائل لم يكن لها أيّ دخل في سعادتنا وشقائنا، لما كان تحدّث البارئ تعالى عنها أبدًا. والعجيب أنّ هناك انسجامًا بين سعادتنا الأبديّة وسعادتنا الدنيويّة، وأيضًا بين سلامة أرواحنا وسلامة أبداننا، بحيث متى ما عملنا بالأوامر الدينيّة، فإنّنا سنتمكّن من بلوغ كافّة هذه الأمور معًا؛ أي إنّنا سنحصل على جسم سليم، وفي الوقت ذاته على

---

(١) سورة النساء، الآية ١١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٥١.

نفس مطمئنّة، وعائلة سليمة، ومجتمع سعيد، وآخرة عامرة، لأنّ هذه الأمور متشابكة مع بعضها. فمع أنّه قد يبدو توفّرُ الأحكام ذات الصلة بالحياة على أقسام مستقلّة، إلّا أنّ الإسلام مزج بينها وربط بعضها ببعض، بحيث لا يُمكن فصل الواحد منها عن الآخر. وفي هذه الحالة، هل يوجد عامل غير العلم والحكمة الإلهيّين بوسعه بيان كافّة هذه الأمور؟ فإذا فرضنا أنّ الإنسان يتمتّع بصحة جسميّة تامّة، وله أولاد متعدّدون، و ...، لكنّه لا يعرف كيفيّة التعامل مع هذه النعم، فإنّه سيفقدها بأجمعها، إذ لن يستطيع إنسان كهذا المحافظة حتّى على سلامة بدنه؛ أفلا نُشاهد يوميًّا موت الآلاف من الناس جـراء إساءة استخدام المواد المخدّرة والسجائر؟ مع أنّهم ليسوا مجانين، ولم يفقدوا عقولهم، بل ونجدهم يبذلون مشقّة بالغة من أجل شراء موادّهم المخدّرة، وقد يلجؤون إلى السرقة أحيانًا في سبيل تمويل هذه النفقات؛ في حين أنّ هؤلاء من أفراد الإنسان، ولهم عقول. وبحقّ، لو لم تكن هناك هداية إلهيّة، فما هي المصائب والويلات التي كانت ستحلّ بالإنسان؟ إنّ التذكير بهذه المسائل كفيل بأن يُشعر الإنسان بأنّ «الهداية» هي تاج على رأس كافّة النعم الإلهيّة.

٥. خصائص الدين الإسلاميّ البارزة

بعدما استعرض مجموعةً من تجلّيات الرحمة الإلهيّة، يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «[أمّا النعم التي حبوتنا إياها خاصّةً، فوفيرة جدًّا!] **هَدَيْتَنَا لِدِينِكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَ**».

فبمعنى من المعاني، بوسعنا عدّ كلمة «الدين» عنوانًا لمضامين الهداية الإلهيّة، حيث نُطالع في القرآن الكريم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[١]، ففي هذه الآية التي ترتبط بيوم عيد الغدير، اعتُبرت ولاية أمير المؤمنين عليه السلام كآخر قسم مكمّل للدين، كما قال عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾؛ وهنا يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «إلهي، لقد خصصتنا بهذا الدين مع كلّ ما يحمله من مميّزات».

«**وملَّتِكَ الَّتِي ارْتَضَيْتَ**»؛ ومصطلح «الملّة» يُطلق عادةً على المذهب العمليّ. فالدين يشمل العقائد والأخلاق والأحكام الفرديّة والاجتماعيّة؛ بينما تُطلق الملّة عادةً على المناهج والآداب العمليّة. فحينما يقول البارئ عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[٢]، فإنّ مراده من ذلك أفعال نبيّه إبراهيم التي جاءت العديد منها في شريعتنا على شكل سنّة، وتعرّضت الروايات لذكرها أيضًا؛ نظير التنظيف وقصّ الأظافر. ومن الجدير بالذكر أنّ استخدام مصطلح «الملّة» في اللغة العربيّة يختلف عن استعمال شبيهه في اللغة الفارسيّة، أي «ملت» (بمعنى الشعب)؛ والذي يأتي في مقابل «دولت»؛ أي الدولة.

«**وسَبِيلِكَ الَّذِي سَهَّلْتَ**»؛ لقد أشرنا آنفًا إلى أنّ الشرائع السابقة كانت بدورها طرقًا للوصول إلى الله تعالى، إذ تأتي كلمة «الشريعة» بمعنى المدخل الذي يولَج من خلاله إلى النهر لسقي الماء، وهنا يُراد من الشريعة الطريق الذي يلج منه الإنسان لينال رحمة الله تعالى وفيضه، حيث يصدق هذا المعنى على كافّة الشرائع السماويّة، والتي كانت تُعدّ

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٦١.

في عصرها أديانًا حقّة، كما أنّنا نؤمن بها بأجمعها. وقد صُرّح في القرآن الكريم بأنّه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾[1]، وعليه فإنّ جميع الأنبياء يحظون باحترامنا وتقديرنا، ونحن على اعتقاد بالدين الأصليّ الذي نزل عليهم، ولا نقول إنّ دينهم كان خاطئًا من الأساس. وعمومًا، فإنّ أيّ واحد من الأديان الإلهيّة لم يكن مجانبًا للصواب، بل كان كلّ واحد منها شريعة وطريقًا إلى الله تعالى. لكن، يبقى أنّ أكمل هذه الطرق بأجمعها، وفي الوقت ذاته أيسرها هي الشريعة الخاتمة. وهذا من المعجزات الإلهيّة المتمثّلة في إيجاد تأليف في هذا الدين يحظى بتأثير أكبر في سعادة الإنسان، ويضمّ شرائع أيسر.

٦. الدين الأكمل للإنسان الأكمل

قد يُطرح علينا هذا السؤال: أفهل الله تعالى بخيل، حتّى يمنع بقيّة الأمم من شريعة كهذه بخصائص كهذه؟

الجواب الإجماليّ عن هذا السؤال هو: لكي يحظى الإنسان بالشريعة الكاملة، يتعيّن عليه التوفّر على استعداد خاصّ - لا سيّما في مجال العلاقات الاجتماعيّة - يُؤهّله لنزول ملّة خاصّة؛ وأمّا إذا أُنزلت عليه شريعة لا يمتلك الاستعداد المطلوب لها، فإنّه لن يجني منها أيّ نفع. إذ يُشبه حال الإنسان في العالم حال فاكهة قَطَعت مراحلَ نموّها عبر آلاف السنين، بحيث يلزم في تربيتها التعامل معها في كلّ مرحلة بنحو يتناسب مع هذه المرحلة. وقد حكى القرآن الكريم في عدّة مواضع عن عناد بني إسرائيل وتلكّئهم؛ كما في قصة البقرة، التي تعد أول قصة في القرآن، حيث أمر الله بني إسرائيل بذبح بقرة، لكي ينهوا الخلاف القائم بينهم،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٦.

لكنّهم اتّهموا نبيّهم بدايةً بالسخريّة منهم، واستصغروا هذا الأمر، وحينما ألحّ عليهم نبيّ الله موسى عليه السلام بأنّ هذا الأمر صادر من الله تعالى، فإنّ تلكّؤهم استمر بالسؤال عن لون البقرة، وهل ينبغي أن تكون عاملة أم لا؟ وغير ذلك. لقد بلغ هؤلاء القوم درجة من اختلاق الأعذار، بحيث صاروا مشهورين في التاريخ بهذه الصفة، فاعتبر الله تعالى أنّ من الضروريّ أن توضع لهم مجموعة من التكاليف الشاقّة في مقابل عنادهم وتمسّكهم بالأعذار الواهية، حيث جاء في القرآن الكريم بنحو صريح: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[1].

إن من الخصائص التي اتّسمت بها الشريعة الإسلاميّة أنّها في عين كونها كاملة، فإنّ العمل بها يسير. فنجد الدين الإسلاميّ يهتمّ بالشؤون الفرديّة والاجتماعيّة، والمادّية والمعنويّة، والدنيويّة والأخرويّة، إذ يوجد انسجام تامّ بين أجزاء هذا التركيب، بحيث يُكمّل بعضها بعضًا؛ وفي الوقت ذاته، يكون العمل بأحكامها سهلًا ويسيرًا. ومن الشواهد على ذلك أنّ كلّ تكليف يصل بالإنسان إلى حدّ الحرج والضيق يُرفع في الإسلام، حيث ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]؛ فمن باب المثال، يحظى الصوم بثواب وفضيلة كبيرَين، ويُساهم في سلامة جسم الإنسان وروحه، كما أنّه يُحقّق في الوقت ذاته للمجتمع - لا سيّما الطبقة الفقيرة - بركات كثيرة، ورغم ذلك، إذا تسبّب في إلحاق ضرر بالإنسان، فإنّ الفقهاء لا يُجوّزونه، بحيث لا يُقبل صيام المعذور، بل ويتعيّن عليه القضاء حين شفائه. ونرى أيضًا أنّ

(١) سورة النساء، الآية ١٦٠.

(٢) سورة الحجّ، الآية ٧٨.

الله تعالى أسقط الصوم في السفر أيضًا، والذي يصعب فيه عادةً أداء الصيام، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1]، حيث تحكي هذه المسألة عن يسر الشريعة، والذي جاء في الكتاب العزيز على شكل قاعدة عامّة بالنحو الآتي: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ولا يُريدُ بِكُمُ الْعُسْرَ». هذا، وقد ورد في أحد النقولات التاريخيّة أنّ راوي الحديث قال: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ [الصادق] عليه السلام: عَثَرْتُ، فَانْقَطَعَ ظُفُرِي، فَجَعَلْتُ عَلَى إِصْبَعِي مَرَارَةً [مرهمًا]، فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالْوُضُوءِ؟ قَالَ: يُعْرَفُ هَذَا وَأَشْبَاهُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امْسَحْ عَلَيْهِ [أي على المرهم]»[2].

وعليه، فإنّ الإسلام وفي عين كونه دينًا كاملًا يشمل حياة الإنسان بكافّة أبعادها، فإنّه أيسر الشرائع أيضًا.

٧. التعرّف على القرب الإلهيّ نعمة أعلى من كلّ نعمة

«وبَصَّرْتَنَا الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ، والْوُصُولَ إِلَى كَرَامَتِكَ»: ترجع الهدايات المعنويّة التي ذكرناها لحدّ الآن إلى أمور ظاهرة وواضحة تقريبًا، فهذه الهدايات تتعلّق مثلًا بمسألة كيف نُصلّي، وكيف نصوم، وما شابه ذلك. لكنّ الله تعالى علّمنا أمورًا أكثر معنويّة، غير أنّنا نجهل قدرها؛ بل نحن نجهل حتى قدر هذه الشريعة، ففي صدر الإسلام، حين كان بعض حديثي العهد بالإسلام يمنّون على الرسول إسلامهم، قال الله تعالى مخاطبًا نبيّة الكريم:

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

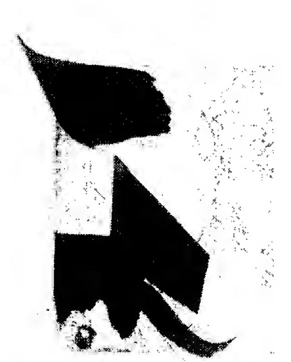
(٢) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٣، الصفحة ٣٣.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1]، فلو كان لأحد أن يمنّ، فإنّ الله تعالى هو الذي يجب في الحقيقة أن يمنّ علينا بهدايتنا إلى الإسلام. فإذا تمكّنا من الصيام في شهر رمضان المبارك، فلا ينبغي علينا أن نمنّ على الله، بل المنّة له تعالى على أن دعانا للصيام، حتّى يضمن لنا سلامة الجسم والروح، ويُحقّق في الوقت ذاته العديد من المنافع للمجتمع، ومن جملتها أنّ الصوم يُساهم في تعرّف الأغنياء على آلام الفقراء والجوعى؛ بل الأرقى من ذلك أنّه يعلمنا كيفيّة التقرّب إلى الله تعالى، حيث يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «أنت الذي علّمتنا كيف نُدرك أنّنا نحتاج إلى قربك، وعلّمتنا كذلك سبيل الوصول إلى هذا المقام». وبدورنا، نرجو من العليّ الأعلى أن يُوفّقنا ببركة عباده الصالحين للاستفادة من هدايته، والفوز بكرامته.

(١) سورة الحجرات، الآية ١٧.



الفصل العاشر: خير ليلة في خير شهر



«اللَّهُمَّ وأَنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَايَا تِلْكَ الْوَظَائِفِ، وخَصَائِصِ تِلْكَ الْفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي اخْتَصَصْتَهُ مِنْ سَائِرِ الشُّهُورِ، وتَخَيَّرْتَهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ والدُّهُورِ، وآثَرْتَهُ عَلَى كُلِّ أَوْقَاتِ السَّنَةِ بِمَا أَنْزَلْتَ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ والنُّورِ، وضَاعَفْتَ فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وفَرَضْتَ فِيهِ مِنَ الصِّيَامِ، ورَغَّبْتَ فِيهِ مِنَ الْقِيَامِ، وأَجْلَلْتَ فِيهِ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ».

١. وصف شهر رمضان المبارك

ما تلوناه إلى حدّ الآن من هذا الدعاء الشريف يتمثّل إجمالًا في قول الإمام السجّاد عليه السلام: «إلهي، ما أوفر النعم التي منحتنا إيّاها، بحيث غمرتنا في بحار رحمتك، فكلّ ذلك يقتضي مدحك؛ وما دام هناك لفظ يُستعمل في الحمد، ومعنى يُتصوّر له، فإنّه ينبغي مدحك والثناء عليك.

إنّ من أفضل النعم التي حبوتنا هدايتك إيانا إلى دينك»؛ وتكمن أهمّية الهداية إلى الدين في أنّ الدين يهدي بدوره إلى أمور يعجز العقل الإنسانيّ عن إدراكها لوحده، وتُعدّ أمورًا تعبّدية محضة. وبعد استعراضه لهذه المقدّمة، يُعدّ الإمام السجّاد عليه السلام الأرضيّة للحديث عن شهر رمضان المبارك، ويقول:

«**اللَّهُمَّ وأَنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَايَا تِلْكَ الْوَظَائِفِ، وَخَصَائِصِ تِلْكَ الْفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَانَ**»؛ وبحقّ، فإنّ شهر رمضان المبارك هو أحد أطهر وأخلص وأصفى التكاليف والواجبات؛ إذ لولا الهداية الإلهيّة، لما تمكّن أيّ عقل من إدراك فضائل هذه الشهر الكريم، وكيفيّة التقرّب فيه.

وقد يُقال إنّ الفقرات السابقة لم تتحدّث عن أيّة وظائف وتكاليف، فلماذا يقول الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة مخاطبًا ربّه: «إنّ من جملة تلك الوظائف شهر رمضان المبارك». وبوسعنا الإجابة عن هذا السؤال بالنحو الآتي: لقد قال الإمام عليه السلام آنفًا: «إلهي، لقد هديتنا إلى دينك»، والدين يضمّ الوظائف الملقاة على عاتق الإنسان؛ وعليه، فإنّ الهداية إلى الدين هداية إلى هذه الوظائف، ولو لم يتمّ التصريح بها. ومن هنا، يبدو أنّ «تلك» تحكي عن لوازم الهداية إلى الدين. فشهر رمضان المبارك هو شهر عيّن فيه البارئ تعالى مجموعة من الوظائف الخاصّة؛ كما أنّ كلمة «صفايا» جمع «صفيّ» بمعنى الشيء الصافي والخالص[1]. فوظائف الإنسان في شهر رمضان المبارك من الوظائف الخالصة جدًّا التي يكون الدافع إلى أدائها هو العبوديّة لله تعالى فقط. ومن هنا، فإنّ المراد من كون شهر رمضان وظيفة هو الإشارة إلى تلك

---

(١) راجع: الخليل بن أحمد الفراهيديّ، **العين**، ذيل كلمة «صفو».

الوظائف المرتبطة بهذا الشهر الكريم؛ وبالتالي، إمّا أن يكون هناك مضاف مقدّر، بأن نقول: من بين أطهر وأصفى وأخلص الوظائف وظائف شهر رمضان المبارك؛ وإمّا أن تكون هذه العبارة مجازيّة، بحيث يكون إطلاق الوظيفة على شهر رمضان المبارك باعتباره ظرفًا لمجموعة من الوظائف الخاصّة؛ نظير نسبة الجريان في جملة «جرى الميزاب» إلى الميزاب باعتباره محلًّا لجريان الماء.

«الَّذِي اخْتَصَصْتَهُ مِنْ سَائِرِ الشُّهُورِ، وتَخَيَّرْتَهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ والدُّهُورِ، وآثَرْتَهُ عَلَى كُلِّ أَوْقَاتِ السَّنَةِ بِمَا أَنْزَلْتَ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ والنُّورِ»؛ ففي القرآن الكريم، لم يرد ذكر لأيّ شهر من الشهور القمريّة الإثني عشر، سوى شهر رمضان المبارك. كما أنّ مكانة هذا الشهر في الفقه والثقافة الإسلاميّين على درجة من الجلاء، بحيث لا تحتاج منّا إلى أيّ توضيح آخر. وقد أطلق على شهر رمضان في المصادر الدينيّة اسم «شهر الله». وبالتالي، فإنّنا لا نجد أيّ شهر يُعادله في هذه الخصائص والمميّزات.

يقول الإمام عليه السلام: «إلهي، لقد اصطفيت هذا الشهر من بين جميع الأزمنة وأوقات السنة، لكن كيف؟ لقد منحت هذا الشهر الكريم مجموعة من المميّزات الخاصّة عن طريق إنزالك القرآن الكريم والنور فيه»؛ ويبدو أنّ المراد من النور نور القرآن بعينه، كما نقرأ في الكتاب العزيز: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[1]. لكن، قد يكون المراد أيضًا أنوار أخرى أنزلت على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله غير القرآن الكريم، إذ لا ينحصر الوحي المنزل عليه بهذا الكتاب العزيز.

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٥.

«وَضَاعَفْتَ فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ»؛ ومعنى مضاعفة الإيمان في هذه الفقرة هو التوفّر على فرص للعبادة والتقرّب إلى الله تعالى أكثر. وبما أنّ هذه الفرص توجب ازدياد الإيمان، فإنّه يُقال إنّ الله تعالى ضاعف الإيمان.

«وفَرَضْتَ فِيهِ مِنَ الصِّيَامِ، ورَغَّبْتَ فِيهِ مِنَ الْقِيَامِ»؛ ويبدو أنّ المراد من القيام في هذه الفقرة قيام الليل، وذلك باعتبار أنّ الإنسان يقوم فيه من الفراش. يقول البارئ عزّ وجلّ في سورة المزمل: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1]، حيث تعني «قم» في هذه الآية بحسب الظاهر: «قم من الفراش». والاحتمال الآخر أن يكون القيام بمعنى الصلاة، لأنّ أصل الصلاة يكمن في أن يقوم الإنسان ويُصلّي، كما أنّ أهمّ أفعال الصلاة تُؤدّى في حالة القيام؛ ومن هنا، يكون المراد من قيام الليل الصلاة ليلًا. وعلى أيّ تقدير، فقد كان التهجّد من الواجبات المختصّة بالرسول الأكرم ﷺ، ومع أنّه لا يجب على بقيّة الأفراد، إلّا أن المصادر الدينيّة حثّت عليه كثيرًا. يقول الله تعالى عن المؤمنين الذين بلغوا مقامات عالية: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ [ويقضون بقيّته في العبادة]﴾[2]. وفي جميع الأحوال، جرى الحثّ كثيرًا في النصوص الدينيّة على التهجّد في السحر وقيام الليل والعبادة في شهر رمضان المبارك، لا سيّما في ليالي القدر، حيث نجد الإمام السجّاد عليه السلام يُؤكّد في تتمّة هذه الفقرة على الفضيلة الخاصّة لليلة القدر، ويقول: **«وأَجْلَلْتَ فِيهِ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»**.

---

(١) سورة المزمل، الآية ٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية ١٧.

٢. شرف شهر رمضان المبارك

يُمكننا طرح العديد من الأبحاث بخصوص مفردات هذه الفقرة وجزئيّاتها، لكنّنا بنينا على الاختصار وعدم الإطناب في المسائل. ولهذا، فإنّنا سنستعرض في البداية الأبحاث التي يتسنّى لنا طرحها فيها، على أن نعمل بعد ذلك على شرح الفقرة بنحو مقتضب.

أوّلًا، هل يحظى زمان شهر رمضان المبارك بفضيلة بمعزل عن تشريعاته ونزول القرآن فيه؟ ويبقى أنّ هذا السؤال غير مختصّ بالشهر الفضيل، بل إنّ لدينا العديد من الروايات التي تتحدّث مثلًا عن ليلة الجمعة ونهارها، وتُشير إلى أنّ فضيلتهما تفوق بقيّة الأزمنة، فهل إنّ الفضيلة تتعلّق بنفس الزمان، أم إنّها ترجع إلى اقترانها ببعض الأمور التي حصلت في ذلك الزمان؟

ثانيًا، من المؤكّد أنّ أعلى شرف لشهر رمضان المبارك هو نزول القرآن فيه، كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1]. وفي هذه الحالة، هل بوسعنا القول: بما أنّ القرآن نزل في هذا الشهر الكريم، فإنّ الصيام صار واجبًا فيه؟ أم إنّ وجود الصيام في هذا الشهر بحدّ ذاته فضيلة، بحيث لو فرضنا عدم نزول القرآن في شهر رمضان، فإنّ الصيام سيجب فيه أيضًا؟

ثالثًا، ما معنى نزول القرآن في شهر رمضان المبارك من الأساس؟

فيما يخصّ السؤال الأوّل، يُمكننا أن نقول: الأمر الذي نحن على يقين منه - وقد جرى التصريح به أيضًا في هذه الفقرة - أنّ أعلى شرف لشهر

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

رمضان المبارك يتمثّل في نزول القرآن ووجوب الصيام فيه، حيث من شأن هذه المسألة أن تكون شاهدًا على الرأي الذي يعتقد برجوع فضيلة الزمان وشرفه إلى اقترانه ببعض الأحداث الحسنة.

وهنا، قد يُطرح علينا السؤال التالي: هل كان شهر رمضان المبارك يفضل بقيّة الشهور، ولهذا السبب أنزل القرآن فيه، أم أنّ نزول القرآن هو الذي أكسبه شرفًا، وإلّا فإنّه لم يكن قبل ذلك يفوق بقيّة الشهور؟ وبوسعنا أن نطرح السؤال ذاته بخصوص الأماكن المقدّسة. فعلى سبيل المثال، يُصرّح القرآن الكريم بأنّ الله تعالى جعل بيته في أرض مكّة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، فهل كان لهذه الأرض فضل قبل أن يُسمّيها البارئ عزّ وجلّ بيت الله، وتُبنى فيها الكعبة، أم أنّها صارت تحظى بالشرف بسبب اصطفائها من قبل الله تعالى لتكون بيتًا له، وتسميتها بهذا الاسم؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال، لا بدّ من الإشارة إلى أنّنا لا نتوفّر على أيّ برهان عقليّ أو دليل نقليّ قطعيّ يدلّ - نفيًا أو إثباتًا - على أنّ الزمان أو المكان يحظى بالشرف بمعزل عن الحوادث التي تقع فيه، أو الفضيلة التي تثبت له في الدين. فوفقًا لرؤية خاصّة، بوسعنا القول: من ناحية كون الزمان يُشكّل امتدادًا لعالم الأجسام، فإنّ أجزاءه لا تختلف - بحدّ ذاتها - عن بعضها؛ شأنه في ذلك شأن الطول من حيث هو طول، حيث لا يُمكننا القول بوجود اختلاف فيه [بين أجزائه]. لكن، قد توجد لدينا أشياء في هذا العالم تخلق وضعًا خاصًّا لجزء من الزمان أو المكان، وذلك باعتبار العلاقات التي توجد بينها، وتأثيرها وتأثّرها ببعضها، بحيث تجعل ذلك الجزء من الزمان أو المكان يتناسب بشكل أكبر مع فعل خاصّ. وهذا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٦.

نظير الاختلاف القائم بين الموجودات بحسب الأمكنة التي تعيش فيها؛ فيكون لدينا موجود جبليّ، وآخر بريّ، وثالث بحريّ، فإنّ هذا الاختلاف قد وقع بسبب أوضاع خاصّة يسعى الجيولوجيّون لوضع فرضيّات بشأنها. وعلى نفس هذا المنوال، طُرحت في الروايات مجموعة من الأبحاث بشأن خلق الأرض وكيفيّته؛ لكن، ليس من ناحية أنّ الأرض جسم تتساوى جميع أجزائه، بل من ناحية أنّها جسم له ارتباط بأشياء أخرى، بحيث تحصل بينها وبين هذه الأشياء نسبة ومكانة خاصّة تتناسب مع فعل خاصّ، ولا تتناسب مع فعل آخر. وهكذا أيضًا، إذا نظرنا إلى المجموعة الشمسيّة، فإنّنا نرى في مركزها الشمس، وفي أطراف الشمس مجموعة من الكواكب التي تدور، وتختلف عن بعضها من جهة الحجم وقوّة الجاذبيّة وقربها أو بعدها من الشمس و...، فيُؤدّي ذلك إلى تأثير بعضها ببعض؛ نظير ظاهرة الجزر والمدّ. فالأرض أرض، والتراب تراب، والماء ماء، ولا يختلف أيّ جزء من التراب عن الجزء الآخر، لكن، قد تكتسب بعض هذه الأجزاء جرّاء ارتباطها بأشياء أخرى مميّزات خاصّة لا تمتلكها الأجزاء الأخرى. فمن المؤكّد أنّ أرض مكّة توفّرت على سمة خاصّة كانت منسجمة مع هدف معيّن، فأدّى ذلك لاصطفائها، وأنّ هناك حكمة من بناء بيت عبادة الله تعالى في هذه الأرض القاحلة والخالية من أيّ عشب أو ماء، حيث أشارت الروايات أيضًا إلى هذه المسألة، مثلما ورد في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الله تعالى لو شاء لجعل بيته في منطقة هواؤها معتدل وماؤها عذب، وأنّه لو فعل ذلك، لما تميّز الذي

سافر إلى هناك طلبًا لمرضاة الله تعالى عن الذي سافر لأجل التنزّه[١]. فممّا لا شكّ فيه أنّ فعل الله تعالى لا يكون من دون حكمة، ولا يستلزم ترجيح المرجوح، أو الترجيح من دون مرجّح، وقد جعل سبحانه الكعبة في منطقة لا يرغب أحد في السفر إليها بحدّ ذاتها؛ ولا يخفى أنّ هذه الأرض صارت حاليًّا عامرة إلى حدّ ما، ولا يُمكننا مقارنتها بحالتها السابقة، حيث تحدّثت العديد من الروايات عن قصّة إبراهيم، وجاء فيها أنّه حينما أتى عليه السلام بهاجر وإسماعيل إلى أرض مكّة، لم تعثر هاجر على ماء ترفع به العطش عن ولدها إسماعيل، وأنه في ذلك الوقت الذي كانت تبحث فيه عن الماء، نكث إسماعيل الأرض برجله، فجرى الماء من تحتها بمعجزة إلهيّة، وإلّا لما كان بالإمكان العثور على أيّ ماء في ذلك الموضع[٢]. فصحيح أنّ أجزاء الأرض تتساوى فيما بينها من ناحية كونها أجزاءً للجسم، لكنّ ذلك لا يعني أنّه لا يهمّ الموضع الذي تقع فيه الكعبة، سواءً كان هذا الموضع في إيران أو أوروبا أو أميركا، لأنّ فعل الله تعالى لا يخلو من حكمة. ولو أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يُبيّن تلك الحكمة، لكان من المحتمل أن لا تتوصّل عقولنا إليها.

والكلام نفسه يُقال بالنسبة لأجزاء الزمان، إذ من الممكن أن تكتسب قطعة الزمان بعض الخصائص جرّاء سطوع نور الشمس، أو نور القمر، أو

---

(١) «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجَرًا وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَرًا وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْرًا بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلًا يُهَلِّلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ»؛ **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، الخطبة ١٩٢.

(٢) عليّ بن إبراهيم القمّي، **تفسير القمّي**، الجزء ١، الصفحة ٦١.

النجوم، أو بسبب عوامل أخرى، من دون أن نكون مطّلعين على هذه الخصائص، لكن في الوقت ذاته، لا يكون لدينا أيّ دليل على نفيها أو إثباتها. وفي هذه الحالة، لا يحقّ لنا الادّعاء بنحو جازم عدم وجود هذه الخصائص، إذ يتعيّن علينا الإتيان بدليل عقليّ أو نقليّ لنفيها، أو حتّى إثباتها. فعلى الإنسان أن يمتلك جرأة كبيرة لكي يدّعي هذه المسائل، سواءً في جانب النفي، أو الإثبات. وعليه، لا دليل لدينا على أنّ شهر رمضان المبارك يحظى أو لا يحظى بالفضل والشرف بذاته وبمعزل عن نزول القرآن فيه؛ لكن، يبقى أنّنا نُسلّم بكون هذا الشهر الكريم قد حاز ببركة نزول القرآن فيه على فضل يفوق كافّة الفضائل.

٣. معنى نزول القرآن

المعنى الذي نفهمه عادةً من النزول هو أن يكون لدينا جسم يتحرّك من الأعلى إلى الأسفل، ويلاحظ أنّنا نقيس الأعلى والأسفل على رؤوسنا وأرجلنا، إلا أنه لا يخفى أنّ المطلعين على علم الهيئة والفلك يعلمون أنّ هذا العلوّ والسفل نسبيّان؛ لأنّ الأرض تُغيّر وضعها بنحو دائم. ومهما يكن، فإنّ المقطوع به أن القرآن ليس جسمًا ينزل من الأعلى إلى الأسفل؛ وقد جاء في الكتاب العزيز بخصوص التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1]، وتوحي هذه العبارة بكون التوراة قد ألقيت على موسى عليه السلام من السماء على شكل ألواح؛ وأمّا بالنسبة إلى القرآن الكريم، فمن المحتّم أن نزوله لم يكن بهذا النحو، إذ

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٥.

قال البارئ عزّ وجلّ في شأنه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[١].

في البداية، كان وضع الألفاظ يتبع الإدراكات الحسّية، فبغية تحقيق التواصل والتفاهم فيما بينهم، لجأ بنو البشر بالتدريج إلى وضع الألفاظ لهذه الإدراكات. ومن هنا، فإنّ جميع الألفاظ وُضعت أوّلًا لأمور حسّية. لكن الحال اختلف، تدريجيًا، حينما توصّل الناس إلى وجود أمور غير حسّية أيضًا (سواءً كانت عقليّة اعتباريّة، أو خارجيّة عينيّة غير حسّية)، حيث وُضعت لها هذه الألفاظ بنحو مجازيّ مع نوع من التوسعة في معنى اللفظ، أو بنحو الاشتراك. وبذلك، ظهرت معان جديدة لهذه الألفاظ لا تندرج في المحسوسات. وتجري هذه القاعدة العامّة على كافّة الألفاظ التي وُضعت لأمور غير حسّية، بل وحتّى على الصفات الإلهيّة. فمن باب المثال، تُعدّ صفة «العليّ» من الصفات التي يتحلّى بها البارئ عزّ وجلّ، ويُراد منها: الذي له العلوّ. وما نفهمه نحن من العلوّ هو ما يعلو رؤوسنا، بينما من المسلّم به أنّ الله تعالى ليس بحيث يكون أعلى رؤوسنا في موضع من السماوات، بل وحتّى هذه السماوات لا تقع أعلى رؤوسنا أيضًا. وعلى أيّ تقدير، فإنّ الألفاظ التي استُخدمت في القرآن والنصوص الدينيّة بخصوص الأمور الواقعة وراء المادّيات والمحسوسات كانت تُستعمل بدايةً بنحو مجازيّ في غير المحسوسات، ثمّ ظهرت بعد ذلك وبالتدريج كأسماء خاصّة لتلك الأمور.

فالنزول من الله تعالى إلى الخلق لا يعني أنّ هناك شيئًا قد نزل من الأعلى إلى الأسفل، بل إنّنا نعتبر في البداية أنّ المراد من العلوّ بالنسبة

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٩٣ - ١٩٥.

لله تعالى هو العلوّ المعنويّ، ونقول: كما أنّه لدينا في باب الأجسام أعلى وأسفل، فإنّنا نتوفّر أيضًا في الحقائق غير المادّية على أعلى وأسفل؛ فالأعلى يعني الذي له كمالات عديدة، والأسفل الذي لا يتحلّى بأيّ كمال، أو أنّ كماله يكون أضعف من الآخرين. وبعدما نُجري هذه التوسعة على المعنى، يكون بمقدورنا القول: إنّ البارئ عزّ وجلّ أعلى، ونحن أسفل؛ ومن الآن فصاعدًا، فإنّنا سنعتبر كلّ ارتباط يتحقّق من ناحية الله بيننا وبينه تعالى صادرًا من الأعلى إلى الأسفل. فحينما قلنا إنّ الوحي الإلهيّ يصل من الله تعالى إلى النبيّ الأكرم ﷺ عن طريق جبرائيل، فإنّ ما اعتبرناه بالنسبة للبارئ عزّ وجلّ بوسعنا أن نعتبره أيضًا للملائكة في مرتبة دانية، بل وبمقدرورنا اعتباره لعالم الأجسام أيضًا، لكن في مرتبة أدون؛ وعليه، متى ما تحقّق ارتباط بين أعلى الموجودات، وموجود من موجودات عالم المادّة، فإنّنا نقول عنه: إنّه نزول من الأعلى إلى الأسفل. والشاهد على هذا الرأي الآيةُ الكريمة التي يقول فيها البارئ عزّ وجلّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1]، والظاهر أنّ القلب يُعدّ في اصطلاح القرآن مركز الإدراك والإحساس، وقوّة تُدرك الحقائق؛ كما جاء في الآية الشريفة: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[2]، حيث يُتوقّع من الذي له قلب أن يُدرك تلك الحقائق. ومن هنا، حينما كان القرآن ينزل على النبيّ الأكرم ﷺ، فإنّ قلبه هو الذي كان يُدركه.

ولا يخفى أنّ النزول على القلب لا يتعارض مع وجود نحو من التجسّم، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[3]؛

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

(٣) سورة عبس، الآيتان ١٥ و١٦.

فبمقتضى ما ذكره الله تعالى، حينما كان القرآن، أو بعض آياته تنزل، فإنّها كانت تنزل على شكل ألواح بأيدي سفراء إلهيّين يعرضون هذه الألواح على النبيّ الأكرم ﷺ، الذي كان ينظر إليها. وفي الواقع، فإنّ رؤية القرآن أو سماع صوته كان تجسّدًا لحقيقة هذا الكتاب السماويّ، حيث إنّ هذه الحقيقة ليست عبارة حتّى عن صوت، بل إنّ الصوت والخطّ تجلّيات لها.

٤. زمان نزول القرآن وكيفيّته

وهنا، يواجهنا التساؤل التالي: ما هو الزمان الذي أنزل فيه القرآن؟ قال البعض إنّ أوّل آية نزلت من القرآن في شهر رمضان، وبما أنّ بداية نزول هذا الكتاب السماويّ تحقّقت في هذا الشهر، فقد قيل إنّ القرآن أنزل في شهر رمضان المبارك. لكن، أوّلًا: هذا الكلام عبارة عن وجه مجازيّ؛ وثانيًا: أوّل آية نزلت من القرآن هي مطلع سورة العلق، وكان ذلك في السابع والعشرين من شهر رجب. وقال البعض الآخر إنّ معظم الآيات القرآنيّة أنزلت في شهر رمضان المبارك، لكنّ ذلك لا يعدو كونه دعوى من دون دليل.

وجاء في الروايات أنّ الإمام الصادق عليه السلام سُئل: «عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وإِنَّمَا أُنْزِلَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً[1] بَيْنَ أَوَّلِه وَآخِرِه، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ثُمَّ نَزَلَ [على قلب النبيّ ﷺ] فِي طُولِ عِشْرِينَ سَنَة»[2]. هذا، وقد فصّل العلّامة الطباطبائيّ في كتابه

(١) يبدو أن عبارة «عشرين سنة» في هذه الرواية عرفيّةٌ؛ والمراد منها في الحقيقة ٢٣ سنة.

(٢) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٦٢٩.

تفسير الميزان هذا البحث كثيرًا؛ ومن شاء، فليراجع هذا المصدر، ليُحصّل منه مجموعة من المسائل الظريفة[1].

والسؤال الآخر هو: في أيّ جزء من شهر رمضان المبارك أنزل القرآن؟ عند التأمّل في آيات سورة الدخان المباركة، نستنتج أنّ الكتاب العزيز أنزل في ليلة واحدة، إذ يقول الباريّ عزّ وجلّ في هذه السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[2]؛ ويظهر من سورة القدر أنّ هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[3]؛ فالمراد من هذه الليلة هي الليلة التي يُفتح فيها كلّ أمر محكم وراسخ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[4]؛ وقد جاء في الروايات أيضًا أنّها ليلة واحدة، لكنّ الباريّ تعالى أخفاها بين ثلاث ليالٍ. وبشكل مختصر، بوسعنا القول إنّ هناك ليلة في شهر رمضان المبارك اسمها ليلة القدر أنزل فيها القرآن. وبمقتضى الروايات، فقد أنزل هذا الكتاب العزيز أوّلًا إلى البيت المعمور، ثمّ تنزّل بعد ذلك طيلة ثلاثة وعشرين سنة على قلب النبيّ ﷺ. أجل، يبقى أنّ هناك تفسيرًا لهذه الرواية يقول إنّ المراد من البيت المعمور مرتبة من الروح أو النور المقدّس للرسول الأعظم ﷺ، حيث جرى طرح احتمالات من هذا القبيل. ونحن نُقرّ هنا بأنّ هذه الحقائق تفوق كثيرًا مستوى فهمنا وإدراكنا، لكن، بما أنّ الروايات الشريفة تحدّثت عنها، فإنّنا نُسلّم ونؤمن بها، ونقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[5].

---

(١) راجع: السيّد محمد حسين الطباطبائيّ، **الميزان في تفسير القرآن**، الجزء ٢، الصفحات ١٥ - ١٩.

(٢) سورة الدخان، الآية ٣.

(٣) سورة القدر، الآية ١.

(٤) سورة الدخان، الآية ٤.

(٥) سورة آل عمران، الآية ٧

لقد فضّل الله تعالى هذا الشهر على بقيّة الشهور، وليلة القدر على الليالي الأخر، بحيث إنّها تفوق ألف شهر، أي أكثر من ثمانين سنة. لكن، يبدو أنّ المراد من هذا التفوّق أنّ قيمة العبادة في هذه الليلة تُعادل عبادة ألف شهر، فالذي تمكّن من أداء عبادة مقبولة في هذه الليلة كأنّه قضى ثمانين سنة في العبادة. ويبقى أنّ هناك وجوه أخرى ذُكرت في هذا المجال، إلّا أنّها غير مستساغة كثيرًا.

٥. شكر نعمة القرآن عن طريق تلاوته بتدبّر

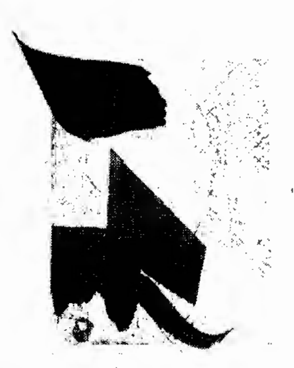
لقد خصّنا الله تعالى نحن المسلمين بهذه النعمة المعنويّة دون بقيّة الأمم، وقد أشار الإمام السجّاد عليه السلام إلى هذه الحقيقة في الفقرة السابقة، وكان ذلك كلّه من باب المقدّمة، لكي نلتفت إلى النعمة العظيمة التي جعلها الإله الرؤوف والحكيم في متناولنا. إذ اقتضت حكمته أن يُعادل إحياءُ ليلة القدر إحياءَ أكثر من ثمانين سنة. وأمّا بالنسبة لمسألة: لماذا تمتلك هذه الليلة كلّ هذا الفضل، فإنّ الجواب الذي بين أيدينا وينسجم مع مستوى فهمنا وإدراكنا هو أن نقول: بسبب نزول القرآن فيها، أي إنّ الوجه في عظمة هذه الليلة يتمثّل في نزول هذا الكتاب الشريف والعظيم فيها، بملاحظة أنّ القرآن كلام الله تعالى، وتجسّم للعلم الإلهيّ، ووسيلة لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة؛ أفهل يُمكن أن يوجد شيء يحظى بكلّ هذا الفضل والعظمة؟ فحينما وهبنا الله تعالى مثل هذه النعمة، توجّب علينا معرفة قدرها وشكرها. فمن أسرار الخلق الإلهيّ، بل ومن أعظم الألطاف الإلهيّة أنّه تعالى جمع لنا سلسلة من الفضائل - التي يحتاج اكتسابها إلى زمان طويل - في مدّة قصيرة أو مكان صغير وحدود؛ نظير ما جاء في الروايات من أنّ الدعاء تحت قبّة سيّد الشهداء عليه السلام مستجاب، وأنّ ذرّة من تربته عليه السلام شفاء

لكلّ مرض مستعصٍ، والمراد من ذلك توفّر هذه التربة على هكذا اقتضاء، وقد يتوقّف تأثيرها على بعض الشروط. فهذا لطف داخل في مجال قدرة الله تعالى، الذي يُنعم علينا بكثير من أمثال هذه الألطاف، أن قد جمع سبحانه في ليلة واحدة من بين كافّة الليالي فضائل ثمانين سنة؛ وهذا كلّه من لطفه في حقّ عباده.

لقد أنشئ هذا الدعاء لقراءته مع نهاية شهر رمضان كوداع لهذا الشهر المبارك. لكن، إذا وُفّقنا لتلاوته في الأيّام الأخر، فإنّنا سنتعرّف بنحو أفضل على قدر هذا الشهر، وليلة القدر، والقرآن المنزل فيه، حتّى لا نتصوّر أنّ هذا الكتاب العزيز مجرّد كلمات كبقيّة الكلمات، أو كشف كبقيّة الكشوفات العرفانيّة، إذ قد تُطرح هذه الادّعاءات الواهية من قبل بعض الذي يدّعون معرفتهم بالإسلام، والذين يقولون: لقد كان رسول الله يُشاهد حقائق خالية من أيّ لفظ أو مفهوم؛ فباعتقاد هؤلاء، يكون النبيّ الأكرم ﷺ هو من بيّن هذه الحقائق في قالب تلك الألفاظ والمفاهيم، بحيث من الممكن أن يكون بعضها غير صحيح، فيقع محلًّا للإشكال والنقد. لكنّ الحقّ هو أنّ كلّ هذه الادّعاءات تفتقر إلى الدليل، ولا تحظى بأيّة قيمة أو اعتبار.

وفي الحقيقة، علينا أن نُدرك ما هي العظمة التي يتحلّى بها القرآن، فهو على درجة من الرفعة والعلوّ، بحيث لا يجوز لنا أن نلمس ولو حرفًا واحدًا منه بدون وضوء، كما أنّ آية واحدة منه قادرة على إحياء الموتى. فالبارئ عزّ وجلّ وهبنا هذه النعمة، وعلينا أن نحذر من استصغارها، ومن مساواة هذا الكتاب العزيز ببقيّة الكتب الأخرى، ولا ينبغي أن نتلوه بسرعة ومن دون تدبّر لمجرّد ختمه، بل علينا أن نتمعّن في كلّ جملة جملة منه، ونوجد في أنفسنا الحالة التي تتناسب مع كلّ آية منه، ونشكر

الله تعالى بإزاء كلّ آية نقرؤها منه على أن وضع بين أيدينا هكذا آية. إنّ
هذا الكتاب السماويّ عبارة عن علم الله تعالى وكلامه، فنرجو من العليّ
القدير أن يُوفّقنا جميعًا لتلاوته عن علم ومعرفة.



«ثُـمَّ آثَـرْتَـنَـا بِـهِ عَـلَـى سَـائِـرِ الأُمَـمِ، واصْطَفَيْتَنَا بِفَضْلِهِ دُونَ أَهْـلِ الْمِلَلِ، فَصُمْنَا بِأَمْرِكَ نَهَارَهُ، وقُمْنَا بِعَوْنِكَ لَيْلَهُ، مُتَعَرِّضِينَ بِصِيَامِهِ وقِيَامِهِ لِمَا عَرَّضْتَنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِكَ، وتَسَبَّبْنَا إِلَيْهِ مِنْ مَثُوبَتِكَ، وأَنْتَ الْمَلِيءُ بِمَا رُغِبَ فِيهِ إِلَيْكَ، الْجَوَادُ بِمَا سُئِلْتَ مِنْ فَضْلِكَ، الْقَرِيبُ إِلَى مَنْ حَاوَلَ قُرْبَكَ، وقَدْ أَقَامَ فِينَا هَذَا الشَّهْرُ مُقَامَ حَمْدٍ، وصَحِبَنَا صُحْبَةَ مَبْرُورٍ، وأَرْبَحَنَا أَفْضَلَ أَرْبَاحِ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ قَدْ فَارَقَنَا عِنْدَ تَمَامِ وَقْتِهِ، وانْقِطَاعِ مُدَّتِهِ، ووَفَاءِ عَدَدِهِ».

١. التمهيد للوداع

كما أسلفنا الذكر، ينقسم دعاء الوداع إلى ثلاثة أقسام تقريبًا، حيث ورد في القسم الأوّل منه حديث عن نعم الله تعالى وإحسانه للإنسان؛ ففي

هذا القسم، يُبيّن الإمام عليه السلام حقيقة أنّ البارئ عزّ وجلّ يُنعم على عباده بالعديد من الألطاف، بل إنّه يرأف حتّى على العصاة منهم، ويُمهلهم ليتراجعوا ويتوبوا، كما أنّه يتعطّف أيضًا على تلك الطائفة من عباده التي تعمل الصالحات، ويُضاعف ثوابهم، لكي يجذبهم إليه، أي يجذبهم في الحقيقة إلى كمالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة. وفي تتمّة الدعاء، يُناجي الإمام السجّاد عليه السلام ربّه قائلًا:

«والأرقى من هذه النعم نعمةُ الهداية؛ إذ هديتنا إلى دينك، ودللتنا على أقصر طريق للوصول إلى أعلى درجة من السعادة والكمال، وعيّنت لنا مجموعة من الوظائف والتكاليف، بحيث إنّ أخلصها وأطهرها هي الوظائف التي حدّدتها لنا في شهر رمضان، وهو شهر يحظى من بين بقيّة الأعوام والأوقات بشرف خاصّ، إذ أنزلت فيه القرآن، وجعلت فيه ليلة القدر التي تفضل ثلاثين ألف ليلة».

وفي الحقيقة، يُريد الإمام عليه السلام بهذا البيان أن يُمهّد الطريق للشروع في القسم الثاني من هذا الدعاء الذي يتحدّث عن وداع شهر رمضان العزيز. ولهذا، أتى بهذه العبارات البديعة كمقدّمة لشكر نعمة الشهر الفضيل.

«**ثُمَّ آثَرْتَنَا بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ**»؛ في هذه الفقرة من الدعاء، يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «إلهي، علاوةً على أنّك هديتنا إلى شهر رمضان، وكلّفتنا فيه بالصيام الذي اختصصت به هذه الأمّة الإسلاميّة، فإنّك آثرتنا على بقيّة الأمم بالعبادة التي فرضتها في هذا الشهر»؛ ويبدو أنّ أصل الصيام كان موجودًا في الأديان السابقة، بل وكان أحيانًا أكثر وأشدّ ممّا عليه الحال في الأمّة الإسلاميّة، لكنّ الأمر الذي اختصّت به هذه الأمّة هو صوم شهر رمضان المبارك الذي فيه ليلة خير من ألف شهر.

«واصْطَفَيْتَنَا بِفَضْلِهِ دُونَ أَهْلِ الْمِلَلِ، فَصُمْنَا بِأَمْرِكَ نَهَارَهُ، وقُمْنَا بِعَوْنِكَ لَيْلَهُ، مُتَعَرِّضِينَ بِصِيَامِهِ وقِيَامِهِ لِمَا عَرَّضْتَنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِكَ، وتَسَبَّبْنَا إِلَيْهِ مِنْ مَثُوبَتِكَ»؛ ولقد اخترتنا يا إلهي عوضًا عن بقيّة الأمم لكي ننعم بفضل هذا الشهر وإحسانه، ولهذا، فقد صمنا أيّامه امتثالًا لأمرك، وقضينا لياليه في عبادتك بعونك ومساعدتك؛ فصرنا بسبب صيام هذا الشهر وقيامه مغمورين برحمتك التي عرّضتنا لها؛ وجعلنا ذلك وسيلة لنيل ثوابك.

وفي تتمّة الدعاء، يستعرض الإمام عليه السلام ثلاث صفات إلهيّة تتناسب مع هذا المقام، حيث يقول: «إنّ ما تتعلّق به رغبتُنا موجودٌ لديك بوفرة؛ وزيادةً على أنّك تمتلك كلّ هذه النعم، ولك القدرة على منحنا إيّاها، فإنّك جواد وكريم وتُحبّ أن تهبنا من عطاياك؛ كما أنّك قريب من كلّ من يسعى إلى قربك».

إلى هنا، يكون الإمام عليه السلام قد تحدّث عن أهمّية شهر رمضان المبارك، وليلة القدر، والصيام والقيام في هذا الشهر الفضيل، ثمّ قال: لقد تمكّنا بتوفيق الله تعالى وعونه من أداء هذه الوظائف. بعد ذلك، يعرض عليه السلام تمهيدًا لتوديع شهر رمضان المبارك، فيناجي ربّه قائلًا: «لقد أقام فينا هذا الشهر مقامًا محمودًا»، حيث نراه عليه السلام يُشبّه الشهر الفضيل في هذه الفقرة بضيف ينتظر المضيف قدومه طيلة أحد عشر شهرًا، وبعد كلّ هذا الانتظار الطويل، يُقيم الضيف عند مضيفه مدّة شهر واحد «مُقامَ حمدٍ»، حيث تحتوي العبارة الأخيرة على تعبير أدبيّ لا نجد له نظيرًا في اللغة الفارسيّة، أي إنّنا لا نستطيع ترجمته ترجمةً حرفيّة. فمن بين الأساليب لصياغة العبارات الأدبيّة في اللغة العربيّة، أن يُضاف الموصوف إلى مصدر الصفة، حيث جاء في القرآن الكريم مثلًا: ﴿لَهُمْ

قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾[1]، فقدم صدق تعني مقام صدق، لكن، للتعبير عن ذلك بنحو أدبيّ، فإنّهم يُضيفون الموصوف إلى مصدر الصفة؛ كما يقول البارئ عزّ وجلّ في موضع آخر بيانًا للمكانة الرفيعة التي يحتلّها الصالحون في الجنّة: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾[2]. ومن هنا، فإنّ «مُقام حَمدٍ» يعني المكانة المحمودة والمرضيّة؛ والمراد من ذلك بيان حقيقة أنّ شهر رمضان المبارك أدّى وظيفة رائعة حينما بقي إلى جانبنا طيلة شهر واحد، ولهذا السبب، فإنّنا نُثني عليه. لقد صاحبنا هذا الشهر بإحسان، كما أنّه جلب لنا أفضل الأرباح التي يُمكن أن يحصل عليها جميع العالمين في حياتهم؛ وحينما بلغ أجله، انفصل عنّا، وابتلانا بفراقه.

٢. نعمة فرض الصيام في شهر رمضان المبارك

كما نُلاحظ، فإنّ الجمل المبثوثة في هذا الدعاء الشريف تحتوي على تعبيرات أدبيّة بديعة جدًّا استُخدمت فيها أنواع من الاستعارات والكنايات والأساليب الأدبيّة. حيث نرى الإمام زين العابدين عليه السلام ينظر إلى هذا الشهر – وهو عبارة عن قطعة من الزمان – كموجود عاقل ذي شعور، ويتحدّث معه، ويُظهر حزنه على فراقه، ويُعاهده. ومن الجدير بالذكر أنّ هذه المسائل تضمّ العديد من النقاط الملفتة للنظر التي ينبغي التأمّل فيها بدقّة أكبر.

وفي الحقيقة، فإنّ أصل التكليف الذي وضعه البارئ عزّ وجلّ في هذا الشهر هو بحدّ ذاته نعمة عظيمة. لكن، يتصوّر البعض أنّ

(١) سورة يونس الآية ٢.

(٢) سورة القمر، الآية ٥٥.

هذا التكليف عبارة عن عمل شاقّ وصعب فُرض على الإنسان، وعند أدائـه، يصير للإنسان دينٌ على الله تعالى، لكنّهم لا يلتفتون إلى أنّ هذا التكليف فخر وهبه الله تعالى للأمّة الإسلاميّة، وفتح لهم به بابًا إلى السعادة والزلفى لديه؛ أي: ليس فقط أنّ هذا التكليف لا يصير به للإنسان دين على الله تعالى، بل إنّه يُصبح به مديونًا أمامه سبحانه، ويتوجّب عليه حينئذ شكره. فحينما اختصّنا الباريُ عزّ وجلّ بهكذا نعمة، فهل نكون في مقابل لطفه هذا دائنين، أو مديونين؟ في الحقيقة، علينا أن نشكر الله تعالى كثيرًا على هذه المزيّة التي حبانا إياها. إنّ هذه العبارات تُلفت نظرنا إلى مسألة أنّ حلول شهر رمضان المبارك، ووجوب صيامه، والتوفّق لأداء هذا الواجب الإلهيّ تُعدّ بأجمعها من النعم الإلهيّة العظيمة جدًّا؛ فأصل تخصيص هذا الشهر الفضيل بالأمّة الإسلاميّة هو فضل وشرف حبا الله تعالى أتباع هذا الدين إياه، وأمّا النعمة الأخرى التي حباهم إياها، فهي هدايتهم بواسطة الرسول الأعظم ﷺ ونزول القرآن إلى معرفة هذه النعمة، وفرض الصيام عليهم في هذا الشهر. فلو أنّ الباري تعالى لم يوجب الصيام في شهر رمضان، لما انبعث في قلوب المؤمنين الشوق كثيرًا لأدائه، ولحُرموا بالتالي من فيض هذا العمل الموجب للسعادة؛ ولهذا، فإنّ الصوم في الشهر الفضيل عبارة عن لطف إلهيّ عظيم يستوجب شكرًا مضاعفًا. وعلاوةً على ذلك، فإنّ القيام بهذا العمل بحدّ ذاته توفيق إلهيّ يتطلّب أن يُهيّئ الله تعالى أسبابه؛ وهذه بنفسها نعمة أخرى تستدعي شكرًا آخر، فما أكثر الذين يرغبون في أداء هذا التكليف، لكنّهم يعجزون عن ذلك جرّاء بعض الموانع، كالمرض أو السفر الضروريّ أو الشيخوخة أو الضعف، وقد أشير في هذه الفقرة إلى أنّ عون الله تعالى هو الموفّق للقيام بهذا العمل، مع أنّ الإنسان يحتاج في كلّ أعماله إلى معونته عزّ وجلّ، لكنّ المهمّ هو تلك الأعمال التي

تُفضي إلى سعادتنا، وتُؤدّي دورًا أساسيًّا وحيويًّا في بلوغنا هذه السعادة؛ وهذه هي المسألة التي نُكرّرها كلّ يوم حين تلاوتنا لآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] من سورة الفاتحة. ومن هنا، فإنّنا مدينون للتوفيق الإلهيّ حتّى في أدائنا لهذا العمل.

٣. معنى قرب الله التكوينيّ من المخلوقات

«**الْقَرِيبُ إِلَى مَنْ حَاوَلَ قُرْبَكَ**»؛ طُرحت، في مناسبات مختلفة، العديد من الأبحاث حول مسألة القرب الإلهيّ، لكنّ هذه المسألة على درجة من البُعد عن فهم عالمنا وأوضاعه المعيشيّة، بحيث إنّنا لو تحدّثنا عنها كلّ يوم، لما كان ذلك كثيرًا. وبحقّ، ما معنى قرب الإنسان من الله تعالى؟ فبمقتضى القاعدة التي ذكرناها آنفًا، فإنّ الألفاظ توضع في البداية لأمور حسّية، ثمّ تجري توسعتها لمناسبةٍ ما، لتشمل بذلك حتّى الأمور غير المادّية؛ وقد خضع لفظ «القرب» بدوره للعمليّة ذاتها. إذ لا نستخدم هذا اللفظ، إلّا حينما نقارن بين جسمَين، فنرى عدم وجود فاصلة مكانيّة كبيرة بينهما، أو عدم وجود أي فاصلة بينهما من الأساس؛ وعليه، لكي ننسب هذا المفهوم [لشيء ما]، فإنّنا نقيس الفاصلة القائمة بين موجودين مشتركين في المكان، فإن كانت يسيرة، فإنّنا نقول إنّ الجسمَين قريبان من بعضهما، وإن كانت بعيدة، فإنّنا نقول إنّهما بعيدان عن بعضهما. وبهذا النحو، يتبلور معنى القرب في العالم الجسمانيّ، وهو معنى نسبيّ يتحقّق بين جسمَين يُفرض وقوعهما على خطّ مستقيم. لكنّنا لم نكتف بهذا المعنى للقرب، بل وسّعنا مفهومه ليشمل القرب الزمانيّ أيضًا. فمن باب المثال، قد تقع حادثة قبل مئة سنة، وحادثة

---

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

أخرى قبل خمسين سنة، وثالثة قبل سنة واحدة، بحيث تكون الحوادث الثلاث واقعة على عمود زمانيّ واحد، بمعنى أنّ هناك امتدادًا واحدًا يضمّ هذه الحوادث معًا؛ لكن، تجدنا عادةً نقيسها على زماننا، فننسب القرب إلى الحادثة التي تفصلها عن زماننا مدّة أقصر. ومن هنا، فإنّ أصل معنى القرب يُشير إلى علاقة قائمة بين جسمَين، أو حادثتَين في المكان أو الزمان.

لكن، بعدما علِمنا بوجود أمور غير مادّية أيضًا توجد بينها نسبةٌ ما، فإنّنا أصبحنا نستخدم في حقّها لفظَي «القرب» و«البعد» بحسب الموارد المختلفة. وعلى سبيل المثال، إذا كان لدينا موجودان أحدهما محتاج للثاني، والثاني غنيّ عن الأوّل، فإنّنا نقول عن الموجود الغنيّ عن الموجود الآخر إنّه قريب من الغنيّ المطلق، بينما يكون الموجود المحتاج بعيدًا عن الغنيّ المطلق؛ وأمّا إذا كان كلا الموجودين محتاجين، فإنّنا نلحظ في عمليّة المقارنة شدّة الاحتياج أو ضعفه. ففي العلاقات الوجوديّة، كلّما كانت الوسائط القائمة بين الموجودَين المحتاج والغنيّ أكثر، فإنّنا نقول إنّ الموجود المحتاج أبعد من الغنيّ؛ وفي المقابل، كلّما كانت هذه الوسائط أقلّ، فإنّنا نقول إنّه أقرب. ومن باب المثال، فإنّنا نقول عن أوّل مخلوق لله تعالى: إنّه قريب وجودًا من البارئ عزّ وجلّ. لقد ترسّخ هذا الاستعمال بعد توسعة مفهوم القرب، وتسريته لدائرة الأمور غير المادّية.

فأيًّا كان المخلوق، وفي أيّ مكان كان، فإنّ خالقه يكون معه، ومهيمنًا عليه، بحيث لو انعدمت هذه العلاقة القائمة بينه وبين خالقه، لانعدم هو أيضًا. ولتقريب هذه المسألة إلى الأذهان، بوسعنا القول: إنّ إرادتي معلولة لي؛ أي إنّني أنا الذي أريد، وأُوجد هذه الإرادة، حيث تُعدّ

هذه الإرادة أقرب شيء إليّ؛ فحينما أريد، توجد هذه الإرادة من دون أن تكون هناك أيّة فاصلة بيني وبينها؛ وحينما لا أريد، فإنّها تُعدم. وإننا بعدما عَلِمنا أنّ لعالم الوجود بأسره خالقًا يوجد بإرادته كافّة المخلوقات إمّا بواسطة أو بدونها، فقد توصّلنا إلى أنّه: مثلما لا توجد بين هذا الخالق وبين إرادته أيّة فاصلة، كذلك لا توجد بينه وبين الأشياء القائمة بإرادته أيّة فاصلة أيضًا؛ وبالتالي، فإنّ لله تعالى قربًا ذاتيًا وتكوينيًّا بالنسبة إلى كافّة مخلوقاته، بحيث لو لم يُرد، لما وُجد أيّ شيء، وعلى حدّ تعبير الشاعر: «اگر نازى كند، از هم فروريزند قالبها»[1]، إذ شُبّهت الإرادة الإلهيّة في هذا الشعر بالروح التي تُنفخ في قوالب الأجسام، بحيث لو لم توجد تلك الروح لحظةً واحدة، لتحطّمت هذه القوالب أيضًا. ولا يخفى أنّ هذا مجرّد تشبيه وبيان ذوقيّ، ومن المسلّم أنّ الحقيقة أعلى من ذلك بكثير. ولعلّ أفضل تشبيه لإبراز هذا القرب الذاتيّ: علاقة الإنسان بصوره الذهنيّة، والتي تكون موجودةً ما دام الإنسان متوجّهًا إليها، لكن، ما إن يقطع توجّهه إليها - لأيّ سبب كان - حتّى تختفي هذه الصور. أجل، حينما يُريد الإنسان القيام بفعل ما، قد يكون هذا الفعل بحاجة إلى بعض المقدّمات التي يُشترط تحقّقها أوّلًا، لكن، يبقى أنّه لا يوجد أيّ شيء يفصل بين الإنسان وإرادته.

وبالنظر إلى هذه الحقائق، يكون بوسعنا بيان علّة عدم وجود أيّ فاصلة بين الله تعالى ومخلوقاته، وهي أنّ هذه المخلوقات بأسرها عبارة عن تجسّم ومظهر لإرادته سبحانه. وفي الحقيقة، فإنّ إرادة الله تعالى تحقّقت، فوُجدت المخلوقات. ولهذا، لا يُمكن لهذه المخلوقات أن

---

(١) وترجمة هذا البيت هي: لو أراد أن يُبرز دلاله، لتحطّمت كلّ القوالب؛ والمراد من ذلك: لولا عنايته، لما استقام حجر على حجر. [المترجم]

تنفصل عن البارئ عزّ وجلّ، لأنّ انفصالها يعني انعدامها. وبالتالي، فإنّ المخلوق لا يستطيع الانفصال عن الله والبعد عنه، وتُرشدنا هذه الحقيقة إلى القرب التكوينيّ لله تعالى من كافّة الموجودات، ومن ضمنها الإنسان.

ولا يخفى أنّ بوسعنا النظر إلى هذه المسألة من زاوية أخرى، وذلك بأن نقول: إذا كانت لدينا مخلوقات لا تفتقر إلى واسطة، فإنّها تكون أقرب إلى الله تعالى من المخلوقات التي تحتاج إلى واسطة.

وعلى أيّ تقدير، باعتبار أنّ المخلوقات قائمة في وجودها بإرادة الله تعالى، فإنّه ليس من شأنها أن تكون بعيدة عنه سبحانه؛ وهذا نظير إرادة الله تعالى التي ليس من شأنها الابتعاد والانفصال عن ذاته، بحيث لو ابتعدت لما عادت إرادة من الأساس. والظاهر أنّ هذا هو القرب الذي ورد في الآية الكريمة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]، ففي المحاورات العرفيّة العربيّة، توجد عبارة معروفة بينهم مفادها أنّه لا يوجد أيّ شيء أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، إذ حينما يُريدون ذبح موجود حيّ فإنّهم يقطعون وريـده، ولهذا شاع بينهم أنّ أقرب شيء للإنسان، بحيث إنّ انعدامه لا يُبقي له أيّة فرصة في الحياة، هو الوريد. لقد جرت الاستعانة في الآية المبحوث عنها بهذا التشبيه والمثل المتداول، والذي يحكي عن حقيقة أنّ كل الوجود الإنسانيّ مخلوق لله تعالى، وقائم بإرادته، ولا يُمكنه الانفصال عنه؛ وهو في الحقيقة مظهر للإرادة الإلهيّة.

لقد كان هذا مثالًا على الخَلق الحقيقيّ، لكن، أحيانًا قد يُضرب مثال على الخلق بالخلق والإبداع الفنّي ونظير ذلك، غير أنّ هذه الأمثلة لا

---

(١) سورة ق، الآية ١٦.

تخرج عن دائرة العبارات الشعريّة. فمن ناحية عقليّة، تُعدّ الإرادة أفضل شيء يُمكننا التمثيل به على مسألة الخلق، لأنّ الإرادة لا نصنعها من شيء آخر، بل هي - بعبارة أدبيّة - تجلٍّ لنفس الإنسان وروحه، ولا يُمكننا الانفصال عنها؛ فإرادتي لا توجد إلّا بعد أن أوجد أنا. هذا، وتمتلك كافّة موجودات العالم مثل هذه العلاقة بالذات المقدّسة للحقّ تعالى، فكما أنّ إرادتنا أقرب شيء إلى وجودنا، ونحن أقرب إليها من كلّ شيء، فإنّ علاقة الله تعالى بجميع مخلوقاته هي بالنحو ذاته.

٤. معنى قرب العبد من الله تعالى

يوجد نوع آخر من القرب هو قرب العبد من الله، الذي يكون اكتسابيًّا، ولأجل الوصول إليه، ينبغي على الإنسان بذل الجهد والطلب من الله تعالى أن يأخذ بيده. ومن الواضح أنّ هذا القرب ليس مكانيًّا، فرغم أنّ الإنسان يخضع للمكان، إلا أن القرب المكانيّ لا يتحقّق إلّا إذا كان طرفاه موجودَين في ظرف المكان، وأمّا إذا كان أحدهما مكانيًّا، والآخر فوق المكان، فلن يكون لقربهما أو بعدهما المكانيّ أيّ معنى.

وقد ذكر العظماء معنيَين لهذا القرب؛ أحدهما أبسط وفهمُه أسهل، ويتمثّل في اعتبار هذا القرب تعبيرًا مجازيًّا أُخذ من تلك النسبة التي تكون لبعض الأفراد إلى شخصيّات رفيعة المستوى، بحيث يحظون بتقديرهم واحترامهم، ويصغون إلى كلامهم، ففي هكذا موارد، يُقال عن هؤلاء الأفراد إنّهم مقرّبون لتلك الشخصيّات الرفيعة. وهنا، نرى بأنّ القرب الزمانيّ غير مطروح، وكذلك الشأن بالنسبة للقرب المكانيّ، بل وحتّى القرب الوجوديّ كالذي للبارئ تعالى مع كافّة مخلوقاته. وعليه، فإنّ المراد من كون المخلوق قريبًا من الله أنّه يحظى بعناية خاصّة من قبله تعالى، وأنّه يُحبّه، ويُجيب دعاءه، ويغفر ذنوبه، وينظر إليه بنظرة

المحبّة والعطف، حيث تُعدّ هذه العلاقة أكمل وأنـزه من العلاقات القائمة بين أفراد الإنسان. وقد أتى الذين تطرّقوا إلى هذا المعنى - تأييدًا لكلامهم - برواية قرب النوافل المشهورة التي يقول فيها البارئ عزّ وجلّ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِـهِ...»[1]، فحينما يخضع العبد بنحو تامّ لطاعة الله تعالى، فإنّه يصل إلى هكذا مقام. وفي تتمّة هذه الرواية، يقول الله تعالى: «وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ»، حيث عُدّ القرب بهذا المعنى أمرًا اعتباريًّا، والمقرّب إلى الله هو الذي يهبه تعالى كلّ ما يشاء. وفي الحقيقة، فإنّ هذا العبد يكون مستجاب الدعوة. ويُمكننا أن نضيف إليه المعاني التالية أيضًا، وهو أنّ الله تعالى يُحبّ هذا العبد أكثر، ويُبرز اهتمامًا خاصًّا بتربيته وتكامله، ويُطلق على مجموع هذه الآثار اسم القُرب. ومن هنا، لا يكون القرب بهذا المعنى أمرًا منفصلًا عن هذه الآثار، وهو معنى يكون مفهومًا من قبل العموم، ومقبولًا لديهم، ولا يُثير أيّ إشكال.

لكن، يتوفّر القرب، بحسب ما ورد في العديد من الآيات والروايات، على معنى أرفع. ولكي نُثبت أنّ حقيقة القرب لها مثل هذا المعنى، توجد لدينا إشارة وعلامة تتمثّل في أنّ البالغين إلى بعض مراتب هذا القرب يصلون أثناء عبادتهم الخالصة إلى حالة ومرتبة وجوديّة يشعرون فيها بعدم وجود أيّ فاصلة بينهم وبين الله تعالى، بل ويقول البعض إنّ هؤلاء العباد الصالحين يبلغون درجةً لا يرون فيها حتّى أنفسهم، وتُعدّ هذه الحالات شهوديّة، وهي ذات مشهود قطعًا، لا أنّها مجرّد تصوّرات، فالفرد المقرّب يعايشها، كما يعايش الإنسان في وجوده حالاته النفسانيّة،

---

(١) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٣٥٢.

نظير اللذّة والفرح، حيث لا يُمكننا القول إنّ حصول اللذّة أمر كاذب، فتصوّر اللذّة أمر يختلف عن نفس اللذّة، كما أنّ تصوّر الخوف مغاير لحقيقة الخوف. فحقيقة اللذّة إمّا أن تكون متحقّقة في وجود الإنسان، فيلتذ بها، وإمّا أن تكون غير متحقّقة في كيانه، فلا يلتذ. ومن هنا، بوسعنا القول إنّ الشعور بالخوف هو عبارة عن شهود حقيقة الخوف.

فالذين يعتقدون بتوفّر القرب على هذا المعنى يقولون: إنّ الإنسان يتوصّل في حالة القرب إلى عدم وجود فاصلة بينه وبين الله تعالى، بحيث يتجاوز ذلك كونه مجرّد تصوّر؛ وإلّا، فإنّ كلّ واحد يقدر على تصوّر عدم وجود فاصلة بينه وبين ربّه. وهذا يعني أنّ روح الإنسان تعرج وتتكامل، إلى أن تُدرك بأنّه ليس هناك أيّة فاصلة بينها وبين ربّها. ويُضيف القائلون بهذا المعنى: إنّ لهذا الإدراك لذّة لا يُمكن أن نجد لها نظيرًا في أيّ من لذائذ العالم. إذًا، يعتقد هؤلاء أنّ الإنسان يبلغ درجة من العبوديّة لله تعالى، بحيث ينسى أثناء العبادة كلّ شيء، وتحصل له حالةٌ يُدرك على إثرها عدم وجود أيّة فاصلة بينه وبين معبوده، فيلزم من هذا الإدراك حصول لذّة لا يُمكن حصول أعلى منها لأيّ مخلوق. ولا يخفى أنّ هؤلاء ذكروا مجموعة من الأدلّة لإثبات مدّعاهم، غاية الأمر أنّ فهمها ونقلها للآخرين لا يخلو من صعوبة.

يبقى أنّ لهذا المقام درجات، كما أنّ آثاره قد تظهر حتّى في هذا العالم. فعلى سبيل المثال، قد يبدو بدن الإنسان الواصل إلى هذه المراتب على شكل ميّت، وكأنّه لا روح فيه، حيث يُحكى حصول حالات كهذه لأمير المؤمنين عليه السلام حين مناجاته ربّه بين أشجار النخيل، فكان بعض الذين يشهدون حاله يأتون السيّدة الزهراء عليها السلام قائلين: «أدركي عليًّا، فقد مات، حيث سقط على الأرض أثناء الصلاة، ولم يعُد يظهر عليه

أيّ أثر للحياة»، لكنّها كانت تُجيبهم بأنّ هذا هو حال عليّ عليه السلام كلّ ليلة[١].

وعلى أيّ تقدير، فإنّ القرب بحسب هذا المعنى عبارة عن عروج روحيّ يبلغ فيه الإنسان مقامًا، بحيث لا تبقى أيّة فاصلة بينه وبين الله تعالى. ولا يخفى أنّ القائلين بهذا المعنى يرون أنّ هذه الحالات لا تطول كثيرًا، وإلّا فإنّ بدن الإنسان يصل إلى درجة لا يعود معها قادرًا على التحمّل[٢]، ممّا يُفضي إلى ارتحاله عن هذا العالم، كما جاء في القرآن الكريم في حوار موسى الكليم مع الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، حيث ورد في تفسير هذه الآية أنّها عبارة عن تمثيل للمعنى الثاني الذي ذُكر للقرب، وأنّ البارئ عزّ وجلّ يريد أن يقول لموسى عليه السلام: إنّ بدنه لا يتحمّل الأمر الذي يتمنّاه، وأنّه إذا أعطاه ما يُريد، فإنّ روحه ستُفارق بدنه، ممّا يُؤدّي إلى وفاته. وأمّا المراتب الأدنى لهذه الحالات، فلا تتعارض مع استمرار حياة الإنسان، وقيام البدن بوظائفه، لكنّ روح الإنسان تكون وكأنّها لا تتوجّه إلى البدن أبدًا.

---

(١) راجع: **بحار الأنوار**، الجزء ٤١، الصفحة ١٢. [المترجم]

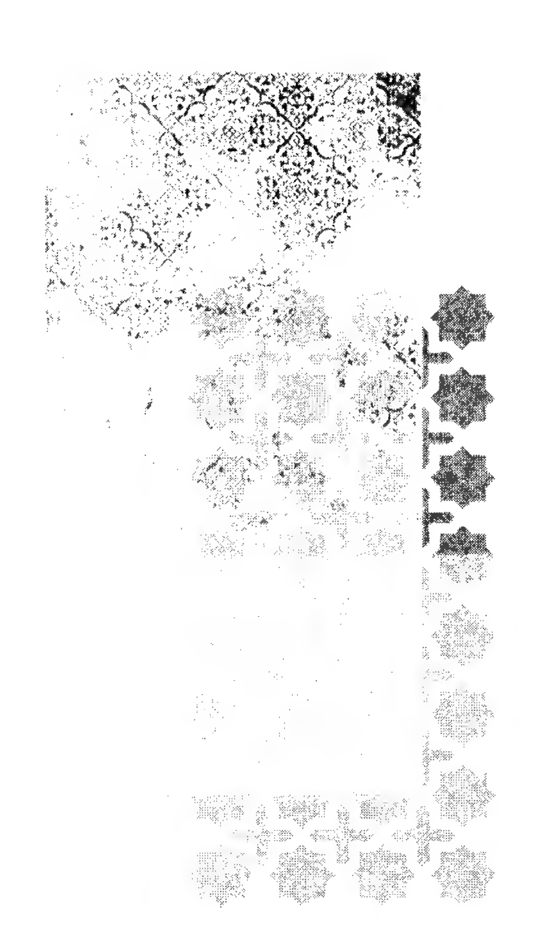
(٢) لا يخفى أنّ هذا الأمر صادق على الذين لم يبلغوا بهذه الحالات (والتي يُعبّر عنها بحالات الفناء) إلى درجة الملكة؛ وأمّا الذين وصلوا في طريق مجاهداتهم إلى أعلى من ذلك، وتجاوزوها إلى مقام البقاء بعد الفناء، فإنّ تلك الحالات تكون مستقرّةً بالنسبة إليهم. [المترجم]

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

٥. أعلى مقام وأقرب حبيب

يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «[أَنتَ] **الْقَرِيبُ إِلَى مَنْ حَاوَلَ قُرْبَكَ**»؛ فنفس أن يسعى الإنسان للاقتراب من الله تعالى هو بحدّ ذاته كمال، فإدراك الإنسان أنّ القرب من البارئ عزّ وجلّ له وجود واقعيّ، وأنه مقام عالٍ تترتّب عليه لذّة لا تفوقها لذّة، يستدعي تحصيل مجموعة من المقدّمات، ولا يتيسّر لأيّ أحد. وبعد أن يُدرك الإنسان هذه الحقيقة، فإنّه سيسعى للتقدّم في هذا الطريق، ويكون مصداقًا لـ: «**مَنْ حَاوَلَ قُرْبَكَ**». فإذا رغب أحدٌ في هذا الأمر، فإنّه سيجد الله تعالى حاضرًا في عين تلك اللحظة، وهذا معنى أنّه تعالى قريب مِن طالب القُرب. كما ورد أيضًا في الدعاء ذي المضامين العالية الذي يُقرأ بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام: «يَا مَوجُودَ مَن طَلَبَهُ»، أي: إلهي، كلّ من يطلبك يجدك؛ إذ ليس المراد هنا من كلمة «موجود» الثابت والكائن، بل المراد منها أنّه «يُوجَد عِندَ مَن طَلَبَهُ». وهذا لطف عظيم جدًّا مُنح للإنسان، إذ حينما يقترب الإنسان من أصحاب المقامات الرفيعة، فإنّه يرى نفسه في مواجهة العديد من المشاكل والمصاعب، بل وقد يبلغ ذلك درجة يُقدّم فيها الطالب حياته في طريق الوصال. وعلى أيّ تقدير، فإنّ الترقّي إلى مستوى أصحاب المقامات الرفيعة له تحدّياته الخاصّة، بحيث يصعب كثيرًا الاقتراب منهم، لكن، مع ذلك، فإنّ الإمام السجّاد عليه السلام يقول: «[أَنتَ] **الْقَرِيبُ إِلَى مَنْ حَاوَلَ قُرْبَكَ**». فلو فرضنا أنّ لدينا مجتمعًا مؤلفًا من عدّة ملايين، فيه شخصٌ تشرّف بلقاء إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف مرّة واحدة في حياته، فكم سنرغب في رؤيته، والاستفادة من محضره! ولو أنّ هذا الشخص قال: «أنا أعرف طريقًا يُمكنكم من خلاله التشرُّف بلقاء إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، لكنّه يُكلّفكم جهدًا ومشقّة طيلة سنتَين»، فإنّ من المؤكّد وجودُ أفراد مستعدّين لتحمّل هذه المشقّة في

سبيل التشرّف برؤية خليفة الله تعالى وصاحب العصر؛ هـذا، مع أنّه عليه السلام عبدٌ من عبيد الله تعالى وُجد بإرادة واحدة وأمر واحد من الباريّ عزّ وجلّ، بحيث لو لم يستمرّ هذا الأمر، لانعدم هو أيضًا. فماذا لو انفتح طريق الارتباط بهذا الخالق، وصار بوسع الإنسان الاقتراب منه بكلّ يُسر، فكيف يتعيّن على الإنسان الاستفادة من هذه الفرصة؟ فما أعظم هذه النعمة! لكنّنا - وللأسف - لا نمتلك تصوّرًا صحيحًا عنها، فضلًا عن أن نرغب فيها، أو أن نسلك طريقها! ومع ذلك، لا يجب علينا أن نيأس، لأنّ فضل الله تعالى على درجة من العظمة، بحيث لا يحقّ لأيّ موجود اليأس من رحمته. نرجو من العليّ العظيم ببركة أوليائه والمقرّبين من حضرته أن يمنّ علينا بفضله، حتّى تشملنا عناية أحد أوليائه، ونسلك نحن أيضًا هذا الطريق.

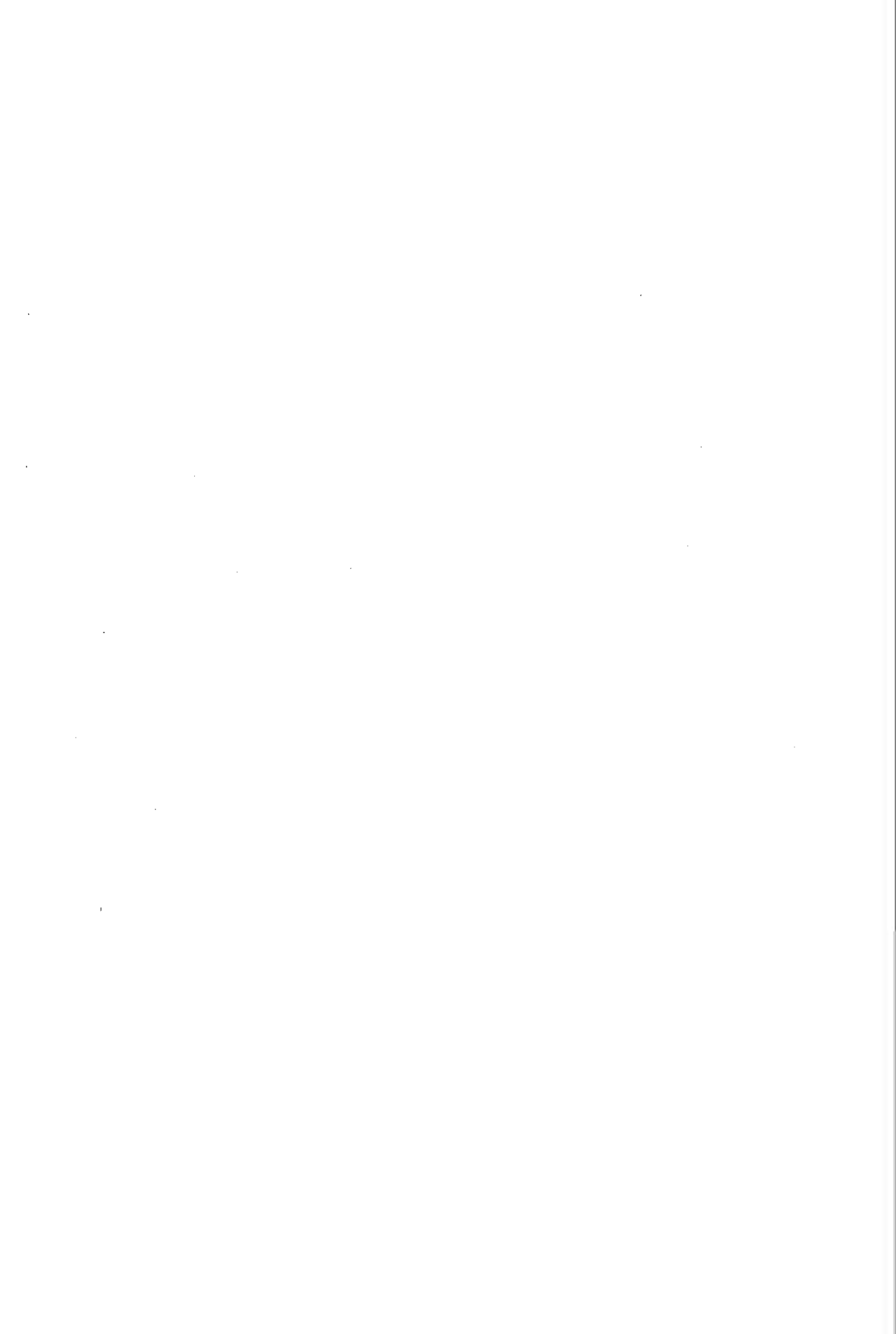


القسم الثاني: وداع شهر رمضان المبارك





أُنشئ القسم الثاني من دعاء وداع شهر رمضان المبارك على شكل خطاب موجّه لهذا الشهر الشريف، وتضمّن أصل الوداع. وهو عبارة عن مجموعة من التسليمات التوديعيّة التي تُذكر كخطاب لشهر رمضان المبارك. سنسعى إلى البحث عن هذا القسم ضمن ستّة فصول على النحو الآتي.



الفصل الأوّل: علّة وداع شهر رمضان المبارك وأهمّيته



«فَنَحْنُ مُوَدِّعُوهُ وِدَاعَ مَنْ عَزَّ فِرَاقُهُ عَلَيْنَا، وَغَمَّنَا وَأَوْحَشَنَا انْصِرَافُهُ عَنَّا، وَلَزِمَنَا لَهُ الذِّمَامُ الْمَحْفُوظُ، وَالْحُرْمَةُ الْمَرْعِيَّةُ، وَالْحَقُّ الْمَقْضِيُّ».

١. أهمّية العواطف في السلوك الفرديّ والاجتماعيّ

بعدما تطرّق الإمام السجّاد عليه السلام إلى الحديث عن الصفات الإلهيّة التي تُساهم في تخصيص المؤمنين والأمّة الإسلاميّة برحمة وفيوضات خاصّة، طرح مسألة الهداية الإلهيّة التي أتاح الله تعالى بواسطتها للإنسان إمكانيّة الظفر بالسعادة الأبديّة، كما بيّن أيضًا أنّ الباريء عزّ وجلّ وضع شهر رمضان المبارك، وأوجب فيه الصيام، وأكّد فيه على الاهتمام بالعبادات، وجعل فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. ثمّ قال عليه السلام: «لقد حلّ بنا هذا الشهر، وأدّينا فيه الصيام بتوفيق من الله تعالى، وتمكّنا فيه من عبادة الباريء عزّ وجلّ بمقدار ما ألهمنا ذلك؛ وحينما انقضت مدّته، رحل عنّا؛ ولهذا، فإنّنا صرنا في مقام توديع هذا الشهر وهذا الضيف المبجّل». وقد أنشأ الإمام عليه السلام هذا الدعاء في نهاية شهر رمضان المبارك، أو في عيد الفطر، مخاطبًا ربّه تعالى بهذه

العبارات الجميلة ذات المعاني الراقية، إذ يقول في وصفه لوداع الشهر الفضيل: «نحن مودّعون هذا الشهر وداعَ الذي يشقّ عليه كثيرًا فراقه، حيث أدّى رحيله وانصرافه عنّا إلى إصابتنا بالغمّ والوحشة. فلقد انقضى، لكنّه أبقى لنا عدّة أمور: أوّلها عهد راسخ معه، والثاني: حرمته التي يتعيّن علينا مراعاتها، والثالث: حقّه علينا الذي يتوجّب علينا أداؤه».

وبمناسبة الحديث عن هذه الفقرة، نطرح هنا بحثًا عن الوداع لكي يتّضح ما هو معناه من الأساس، وما هي حكمته، وما هو المصدر الذي نشأ منه. وفي الأخير، نُبيّن المراد من توديع شهر رمضان المبارك، والفضيلة والمنزلة اللتان يحظى بهما. ولإماطة اللثام عن أهمّية الوداع، نستعرض في البداية مقدّمة.

لقد غرس الله تعالى في وجود الإنسان مجموعة من القوى المحرّكة التي تُعينه في حركاته الاختياريّة من حيث كونها اختياريّة، بمعنى أنّه جهّز - من ناحية - وجودَه بسلسلة من الاستعدادات التي تُوفّر القابليّة والإمكانيّة اللازمتين لهذه الحركة، وأودع في نفسه - من ناحية أخرى - ثلّة من العناصر التي توجد الحركة، وتوصل تلك الاستعدادات إلى مرحلة الفعليّة. ولنضرب مثالًا موقفَ امرأة يُريد ابنها أن يُقدم على سفر طويل، فمن الطبيعيّ والمتعارف أن تلجأ هذه المرأة إلى توديع ابنها، حيث نشاهد وجود استعداد نفسيّ في الأمّ اسمه عاطفة الأمومة، لكنّه لا يكون نشطًا دائمًا، بل في ظروف خاصّة فقط؛ وحينما يتمّ تفعيله، ينبثق شعور خاصّ في نفس الإنسان. فمن باب المثال، عندما ترى الأمّ ابنها، فإنّ العاطفة تُحرّكها لكي تأنس به، فينبثق الشعور بلذّة الأنس في وجود الأمّ، وهو شعور عابر ومؤقّت، بخلاف العاطفة التي تكون متجذّرة وراسخة. فالعاطفة عبارة عن أمر فطريّ ينبثق منه في ظروف معيّنة الشعورُ

بالمحبّة والأنس، شأنها في ذلك شأن شجرة تُزهر بالثمار. ولهذا، فإنّ الأمّ تُحبّ أن تأنس بولدها أكثر، وتتحدّث معه، وتستضيفه.

وأمّا إذا انفصلت هذه الأمّ عن ابنها لسبب ما، فلم تره لفترة طويلة (كأن يرغب الابن في الهجرة إلى مدينة أخرى طلبًا للعلم، أو السفر إلى جبهات القتال لكي يُجاهد)، فإنّ نفس تصوّر أنّها ستُحرم من رؤيته والأنس به لمدّة من الزمان يُصيبها بالغمّ، حيث يظهر هذا الشعور السلبيّ في الإنسان حين ابتعاده عن المحبوب، بخلاف الإحساس بالسرور الذي ينبثق فيه جرّاء الأنس بهذا المحبوب. فحينما يريد الابن أن يفترق عن أمّه، فإنّ هذه الحالة تشتدّ، وتبلغ أوجها، ممّا يفضي إلى ظهور شعور قويّ عند الأمّ، فتسيل دموعها، ويكون مصدر هذا الشعور والبكاء تلك العاطفة بعينها. نعم، إذا رحل الولد عن أمّه دون أن يُودّعها، فإنّها ستنزعج فترةً من الزمن، إلّا أنّها ستعتاد على الفراق تدريجيًا، ولن يشقّ عليها الأمر بعد ذلك كثيرًا، لكن، إذا ودّع أحدهما الآخر، فإنّ هذه الحالة ستبقى حاضرة في وجودها دائمًا، ولو أنّ مرور الأيّام قد يترك تأثيره في هذه الحالة الخاصّة، فيُضعفها. فوداع الابنِ يُؤدّي إلى تثبيت هذه العاطفة والمحبّة الصادرة عنها، بحيث إنّ الأمّ ستظلّ تتذكّر ابنها طيلة المدّة التي غاب فيها عنها. ويُعدّ هذا مثالًا على ما يحدث على مستوى الشعور الفردي للأمّ تجاه ابنها.

هناك إذًا العديد من العواطف التي تنشأ منها نشاطات مختلفة في حياتنا. ولو فرضنا عدم وجود العواطف والأحاسيس، لكان مجرّد العلم بواقعيّة ما والالتفات إليها غير كافٍ للتحريك نحو هذه الواقعيّة. فمصدر عامّة أفعالنا يتمثّل في أمور عاطفيّة تكون بمثابة محرّك مكنون في وجودنا، وتصدق هذه الحقيقة على المسائل الاعتباريّة

والاجتماعيّة والسياسيّة وغيرها. وإنّ الوداع والعواطف المكتنفة به لا يختصّ بالأمّ والابن، بل تحصل هذه الحالات أيضًا لصديقَين يفترقان عن بعضهما ويُودّع أحدهما الآخر. وحينما تصل هذه العمليّة إلى مستوى المجتمع، فإنّها تخرج من حالتها الفرديّة، وتتّخذ طابعًا اجتماعيًّا، فتتبلور بصورة جماعيّة وفقًا للأهداف والعواطف المشتركة والأحاسيس الخاصّة الموجودة بين الأفراد. فالأحاسيس والعواطف الدينيّة سواء كانت على شكل عزاء (نظير ما نُشاهده في أيّام محرّم)، أو على شكل فرح وسرور، هي نماذج عن تلك العواطف والأحاسيس الاجتماعيّة. وحينما يتكرّر حصول هذه الأمور في المجتمع، تنبثق عنها مجموعة عادات وتقاليد. ومن هنا، فقد تبلورت للوداع ثلّة من العادات والتقاليد التي ظهرت على شكل أعراف دينيّة كوضع القرآن على رأس المسافر، أو في قالب تقاليد عرفيّة كإحضار الماء والعشب الأخضر للمسافر [وإلقاؤهما أمامه].

٢. العقل والشرع عنصران مسيطران على العواطف

لا تعرف العواطف والأحاسيس بذاتها أيّ حدّ؛ فلا يمكن للعاطفة أن تُعيّن لنفسها المحلّ الذي لا ينبغي أن تنوجد فيه، أو الظروف التي ينبغي أن تتحقّق فيها، وأين تكمن نقطة ذروتها، وما هي الحالة التي تنتهي فيها، بل إنّ الظروف الفرديّة والاجتماعيّة المتعدّدة، والعلاقات الاجتماعيّة، والاعتبارات العقليّة والعرفيّة تتعاضد فيما بينها، فتُؤدّي إلى إيجاد أرضيّات مختلفة تُساهم في تأثير العواطف والأحسايس في أعمالنا. وبما أنّ العواطف لا تخضع بذاتها إلى أيّ حدّ معيّن، فإنّنا قد نقع أمامها في الإفراط أو التفريط. وباعتبار أنّ الإنسان موجود مكلّف، وينبغي عليه اختيار نوعيّة سلوكه، فإنّه يحتاج إلى عنصر آخر يقيه من الوقوع في

الإفراط أو التفريط عن طريق تعيين حدّ لعواطفه وأحاسيسه، إذ من شأن هذين الأخيرين إلحاق الضرر به.

ومن هنا، أودع الله تعالى في وجود الإنسان قوّة العقل ليُسيطر على عواطفه وأحاسيسه. ولا يخفى أنّ للعقل معانٍ اصطلاحيّة مختلفة، غير أنّ المراد منه هنا القوّة المسيطرة على العواطف والأحاسيس. فحين تناول الطعام، يقول هذا العقل: «مع أنّك لا زلت تشتهي الطعام، إلّا أنّه ينبغي عليك مراعاة الحدود، فلا تُفرط في الأكل حتّى لا تُصاب بقسوة القلب، ولا تُفرّط فيه، فتُصاب بالضعف والعجز عن أداء التكاليف». فشأن هذه القوّة هو خدمة العواطف والأحاسيس، وهدايتها؛ وبوسعنا تشبيه العقل بإنسان يمتطي فرسًا جموحًا، فيكون مضطرًّا للإمساك بلجامه جيّدًا، فيُرخيه في الوقت المناسب، حتّى يتحرّك الفرس، ويشدّه في الوقت المناسب، فنرى هنا أنّ القوى الإنسانيّة تخضع لسيطرة هذا الراكب الذي ينبغي عليه التحكّم فيها.

يتمتّع الإنسان إذًا بهذه النعمة، كما أنّه يُدرك بنحو عامّ وظيفة العقل هذه. لكن، بما أنّ العقل عاجز عن تعيين الحدود بشكل صحيح في جميع الظروف، فإنّه يحتاج إلى إرشـادات الوحي؛ ممّا يعني أنّ التعاليم الإلهيّة هي صاحبة القرار الأخير. والمسألة الأخرى أنّ كلّ من يُحسن الاستفادة من قوّة العقل وأوامر الشرع، فإنّه يحصل على نوع آخر من السيطرة على أفعاله، وهي عبارة عن سيطرة إلهيّة؛ إذ يكون الله تعالى هو المدبّر لأعمال هذا الإنسان، فيُفهمه أشياء أرقى من المفاهيم الذهنيّة والعقليّة، ويُطلعه على كلّيات المسائل المبثوثة في الكتاب والسنّة، حيث يتمكّن أفراد هذا حالهم من إدراك مجموعة من الحقائق

بالشهود، ويتعرّفون على أمور تُعينهم على العثور على الطريق الصحيح، والظفر بالمصالح الواقعيّة.

٣. المبادئ النظريّة للثقافات ومصدرها الصحيح أو الخاطئ

وقوع الخطأ في الاستدلالات العقليّة أو الاستنباطات الشرعيّة قد يكون سببًا لإنشاء مجموعة من العادات والتقاليد الخاطئة. فإذا لم يُؤدّ العقل، الذي يقع على عاتقه وضع هذه العادات والتقاليد، وظيفته بشكل صحيح، أو أنّ المُستَنِدَ في معرفة من المعارف إلى الوحي قصّر أو أخطأ في فهم هذا الوحي، فإنّ هذا الخطأ قد يكون سببًا في إيجاد عادات وتقاليد مجانبة للصواب ومخالفة لما يقتضيه كلّ من العقل والوحي. فعند الاستعانة بالعقل، يتعيّن في العديد من الموارد إقامة الدليل، ومن الممكن وقوع الخطأ عند صياغة الاستدلال، كالأخطاء التي يُبحث عنها في باب المغالطات من المنطق. وعليه، قد يسلك العقل جرّاء وقوعه في الخطأ مسارًا خاطئًا في الموضع الذي تقع فيه على عاتقه مهمّة القيادة. كما أنّ هذا الخطأ قد يقع في المجال الديني أيضًا، وذلك حينما يتعامل الذين لا يسلكون طريقًا ومنهجًا قويمًا في الفقه وفهم الدين مع المصادر الدينيّة بنحو سطحيّ، فرغم كونهم يفتقرون للكفاءة اللازمة، إلّا أنّهم يستعجلون في الحكم، ويُصدرون فتاوى متسرّعة، أو أنّهم يُخطئون في الاجتهاد بسبب نقص المصادر، أو لأيّة علّة أخرى، حيث يعملون في الحقيقة على وضع أسس خاطئة لبناء العادات والتقاليد.

فإذا صارت هذه الأخطاء الواقعة في مجال النظريّات العقليّة والدينيّة مصدرًا لتبلور العادات والتقاليد، فإنّ هذه العادات والتقاليد ستكون خاطئة. وعلى العكس من ذلك، إذا أحسن العقل أداء وظيفته في الهداية، وتمكّن جيّدًا من السيطرة على العواطف، فإنّه سيقوم حين

ولوجه إلى المجتمع بتوفير أسس صلبة تقوم عليها الاعتبارات الاجتماعيّة، ويُساهم في تبلور عادات اجتماعيّة مفيدة. فكما نعلم، تندرج العادات والتقاليد في مقولة الثقافة، فتُشكّل العادات والتقاليد المختلفة ثقافات مختلفة. وهنا، تتّضح الإجابة على السؤال التالي: هل نحن نمتلك ثقافة خاطئة أم لا؟ حيث بوسعنا القول في الجواب: ينبغي علينا البحث عن مصدر تشكّل العادات والتقاليد الاجتماعيّة التي تتبلور في الثقافات الفرعيّة، فإذا أدّى العقل المهمّة الملقاة على عاتقه في مجال وضع الأسس والقواعد بنحو جيّد، وتمكّن من توفير مبادئ صحيحة عند صياغة العادات والتقاليد، بحيث تتشكّل هذه العادات والتقاليد الاجتماعيّة وفقًا لما يقتضيه العقل والشرع، فإنّ الثقافة هنا ستكون صحيحة، وإلا ستكون خاطئة.

ومن باب المثال، جاء في القرآن الكريم أنّ الأنبياء حينما خطّؤوا المشركين وعبّاد الأوثان، ونهوهم عن عبادة الأصنام، فإنّ هؤلاء أجابوهم بقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1]؛ وباصطلاح سوسيولجيّ، إنّهم ردّوا عليهم بأنّ هذا العمل يندرج في ضمن عاداتنا وتقاليدنا الاجتماعيّة، ويُشكّل جزءًا من هويّتنا الاجتماعيّة، حيث كان آباؤنا وأسلافنا يؤدّون الأعمال ذاتها، وقد كان مجتمعنا يحترمهم ويُقدّسهم. وعليه، فإنّ المراد من الآية الآنفة الذكر أنّ عبادة الأوثان قد برزت في تلك المجتمعات على شكل ثقافة؛ فأصل هذه العبادة يرجع في جذوره إلى أفكار خاطئة صارت مصدرًا لعواطف اجتماعيّة ودينيّة خاطئة، ممّا أفضى إلى ظهور ثقافة فاسدة. ولهذا، فقد كان الأنبياء عليهم السلام

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٢٢.

يقولون: «هل يجب عليكم اتّباع آبائكم، ولو كانت أعمالهم مخالفة للعقل والحقّ؟».

٤. حبّ الله تعالى منشأ لحبّ شهر رمضان المبارك

ولنعُد الآن إلى البحث عن مسألة توديع شهر رمضان المبارك وأهمّيتها. فنحن - بصفتنا منتمين للأمّة الإسلاميّة - لا نُدرك عظمة الله تعالى إلّا بمقدار ما نعرفه. وعندما نتعرّف على النعم الإلهيّة، فإنّ محبّة البارئ عزّ وجلّ تنبثق في قلوبنا شئنا أم أبينا، فلا يُقال في علم النفس لهذا النوع من العلاقة مع الله تعالى عاطفة، بل حقيقتها هي المحبّة. وإننا نؤدي على أساس هذه المحبة مجموعةً من الأعمال، بعضها يُدرك العقل ارتباطه بهذه المحبّة، فيُجيزه؛ لكنّ معظمها يخرج عن حيطة العقل، فيكون الله تعالى ورسوله هما المحدّدان له. إنّ هذه العلاقة حاضرة في كافّة سلوكياتنا الاجتماعيّة وتقاليدنا الدينيّة، كما أنّنا قادرون على اكتشافها.

فجميع هذه الأمور تُساهم - بنحو ما - في هداية القوى المحرّكة التي غرسها الله تعالى في وجودنا، حيث إنّ هذه القوى لا تتمتّع - بحدّ ذاتها - بالشعور والإحساس، كما أنّها لا تقدر على تحديد اتّجاهها وحدودها الخاصّة، بل هي لا تصير فعّالةً، ولا تتعيّن حدودها، إلّا بواسطة العقل والوحي. يقول الله تعالى لعباده: «عليكم أن تسعوا في كلّ سنة ولمدّة شهر واحد إلى تعديل غرائزكم المرتبطة بالأفعال الحيوانيّة (الأكل والشرب والنكاح و...) وفقًا لما ورد في أحكام الصوم»؛ فهذه هداية وهبها الله تعالى لنا لكي نتمكّن عن طريقها من تعديل القوى المحرّكة في باطننا. ومن هنا، يُعدّ صيام شهر رمضان المبارك من الأسباب التي تُساهم في تحقيقنا للسعادة؛ ومن الطبيعيّ - والحال هذه - أن نُحبّ كلّ شيء

يُفضي إلى سعادتنا، حيث تنشأ هذه المحبّة من محبّة الله تعالى. فمحبّة الله تعالى تتفرّع عنها محبّة دينه، ومحبّة دين الله تنشأ منها محبّة أحكام الدين، كما تنبع من محبّة هذه الأحكام محبّة متعلّقاتها (نظير زمان ومكان تطبيقها). وبهذا، فإنّ شعاع المحبّة الإلهيّة يُشرق إلى أن يصل إلى شهر رمضان المبارك؛ فكلّما قويت هذه المحبّة، ازدادت محبّة الدين، والشعائر الإسلاميّة، وشهر رمضان المبارك، والصيام، و...، وتُعدّ هذه المعادلة طبيعيّة.

نعم، يبقى أنّ أفراد الإنسان لا يتساوون، فممّا لا شكّ فيه أنّ معرفتنا بالله تعالى والشعائر الإسلاميّة ومحبّتنا لهما لا يُمكن مقارنتها بمعرفة النبيّ الأكرم ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام ومحبّتهما، إذ يوجد بيننا وبينهم فارق شاسع في هذا المجال، بحيث لو أدركنا هذا الفارق بحقّ، قد نُصاب باليأس من أنفسنا. ولهذا، من الأفضل أن لا نُفكّر كثيرًا في حساب هذا الفارق. يقول أئمّتنا المعصومون عليهم السلام: «خياركم بالنسبة إلينا مثل نور أصغر نجمة بالنسبة إلى نور الشمس». ومن ناحية ثانية، فإنّنا - نحن الناس العاديّون وغير المعصومين - نختلف مع بعضنا من حيث معرفتنا بالله تعالى ومحبّته أيضًا، فبعضنا ثبتت أقدامهم في مقام العمل، فتجدهم مستعدّين للتضحية بأرواحهم في سبيل الحفاظ على حكم إلهيّ واحد؛ لكنّ البعض الآخر لا يُقدّم أيّ شيء لدين الله تعالى بأجمعه، بل تراه يصحب الدين ما دام لم يوقعه في أيّ تعب أو مشقّة.

٥. صعوبة فراق شهر رمضان المبارك بالنسبة لأحبّاء الله تعالى

يحكي بعض المقرّبين من السيّد الخمينيّ قدس سره عنه هذه القصّة: «حينما كان يتوضّأ، فإنّه وعوضًا عن الوقوف أمام صنبور الماء، كان يقف جانبًا، ويتوضّأ؛ فدفعنا فعله هذا إلى التساؤل، إلى أن تمكّنت في الأخير من

سؤاله عن علّة ذلك، فأجابني قائلًا: «أريد من ذلك أن أواجه القبلة»».
ومن هنا، نفهم أنّه قدس سره كان يُراعي الأحكام الشرعيّة كثيرًا إلى درجة أنّه كان يسعى إلى التوجّه نحو القبلة حين الوضوء. فإنك تجد من ناحية شخصًا محبًا لمراعاة الأحكام الدينيّة إلى هذا الحدّ، وتجد من ناحية أخرى شخصًا لا يهتمّ حتّى بمراعاة العديد من الأحكام القطعيّة.

وإنّ محبّتنا لشهر رمضان المبارك تختلف بهذا النحو، حيث يوجد بيننا من يشقّ عليه اقتراب هذا الشهر والصبر على صومه، ويشعر بثقل كبير عند حلوله، مثلما أنّ حلول وقت الصلاة لا يكون مرحّبًا به عند الكثير من الناس الذين لا تجدهم يشتاقون كثيرًا إليها، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1]، فالصلاة بمقتضى هذه الآية كبيرة وثقيلة بالنسبة لعامّة الناس، باستثناء أهل الخشوع والأنس بها، فهم فقط الذين يلتذّون بها، بخلاف الآخرين الذين لا يأنسون بهذه الفريضة الإلهيّة، بل يُؤدّونها بمشقّة، وتراهم حين أدائها ينتظرون وقت انتهائها؛ هذا، مع أنّ لله تعالى عبادًا لا يملّون من الصلاة، وبعد انقضاء هذه العبادة ينهمكون في أداء التعقيبات، ولا يرغبون في الانقطاع عن التوجّه إلى الله تعالى ومناجاته. وقد شاهد صاحب هذه الكلمات بأمّ عينيه كيف كان سماحة السيّد القائد وكذلك بعض العظماء ينهمكون بعد الصلاة في أداء التعقيبات، من دون أن يُحرّكوا وجوههم لفترة من الزمن.

إنّ حلول شهر رمضان المبارك ووقت الصيام له مثل هذه العلاقة بالناس، فتجد بعضهم وكأنّهم يستوحشون عند اقتراب مجيئه، فهم في

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤٥.

قلق دائم من أنّهم لن يتمكّنوا في هذا الشهر الفضيل من الأكل والشرب بكلّ راحة؛ لكنّك ترى البعض الآخر ينتظرون قدومه قبل شهرين من وقت حلوله، ويصومون هذَين الشهرَين احتفاءً به. في إحدى السنوات، كنت متواجدًا في شهر رجب في دولة كينيا، فأخبرني الأصدقاء في السفارة أنّ أحد الموظفّين المحلّيين العاملين في السفارة يصوم كلّ سنة الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان، فهذا الأخ المسلم الذي يرجع أصله إلى الهند كان يصوم في قلب إفريقيا كلّ سنة ثلاثة أشهر، ويستبق الصيام لشهرَين رعايةً لحرمة شهر رمضان المبارك. إنّ انقضاء شهر رمضان المبارك بالنسبة لهؤلاء الوالهين بالشهر الفضيل هو مثل فقد إنسان عزيز عليهم، أو على الأقلّ مثل ذهاب هذا العزيز في سفر طويل، بحيث لن يتمكّنوا من رؤيته طيلة سنة كاملة. فبعض الأفراد نجدهم في الليالي الأخيرة من شهر رمضان المبارك يبكون حقيقةً بسبب لوعة الفراق، ويحزنون بحقّ متى ما تذكّروا أنّ أيّامًا قليلة تفصلهم عن نهايته. إن من الممكن أن تُثير هذه الحالة تعجّبنا ونتساءل مع أنفسنا: ما هو سبب حزن هؤلاء؟ فقد أدّوا ما عليهم ما صيام، وأنجزوا تكاليفهم على أحسن وجه، وعليهم الآن أن يتوقّعوا الحصول على الجزاء، أي ينبغي أن يعيشوا حالة الدائن، فلماذا يبكون ويحزنون لانقضاء هذا الشهر؟! إنّ هذا التساؤل والتعجّب ناشئ من قلّة معرفتنا بالله تعالى وبدينه، وضُعف محبّتنا لهما، بحيث يسري ذلك حتّى إلى الشعائر والتعاليم الدينيّة أيضًا. فهذا الضعف في معرفة الأحكام الدينيّة ومحبّتها نابع عن نقص في معرفة البارئ عزّ وجلّ ومحبّته سرى إلى المراتب الأدون. وفي الحقيقة، فإنّ هذا المنبع هو الذي يُنظّم أفعالنا وسلوكاتنا. وبعبارة أخرى، إنّ أفعالنا تجلّيات لذلك المنبع. يقول الإمام السجّاد عليه السلام عن شهر رمضان المبارك: «**فَنَحْنُ مُوَدِّعُوهُ وِدَاعَ مَنْ عَزَّ فِرَاقُهُ عَلَيْنَا، وَغَمَّنَا**

وَأَوْحَشَنَا انْصِرَافُهُ عَنَّا». والوحشة تقع في مقابل الأنس، فحينما يأنس الإنسان بأحد، ثمّ يفترق عنه، فإنّه يشعر بالوحدة، ويُعبّر عن هذا الشعور بالوحدة والغربة الناتج عن فراق المحبوب بواسطة الفعل «أوحش».

٦. علاقة العادات الاعتباريّة بالواقع

«**وَلَزِمَنَا لَهُ الذِّمَامُ الْمَحْفُوظُ**»؛ ما هي العلاقة القائمة بين هذه العادات والتقاليد الاجتماعية بصفتها أمورًا اعتباريّة، وبين الواقع وحكم العقل؟ بل ولماذا يضع العقلاء - في الأساس - هكذا عادات وتقاليد؟ كأن يُعيّنوا مثلًا أحد الأيّام كعيد، فيملؤوا المدينة بالزينة، أو يعتبروا في المقابل يومًا آخر يوم حزن وعزاء، فيغمروا كلّ مكان بالسواد؛ فما هي علاقة هذه الأمور بحكم العقل؟ الجواب هو: بشكل عامّ، تُوضع الاعتبارات العقلائيّة دائمًا على أساس مجموعة من المصالح؛ ومن باب المثال، حينما يشتري الإنسان بضاعة، ويبذل مقابلها مالًا، فإنّ هذه البضاعة تُصبح منذ ذلك الحين فصاعدًا مملوكة له، ويصير المال مملوكًا للبائع، حيث يُشكّل هذا الأمر نموذجًا عن العقود. فهذه العقود والاعتبارات العقلائيّة تتبلور بهدف تحقيق مصالح، أي إنّ هكذا اعتبارات إنّما توضع لأجل هذه المصالح، كما أنّ العقل يقول: لا يُمكن تحقيق مصالح المجتمع، إلّا عن طريق وجود مبادلات اجتماعيّة، وإلّا، لو أراد كلّ واحد أن يسدّ حاجاته بنفسه، فلن يتقدّم المجتمع. فصحيح أنّ هذه العقود اعتباريّة ولا تتمتّع بواقعيّة خارجيّة، إلّا أنّها مقدّمة لتحقيق مجموعة من الواقعيّات. فحينما نعتبر إحدى المعاملات، فإنّنا نستفيد أيضًا من آثارها ونتائجها الواقعيّة. وعلى سبيل المثال، عندما نعتبر مبادلة بين الخبز والنقود، فإنّنا نأكل الخبز الذي يطبخه الخبّاز، فأكل الخبز فعل حقيقيّ، لكنّه مترتّب عن عقد اعتباريّ.

وهكذا الشأن أيضًا بالنسبة للعادات والتقاليد الاجتماعيّة التي تُعتبر بسبب وجود مصالح، بحيث إذا كانت صحيحة (أي موضوعة أو مؤيّدة من قبل العقل أو الشرع)، فإنّها ستكون منشأً لمجموعة من المصالح الواقعيّة.

وبدورها، فإنّ مراسم الوداع عبارة عن عقد وعادة اجتماعيَّين تتمّ صياغتهما على أساس مصالح أبرزها ترسيخ العواطف والأحاسيس، وترتيب آثار عمليّة عليها. فحينما تُودّع الأمّ ابنها حين سفره، فإنّ ذلك يُفضي إلى ترسيخ ذكر الابن في ذهنها، فتدعو له كلّ يوم؛ فمع أنّ الوداع مسألة اعتباريّة، لكنّها تُصبح منشأً لأمور واقعيّة، إذ يُؤدّي الوداع إلى أن يكون قلب الإنسان في ذكر دائم لأحبّته، فيدعو لهم، ولا يغفل عن تفقّدهم وخدمتهم. فهذه المسائل تستتبع بالنسبة للذين يُؤدّونها بدافع دينيّ جزاءً أخرويًّا أيضًا، حيث إنّ الدموع التي تنهمل حين وداع شهر رمضان المبارك لها ثواب يُحصّل نتائج واقعيّة للإنسان في الآخرة. فشعاع التأثير العاطفيّ لهذا الوداع يبقى في وجود الإنسان مدّة طويلة، ويمنعه لفترة من ارتكاب المعاصي، كما يزيد من رغبته في العبادة. وعليه، صحيح أنّ هذه العادات والتقاليد اعتباريّة، لكنّها إذا كانت صائبة، فإنّها ستستتبع مصالح اجتماعيّة عظيمة، شأنها في ذلك شأن بقيّة الاعتبارات العقلائيّة.

يحظى تعظيم شعائر الله تعالى بأهمّية بالغة، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[1]، فإذا ما نُسيت هذه الشعائر في المجتمع، ولم تلق العناية اللازمة، فإنّ الناس الذين يتعيّن عليهم الاستفادة منها سيُحرمون منها،

---

(١) سورة الحجّ، الآية ٣٢.

ممّا سيُعرّضها للاندثار تدريجيًا. فلو اختفت مجالس العزاء من البلد لسنة واحدة، لحُرم الناس من آثار وبركات هذه المجالس بشكل طبيعيّ، وقد صادفت مرحلة طفولتي منع عقد مجالس العزاء من قبل رضا خان، وأتذكّر كيف كان عملاء الحكومة يتصدّون لإقامة هذه الشعيرة الإلهيّة. وبطبيعة الحال، حينما يبقى الوضع كذلك، فإنّ الناس يُحرمون تدريجيًّا من بركات هذه الشعائر. إنّ إحياء الشعائر من أعظم العبادات، كما أنّ الله تعالى اعتبرها في كتابه الكريم نابعة من التقوى وطهارة القلب.

وخلاصة القول، إنّ الوداع - بما هو عادة وعقد اجتماعيّ - يستتبع نتيجة عقلائيّة، حيث بوسعنا مشاهدة مثل هذه النتيجة الواقعيّة في وداع شهر رمضان المبارك أيضًا. وفي الحقيقة، فإنّ ذلك سيُؤدّي إلى ترسيخ الميثاق الذي عقدناه مع الشهر الفضيل، والعهد الذي أخذه الله تعالى علينا، ويُقوّي عبوديتنا للبارئ عزّ وجلّ. وهذا هو معنى كلام الإمام السجّاد عليه السلام الذي قول فيه: «**وَلَزِمَنَا لَهُ الذِّمَامُ الْمَحْفُوظُ**». وعندما تُستخدم في عبارات نظير هذه ألفاظ بصيغة اسم المفعول، فإنّها تكون بمعنى: «من شأنه أن يُفعَل»، أي إنّ مقتضى الحقّ هو أداء هذا العمل، نظير ما ورد في الآية القرآنيّة الكريمة التي يقول البارئ تعالى فيها: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[1]، أو الآية التي جاء فيها: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[2]. ومن هنا، فإنّ المراد من كلمة «المحفوظ» في تلك العبارة من الدعاء أنّه ينبغي أن يبقى محفوظًا، كما أنّ كلمة «المرعيّة» الواردة في تتمّة العبارة تعني: تلزم مراعاتها، و«المقضيّ» تعني أنّه يتوجّب قضاؤه.

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٢، والآية ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٨.

«فَنَحْنُ قَائِلُونَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ اللَّهِ الْأَكْبَرَ وَيَا عِيدَ أَوْلِيَائِهِ».

١. تحليل لوداع الموجودات غير الشاعرة

تـوديـع الأصـدقـاء والأقــارب وذوي الحقوق مـن الآداب الاجتماعيّة السائدة في جميع المجتمعات، والتي أقرّها الدين الإسلاميّ، وعمل بها قادتنا، أي الرسول الأكرم ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام. وقد تحدّثنا سابقًا عن أصل مسألة الـوداع وفوائدها، وخلُصنا إلى أنّه متى ما أحبّ الإنسان شخصًا، وتقرّر أن لا يراه فترة معيّنة، فإنّ نوعًا خاصًّا من التركيز والانتباه يحصل له تجاهه، ممّا يُفضي إلى ترسيخ العواطف التي يُكنّها له؛ وبالتالي، ستترتّب على هذا الأمر مجموعة من اللوازم العاطفيّة، كالذكر والتبجيل. ولوجود هذه الفوائد والمصالح، فإنّ العقلاء يُؤسّسون تقاليد اجتماعيّة مرتبطة بالوداع، كما أنّ الشعوب والأمم تسعى لمراعاة هذه التقاليد.

ومن فوائد الوداع الاعتراف بالجميل أمام الطرف المقابل؛ فمن باب المثال، يُعتبر الوداع أثناء رحيل شخص اشتغل في محلّ معيّن لمدّة من الزمن، أو تربطه علاقة صداقة مع أصحاب ذلك المحلّ، نوعًا من

ردّ الجميل لهذا الشخص، وتبجيله، ولهذا السبب، يُؤتى في مقام الوداع بعبارات تدلّ على هذا الأمر، نظير: «لقد تفضّلتم علينا»، «لقد أتعبتم أنفسكم» و«كم كان تواجدكم مفيدًا بالنسبة إلينا!». وبسبب هذا التبجيل والاعتراف بالجميل، فإنّ الطرف المقابل سيُسرّ، ويُعرب عن شكره، ويُشكّل له ذلك دافعًا لتقديم خدماته إذا سنحت له الفرصة مرّة أخرى.

لكن، يبقى أنّ شهر رمضان المبارك ليس موجودًا عاقلًا وشاعرًا حتّى نودّعه، ونقول له: «لقد أتعبت نفسك كثيرًا لأجلنا، ونحن لا نستطيع ردّ جميلك»، فيفرح، بل إنّ وداع هذا الشهر الفضيل هو في الحقيقة نوع آخر من الأمور الاعتباريّة. بيان ذلك: أنّ الإنسان يُسري في بعض الحالات الأمورَ المرتبطة بالعقلاء إلى غير العقلاء، فيضع هنا اعتبارًا جديدًا نوعًا ما، حيث إنّ الحكمة والمصلحة في هكذا اعتبار تتمثّل في أنّ الأصل هو أداء حقّ الموجود الشاعر الذي تتعلّق به الأفعال وشكره، لكنّ المخاطب في الظاهر وفي مقام الحوار موجود غير عاقل. ويبقى أنّ هذا الكلام يصحّ ما لم ننتبه إلى حقيقة أنّ كافّة الموجودات تمتلك شعورًا وإدراكًا بنحو ما، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1][2]. ولكن حتّى الذين لا يعتقدون

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٤٤.

(٢) وقد ورد في الروايات أنّ القرآن الكريم مثلًا يأتي في يوم القيامة على شكل رجل بأبهى صورة، «عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: يَا سَعْدُ تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا الْخَلْقُ» [**الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٥٩٦]؛ كما توجد روايات أخرى تدلّ على أنّ للعبادات حقيقةً ملكوتيّةً يطّلع عليها المؤمن عند وفاته: «عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: إِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ قَبْرَهُ كَانَتِ الصَّلَاةُ عَنْ يَمِينِهِ وَالزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ وَالْبِرُّ مُطِلٌّ عَلَيْهِ وَيَتَنَحَّى الصَّبْرُ نَاحِيَةً فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ يَلِيَانِ مُسَاءَلَتَهُ قَالَ الصَّبْرُ لِلصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ دُونَكُمْ صَاحِبَكُمْ فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْهُ فَأَنَا دُونَهُ» [**بحار الأنوار**، الجزء ٦٨، الصفحة ٧٣]؛ ولهذا، لا يُستبعد أن يكون الإمام عليه السلام متوجّهًا في خطابه لشهر رمضان المبارك إلى نفس حقيقته الملكوتيّة الشاعرة. [المترجم]

بهذه الحقيقة نجدهم يقومون بالعمل ذاته (أي يُسرون الأمور المرتبطة بالعقلاء إلى غير العقلاء).

والسرّ في ذلك أنّ وداع الأشياء هو في الحقيقة نوع من الاعتراف بالجميل لصاحب هذه الأشياء أو الأمكنة أو الأزمنة التي استفاد منها الإنسان. ووداع شهر رمضان المبارك يبتني على المسألة ذاتها، فإنّ المخاطب الرئيسيّ في وداع شهر رمضان المبارك هو الله تعالى، أي خالق شهر رمضان، وهادي الإنسان لبركات هذا الشهر الفضيل وتكاليفه، لكن بما أنّ متعلّق التكليف هو شهر رمضان المبارك، وبما أنّ العقلاء قد يعتبرون للأشياء شعورًا وإدراكًا، فيُبرزون محبّتهم تجاهها، فقد جُعل شهر رمضان مخاطبًا هنا. وإلّا فإن صفحة قلب الإمام عليه السلام هي في الحقيقة مع الله تعالى، منهمكة بشكره والإطراء عليه.

ومن الفوائد الأخرى للوداع أنّه يكون سببًا لتوجّه المودّع إلى الآثار والبركات التي يحظى بها الشخص أو الشيء الذي يُودّعه، وسببًا لسعيه للحفاظ عليها، لأنّ الإنسان لا يعرف قدر النعم الإلهيّة، إلّا إذا انتبه إلى آثارها وبركاتها، وأمّا إذا غفل عنها، فإن الوداع بالنسبة إليه وحزنَ الفراق لا يعني شيئًا. فهذه الآثار تترتّب على الوداع. وما جعل عقلاءُ العالم هذه العادات والتقاليد إلّا لأجل تلك الفوائد والمصالح. ومن هنا، واعتمادًا على هذه الحقائق، يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «يا شهر رمضان، لقد رحلت، لكنّنا بقينا مدينين لك، ومتمسّكين بالميثاق الذي عاهدناك عليه؛ فأنت رحلت، لكنّ حرمتك لا زالت محفوظة، وسنسعى لمراعاتها».

٢. شهر الله تعالى الأعظم

في تتمّة الدعاء، يُخاطب الإمام عليه السلام شهر رمضان المبارك، مستعرضًا بالتفصيل ذلك العهدَ والحرمة والحقّ من خلال كلماته وتسليماته، حيث بوسعنا أن نكتشف من هذه التسليمات الحقوق التي لشهر رمضان المبارك علينا، وكيفيّة المحافظة عليها.

«**فَنَحْنُ قَائِلُونَ** [الآن بعدما تحتّم علينا وداع شهر رمضان]: **السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ اللَّهِ الْأَكْبَرَ وَيَا عِيدَ أَوْلِيَائِهِ**»؛ ففي هذا السلام، يُودّع الإمام عليه السلام شهر رمضان المبارك، ويُخاطبه بصفتَين: شهر الله الأكبر، وعيد أولياء الله تعالى؛ وأمّا المسائل الواردة في الكلمات والتسليمات اللاحقة، فهي تفصيل لهاتَين العبارتَين؛ فالصفتان الرئيستان لشهر رمضان المبارك مكنونتان في هاتَين الجملتَين، حيث يتوجّب علينا الالتفات لهاتَين الصفتَين إذا أردنا أداء حقّ هذا الشهر، ومعرفة قدره، والحفاظ على بركاته؛ فهو أعظم شهور الله تعالى، وإذا تمكّنا من التعرّف على هذه الصفة، فإنّنا سنقدر أكثر على أداء شكره، كما سنحزن أكثر - بطبيعة الحال - على فراقه.

٣. الشرف الإلهيّ الذي يتمتّع به شهر رمضان المبارك

وفي هذا المقام، يُطرح علينا التساؤل التالي: ما هو معنى «شهر الله»؟ فحينما ننسب شخصًا أو شيئًا إلى شيء آخر، فإنّ هذه النسبة تتحقّق بدواعي مختلفة. فعلى سبيل المثال، قد ننسب جزء شيء إلى ذلك الشيء، كما قد يكون المضاف من آثار المضاف إليه ومتعلّقاته. لكن، أحيانًا، قد تكون النسبة ناشئةً من أنّنا نريد تسليط الضوء على منزلة المضاف وقدره، ولهذا السبب، فإنّنا ننسبه إلى شيء أو شخص له مكانة

عالية جدًّا، حتّى تتبيّن في ظلّها منزلة المضاف، ويُقال لهذه النسبة: الإضافة التشريفيّة، لأنّ المضاف يكتسب شرفًا من المضاف إليه. وعلى سبيل المثال، يُطلق على المسجد الحرام اسم «بيت الله»، مع أنّ الله تعالى لا يحتاج بتاتًا إلى أيّ بيت، بل ويستحيل أن يحويه تعالى ظرف مكانيّ، فالغاية الحقيقية من ذكر هذه النسبة هو بيان أهمّية هذا المكان للمستمعين حتّى تنكشف لهم منزلته. فالله تعالى اعتبر المسجد الحرام بيته، لكي يجعله محلًّا آمنًا لعبادة عظيمة، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[١]، وبذلك، فقد رتّب البارئ عزّ وجلّ العديد من الآثار والبركات التكوينيّة والتشريعيّة على هذا المكان؛ ولأجل أن يعرف الناس قدره، ويُدركوا عظمته في ظلّ عظمة خالقهم تعالى، فإنّه قال: «إنّ هذا المكان بيتي». ومن الجدير بالذكر أنّ مثل هذه النسبة مطروحة أيضًا بشأن الزمان، ببيان أنّ الأزمنة التي خلقها الله تعالى لا تحظى لوحدها ومن دون اعتبار مسائل أخرى بأيّ شرف، بل تكون في ذلك مضاهيةً لبقيّة الأشياء الأخرى؛ لكنّنا نجد أنّ بعض الأزمنة - وكذلك بعض الأمكنة والأتربة والأخشاب والمعادن و... - تتّصف بالشرف بسبب انتسابها إلى الأئمّة الأطهار عليهم السلام، فتصير حينئذ وسيلةً لشفاء الأمراض وقضاء الحوائج؛ أي إنّ الله تعالى يُنجّي المرضى عن طريق هذه الأشياء، حيث تُعدّ هذه المسائل من الحقائق التي يتعذّر علينا إدراكها بنحو حقيقيّ.

يقول الشيخ آية الله خزعلي: «بعدما صار كربلائي كاظم حافظًا للقرآن ومطّلعًا على بركات آيات هذا الكتاب السماويّ بمعجزة إلهيّة، كانوا يأتون به عند العلماء لكي يمتحنوه؛ فأحضروه - في ضمن ذلك

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٦.

- عند آية الله البروجرديّ ﵀، وقد تعدّت شهرته حدود إيران، حيث ذهبوا به إلى جامعة الأزهر بمصر، واختبره العلماء المصريّون. لقد كان إنسانًا عجيبًا جدًّا: كان قرويًّا بسيطًا جدًّا، وكان يرتدي لباسًا غايةً في البساطة، ويجلس بكلّ راحة على التراب، أعلى الله تعالى مقامه، وجعلنا من المشمولين بدعائه في ذلك العالم. حينما أتى إلى قمّ، كتبت على ورقة واوَين: إحداهما بنية أنّها من القرآن، والأخرى بنية أنّها من الحروف العادية، فوضع كربلائي كاظم يده على تلك التي كتبتها بنية أنّها من القرآن، وقال: «هذه لها نور، والأخرى لا نور لها!». وقال آية الله الشيخ مرتضى الحائريّ ﵀: «لقد وضعت أمامه كتاب جواهر الكلام؛ ومع أنّه كان أمّيًا، إلاّ أنّه كان يضع يده على الآيات القرآنيّة، ويقول: هذه لها نور، لكنّ بقيّة الكلمات لا نور لها!»».

فما هي العلاقة القائمة بين النية والكتابة، بحيث يكون لدينا حرفان متشابهان كُتبا بالقلم ذاته، وعلى نفس الورقة، لكنّ أحدهما نورانيّ، والآخر غير نورانيّ؟ وما الذي يحدث للخشب والمعدن المستعملَين في بناء حرم سيّد الشهداء، والمنتسبين إليه ﵇، بحيث تصير لهما آثار وبركات لم تكن لهما من قبل؟ فهذه الأمور هي من الحقائق التي لا يتسنّى كثيرًا لعقولنا إدراكُها. ولا يخفى أنّه لا ينبغي ذكرها في أي مكان وأمام أيٍ كان، إذ قد يُؤدّي ذلك إلى تكذيب وسخريّة بعض الذين لا يُمكنهم فهمها واستيعابها.

فما يُدركه الجميع - حتّى الكفّار - هو أنّه: حينما ينتسب شيء إلى شخصيّة عظيمة، فإنّه يُصبح في عرف العقلاء أمرًا ذا قيمة في ظلّ شرف تلك الشخصيّة وأهمّيتها. ومن هنا، نجد أنّ منازل الشخصيّات الكبيرة تحظى بأهمّية بالغة، بل وتُدرج أحيانًا في ضمن المآثر الثقافيّة

والتاريخيّة. والحقيقة أنّ المواد المستعملة في بناء هذه المنازل لا تفترف عن التلك المستخدمة في بناء المنازل الأخرى؛ وإذا كانت لها قيمة، فبسبب انتسابها إلى شخصيّة ذات مكانة عالية.

وإن من شأن زمان معيّن أيضًا أن يتّصف بشرف تفتقر إليه بقيّة الأزمنة، وذلك بسبب انتسابه إلى أشرف شرفاء العالم، أي الله تعالى مصدر كافّة أنواع الشرف. فالأشهُر الإثنى عشر مخلوقة بأجمعها لله تعالى، إلّا أنّ لبعضها خصائص لا يمتلكها حتّى شهر رمضان المبارك، ومن باب المثال، فإنّ القتال محرّم في الأشهر الحرم، بينما لا يحرم ذلك في الشهر الفضيل، حيث حدثت معركة بدر فيه. وفي المقابل، فإنّ لشهر رمضان المبارك ميزة لا يتوفّر عليها أيّ شهر آخر، إذ اقتضت مشيئة البارئ عزّ وجلّ أن يتمتّع الناس فيه بفيوضات أكثر بواسطة نزول القرآن الكريم فيه، وفتح الله تعالى فيه أبواب رحمته أمام الناس، ولهذا قال: «هذا الشهر شهري»، وإنّ مثل هذه الأمور متداولة في عرف العقلاء، كأن يُعيّن شخص عظيم بيتًا أو منطقة، ويُعلن بأنّ كلّ من يلتجئ إلى هناك، يكون آمنًا، وكلّ من له حاجة، تُقضى له هناك.

إنّ شهر رمضان المبارك ينتسب بدوره إلى الله تعالى؛ وقد جعله وسيلةً وبابًا للولوج إلى بحر رحمته اللامتناهية، وأضفى عليه – عمومًا – مجموعة من الخصائص التي لا يتّسم بها أيّ شهر آخر، بل ولم ولن يوجد نظيرها في العالم في أيّ زمان آخر، وصار نزول القرآن الكريم فيه سببًا لاكتسابه شرفًا إلى الأبد. إنّ لهذا الانتساب آثارًا عينيّة تُشبه تلك الآثار التي تترتّب على الكلمات إذا كُتبت بنية أنّها من القرآن، فمنذ بداية الخلقة وإلى نهايتها، حظيت ليلة واحـدة فقط من بين جميع الأزمنة بشرف نزول القرآن فيها، ألا وهي ليلة القدر التي تحكي

إحدى الروايات أنّ مجموع القرآن نزل فيها إلى البيت المعمور، حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: «نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ»[١]، كما جاء في الكتاب العزيز أيضًا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٢]، لكنّ ذلك ورد في هذه الآية بالنحو التالي: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٣]، حيث بُيّن نزول الملائكة بواسطة الفعل المضارع الذي يدلّ على الاستمرار، وقد رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه أوصى الشيعة بأن يُخاصموا المخالفين ويستدلّوا على وجود الإمام بسورة القدر[٤]، لأنّها تدلّ على استمرار نزول الملائكة في ليلة القدر، وممّا لا شكّ فيه أنّ الملائكة تتنزّل على أحدٍ، وتوصل إليه الحقائق، فلا بدّ أن يوجد في كلّ زمان من يمتلك الأهليّة لكي تتنزّل عليه الملائكة في ليلة القدر، ألا وهو الإمام.

ففي وداع شهر رمضان المبارك، نلحظ حقيقة أنّ الله تعالى حبانا وقتًا هو أحسن وقت في السنة، وقدّر في هذا الشهر ليلة أفضل من ثلاثين ألف ليلة، فإذا وضعنا ثلاثين ألف ليلة في كفّة، وليلة القدر في كفّة أخرى، فإنّ كفة ليلة القدر سترجح، إذ الوارد في القرآن الكريم أنّ هذه الليلة «خَيرٌ» من ألف شهر، لا أنّها تساوي ألف شهر، فالباريُ عزّ وجلّ وضع بين أيدينا ليلة كهذه حتّى نستفيد من بركاتها، ونودّع في الأخير هذا الشهر. وعلى أيّ تقدير، فإنّ من مميّزات شهر رمضان المبارك هو تخلّل ليلة القدر لياليه، ممّا أكسبه شرفًا ورفعةً، وأهّله لإطلاق اسم «شهر الله» عليه.

---

(١) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٦٢٩.

(٢) سورة القدر، الآية ١.

(٣) سورة القدر، الآية ٤.

(٤) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ١، الصفحة ٣٦٤.

٤. إشارة إلى عظمة القرآن

أيّة مكانة وعظمة يحظى بها القرآن، لكي يُضفي نزوله كلّ هذا الشرف على الزمان؟ وما هي المنزلة العظيمة التي يتمتّع بها مُنزل هذا الكتاب السماويّ، حتّى يصير كلامه مصدرًا لهذه البركات والخيرات؟

يقول أهل الاختصاص في اللغة العربيّة بخصوص الآية الكريمة التي يقول فيها الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[١] أنّ جواب الشرط محذوف، وأنّ معنى الآية هو بالنحو الآتي: «وَلَو أنّ قرآنًا كذا، لَكَانَ هذا»؛ أي إنّ هذا القرآن له القابليّة على تحريك الجبال، وإحياء الموتى، و...، حيث إنّ الذين يطوون الأرض، ويقطعون مسافة كبيرة في مدّة قصيرة إنّما يتمكّنون من ذلك ببركة هذه الآية الشريفة.

فكيف يُمكن لهذا القرآن - بما هو حبر على ورق أو بما هو هواء يخرج من أفواهنا حينما نقرؤه - أن يتحلّى بهذا الفضيلة، بحيث لا يجوز لنا أن نمسح عليه من دون وضوء، ويكون قادرًا على شفاء المرضى؟ إنّ السبب في ذلك بأجمعه يعود إلى انتساب هذه الأمور [أي الكتابة أو الهواء] إلى القرآن، وحكايتها عن الكلام المنزل على الرسول ﷺ، أي عن نفس ذلك الصوت الذي سمعه النبيّ، وعين تلك الكتابة التي سُطّرت بيد ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾[٢]، وكان يُشاهدها ﷺ ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾[٣]؛ فلا تظنّوا أنّه حينما نقول «إنّها تحكي عن القرآن» أنّنا نتحدّث عن الاعتبار والمجاز، بل إنّ العلاقة بينهما حقيقيّة. ولهذا السبب، فإنّ هذه الكتابة

---

(١) سورة الرعد، الآية ٣١.

(٢) سورة عبس، الآية ١٦.

(٣) سورة عبس، الآية ١٣.

تكون نورانيّة، ويُدرك نورَها أصحاب البصيرة الباطنيّة، فيرون مثلًا تلك «الواو» التي تكون من القرآن مختلفةً عن الواو التي ليست منه.

فهذا الشهر يتحلّى بتلك الفضائل، حيث إنّ الباريَ عزّ وجلّ اختصّ الأمّة الإسلاميّة به، وحبانا شرف الانتماء إلى هذه الأمّـة. لقد هيّأ لنا تعالى مجموعة من المقدّمات (أعمّ من الأجداد والبيئة التربويّة والعائلة والحكومة الإسلاميّة والعديد من الوسائل الأخرى) التي تآزرت فيما بينها، لكي نطّلع نحن على القرآن، لكننا، مع الأسف، نسينا هذه النعم الإلهيّة. فعلى سبيل المثال، نشأتُ في مدينة يزد الملقّبة بدار العبادة والتي تُعدّ من المدن الدينيّة في إيران، وكنت أذهب إلى المدرسة هناك، حيث لم نكن نتوفّر غالبًا على معلّم في دروس القرآن، وكان علينا أن نقرأه لوحدنا؛ وقد عجزت في إحدى المرّات عن قراءة كلمة بشكل صحيح، وعجز جميع المعلّمين الذين سألتهم عن قراءة تلك الآية، ولو من المصحف، اللهمّ إلّا معلم زرادشتيّ كان اسمه رستم، وكان الوحيد الذي يعرف قراءة القرآن من المصحف، في حين أنّ المعلّمين المسلمين كانوا عاجزين عن ذلك! فهذه هي الوضعيّة التي كانت حاكمةً على فترة القمع التي عشناها آنذاك، بينما نلاحظ الآن مقدار التطوّر الذي وصلنا إليه في مجال ترتيل القرآن وحفظه وقراءته، وكذلك في نطاق التجويد، والتفسير، وبيان شأن نزول الآيات القرآنيّة، والمسابقات القرآنيّة و... فلا ينبغي علينا أن نغفل عن هذه النعم الإلهيّة التي صرنا نتمتّع بها ببركة الثورة الإسلاميّة. أطال الله تعالى في عمر سماحة السيّد القائد الذي ننعم في ظلّه بهذه البركات، حيث لم يحظَ أيّ أحد مثلنا بهذا المستوى من الاهتمام بالقرآن، فنحن مكلّفون بشكر هذه النعمة والثناء على سبب حصولها.

٥. السرور في شهر رمضان شعاع من محبّة الله تعالى

الصفة الأخرى لشهر رمضان المبارك أنّه عيد لأولياء الله تعالى يتكرّر حصوله كلّ سنة. والعيد هو يوم الفرح والسرور الذي يتكرّر حصوله، بمعنى أنّ أولياء الله تعالى يكونون في شهر رمضان مسرورين، ومفعمين بالنشاط، والبسمة تعلو وجوههم، ويُظهرون المحبّة لبعضهم أكثر، وهذه الصفة تختلف قليلًا عن الصفة السابقة. إنّ شهر رمضان المبارك شهر الله الأكبر، وهو شهر ينتسب إليه تعالى، ويعمّ كافة عباده. إنّ هذا الشهر عبارة عن باب رحمة فتحه الله تعالى في وجه الجميع، فإن أغفل أحد الاستفادة منه، فإنّ اللوم سيقع عليه هو؛ وإلّا، فإنّ البارئ عزّ وجلّ لم يختصّ به أيّ أحد، بل حتّى مرتكبو الكبائر العظمى يُدعون إليه، فإذا أغفل أحد إجابة هذه الدعوة، فإنّ ذلك راجع إلى تقصيره. إنّ هذا الشهر عيد لأولياء الله تعالى، وبعض الناس يرونه كذلك حقًّا[1]، بينما نجد بعضًا آخر لا يُحبّونه بتاتًا، فإنّ مستوى محبّة هذا الشهر المبارك يتوقّف على إدراكنا لأهمّيته والمنافع والمصالح المترتّبة عليه.

وكما أسلفنا الذكر، فإنّ أفعالنا الاختياريّة تنشأ من عنصر إحساسيّ وعاطفيّ، فحينما يُحبّ الإنسان شيئًا ما، فإنّه يتحرّك نحوه. ولهذا، فإنّ الذين يحبّون هذا الشهر هم من يعتبرونه عيدًا، والإنسان لا يصير محبًّا لشهر رمضان المبارك إلّا إذا أدرك أنّه وسيلة للقرب من الله تعالى ورحمته، والراغب في قرب الله تعالى هو من يُحبّ الله؛ وبالتالي، فإنّ أصل كافّة هذه العلاقات هي معرفة الله تعالى ومحبّته، حيث تصير هذه المحبّة علّةً لمحبّة شهر رمضان المبارك والقرآن والرسول والأئمّة و...، لأنّ جميع هذه الأمور تنتسب بنحو ما إلى البارئ عزّ وجلّ، فإذا وُجدت تلك

---

(١) سيأتينا مزيد بيان لهذه المسألة.

المحبّة الأساسيّة، فإنّ شعاعها سيسطع على جميع ما ينتسب إليه، ولو كان من خلال عدّة وسائط. لكن إذا لم يمتلك الإنسان أيّ حظّ من ذلك الأصل، فإنّ كلّ ما يتوفّر عليه سيكون عاريةً، والعارية ليست أمرًا ثابتًا.

إنّ محبّة الله تعالى من الأمور التي ينبغي أن تكون مكنونةً في بواطننا. لكن، بحقّ، لماذا يُحرم بعض الناس من هذه المحبّة؟ أفهل يوجد شيء محبوب يفتقده البارئ عزّ وجلّ؟ وهل هناك شيء نحتاج إليه لم يُوفّره هو لنا؟ وهل يوجد أيّ سبب للخير والسعادة لم يُقدّمه لنا؟ فإذا تأمّلنا في هذه المسألة بنحو صحيح، فإنّ محبّة الله تعالى ستتجذّر في قلوبنا. ففي المرحلة الأولى، علينا أن نتعرّف بشكل أفضل على الله تعالى وصفاته وبركاته وفيوضاته، حتّى تزداد محبّتنا له. وحينئذ، ستسري هذه المحبّة إلى الأمور الأخرى بمقدار ما تنتسب إليه.



«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَكْرَمَ مَصْحُوبٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، ويَا خَيْرَ شَهْرٍ فِي الْأَيَّامِ والسَّاعَاتِ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ قَرُبَتْ فِيهِ الْآمَالُ، ونُشِرَتْ فِيهِ الْأَعْمَالُ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ قَرِينٍ جَلَّ قَدْرُهُ مَوْجُودًا، وأَفْجَعَ فَقْدُهُ مَفْقُودًا، ومرجوٍّ آلَمَ فِرَاقُهُ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ أَلِيفٍ آنَسَ مُقْبِلًا فَسَرَّ، وأَوْحَشَ مُنْقَضِيًا فَمَضَّ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ مُجَاوِرٍ رَقَّتْ فِيهِ الْقُلُوبُ، وقَلَّتْ فِيهِ الذُّنُوبُ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ نَاصِرٍ أَعَانَ عَلَى الشَّيْطَانِ، وصَاحِبٍ سَهَّلَ سَبِيلَ الْإِحْسَانِ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا أَكْثَرَ عُتَقَاءَ اللَّهِ فِيكَ، ومَا أَسْعَدَ مَنْ رَعَى حُرْمَتَكَ بِكَ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَمْحَاكَ لِلذُّنُوبِ، وأَسْتَرَكَ لِأَنْوَاعِ الْعُيُوبِ».

١. السلام على شهر رمضان المبارك

القسم الثاني من دعاء الوداع عبارة عن خطاب موجّه لنفس شهر رمضان المبارك، وحوار عشق في مقام توديع هذا الشهر الفضيل. ففي الفصول السابقة، تحدّثنا عن خصائص الوداع وحِكَمه ومنافعه. لكن، لقراءة هذا الدعاء في غير وقته الخاصّ - أي نهاية شهر رمضان المبارك - فائدة أخرى بالنسبة إلينا لا يحصل عليها مودّعوه؛ إذ نجدهم يقولون في توديعه: «ما أعظمك من فرصة كانت حاضرة بيننا، ورحلت عنّا»، بينما بوسعنا نحن في غير مقام الوداع أن نزيد معرفتنا بقدر هذه النعمة، ونُعدّ أنفسنا للاستفادة من الفرصة التي ستسنح لنا في المستقبل، ولا نكتفي بالحسرة بعد انقضاء هذا الشهر.

فمن الطبيعيّ أن يتطرّق الإنسان حين الوداع إلى إيجابيّات الذي يُودّعه، حيث نرى وجود المسألة ذاتها في هذا الدعاء الشريف الذي أشار إلى حسنات شهر رمضان المبارك في قالب عشرين سلامًا تقريبًا.

«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَكْرَمَ مَصْحُوبٍ مِنَ الْأَوْقَـاتِ»؛ في هذه الجملة، يُشبّه الإمام عليه السلام الشهر الفضيل بصاحب ورفيق، ويقول: من بين الأوقات التي مرّت عليّ، وكنت مصاحبًا لأقسامها المختلفة، كانت صحبتك الأكثر فائدة بالنسبة إليّ.

«ويَا خَيْرَ شَهْرٍ فِي الْأَيَّامِ والسَّاعَاتِ»؛ وهذه الجملة بيان تقريبيّ لعبارة «شهر الله الأكبر».

«السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ قَرُبَتْ فِيهِ الْآمَالُ»؛ فعادةً، تكون الآمال أمرًا بعيد المنال، ويستدعي تحقيقُها مدّة من الزمن. لكن، في هذا الشهر، تكون مقدّمات الآمال مكثّفة، بحيث إنّ العمل الذي يتطلّب القيام به

شهرًا من الزمن يُمكن أداؤه في يوم واحد. وأبرز مثال على هذه المسألة أنّ المؤمنين يتمنّون طيلة السنة إدراك ليلة القدر، لكنّ هذه الليلة تكون قريبة جدًّا منهم في شهر رمضان المبارك، لأنّها تقع في لياليه، كما أنّه يتيسّر للإنسان في هذا الشهر أداء العديد من العبادات التي قد لا تسنح له الفرصة للقيام بها في ظروف الأخرى. ففي شهر رمضان المبارك، تُعدّ أنفاس الصائمين، بل وحتّى نومهم عبادة. ولهذا، فإنّ الإمام عليه السلام يقول في خطابه لهذا الشهر: «**وَنُشِرَتْ فِيهِ الْأَعْمَالُ**»، إذ تشيع في هذا الشهر وبشكل مُلفت - ولله الحمد - في الأجواء الإسلاميّة الأعمال الصالحة؛ نظير إطعام الصائمين، وقراءة القرآن، وصلة الرحم؛ لكن، لا قدّر الله تعالى أن تمرّ علينا هذه الأيّام، ونُحرم بسوء اختيارنا من تلك الأعمال، أو أن نصل إلى حال لا نجد فيها هذه الشعائر الإسلاميّة تظهر بصورة لائقة. فأحيانًا، قد تظهر في المجتمعات في بعض المدن مظاهر لا تُشير إلى حلول شهر رمضان المبارك، حيث تشيع بكثرة مظاهر الأكل والشرب وبقيّة الأعمال، ولا يفترق الشهر الفضيل - عمومًا - عن بقيّة الأشهر. فعلينا أن نستعيذ بالله تعالى من وضعيّة سيّئة كهذه، ومن أن يسلب منّا عزّ وجلّ هذه التوفيقات، وأن تصير الشعائر الإسلاميّة باهتةً في المجتمع. ولسنا هنا نسعى لتحديد المسؤول عن هذه الوضعيّة، إلّا أنّ على كلّ واحد منّا التدقيق في اعتقاداته وأعماله، ليرى هل له مساهمة مباشرة أو غير مباشرة في هذه الإخفاقات أم لا. ففي بعض الأحيان، قد يكون بمقدورنا القيام بفعل أو التحدّث بكلام يُساهم في إحياء الشعائر الإسلاميّة، لكنّنا نُقصّر في ذلك، فيكون لهذا التقصير دور في الوصول إلى هذه الحالة.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ طبيعة شهر رمضان تقتضي - بالنظر إلى تلك العادات والتقاليد التي خُصّت بها - أن تُذاع الأعمال الصالحة فيه، بحيث

لا تقتصر هذه الأعمال على نطاق خاصّ ومحدود؛ إذ انتشار الأعمال الحسنة يُؤدّي إلى تشجيع الناس على فعل الخير.

«**السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ قَرِينٍ جَلَّ قَدْرُهُ مَوْجُودًا، وأَفْجَعَ فَقدُهُ مَفْقُودًا، ومرجوٍّ آلَمَ فِراقُهُ**»؛ فهذه الحالة لا تحصل إلّا للذي أدرك جيّدًا مفاد العبارة الأولى، وصار متحقّقًا بها. وأمّا إذا عاش الإنسان في هذا الشهر حياة عاديّة، شأنه في ذلك شأن بقيّة الأشهر، فإنّ هذه العبارات لن تنبع من قلبه، وستكون مجرّد كلمات يتلفّظ بها.

«**السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ أَلِيفٍ آنَسَ مُقْبِلًا فَسَرَّ، وأَوْحَشَ مُنْقَضِيًا فَمضَّ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ مُجَاوِرٍ رَقَّتْ فِيهِ الْقُلُوبُ، وقَلَّتْ فِيهِ الذُّنُوبُ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ نَاصِرٍ أَعَانَ عَلَى الشَّيْطَانِ، وصَاحِبٍ سَهَّلَ سَبِيلَ الْإِحْسَانِ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا أَكْثَرَ عُتَقَاءَ اللَّهِ فِيكَ، ومَا أَسْعَدَ مَنْ رَعَى حُرْمَتَكَ بِكَ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَمْحَاكَ لِلذُّنُوبِ، وأَسْتَرَكَ لِأَنْوَاعِ الْعُيُوبِ**».

في هذا الفقرة من الدعاء، وعلاوةً على الصفات التي ذُكرت في مدح شهر رمضان المبارك، فقد طُرحت أيضًا مجموعة من المسائل المفيدة.

٢. طرق الوصول إلى الكمال

من أبرز المسائل المطروحة في هذه الفقرة من الدعاء مسألة رقّة القلوب ونقصان الذنوب في شهر رمضان المبارك (**رَقَّتْ فِيهِ الْقُلُوبُ، وقَلَّتْ فِيهِ الذُّنُوبُ**)، وهي حقيقة جرّبناها نحن فيه إلى حدّ ما، لا سيّما في ليالي القدر التي يترافق فيها التضرّع والمناجاة والتوبة والاستغفار مع رقّة القلب. لكن، هل يختصّ ذلك بشهر رمضان فقط، بحيث تصير القلوب حين طلوع الهلال من الشهر الفضيل رقيقةً بشكل طبيعيّ، أم أنّ لرقّة القلب هذه أسباب تتحقّق في شهر رمضان؟ والسؤال الآخر هو: ما

هو الجيّد في رقّة القلب؟ فالبعض يرى أنّ رقّة القلب ضعف نفسيّ أو بدنيّ أو عصبيّ، وأنّ الأقوياء لا يرخون حواجبهم، ولا يُسمع لهم أنين، ولا يُرى منهم بكاء أو تأثّر، وتعتبر هذه الطائفة من الناس هذه الحالة نوعًا من الشجاعة والقوّة والبسالة؛ في حين أنّ هذه التصوّر - طبقًا لثلّة من الآيات والروايات - لا يصحّ على إطلاقه كحدّ أقلّ، بل إنّ الرقّة تكون مطلوبة في بعض الحالات، بحيث إذا لم تتحقّق فيها، فإنّ ذلك يكون علامةً على المرض.

وفي الحقيقة، فإنّ رقّة القلب بما هي كيفيّة نفسانيّة وعاطفيّة - تعرض للإنسان في ظروف خاصّة وتستتبعها حالات انفعاليّة كالبكاء والتأوّه والتأثّر - ليست في حدّ نفسها ممدوحة ولا مذمومة، بمعنى أنّها لا تملك بحدّ ذاتها أيّ قيمة أخلاقيّة إيجابيّة أو سلبيّة. فجميع القوى التي أودعها الله تعالى في بدن الإنسان وروحه آلاتٌ، ومن شأن استخدامها في الوقت المناسب أن يصل بالإنسان إلى الكمال، فإذا كانت رقّة القلب سببًا في تقرّب الإنسان إلى الله تعالى وغفران ذنوبه، فإنّها ستكون جيّدة. ولهذا، ينبغي استعمال هذه الآلة والوسيلة في طريق الزلفى إلى الله تعالى، وعلى الإنسان أن لا يسمح بتسلّل القسوة إلى قلبه، بحيث يرتفع عنه كلّ أثر لرقّة القلب حتّى في الظروف الملائمة. يقول أحد الأخلاّء المعنويّين:

«كنت أرتقي المنبر في أحد الأماكن، وبحسب المتعارف، كنت أتطرّق في نهاية المجلس إلى ذكر طرف من مصائب أهل البيت عليهم السلام، لكنّ العجيب أنّ أحدهم كان يأتي حين قراءة العزاء، ويجلس أمامي، ويُحدّق في عينيّ، من دون أن يتأثّر أبدًا بسماع مصائب أهل البيت عليهم السلام. وفي أحد الأيّام، التقيت بهذا الشخص، وقلت له: «أيّها

الرفيق، ما هذه العادة التي لديك؟ لماذا تُحدّق في عينيّ حين قراءة العزاء، من دون حتّى أن تتباكى؟!»، فقال: «الحقّ أنّني أعاني من الشعور بالنعاس، لكن، حينما أجلس أمامك وأحدّق في عينيك فإنّ هذه الحالة ترتفع، ولهذا فإنّني أحبّ الجلوس مقابلك، وإلّا فلا يفرق لديّ سماع العزاء أو عدم سماعه»».

ومن هنا، فإن قلب الإنسان قد يُصاب بالقسوة، إلى درجة أنّ سماع مصائب أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام لا يُؤثّر فيه بتاتًا.

هذا، ويُؤدّي الغضب أيضًا إلى كمال الفرد والمجتمع إذا استُعمل في مكانه المناسب، وقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ نَلْقَى أَهْلَ الْمَعَاصِي بِوُجُوهٍ مُكْفَهِرَّةٍ»، إذ على الإنسان أن يغضب في مقابل الظلم والمعصية وتعدّي الحرمات. فالغضب الذي خلقه الله تعالى له مكانة خاصّة في حياة الإنسان، وليس أمرًا لغويًّا، بل على الإنسان استعماله في مكانه المناسب، شأنه في ذلك شأن اللطف. هذا، مع أنّ كون الغضب ذا فائدة لا يعني لزوم أن يستخدمه الإنسان في كلّ مسألة صغيرة كانت أو كبيرة، من دون أن يتحكّم فيه. ويبقى أنّ عكس هذه الحالة غير صحيح أيضًا، بمعنى عدم استعمال الإنسان غضبه بتاتًا، وعدم مواجهته للظالم والمعتدي بالغضب حتّى حين هتكه للحرمة وتسبّبه في الظلم، والحديث معه بحرارة، بحيث يبدو كأنّه لم يرتكب أيّ ظلم، فإن من المسلّم به أنّ شخصًا كهذا يكون شريكًا للظالم في ظلمه وللمعتدي في عدوانه.

٣. آثار ذكر الله في قلب المؤمن وجسده

جرى في بعض الآيات القرآنيّة الكريمة استخدام ألفاظ ذات مداليل تحذيريّة جدًّا في وصف المؤمنين، وأنّ قلوبهم تهتزّ عند ذكر الله تعالى، ولا يخفى أنّ هذا التعبير القرآنيّ مختلف عن التعبيرات التي تحكي عن خشوع المؤمنين وخوفهم، نظير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1]، وكذلك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2]. فقد ورد في سورة الأنفال أنّ إحدى صفات المؤمنين اهتزاز قلوبهم عند ذكر الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3]، فقد يغفل المؤمن أحيانًا عن ذكر الله بسبب انهماكه في مشاغل الحياة، لكنّ ذكر اسم الله تعالى يُؤدّي، فجأةً، إلى تحقق التوجّه لديه، حيث يهتزّ قلبه، ويقول مع نفسه: «لماذا أغفل عن ذكر الله تعالى مع أنّني في محضره؟!». ولا يخفى أنّ هذه الحالة مؤقّتة، وليس المراد من الآية ضرورة أن يكون قلب المؤمن وجلًا على الدوام، فهذه الحالة انفعاليّة تحدث في قلبه جرّاء انتقاله من الغفلة إلى التذكّر.

وفي آية أخرى، يقول الباريُ عزّ وجلّ في وصفه للمؤمنين: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[4]، فحينما تعرض هذه الحالة على قلب المؤمن، فإنّها تُحدث آثارًا في جسده أيضًا، نظير حالة الخوف التي تقترن بصفرة الوجه. نعم، يبقى أنّ الله تعالى يقول في تتمّة هذه الآية: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى

(١) سورة المؤمنون، الآيتان ١ و٢.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٢.

(٤) سورة الزمر، الآية ٢٣.

ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾[١]. وعليه، فإنّ المؤمن لا يكون في وجل دائم، بل إنّ هذه الحالة الانفعاليّة تحدث في لحظات بعد حصول توجّه خاصّ، ثمّ تختفي بعد ذلك.

٤. رقّة القلب وقسوته في سبيل الله تعالى

في مقابل مدح الله تعالى في كتابه العزيز لرقّة قلب المؤمنين، فقد ذمّ أيضًا المبتلين بقسوة القلب. وإن من بين أبرز موارد الذمّ الواردة في القرآن الكريم بخصوص بني إسرائيل تشبيه قلوبهم بالحجارة، بل بما هو أشدّ منها، كما نقرأ في الآية الشريفة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢]، حيث يقول البارئ عزّ وجلّ في بيان كيفيّة صيرورة قلوبهم أشدّ من الحجارة: أحيانًا، قد تنفطر الحجارة، ويجري منها الماء، بل إنّ بعض الحجارة قد تهوي من خشية الله تعالى[٣]، لكنّ قلوب هؤلاء لا تُبدي أيّ تأثير، ولا تجري من عيونهم أيّ دمعة حين مواجهتهم لبعض المؤثّرات التي من شأنها عادةً ملء الآماق بالدموع؛ فهذه المسألة هي على درجة من الأهمّية، بحيث نجد الله تعالى يُذكّر بها عدّة مرّات في القرآن الكريم[٤].

---

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ٧٤.

(٣) عبارة: ﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ من متشابهات القرآن، وتحتاج إلى تفسير، وينبغي تحديد هل هي عبارة مجازيّة، أو حقيقيّة لكن لا نفهمها بشكل صحيح. وحتّى إذا كانت أدبيّة ومجازيّة، فإنّ لها حكمة، وجرى بيانها اعتمادًا على حقيقة معيّنة.

(٤) سورة البقرة، الآية ٧٤؛ سورة الأنعام، الآية ٤٣؛ سورة الحديد، الآية ١٦.

وعليه، فإنّ امتلاك قلب بهذه القسوة ليس علامة على الشجاعة، بل إنّه عبارة عن مرض روحيّ. فمن المفروض أن يتّصف الإنسان برقّة القلب في ظروف معيّنة، كأن يُصاب الطفل بمرض مثلًا، فتتأثّر أمّه لذلك، وتبكي بسبب عطفها وشفقتها عليه، حيث إنّ هكذا تأثّر مسألة طبيعيّة. لكن، ليس من الصواب أن يستسلم الإنسان أمام كلّ واقعة، ويتأثّر بسرعة، وتسيل دموعه جرّاء ذلك. وعلى سبيل المثال، يتعيّن على زعيم المجتمع الذي يضطلع بمسؤوليّة القيادة في مختلف الجوانب الاجتماعيّة أن يكون على درجة كبيرة من القوّة حتّى لا ينحني أمام أيّ مصيبة، نظير حالة إمامنا الراحل قدس سره حينما سمع خبر شهادة ابنه الحاجّ السيّد مصطفى رحمه الله، إذ قال بعد هذه الحادثة: «لقد كان ارتحال مصطفى من الألطاف الإلهيّة الخفيّة»، مع أنّه كان يُعدّ في الحقيقة ثمرة عمره، وكان يُتوقّع - وفقًا للأسباب العاديّة - أن يُكمل مسيرة أبيه، حيث كان يتمتّع - بحقّ - بقابليات خارقة، أعلى الله تعالى مقامه وزاد في درجاته. وهكذا أيضًا، حينما أُخبر الإمام الخمينيّ قدس سره بواقعة السابع من شهر تير، فإنّه قال من دون أن يبدو عليه أيّ انهيار: «اذهبوا وشكّلوا البرلمان». وفي الحقيقة، فإنّ ذلك ليس من قسوة القلب في شيء، بل هو شجاعة. ففي الموضع الذي ينبغي فيه على الإنسان - بمقتضى العقل - أن لا ينهزم أمام العدوّ، فإنّ عليه أن يتّصف بالجرأة والصمود والأنفة والشجاعة.

لكنّنا نجد أن الإمام الراحل قدس سره كان، عندما يقرأ الحاجّ السيّد كوثري رحمه الله العزاء، ويأتي على ذكر اسم سيّد الشهداء عليه السلام، يبكي وتجري الدموع من عيونه. وعليه، فإنّ رقّة القلب الإيجابيّة هي علامة على استعداد الإنسان لاستخدام قابليّاته والنعم الإلهيّة الممنوحة له في الطريق الذي يُرضي الله تعالى، ممّا يُوصله إلى الكمال الإنسانيّ. لقد عايشت عددًا من العظماء الذين يتمتّعون بالقوّة والصلابة، نظير

العلّامة الطباطبائيّ قدس سره، وقد كانوا يتأثّرون كثيرًا عند ذكر اسم سيّد الشهداء عليه السلام ومصابه، إلى درجة أنّ دموعهم كانت تنهمل بمجرّد سماعهم للعزاء. وهذه المسألة ليست انفعالًا أو ضعفًا، والحقيقة أن هؤلاء ربّوا أنفسهم، بحيث تُمكنهم في اللحظة المناسبة الاستفادة من أحوالهم النفسيّة والقلبيّة.

٥. رقّة القلب في شهر رمضان المبارك

شهر رمضان المبارك من الأوقـات التي ترقّ فيها القلوب، ويبدو أنّ الحديث عن هذه الرقّة ليس حديثًا عن ظاهرة غيبيّة، بل إنّ البارئ عزّ وجلّ قد جعل هذا الشهر بنحوٍ ترقّ فيه القلوب، أي إنّ الأوامر والأحكام والآداب التي وضعها فيه تُساعد على رقّة القلب، وترفع الموانع التي تصدّ عنها، ومن بينها الإفراط في الأكل، فحينما يأكل الإنسان كثيرًا، يشعر بثقل واضح يمنعه من البكاء حتّى عند الاستماع للعزاء، وبما أنّ أحكام شهر رمضان المبارك قد صيغت بنحو يتعيّن على الإنسان أن يشعر بالجوع لساعات طوال، فإنّ هذا المانع (أي الإفـراط في الأكل) سيرتفع شيئًا فشيئًا، لكن، بشرط تجنّب الإسراف بعد الإفطار.

ومن الموجبات الأخرى لزيادة رقّة القلب: التعرّض المتكرّر لأسبابها؛ فعلى سبيل المثال، من الممكن أن لا يتأثّر الإنسان في الأيّام والجلسات الأولى لمراسم العزاء، لكن مع تكرار المشاركة فيها، يحصل له التركيز تدريجيًا، ويُصبح مستعدًّا للتأثّر، وتقوى قابليّته على الاتّصاف برقّة القلب. ويُعدّ شهر رمضان المبارك فرصة مؤاتية للإنسان للاستغفار، واستحضار ذنوبه، وذكر الله تعالى، ويُساعد تكرار هذه الأمور طيلة الشهر الفضيل في رفع الموانع التي تصدّ عن رقّة القلب، فيُصبح الإنسان معتادًا على أسباب الرقّة، ومستأنسًا بها، ويضحي مستعدًّا أكثر للتأثّر.

لقد تحدّثت الروايات عن مجموعة من الأسباب التي تؤدّي إلى رقّة القلب وتنوّره، كأكل الحلال، لكنّنا غير مطّلعين على التفسير العلميّ والعقلانيّ لها[١]، ونُسلّم بها تعبّدًا[٢]، فرغم أنّ من الممكن أن تثبت آثار هذه الأسباب عن طريق التجربة، غير أنّ غاية ما يُدركه العقل أنّ شهر رمضان المبارك يقتضي حقيقةً اتّصاف الإنسان تدريجيًّا برقّة القلب نتيجة لإحساسه بالجوع، وتركيزه على المسائل العاطفيّة والإحساسيّة، فيُصبح مستعدًّا أكثر للتوبة والاستغفار والالتجاء إلى الله تعالى.

٦. فلسفة التضرّع

لقد حظي التضرّع باهتمام خاصّ في القرآن الكريم، وقد ذمّ الباريء عزّ وجلّ في بعض الآيات عدم تضرّع عباده، وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣]، وفي الآية التي تقدّمتها، نجده تعالى يستخدم تعبيرًا مشابهًا، ويقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ

(١) وعلى سبيل المثال، رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ضِياءُ القلبِ مِن أكلِ الحلالِ» [الفضل بن الحسن الطبرسيّ، **نثر اللآلي**، ترجة حميد رضا شيخي، الصفحة ٨٠]؛ كما رُوي أيضًا أنّ رجلًا شكا لرسول الله صلى الله عليه وآله قسوة القلب، فقال له: «إذا أردتَ أن يلينَ قلبُك، فأطعِم المِسكينَ وامسَح رأسَ اليتيمِ» [علي بن الحسن الطبرسيّ، **مشكاة الأنوار في غرر الأخبار**، الصفحة ١٦٧]. وعلاوةً على ذلك، فقد جاء في ضمن رواية منقولة عن الإمام الباقر عليه السلام: «وَتَعَرَّضْ لِرِقَّةِ الْقَلْبِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ فِي الْخَلَوَاتِ» [محمد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٥، الصفحة ١٦٤].

(٢) لا يخفى أنّه قد يوجد تفسير علميّ لحقائق كهذه يعتمد على مسألة أنّ لكلّ شيء - ومنها أعمال الإنسان كالأكل مثلًا - صورة في عالم المثال، يُطلق عليها اسم الصورة الملكوتيّة، وأنّ لهذه الصورة الملكوتيّة تأثيرًا على قلب الإنسان باعتباره هو أيضًا من عالم الملكوت. هذا، وبوسعنا أيضًا تقديم تفسير عقليّ فلسفيّ لهذه الحقائق عن طريق مسألة اتّحاد العقل والعاقل والمعقول، ونظريّة صدر المتألّهين البديعة في بيان حقيقة العلم والإدراك الحسّي، وإرجاعه إلى نوع ارتباط بعالم المثال، لكنّ المقام لا يسمح بذلك. [المترجم]

(٣) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[١]، ثمّ يُبيّن بعد ذلك أنّ عدم تضرّع هذه الأمم كان ناتجًا عن قسوة قلوبهم. ومن هنا، فإنّ شهر رمضان المبارك يُساعد في رفع الموانع التي تصدّ عن رقّة قلب الإنسان، وحصوله على استعداد أكبر لكي يتضرّع لربّه عزّ وجلّ.

قد يُطرح على بعض الضعاف في المعارف الدينيّة هذا السؤال: أفهل أنّ الله تعالى يستمتع ببكاء الناس، حتّى يذمّ عدم تضرّعهم؟ والجواب أنّ التضرّع لا يجلب أيّة منفعة لله تعالى، شأنه في ذلك شأن بقيّة الأمور الأخرى، في حين أننا نحن البشر مخلوقون بحيث تطرأ علينا انفعالاتٌ خاصّة في بعض الظروف، وتبعًا لأحاسيس معيّنة، وذلك لكي تبرز إنسانيّتنا وتتكامل، فالإنسان عبارة عن موجود ينبغي عليه البكاء في حالة خاصّة، والضحك في حالة أخرى، وهكذا؛ وأمّا إذا كان هناك أحد لا يفرح بتاتًا، ويكون في حزن دائم، فمن المسلّم أنّه إنسان مريض؛ وعلى العكس أيضًا، إذا كان هناك أحد لا يشعر بأيّ حزن أو همّ، ولا يُبدي أيّ ردّة فعل تجاه الوقائع المختلفة، فإنّه سيُعدّ أيضًا إنسانًا مريضًا؛ بل إنّ هذا يدخل - أساسًا - في جملة الأمراض القلبيّة.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن ميزتَين للقلب: الأولى إدراك الحقائق، بحيث إذا مرض القلب، فإنّه لن يتمكّن من بلوغ الحقيقة، كما ورد في الآيات الكريمة حين وصف أهل النار: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[٢]؛ والثانية قابليّة الاتّصاف بالرقّة، بمعنى أنّه على القلب أن يتّسم بالرقّة في بعض الحالات الخاصّة، فيشعر - إثر ذلك - بالحزن، ثمّ تحصل للإنسان

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

حالة من الانفعال والبكاء. لقد خلق الله تعالى الإنسان بهذا النحو، بحيث إنّ انعدام هذه الخاصّية فيه يكون دليلًا على مرضه الروحيّ، وقد جاء في الكتاب العزيز: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[1]، إذ إنّ هكذا أفراد يُلقون بأنفسهم في أتون الانحراف، فيزيدهم الله تعالى انحرافًا على انحرافهم، بل إنّ كلّ من يختار طريقًا، فإنّ الله تعالى يُعينه على سلوك طريقه، حيث نقرأ أيضًا في الكتاب العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾[2].

ومن هنا، فـإنّ الذين لا يرغبون في أن يعيشوا حالة التضرّع، ويُظهرون اللامبالاة وعدم الحزن، فإنّ هذه الحالة ستُصبح ملكةً عندهم، وهي بعينها السنّة الإلهيّة التي تزيد من انحرافهم ومرضهم، فعلى الإنسان أن يسلك سبيل الاعتدال، أي عليه أن يكون مسرورًا في الموضع المناسب، وحزينًا في موضع آخر، فيضحك في الوقت المناسب، ويبكي في الوقت المناسب، على أنّ المراد من الوقت المناسب الوقت الذي يُؤيّده كلّ من العقل والشرع.

---

(١) سورة الصفّ، الآية ٥.

(٢) سورة محمّد، الآية ١٧.



الفصل الرابع: انعكاس التعلّقات القلبيّة في مرآة شهر رمضان المبارك



«السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَطْوَلَكَ عَلَى الْمُجْرِمِينَ، وأَهْيَبَكَ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ لَا تُنَافِسُهُ الْأَيَّامُ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ هُوَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ غَيْرَ كَرِيهِ الْمُصَاحَبَةِ، ولَا ذَمِيمِ الْمُلَابَسَةِ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ كَمَا وَفَدْتَ عَلَيْنَا بِالْبَرَكَاتِ، وغَسَلْتَ عَنَّا دَنَسَ الْخَطِيئَاتِ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ غَيْرَ مُوَدَّعٍ بَرَمًا ولَا مَتْرُوكٍ صِيَامُهُ سَأَمًا؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ مَطْلُوبٍ قَبْلَ وَقْتِهِ، ومَحْزُونٍ عَلَيْهِ قَبْلَ فَوْتِهِ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ كَمْ مِنْ سُوءٍ صُرِفَ بِكَ عَنَّا، وكَمْ مِنْ خَيْرٍ أُفِيضَ بِكَ عَلَيْنَا».

١. اختلاف الشعور بالزمان باختلاف العوالم

تحتاج العبارة الأولى من هذه الفقرة إلى بيان، وسنسعى بمقدار ما يُوفّقنا الله تعالى إلى عرض بعض التوضيحات بشأنها. يقول الإمام عليه السلام: «لقد كان انقضاؤك صعبًا على العصاة والمجرمين، فكانوا يرونك طويلًا، بخلاف المؤمنين الذين كانوا يرون فيك الجلال والعظمة»؛ فما معنى أن يكون زمان معيّن طويلًا بالنسبة للبعض، وسريعًا في نظر البعض الآخر؟ في المحادثات العرفيّة، حينما نقضي ساعات اليوم في فرح وسرور ومتعة، فإنّنا نقول: «ما أسرع انقضاء هذا اليوم!». لكن، إذا مرّ علينا اليوم بمشقّة وألم وعناء، فإنّنا نقول: «ما أطول هذا اليوم!»، حيث جرّب كلّ واحد منّا تقريبًا هذه المسألة. فقد يكون لزمان مدة معيّنة، لكن يشعر بعض الناس بانقضائه في مدّة أطول، فيما يشعر آخرون أنّه انقضى في مدّة أقصر.

إذا اطّلعنا في الحالات الاعتياديّة على الأحداث الواقعة في عالمنا، وشعرنا فيها بانقضاء الزمان، فإنّ هذا الانقضاء سيكون واحدًا، وسنتّفق جميعنا في الشعور به. لكن، أحيانًا، قد تطرأ على البعض حالات خاصّة يظنّون فيها أنّ الزمان مرّ بسرعة، أو انقضى ببطء شديد، حيث تُعدّ هذه المسألة كأحد أنواع قصر الزمان وطوله في هذا العالم بالنسبة للبعض من ذوي الفطنة الذين يعيشون في هذا الزمان بعينه، لكنّهم يختلفون في شعورهم به.

وأحيانًا، قد يتّخذ الإحساس بالزمان شكلًا آخر؛ فطبقًا لمجموعة من الآيات القرآنيّة الكريمة، يوجد بعض الأفراد الذين يشعرون بالزمان بنحو مختلف، حيث وردت في الكتاب العزيز قصّة أحد الأنبياء، الذي مرّ على بلاد هلك أهلها بأجمعهم: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١].

ففي هذه الآية، لم يأت أيّ ذكر على اسم هذا النبيّ، لكنّ بعض الروايات أشارت إلى أنّ اسمه إرميا[٢]، بينما جاء في روايات أخرى أنّه كان نبيّ الله عزير[٣]. وعلى أيّ تقدير، حينما رأى هذا النبيّ جميع أهل تلك المدينة قد لاقوا حتفهم، انتابه العجب، وأتى على باله هذا السؤال: كيف يُحيي الله تعالى مرّة أخرى هذه الأجساد البالية؟ فمن مجموع القرائن التي تحفّ بهذه الآية، يظهر أنّه كان يمتطي حمارًا، وكان بحوزته زاد. ولكي يُطلعه الله تعالى على جواب سؤاله، فقد قبض روحه طيلة مئة سنة بقي فيها في عالم البرزخ، ثمّ أحياه مجدّدًا. وبعد ذلك سأله: «كم مكثت هنا؟»، فأجاب بعد تأمّل يسير: «يومًا أو بعض يوم»، حيث لم يلتفت إلى أنّ الله تعالى قبض روحه طيلة مئة سنة، وأنّه قد أحياه ثانيةً الآن، فكان يظنّ أنّه نام في ذلك الموضع فترة قصيرة، واستيقظ بعد ذلك. وفي تلك السنين المئة، مات حتّى حماره، وتفسّخ لحمه، وبقيت عظامه فقط، فقيل له: «لقد ارتحلت عن الدنيا لمدّة مئة سنة، فانظر إلى حمارك الآن كيف تفسّخ، لكنّنا سنصل بين أجزائه، ونركّب عظامه، ونكسوها باللحم، ونحيي الحمار»، وقيل له أيضًا: «وانظر أيضًا إلى طعامك وشرابك،

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٢) محمد بن مسعود العيّاشي، **تفسير العيّاشي**، الجزء ١، الصفحة ١٤٠.

(٣) محمد بن علي بن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق)، **كمال الدين وتمام النعمة**، الجزء ١، الصفحة ٢٢٦.

وكيف أنّه ظلّ من دون أن يتغيّر». فوقف، وصار ينظر، وبعد أن رأى هذه المعجزة الإلهيّة، اعترف بالقدرة الإلهيّة اللامتناهية. تجدر الإشارة إلى أنّ هذه القصّة تُشبه حكاية طيور نبيّ الله إبراهيم عليه السلام[1]، وقد نقلناها هنا لكي نبيّن أنّ جواب ذلك النبيّ عن سؤال: «كَمْ لبِثتَ؟»، هو: «يوم أو بعض يوم»، ممّا يدلّ على أنّه: حينما تُغادر روح الإنسان هذا العالم، فإنّها لا تتمكّن من إدراك زمان هذا العالم بنحو صحيح؛ ومن الممكن أن يقضي الإنسان سنوات مديدة في عالم البرزخ، من دون أن يستوعب كم هي المدّة التي قضاها هناك.

والشاهد الآخر على هذه المسألة الآية التي يقول فيها البارئ عزّ وجلّ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾[2]، فأجابوا: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾[3]. ومن هنا، فإنّنا نجد أنه حتّى نبيّ الله لم يعلم مقدار الزمان الذي مرّ عليه بعد انفصال روحه عن بدنه، ممّا يُشير إلى أنّه قد تنقضي آلاف السنين على أهل البرزخ، وهم يظنّون مرور يوم أو يومين. ويُؤيّد هذا الأمر الحكاياتُ التي تتحدّث عن بعض المكاشفات والمنامات، التي يُشاهد فيها حصول هكذا حيرة؛ ولو أنّه ليس بوسعنا الاستناد إليها في مقام الاستدلال.

---

(١) صحيح أنّ كلتا القصّتين تحكيان عن مسألة إحياء الله تعالى للأموات؛ لكن، خلافًا للقصّة الأولى، فإنّ الإحياء جرى في قصّة إبراهيم عليه السلام على يد هذا النبيّ الكريم نفسه، والذي طلب من الله تعالى أن يُريه حقيقة الإحياء، وذلك من خلال إجرائه على يديه؛ وبعبارة أخرى أنّه طلب من ربّه أن يجعله مجلى لاسم المحيي. ومن أراد التفصيل في هذا البحث، فليراجع، محمد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ، **معرفة المعاد**، الجزء ٤، الصفحة ١٦٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ١١٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآية ١١٣.

قبل انتصار الثورة الإسلاميّة، كان أحد الأولياء في طريقه لزيارة السيّد عبد العظيم الحسنيّ، وبعد تجاوزه لبوّابة الريّ، وصل إلى مقبرة، فجلس عند قبر، وانهمك في قراءة سورة الفاتحة، وفي هذه الأثناء، حصلت له مكاشفة، فرأى صاحب القبر، فسأله: «كم مرّ من الوقت على وفاتك؟»، فأجابه: «ما أعلمه هو أنّهم حينما أحضروني إلى هذا البستان، جاءتني حورية تضع على عنقها قلادة، فأخذت تلك القلادة لكي أنظر إليها، فانقطع خيطها، ووقعت حبّاتها على الأرض، فانهمكت في جمع هذه الحبّات حينما ناديتَ أنت عَلَيّ»؛ مع أنّه كانت قد انقضت مئة سنة على وفاة صاحب ذلك القبر.

لقد عاش العديد من الناس تجارب كهذه، كأن يستيقظ الإنسان أحيانًا، فلا يعلم هل الوقت صبح أم عصر. سافرت قبل الثورة برفقة ثلّة من الأصدقاء إلى لبنان، ومن هناك إلى مصر، فأصابنا إجهاد كبير؛ وفي الأخير، استأجرنا بمعونة أحد الأصدقاء غرفةً لكي نستريح فيها، وبما أنّني كنت متعبًا جدًّا، فقد نمت، وحينما استيقظت، بقيت متحيّرًا لمدّة طويلة، غير عالم أين أنا، ومهما فكّرت في المكان الذي أتواجد فيه، وفي الزمان الذي جئت فيه إليه، لم أتذكّر. فقمت من مكاني، وتنقّلت يمينًا وشمالًا لفترة من الزمن، حتى تمكّنت في الأخير من التعرّف على المحلّ الذي أتينا إليه؛ لكنّني لم أكن أصدّق أنّني نمت هناك كلّ تلك المدّة، حتى ذكّرني أحد الأصدقاء بالساعة الدقيقة التي أتينا فيها، ودلّني عليها. فأحيانًا، يستيقظ الإنسان من النوم، ولا يعلم الوقت الذي هو فيه، ولا الصلاة التي ينبغي عليه أداؤها.

ومن هنا، فإنّ لدينا عدّة أقسام من الشعور بالوقت: الأوّل يتعلّق بنا وبمن يعيش في هذا العالم بشكل اعتياديّ، حيث تجدنا متّفقين في

الشعور بهذا الزمان؛ والثاني يرتبط بمن يعيش خارج هذا العالم، بحيث من الممكن أن يمرّ على هؤلاء زمان مديد دون أن يحسّوا بتاتًا بانقضائه، مع أنّ أرواحهم تكون حيّة؛ ففي حالة النوم، لا يشعر الإنسان أيضًا بمرور الوقت بنحو دقيق، لأنّ روحه تفقد ارتباطها التامّ بالبدن؛ كما قال البارئ تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾[1]، إذ تُستعمل كلمة «التوفّي» في القرآن الكريم في حقّ الموت أيضًا؛ ففي تلك الحالة، تكون الروح الإنسانيّة خارجةً عن هذا العالم، غير شاعرة بمرور الوقت. ويعتقد البعض أنّ الإحساس بانقضاء الزمان يقع بنحو مختلف حتّى في هذا العالم؛ وذلك في مجموعات أو مجرّات أخرى.

٢. الزمان النفسيّ

إن المفروض أنّ لدينا زمانًا ثابتًا تشترك فيه كافّة الأمكنة، ولعلّ بوسعنا إثبات هذا الأمر بالدليل العقليّ أيضًا. وهنا، يُطرح علينا السؤال التالي: كيف يُمكن لشخصَين في هذا العالم أن يشعروا بانقضاء الزمان بنحو مختلف، بحيث يظنّ أحدهما أنّه مرّ بسرعة جدًّا، والآخر أنّه انقضى ببطء شديد؟ وقد أشرنا في بداية البحث إلى أنّنا عشنا تجارب من هذا القبيل، فعندما يستمتع الإنسان كثيرًا بقضاء وقته، فإنّه يقول: «لقد مرّ الوقت بسرعة جدًّا!»، إذ ينشأ هذا الأمر من حالة نفسانيّة تتمثّل في أنّ الإنسان متى ما كان يعيش في متعة، فإنّه يُحبّ أن تستمرّ هذه المتعة، ولا يتوقّع انتهاءها، لكن، حينما يراها قد تمّت، فإنّه يتأوّه ويتأسّف لانقضائها بسرعة. وعلى العكس من ذلك، إذا كان يعيش الإنسان في تعب ومشقّة، فإنّه يرغب في مرور الزمان بسرعة أكبر، لكي يتخلّص من تلك الآلام.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٠.

وعليه، فإنّ المراد من الزمان النفسانيّ هو الزمان الذي يخضع مروره لشعور الإنسان، وليس للواقع.

٣. تأثير التعلّقات على الزمان النفسانيّ

يختلف الناس بشأن الصيام، والإحساس بطول وقته أو قصره، فقد يشعر الأطفال الذين بلغوا سنّ التكليف حديثًا أنّ اليوم طويل جدًّا، ولو وقع صيامهم في الأيّام الشتويّة القصيرة، لأنّهم معتادون على الأكل غالبًا في فترات متقاربة، ولهذا، حينما يرون أنّهم لا يستطيعون تناول أيّ شيء، فإنّ الزمان يمرّ عليهم بصعوبة كبيرة. لكنّنا نجد أنّ بعض الصائمين لا يشقّ عليهم انقضاء الوقت. وعليه، بوسعنا القول إنّ سرعة أو بطء مرور الزمان النفسانيّ حين الصوم متوقّف على كون الإنسان يستمتع بصومه أو لا. والجدير بالذكر أنّ الاستمتاع قد يحصل أحيانًا بسبب بعض النعم المادّية التي تُسلّي الإنسان، كأن يُشاهد شريطًا سينمائيًّا، فلا ينتبه إلى مرور الوقت؛ ومن هنا، فإنّ الذين يلتذّون بالصيام، ويستمتعون به طيلة اليوم لا ينقضي عليهم الوقت ببطء، إذ تجدهم مفعمين بالنشاط حتّى في أيّام الصيف القائظة، ورغم أنّ اليوم يكون أطول، إلّا أنّه لا يشقّ عليهم. إنّ السرّ في كلّ ذلك يعود إلى التذاذ الإنسان بالحوادث التي تقع في الزمان ورغبته فيها، أو عدم التذاذه بها وحيلولتها دون متعته؛ فعادةً، حينما نأنس برفقة أحد الأصدقاء، فإنّنا لا نشعر بانقضاء الوقت، وعلى العكس من ذلك، قد نُبتلى بمجالسة أحد الأشخاص الذين لا نستمتع بصحبتهم، فيُؤدّي ذلك إلى مرور دقائق معدودة كأنها ساعات مديدة.

فحينما يتعلّق الأمر باللذائذ المادّية، فإنّ المراد من استمتاع الإنسان بها هو أن يتناول طعامًا جيّدًا، ويتنفّس هواءً صحّيًا، ويشرب ماءً باردًا أو شرابًا عذبًا. وفي الحقيقة، بما أنّ هذه المسائل تكون محظورة على

الإنسان حين الصوم، فإنّ ذلك يشقّ عليه. وأمّا الذين يسهل عليهم الصوم، فإنّهم يُصابون بدورهم بالجوع، بل وقد يكون إحساسهم به أكثر من الغير، لكنّهم يتوفّرون - في الوقت ذاته - على لذائذ أخرى تهون أمامها اللذائذ المادّية، ولا تُصبح لها أيّ قيمة. فمع أنّ مجالسة الصديق الحميم قد تكون في الظاهر صعبة، إلّا أنّها لا تُؤدّي لانزعاج الإنسان، مثلما جاء في الشعر الفارسيّ:

هـر كـجـا تـو بـا مـنـى، مـن خـوش دلـم
گـر بـود در قـعـر چـاهـى مـنـزلـم[1]

ويرجع ذلك إلى أنّ هذه المشقّة مقرونة بلذّة تتغلّب على تلك الصعوبة، ولا تسمح لها بالظهور؛ فتلك اللذائذ عبارة عن لذائذ غالبة تستولي على قلب الإنسان، وتستحوذ على اهتمامه، ممّا يُفضي إلى عدم التفاته بتاتًا إلى الألم الذي يُعانيه من الصوم. ولهذا، فإنّ الأمر لا يشقّ عليه. لكن، إذا افتقد الإنسان تلك اللذائذ الأرفع، واقتصرت لذّاته على هذه المسائل الطبيعيّة، فإنّه سيحزن عند فقدانها، ويشقّ عليه ذلك.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في خطابه لشهر رمضان المبارك: «**مَا كَانَ أَطْوَلَكَ عَلَى الْمُجْرِمِينَ**»؛ فمرور الشهر الفضيل طويل على العصاة والمجرمين، لأنّ تعلّقاتهم مادّية، ولذائذهم حيوانيّة، وجميع هذه الأمور تكون محظورة في هذا الشهر، وحينما يُمنع أولئك الأشخاص من هذه اللذائذ، فإنّهم يشعرون بأنّ الشهر طويل. بخلاف الذين يستمتعون بأمور من قبيل الأنس بالله تعالى، والعبادة، والخفّة الناجمة عن الجوع، فإنّهم

---

(١) بيت شعريّ لمولانا جلال الدين الروميّ معناه: أينما تكون أنت معي فأنا مسرور؛ ولو كان منزلي في قعر بئر. [المترجم]

لا يحسّون بطول الشهر الفضيل، ولا يشقّ عليهم الصيام فيه. فالذين يمتلكون مكانةً روحيّةً رفيعةً حينما تكون بطونهم خالية، وأجسادهم خفيفة، فإنّهم يشعرون بنشاط ولذّة استثنائيّين، ويكون شأنهم شأن الطائر المحلّق؛ لكنّهم عندما يتناولون الطعام، يحسّون بثقل، ولا يتمكّنون من التحليق.

في الأيّام الأولى من زواجي، قدم أحد الأساتذة إلى منزلي، فأحضرت له مقدارًا من الحلوى، ولكي أبرز له احترامي وتقديري، فقد أصررت عليه كثيرًا ليتناولها، لكنّه أخذ قطعةً واحدة منها فقط وقال: «حينما يتناول الإنسان الحلوى كثيرًا، فإنّه يصير مثل الطائر الذي يُريد التحليق، لكنّ حجرًا يكون معلّقًا برجليه». لقد كان يُريد أن يقول لي بكلامه أنّه لا يلتذّ كثيرًا بأمور كهذه، فالذين تحرّرت أرواحهم من قيود التعلّقات المادّية، ويُحبّون التحليق في أجواء أخرى يشقّ عليهم تناول الطعام، والخوض في المسائل المادّية. ونستشفّ من سيرة الأنبياء والأولياء أنّهم كانوا يعيشون مع الناس امتثالًا للتكليف وحسب، وإلّا فإنّهم لم يكونوا يُحبّون معاشرة الناس لولا التكليف. وفي الحقيقة، فإنّ واجب هداية الناس وإرشادهم والأخذ بأيديهم هو الذي كان يحتفظ بأولئك الأعاظم بينهم.

ثمة رواية مشهورة عند السنّة والشيعة ينقل فيها أن الرسول الأعظم كان حين حلول وقت الصلاة يقول: «أرِحنَا يَا بِـلال»[1]، حيث كانت راحته ﷺ تتمثّل في أداء العبادة. فبالنسبة لهكذا شخصيّات، لا يكون الصيام شاقًّا، وحتّى إفطارهم وتسحّرهم يكون لأجل المحافظة على حياتهم، لكي يتمكّنوا مرّة أخرى من الصيام، وأداء تكاليفهم الشرعيّة.

---

(١) محمد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٩، الصفحة ١٩٣.

وإلّا، فإنّ قلوبهم لا تتعلّق بالأكل والنوم وبقيّة اللذائذ. إنّ أولياء الله تعالى الذين تتعلّق قلوبهم بمعبودهم ومعشوقهم لا يستوحشون أبدًا من الوحدة، بل الأكثر من ذلك أنّهم يُحبّون الاختلاء بربّهم، حيث يُروى عن الجواسيس الذين وُضعوا على سجن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنّه كان يُكرّر كثيرًا هذه العبارة: «اللّٰهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّنِي كُنْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّغَنِي لِعِبَادَتِكَ اللّٰهُمَّ وَقَدْ فَعَلْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ»[1].

لكن، يبقى أنّ الاعتقاد بهذا الكلام يصعب على الذين لا أنس لهم بهذه الحقائق، بحيث يبدو في نظرهم شبيهًا بالمجاملة. فتراهم يقولون مع أنفسهم: أفهل يُمكن أن يكون الإنسان في قعر بئر مظلم لا يُفرّق فيه بين الليل والنهار، ويشكر الله تعالى على أنّه وجد مكانًا للخلوة والمناجاة؟! وأمّا إذا كان الإنسان يأنس ولو قليلًا بالعبادة وتلاوة القرآن والدعاء والمناجاة والصلاة - وبعبارة واحدة: بذكر الله تعالى - فإنّ انقضاء الزمان لن يشقّ عليه، بل وقد يصل إلى درجة، بحيث كلّما طال الوقت بالنسبة إليه، ازدادت لذّته ومتعته. كان أحد العظماء يقول: «لم يحصل لي أن تعبت أبدًا من زيارة مراقد أهل البيت عليهم السلام مهما طال وقت الزيارة»، ولا يخفى أنّ هذه المسألة متوقّفة على من أو ماذا يكون محبوب الإنسان، وعلى طبيعة الأشياء التي يلتذّ بها.

فإذا تمكّنا من تغيير تعلّقاتنا ولو قليلًا، فإنّنا سنحظى حينئذ باللذّات المعنويّة أكثر؛ وبالتالي، سيتبدّل شعورنا بالزمان النفسانيّ للصوم، وسينقضي هذا الزمان علينا بسرعة. وأمّا إذا بقيت التعلّقات الدنيويّة مستولية على قلوبنا، فإنّ تلك اللذائذ لن تحصل لنا؛ إذ هذا العالم هو

---

(١) محمد بن محمد بن النعمان العكبريّ البغداديّ (الشيخ المفيد)، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، الجزء ٢، الصفحة ٢٦٠.

عالم التزاحم الذي لا يُمكن للإنسان أن يُحقق فيه كافّة رغباته، بل إنّ الرغبة الوحيدة التي يُمكن أن تتحقّق هي التي تغلب على بقيّة الرغبات، فما دام القلب متعلّقًا بالأمور المادّية والحيوانيّة، فإنّ صاحبه سيتعب بسرعة من العبادة، وسيبدو شهر رمضان المبارك طويلًا بالنسبة إليه. أما إذا تعلّق الإنسان بالأمور الخارجة عن هذا العالم، فإنّه لن يتعب من العبادة. ولا يخفى أنّ المراد من ذلك ليس انفصاله عن عالم المادّة، بل أن يُميّز بين شؤونه، وبين الشؤون المادّية والحيوانيّة.

٤. حبّ الدنيا مصدر المعاصي

إنّ أصل كلّ معصية وأساسها هي التعلّقات الدنيويّة: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[١]. فالسبب الذي قد يدفع أي شخص إلى ارتكاب المعصية هو ترجيحه للذّة ومصلحة دنيويّتَين، ولا يوجد من يرتكب الذنوب طلبًا لقرب الله تعالى وثواب الآخرة. ولهذا، متى ما انهمك صاحب هذه التعلّقات في الأمور المعنويّة أو حُرم من اللذّات الدنيويّة، فإنّ انقضاء الزمان سيكون طويلًا وشاقًّا بالنسبة إليه. لكن، إذا ابتعد عن تلك التعلّقات المادّية، فإنّه سيتخلّص من هكذا شعور، بل وعلى العكس، سيكون انشغاله في الدنيا من باب أداء التكليف والامتثال للأمر الإلهيّ وحسب، وإلّا فإنّه لا يلتذّ بتواجده في هذه الدنيا مع كلّ الأوساخ والنجاسات التي تحملها. فتجد الذين انجذبت أرواحهم للذّات أرفع، وتخلّصوا من فخّ الدنيا يتأسّفون من أعماق قلوبهم على المتعلّقين بها، وعلى أنّهم سلّوا أنفسهم بحفنة من الألعاب، من دون أن ترتقي أفكارهم لشيء أرفع، إذ إنّ العديد من المتع الدنيويّة تُشبه ألعاب الأطفال، حيث نرى أنّ الطفل قد ينشغل أحيانًا

---

(١) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ١٣١.

بلعبة، ويفرح وينتشي بها، إلى درجة أنّه ينسى بقيّة الأشياء، بل وقد يفرح أحيانًا، ويلتهي ببعض الأمور التي لا تحظى بأيّ قيمة أو اعتبار. وعلى سبيل المثال، حينما يمتطي الطفل سيّارة، فإنّنا نراه يحزن إذا سبقتها سيّارة أخرى، ويفرح كثيرًا إذا كانت هي السابقة، مع أنّه لا دخل له بهذه المسألة بتاتًا، ولو كانت هناك قيمة لهذا الأمر، فإنّها ترجع إلى السائق. ونُشاهد كثيرًا حصول مسائل من هذا القبيل في حياة أناس كبروا في العمر، لكنّهم لا يزالون أطفالًا، ويقومون بتصرّفات صبيانيّة. فكثير من متع أهل الدنيا تُشبه مسابقة السيّارات؛ أي إنّهم يُسعدون أنفسهم بأنّ سيّارتهم فازت في السباق، ويحزنون إذا تخلّفت في السباق، في حين أنّ السبق أو عدمه لا يخصّهم أبدًا؛ فهم يسبحون في أوهام وخيالات، ليس إلّا. نرجو من الله تعالى ببركة ذكر صفات أوليائه وعباده الصالحين، وببركة الآيات والروايات أن ينظر لحالنا، حتّى نطّلع على تلك الحقائق واللذّات المعنويّة وما يُدركه أولياء الله تعالى؛ ففي هذه الحالة، سيصير اعتقادنا بهذه الحقائق أرسخ، وسنُدرك أنّنا أخطأنا حينما أسعدنا أنفسنا باللذائذ المادّية، وقضينا أيّامنا ولياليَنا في العكوف عليها، وقصرنا آمالنا على هذه الأمور الوضيعة، وعلى نيل المقامات والعناوين الاعتباريّة، والاهتمام بالمدائح والإطراءات. فبما أنّ أهل الدنيا لم يتذوّقوا أيّة لذّة من اللذائذ الباقية والخالدة التي حثّهم الله تعالى وملائكته عليها، فإنّهم لا يتعلّقون ولا يعتقدون بها كثيرًا، فتجد غاية ما يدفعهم للقيام بعمل ما أو اجتناب شيء معيّن هو الخشية من أن يكون هناك فعلًا عالم آخر، فيلحقهم ضرر جرّاء ذلك.

وعلى سبيل المثال، فقد ذكر أحد الكتّاب الإيرانيّين الذي يدّعون تبحّرهم في الفلسفة والدراسات الإسلاميّة في كتابه: لا دليل لدينا على أنّ الوعود التي جاءت في القرآن بشأن الجنّة والنار صادقة، بل إنّ الهدف

من هذه الوعود حثّ الناس على القيام بالأعمال الحسنة، فلا إشكال في الوعد الكاذب؛ إذ ليس كلّ كذب قبيحًا، بل لو أنّ أحدًا كذب ليمنع آخر عن فعل سيّئ، لما كان في ذلك أيّ محذور.

فشتّان بين هؤلاء وبين الذين يعتبرون كلّ هذا العالم ألعوبة، ويعتقدون بأنّه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾[1]. علينا أن نُبدي جدّية أكثر تجاه الوعود الإلهيّة، وأن نكون على إيمان بها. على إيمان بأنّ لذّات أخرى مختلفة عن الأكل والشرب واللذائذ الحيوانيّة موجودة في هذا العالم، فما بالك بالعالم الآخر! نرجو من العليّ القدير ببركة أوليائه وبيُمن وجود مولانا صاحب العصر والزمان أرواحنا فداه أن يمنّ علينا بفضله، حتّى نتمكّن من إدراك شمّة من تلك الحقائق، والإيمان بها، والتعلّق بأذيالها، والنجاة من أوساخ هذه الدنيا.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.



الفصل الخامس: لطائف بخصوص ليلة القدر

«السَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ».

١. وجه تسمية ليلة القدر

من بين التسليمات الواردة في دعاء شهر رمضان المبارك، قول الإمام عليه السلام: **«السَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»**. كلّنا نُردّد كثيرًا عبارة «ليلة القدر»، لكن، قد لا تجدنا نلتفت جيّدًا إلى حقيقة هذه الليلة، وإلى السبب في تسميتهم إياها بليلة القدر.

لا يخفى أنّ هناك خلافًا في الرأي بين العلماء والمفسّرين بشأن وجه تسمية ليلة القدر، حيث قال بعض المحقّقين: إنّ «القدر» يعني المنزلة، كما يُستخدم في اللغة الفارسيّة أيضًا بهذا المعنى، فهذه الليلة سُمّيت بهذا الاسم بسبب امتلاكها لشرف ومقام ومنزلة عظيمة. واعتقد بعض آخر أنّ «القدر» مصدر بمعنى التقدير، وأنّ هذه الليلة سُمّيت بذلك لأنّ المقدّرات تُعيّن فيها، ويبدو أنّ هذا الاحتمال هو الأقرب والأكثر موافقةً لمفاد العديد من الروايات الـواردة بشأن ليلة القدر وخصائصها. هذا، ويوجد احتمال آخر، لكنّه - بحسب ما يظهر - ضعيف

جدًّا، يقول إنّ كلمة «القدر» مصدر بمعنى التضييق، وقد استُعمل هذا المعنى في ثلّة من الآيات القرآنيّة، نظير قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[١]، والقائلون بهذا الاحتمال يرون أنّ ليلة القدر سُمّيت بهذا الاسم لأنّ الملائكة تتنزّل فيها من السماء، فيضيق وجه الأرض بسبب ذهابهم وإيابهم.

٢. الخلقة ذات التخطيط الهادف

ويمكننا، فيما يخصّ أصل التقدير وكيفيّته، القول إجمالًا: إنّ الحوادث التي تقع في هذا العالم - وعمومًا كلّ واقعة جيّدة أو سيّئة في هذا العالم - تتوقّف على ثلّة من الشروط والمقدّمات التي تتحقّق تدريجيًا منذ الأزمنة الغابرة، إلى أن يحين وقت وجود تلك الواقعة. فعلى سبيل المثال، يتوقّف ظهور النوع الإنسانيّ على الكرة الأرضيّة على مقدّمات منها: وجود نفس الأرض، وطروّ مجموعة من التحوّلات عليها، حيث يلزم من هذه الظواهر العامّة وجود الفصول الأربعة. يقول الباريْ عزّ وجلّ في كتابه الكريم: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[٢]، ويرى بعض المفسّرين أنّ المراد من «أربعة أيّام»: «الفصول الأربعة»، ومن هنا، يكون المراد من هذه الآية: «قدّر الأرزاق الأرضيّة في أربعة فصول»، بمعنى أنّ كلّ فصل يُهيّئ ظروفًا خاصّة لوجود بعض الأرزاق[٣]. فلو لم تتوفّر هذه الأرزاق، لما تمكّن أيّ إنسان من التواجد على وجه الأرض، والعيش فيها. كما أنّ إعداد الأرض

---

(١) سورة الرعد، الآية ٢٦.

(٢) سورة فصّلت، الآية ١٠.

(٣) راجع: عليّ بن إبراهيم القمّي، **تفسير القمّي**، الجزء ٢، الصفحة ٢٦٢؛ محمّد حسين الطباطبائيّ، **الميزان في تفسير القرآن**، الجزء ١٧، الصفحة ٣٦٤.

للخلقة قطع مراحل متعدّدة وردت في عدد من الروايات، وكذلك في الخطبة الأولى من **نهج البلاغة**، وتحدّثت عنها بعض العلوم ذات الصلة بهذا المجال، نظير الكوزمولوجيا التي تبحث عن أصل نشوء المنظومات، والجيولوجيا التي تختصّ بدراسة الأرض، حيث طُرحت في هذا الصدد مجموعة من النظريّات بشأن عمر الأرض، والمراحل التي قطعتها إلى حدّ يومنا، وزمان ظهور الحياة عليها، وغيرها من البحوث. إنّ جميع هذه الأمور عبارة عن تقديرات عمليّة لوجود النوع الإنسانيّ، حيث ينبغي لهذه التقديرات بأجمعها أن تصل تدريجيًّا إلى مرحلة تُصبح الأرض مستعدّة لوجود إنسان خاصّ. وكذلك الشأن أيضًا بالنسبة للحوادث التي تحصل في حياة كلّ إنسان منذ ولادته (بل وقبل ذلك) وحتى موته؛ مثل مكان عيشه، وطعامه، والأفراد الذين يُعاشرهم، والأشياء التي يتعلّمها أو يُعلّمها، فكلّ هذه الأمور تحتاج إلى مقدّمات مختلفة، بحيث لولا هذه المقدّمات، لما تحقّقت تلك الظواهر بشكلها الخاصّ.

فهذه عبارة عن تقديرات عمليّة وواقعيّة هندسها البارئ عزّ وجلّ؛ بمعنى أنّه تعالى قد صمّم الوجود وبرمجه بنحو يُمكّن النوع الإنسانيّ من الوجود في مكان خاصّ، وزمان معيّن، وبطول عمر محدّد، وفي ضمن تحوّلات محسوبة. إنّ جميع هذه التقديرات من فعل الله تعالى، بحيث لا يوجد أيّ مخلوق غير خاضع لأفعال كهذه، لأنّ الوجود برمّته مملوك للبارئ عزّ وجلّ، وهو مدبّره. ويبقى أنّه تعالى يقوم بهذه الأفعال تارةً من دون واسطة، وتارةً أخرى يستخدم واسطةً لكي يُظهر أحد المخلوقات في ساحة الوجود. لكن مع ذلك، فإنّ أزمّة جميع المخلوقات بيده عزّ وجلّ. فبالنظر إلى هذا الأمر، يتبيّن أنّ كلّ ظاهرة تتوقّف على مقدّمات عديدة قد تحتاج أحيانًا إلى قرون متطاولة لكي تتحقّق. والمراد من هذا الكلام أنّ الله تعالى قدّر لكلّ موجود كيف، وفي ضمن أيّ ظروف، وبواسطة أيّة

أسباب ينبغي أن يوجد، وما هي مدّة حياته، حيث أشارت الروايات إلى أنّ لكلّ موجود تقديرًا مكتوبًا، لكن، بأيّ قلم كُتب هذا التقدير، وعلى أيّ لوح؟ فهذا ممّا لا تستطيع عقولُنا فهم حقيقته.

وحينما تسري هذه التقديرات إلى الإنسان والظواهر الإنسانيّة، أي تلك الظواهر ذات الصلة بالفعل الاختياريّ، فإنّ الإرادة تصير بدورها جزءًا منها. ومن باب المثال، عندما يتحدّث شخصٌ مع آخرين، فإنّ لحديثه هذا تقديرًا أيضًا، بحيث ينبغي تحقّق مقدّماته منذ زمن بعيد، لكي يتمكّن هذا الشخص من الكلام في تلك اللحظة الخاصّة. لكن، يبقى أنّ هناك واسطةً أخرى توجد في هذا المقام مختلفةً عن تلك الأسباب الخارجة عن وجود ذلك الشخص، هي إرادته، والتي إذا لم يُعملها، فإنّه لن يتكلّم؛ نعم، لا يخفى أنّ الله تعالى هو الذي أعطى هذا الإنسان إرادته، وإلّا، فكيف له أن يحصل عليها؟ وعلى أيّ حال، فإنّ الإنسان يكون مختارًا بعين الإرادة التي منحه الله تعالى إيّاها، بحيث تكون هذه الإرادة داخلة في ضمن تقديراته؛ ويبدو أنّ بحث التقدير لا يشتمل على مسائل مستعصية، كما أنّ الاعتقاد به أمر يسير. وعليه، فإنّ خلاصة البحث تتمثّل في أنّ لكل حادثة مقدّمات تشتمل على سلسلة من الأسباب والمسبّبات والشروط التي خلقها الله تعالى.

٣. عدم التعارض بين التقدير الإلهيّ العلميّ والاختيار

المسألة الأخرى التي تُطرح علينا كثيرًا تتمثّل بالتقدير الإلهيّ العلميّ. وبيانه: أنّ الله تعالى يعلم بالحوادث التي تقع في كلّ زمان ومكان، فالاعتقاد بهذه المسألة لا يستعصي كثيرًا على الذين يُؤمنون - عمومًا - بانتساب هذا النظام إلى الله تعالى. فعلى سبيل المثال، يستطيع المهندس البارع الذي يُؤدّي عمله بدقّة أن يرسم في ذهنه أو على ورقة

تصميم البناية التي يريد تشييدها، ويُعيّن بالتدقيق بعض الأمور كنوع مواد البناء ومقدارها وكيفيّتها؛ مثلما يقوم به في الخارج. ورغم أنّه لا يُمكن لعبارات من قبيل الذهن والرسم أن تصدق في حقّ الله، لأنه تعالى منزّه عن الذهن، لكن يبقى أنّ كيفيّة تحقّق هذا العالم تكون منتقشة في العلم الإلهيّ، بأيّ نحوٍ كان هذا العلم. فعلم الله تعالى تعلّق بحقيقة أنّ الظواهر غير الاختياريّة توجد من دون اختيار، وأنّها لا تخضع لأيّ إرادة سوى إرادته عزّ وجلّ، خلافًا للظواهر الاختياريّة التي تفتقر في صدورها من الفاعل إلى اختيار. ومن هنا، فإنّ التقدير الإلهيّ لا يُؤدّي إلى الجبر.

لكن يرى البعض أنّ التقدير يستلزم الجبر، وأنّ الاعتقاد بالأوّل يوجب الاعتقاد بالثاني؛ إذ يقول الخيام:

مِی خوردن حق ز ازل می دانست *** گر می نخورم علم خدا جهل بُوَد[1]

وهـذا البيت الشعريّ محض مغالطة؛ لأنّ العلم الإلهيّ يعكس الواقع، ويحكي عن الواقعيّة كما هي؛ أي: إذا كانت المسألة اختياريّة، فإنّه يُظهرها اختياريّة، وإن كانت جبريّة، فإنّه يُبرزها جبريّة. وعليه، فإنّ علم البارئ عزّ وجلّ بما نفعله باختيارنا لا يُفضي إلى الجبر؛ فما يكون اختياريًّا يُكتب تحقّقه عن اختيار، وما يكون غير اختياريّ يُسجّل بأنّه سيحصل عن غير اختيار.

---

(١) ومعناه: لقد كان الحقّ يعلم بشربي للخمر منذ الأزل؛ فإذا لم أشربها، انقلب علمه تعالى إلى جهل. [المترجم]

٤. نزول الملائكة وحضورهم عند حجّة الله تعالى

السؤال الآخر هو: هل يُعلّم الله تعالى أحدًا ما يعلمه أم لا؟ فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾[1]، فهذا ما يقوله الكتاب العزيز، وأمّا حقيقة ذلك، فلا يُمكننا الاطّلاع عليها بالتدقيق. إنّ من خصائص ليلة القدر أنّ الملائكة تستنسخ فيها مقدّرات السنة من اللوح المحفوظ، وتُنزلها على حجّة الله تعالى، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[2]، ففي زمان الرسول الأكرم ﷺ كانت الملائكة تتنزّل عليه هو، ثمّ بعد ذلك على خلفائه المعصومين عليهم السلام، حيث إنّ من المقامات التكوينيّة التي يحظى بها الإمام المعصوم أنّ الله تعالى يُطلعه في ليلة القدر على مقدّرات السنة. وقد جاء في بعض الروايات أنّه إذا لم تُعرض هذه المقدّرات على حجّة الله تعالى في ليلة القدر، فإنّه لن يطّلع عليها، بينما إذا عُرضت عليه، فإنّه سيصير عالمًا بكافّة الأمور.

فمن الخصائص التي تتّسم بها ليلة القدر أنّ الملائكة تُنزل فيها المقدّرات، غير أنّ العقل لا يُمكنه إدراك حقيقة الملائكة، وصعودها ونزولها، وكيفيّة علمها، بحيث يتعيّن علينا الاعتراف بجهلنا بحقيقة هذه المسائل؛ ولكنّنا نُقرّ إجمالًا بوجود هذه الحقائق، ونؤمن بها: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[3]، لأنّ الله تعالى منّ علينا بفضله، وبيّن لنا هذه الحقائق بالمقدار الذي نحتاجه في حياتنا. وعلى أيّ تقدير، فقد صرّحت الآيات القرآنيّة الشريفة بأنّ الملائكة تتنزّل في ليلة القدر، فتعرض - وفقًا

---

(١) سورة الحجّ، الآية ٧٠.

(٢) سورة القدر، الآية ٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٧.

لما ورد في الروايات - مقدّرات سنة كاملة على إمام ذلك الزمان، ولهذا السبب، فقد سمّيت هذه الليلة بليلة القدر. فكلمتا «القدر» و«التقدير» هما بمعنى واحد، حيث تتوفّر بعض الأفعال في اللغة العربيّة على معنى واحد، سواءً جاءت بصيغة الثلاثي المجرّد، أو الثلاثيّ المزيد، ومن ضمنها فعلا «قَدَرَ» و«قدَّرَ» اللذان يأتيان كلاهما بمعنى التقدير. فطبقًا لما ذكرنا، فإنّ هذه الليلة هي التي يتعيّن فيها تقدير كلّ شيء. وعلى سبيل المثال، إذا كان من المقرّر أن يأتي أحد إلى هذا العالم، فإنّ هذه الليلة هي التي يتحدّد فيها هل سيكون رجلًا أو امرأة، أبيض أو أسود، وكم سيكون طوله ووزنه، وما هي قابليّاته الروحيّة، وما هي الأرزاق التي سيحصل عليها هذه السنة، وهل ستستمرّ حياته إلى نهاية العام أم لا، وكم هي فترة مرضه وسلامته، وغير ذلك. فجميع هذه الأمور تدخل في مقدّرات السنة التي سجّلها البارئ تعالى في اللوح المحفوظ، فتُؤخذ منه نسخة، ليتمّ عرضها على حجّة الله تعالى في كلّ زمان.

وهنا، يأتي السؤال: كيف تعرض الملائكة تقديرات السنة على إمام الزمان؟ وكيف يتمّ في ليلة واحدة عرض التقديرات السنويّة لكافّة الموجودات على شخص واحد؟ فمهما جرى عرض هذه التقديرات بشكل مضغوط، فإنّها تحتاج في انتقالها إلى زمان طويل. فقد يُطرح هذا السؤال على بعض الأفراد، وحينما لا يحصلون على جواب شافٍ يطرأ عليهم الشكّ بخصوص هذه الآيات، وأنها هل تحكي عن أمور واقعيّة، أو أنّها مجرّد عبارات أدبيّة وشعريّة لتقريب المسائل إلى الذهن.

في الجواب، بوسعنا القول: لحسن الحظّ، مع التطوّر التكنولوجيّ الحاصل في هذا العصر، اختُرعت مجموعة من الأدوات التي تُسهّل علينا التصديق بإمكانيّة عرض ونقل معلومات كثيرة في زمان يسير، وهذا نظير

الأقراص المدمجة. فلو قيل للناس قبل مئة سنة: ستُصنع أداة تُمكّننا من وضع موسوعة أو مكتبة كاملة في مكان ذي حجم صغير بمجرّد الضغط على زرّ، لما صدّقونا.

فهذه إجابة إقناعيّة تصلح للذين يتساءلون عن كيفيّة عرض الملائكة تقديرات كثيرة على إمام الزمان عليه السلام، حيث بوسعنا أن نقول لهم: مثلما أننا نستطيع أن نعرض الملايين من المعلومات على شخص في قرص مدمج واحد، فإنّ الملائكة يُمكنها أيضًا أن تعرض ذلك العلم على صاحب العصر عجل الله فرجه. أجل، يبقى أنّ هذا الجواب يصلح للإقناع فقط، وإلّا، فإنّ حقيقة الأمر أعلى من ذلك بكثير.

٥. الإمام واسطة الفيض الإلهيّ

كلّنا يعتقد - إلى حدّ ما - أنّه حينما تتشرّف جماعة كبيرة من الناس بزيارة السيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام، والإمام المعصوم عليه السلام بطريق أولى، ويعرضون حاجاتهم عليه، فإنّه عليه السلام يسمع كلامهم، ويُجيبهم بأجمعهم. فحينما يقوم هؤلاء الزوّار بتقديم طلباتهم للإمام، ويُسلّمون عليه، ويقرؤون زيارته، ويبثّون إليه همومهم، ويتطلّعون إلى عطفه ورعايته، ويطلبون منه أن يدعو لهم عند الله تعالى، فإنّ هذا المعصوم يسمع الجميع، ويفهمهم، ويتفضّل على كلّ واحد منهم بما يتناسب مع حاله. ففي زيارة المعصومين، نقرأ عادةً هذه العبارة: «أَشهَدُ أنَّكَ تَسمَعُ كَلَامي وَتَـرُدُّ جَـوَابـي»، وفي بعض الحالات، قد يتواجد في أطراف حرمهم عليهم السلام الآلافُ من الناس، الذين يُخاطبونهم بلغات مختلفة، فارسيّة وعربيّة وتركيّة وهنديّة وإنجليزيّة وروسيّة وغيرها، فيسمع أولئك المعصومون كلام كلّ واحد منهم كما يسمعون كلام الآخر. وهنا، من الممكن أن يسأل سائل: كيف يتسنّى للإمام سماع كافّة هذه المناجيات؟

فكم من لغة يُمكن لشخص واحد أن يتسلّط عليها؟ وما هو مقدار الكلام الذي يتسنّى له سماعه؟ وكم من لغة يتسنّى له التعرّف عليها في لحظة واحدة؟ والأدهى من ذلك، كيف لذلك المعصوم أن يعرف في نفس تلك اللحظة الإجابة المناسبة لكافّة الرغبات التي تُطرح عليه؟

ونقول في الجواب: إنّ هذا الإدراك لا يختصّ بمرتبة تعلّق النفس بالبدن، فروح الإنسان المتقّي والمقرّب من الله تعالى لها مراتب متعدّدة تُحيط بهذا العالم المادّي، ولا تتأثّر به، ولا تخضع للقوانين والظروف المادّية، بل لها قوانينها الخاصّة؛ ونحن لا نُدرك حقيقة تلك المراتب، لكنّنا نعلم أنّ الإمام المعصوم عليه السلام يسمع كلام جميع الزوّار، ويستجيب لهم، ويقضي حوائجهم بأفضل وجه ممكن، بحيث لا يُؤدّي ذلك إلى معارضة مصالح أخرى. أجل، يبقى أنّ ذلك راجع في الحقيقة إلى فعل الله الذي يتحقّق على يد الإمام بإذنٍ منه تعالى. لكن، على أيّ تقدير، فإنّ الإمام واسطة؛ والوساطة تقتضي أن يسمع الوسيط جميع الحاجات، ويتعرّف عليها. فبالنظر إلى هذه المسألة، يتّضح لدينا أنّ ذلك لا يختصّ بالإمام الذي ارتحل عن هذا العالم، ونذهب لزيارته في حرمه، بل حتّى الإمام الحيّ يكون متمتّعًا بهذه الدرجة من الكمال.

ومع الأسف، فقد أصبحت الانشغالات المادّية واليوميّة تشغل الناس عن التفكير في هذه القضايا، لكن، حينما نتأمّل في الأدعية والمناجيات والزيارات، كالزيارة الجامعة، وزيارة آل ياسين، فإنّنا سنتمكّن من الظفر ببعض الإشـارات إلى تلك المسائل. وعلى سبيل المثال، فإنّنا نقرأ في زيارة آل ياسين: «سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ لِمَنْ يَهْدِيهِ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ قَدْ آتَاكُمُ اللَّهُ يَا آلَ يَاسِينَ

خِلَافَتَهُ وعِلْمَ مَجَارِي أَمْرِهِ فِيمَا قَضَاهُ ودَبَّرَهُ ورَتَّبَهُ وأَرَادَهُ فِي مَلَكُوتِهِ»[١]، حيث تتحدّث هذه الزيارة عن أنّ حوادث هذا العالم تتنزّل من مقامات علويّة، وأنّ لها مجارٍ خاصّة، وأنّ الله تعالى منح الإمام عليه السلام العلم بهذه المجاري التي جرى تدبيرها وتصميمها في عالم الملكوت. ولهذا، فلا ينبغي لنا أن نظنّ أنّ كلّ الوجود منحصر في عالم المادّة، لأنّ هناك عوالم أخرى تقع فوقه، وتحكم على قوانينه، وتتوفّر على قوانين خاصّة بها لا علم لنا بحقيقتها، حيث إنّ البارئ عزّ وجلّ قد اختصّ في هذا العالم بعض عباده بعلم ما هو موجود في العوالم العلويّة، بسبب السعة الوجوديّة التي يتمتّعون بها، وارتباطهم بتلك العوالم.

٦. المقام النورانيّ للأئمّة المعصومين عليهم السلام

من المسائل التي وصلتنا عن الأئمّة المعصومين، ونعتقد بها، ولو أنّنا لا نُدرك حقيقتها جيّدًا، هي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام يتوفّرون على مقام اسمه «النورانيّة»، حيث جاء في رواية: «يا جابر، أوّل من خلق الله نور نبيّك»[٢]، كما جاء أيضًا في رواية منقولة عن كتب أهل السنّة: «كنت أنا وعليّ نورًا بين يدي الله عزّ وجلّ قبل أن يُخلق آدم بأربعة عشر ألف عـام، فلمّا خلق الله آدم، قسم ذلك النور جزأين، فجزء أنا وجزء عليّ عليه السلام»[٣]. ووفقًا لما ورد في العديد من المصادر الحديثيّة الشيعيّة

(١) محمد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٩٩، الصفحة ٩٢. وهذه العبارة هي جزء من إحدى الروايات المنقولة عن العلّامة المجلسي رحمه الله لزيارة آل ياسين.

(٢) الحسن بن محمّد الديلميّ، **غرر الأخبار**، الصفحة ١٩٥.

(٣) أبو عبد الله أحمد بن حنبل، **فضائل الصحابة**، الصفحة ٨٢٣، الحديث ١١٣٠.

والسنّية، فإنّ تقسيم هذا النور حصل في صلب حضرة عبد المطلّب[١].
تجدر الإشارة إلى أنّه لا ينبغي علينا أن نطمع في إدراك حقيقة هذه العوالم، لكن، علينا أن نعلم أنّ هناك في الأخير مرتبة من الوجود أفضل اسم يُمكننا أن نطلقه عليها هو «النور»، لأنّ الله تعالى أطلقها على ذاته أيضًا، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[٢]. إنّنا لا نملك في هذا العالم شيئًا أطهر وأفيد وألطف من النور، فالنور موجود شريف يحظى بالتعظيم من قبل الجميع، وهو منزّه عن النجاسة والقذارة، والرائحة وغير ذلك. فإذا أردنا أن نستخدم لفظًا يحكي عن تلك العوالم، فلن نجد كلمة أفضل من «النور». فالنور ظاهر بذاته مظهر لغيره، أي إنّه واضح بنفسه، ولا يحتاج في وضوحه إلى شيء آخر. والله تعالى كذلك موجود بنفسه، ولا يتوقّف في وجوده على أيّ شيء آخر. فكما أنّ كلّ شيء غير النور يظهر ويُرى بواسطة النور، فإنّ كلّ ما سوى الله يصدر منه تعالى. ولهذا، فإنّ كلمة «النور» تُطلق على البارئ عزّ وجلّ.

يتوفّر النور على مراتب متعدّدة، والشاهد على ذلك آية النور التي يقول فيها الله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ﴾[٣]، فبمقضى هذه الآية، فإنّ الله تعالى نور، وهو مصداق مرجع الضمير في «نُورِهِ»، غير أنّ النور مخلوق لله تعالى أيضًا، كما تُشير إليه عبارة «مَثَلُ نورِه». وعليه، فإنّ للنور مرتبة تُنسب إلى الله تعالى، ولهذا النور مراتب متعدّدة؛ كما أنّ العوالم الوجوديّة هي بالنحو ذاته. إنّ المراد من العبارات الواردة في الروايات، والتي تتحدّث عن أنّ الله تعالى خلق

---

(١) راجع: محمد بن عليّ بن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق)، **الخصال**، الجزء ٢، الصفحة ٤٨١؛ عليّ بن الحسن بن عساكر، **تاريخ دمشق الكبير**، الجزء ٤٢، الصفحة ٦٧.

(٢) سورة النور، الآية ٣٥.

(٣) سورة النور، الآية ٣٥.

الجنّة من نور النبيّ الأعظم أنّ لنور هذا الموجود الأوّل ﷺ كمالاتٌ متى ما تنزّلت، ظهرت مخلوقاتٌ من هذا القبيل، أي إنّ الجنّة وما فيها شعاعٌ من وجوده النوريّ، وليس وجوده الماديّ؛ إذ إن لوجوده المادّي تكليفًا، ولهذا، عليه أن يتعب، ويمارس الرياضات، وأن يُواجه الابتلاءات، ويستشهد، لكنّ هذه الأمور غير مرتبطة بذلك النور؛ وإلّا، لو تقرّر أن «يُقتل» هذا النور، لانهار كلّ العالم. إنّ هذا النور يقع في أفق فوق التكليف، بحيث يكون كافّة أفراد الإنسان المكلّفين عبارة عن أشعّة من وجوده.

ومن هنا، تُعدّ مسألة نزول الملائكة وعرضها للمقدَّرات على إمام الزمان عجل الله فرجه من المسائل القابلة للتصديق. ولتقريب ذلك إلى الأذهان، بوسعنا القول: في تلك الليلة، يسطع الله تعالى عن طريق ملائكته بنور على قلب صاحب العصر عليه السلام، فينكشف له كلّ شيء بواسطته. هذا، مع أنّ ما ورد في الروايات عن نزول الملائكة في ليلة القدر وعرضها للتقديرات على النبيّ الأكرم ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام، الأمر الذي لولاه لما علموا عن هذه التقديرات شيئًا، إنّما هو بحسب المرتبة الدنيويّة لوجودهم الشريف؛ وإلّا، فإنّ وجودهم النورانيّ لا يحتاج إلى الملك وعرضه، بل إنّ الملك مخلوق بدوره من ذلك النور.

وفيما يخصّ عدد ليالي تنزّل الملائكة وعرضها للتقديرات، يرى بعض الأعاظم أنّ ما يُستفاد من الآيات والروايات خضوع ذلك لثلاث مراحل: ففي الليلة الأولى، لا يكون الأمر قطعيًّا بعدُ؛ وفي الليلة الثانية، يكتسب الأمر درجة من الحتميّة والقطعيّة؛ وفي الليلة الثالثة (أي مرحلة القضاء) يُمضى الأمر. ويبقى أنّ هذا مجرّد احتمال طرحه بعض الأفاضل، لكنّه لا يبعُد. أجل، قد توجد مرحلة أخرى لتغيير القضاء، إذ من الممكن، بحسب

مجموعة من الروايات، طروّ التغيير حتّى على بعض المقدّرات الثابتة، فقد جاء في زيارة الإمام الرضا عليه السلام: «أَسْأَلُكَ بِالْقُدْرَةِ النَّافِذَةِ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَقَضَائِكَ الْمُبْرَمِ الَّذِي تَحْجُبُهُ بِأَيْسَرِ الدُّعَاءِ»[١]؛ فهناك قضاء يكون تامًّا وحتميًّا لولا الدعاء، غير أنّ الله تعالى فتح بابًا آخر في وجه عباده، بحيث قد تقتضي الأسباب عدم طروّ أيّ تغيير على القضاء، لكن، مع ذلك، إذا دعا العبد ربّه من صميم قلبه، فإنّ هذا القضاء يتحوّل. ومن هنا، يتعيّن علينا اغتنام بعض الفرص كليالي شهر رمضان المبارك، لكي نرجو من العليّ القدير أن يُيسّر لنا ولأفراد المجتمع وكافّة المسلمين في العالم بل وللبشريّة جمعاء طريقًا يُفضي بنا إلى سعادة الدنيا والآخرة، وأن يُعجّل كذلك في ظهور مولانا وقائدنا حضرة وليّ العصر عجل الله فرجه.-

(١) محمّد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٩٩، الصفحة ٥٥.



الفصل السادس: علم الإمام المعصوم عليه السلام

١. مقدّمة

الفقرة التي تطرّقنا إليها في الفصل الأخير كانت تتحدّث عن ليلة القدر وأفضليّتها من ألف شهر، حيث تتّسم هذه الليلة بالعديد من الخصائص، والتي من جملتها نـزول القرآن والملائكة التي تُسلّم على المؤمنين إلى طلوع الفجر، وقد جرى التصريح بهذه المسألة في سورتَي القدر والدخان المباركتَين، كما أنّنا سمعنا عن هذه المميّزات وطالعناها كثيرًا. لكن، يبدو أنّ كلّ واحدة منها تتمتّع بأبعاد أعمق تستدعي تأمّلًا وتفكّرًا وتحقيقًا أكثر. إنّ من أبرز الخصائص التي تتميّز بها ليلة القدر تنزّل الملائكة على الإمام عليه السلام، وعرض مقدّرات السنة عليه، وفي هذا المجال، تُطرح تساؤلات ذات أبعاد واسعة تمسّ مسائل عميقة وجذريّة كانت مثارًا للبحث والنقاش، بل والخلاف أحيانًا طوال العصور المختلفة، منذ صدر الإسلام، وإلى الآن. ومن بين هذه التساؤلات، يُمكننا الإشارة إلى الموارد التالية: ما هي الدائرة التي يشملها علم الإمام؟ وما هي الأمور التي يعلم بها عليه السلام؟ هل يعلم بكلّ شيء، أم أنّ علمه لا يتجاوز علوم الناس العاديّين، اللهمّ إلّا تلك العلوم التي منحه الرسول صلى الله عليه وآله إيّاها؟ هل إنّ العلم الذي تعلّمه من النبيّ اكتسابيّ؟ فهذه المسألة الكلاميّة تطرح

علينا سؤالًا مفاده: هل من الصفات التي يتحلّى بها الإمام توفُّره على علم خاصّ أم لا؟ وإذا كان له علم خاصّ، فما هي حقيقته؟ وما هي حدوده؟ وكيف يحصل له؟ فطبقًا للروايات المنقولة في مصادرنا الحديثيّة، فإنّ هذه المسألة كانت مثارةً منذ زمان الأئمّة الأطهار عليهم السلام؛ كما أنّنا نستنتج من هذه الروايات أنّ مخاطبيهم لم يكونوا يتمتّعون بالأهليّة اللازمة لفهم هذه الحقيقة، لأنّهم عليهم السلام قدّموا في هذا الصدد إجابات مختلفة باختلاف الأفراد. سنسعى من جهتنا في هذا الفصل - وبشكل مقتضب - إلى تقديم بحث جامع إلى حدّ ما في هذا المجال.

٢. عرض الآراء في باب علم المعصومين عليهم السلام

بالنظر إلى بعض الشواهد المبثوثة في الآيات والروايات، يعتقد البعض أنّ علم النبيّ لا يختلف عن علم بقيّة الناس، اللهمّ إلّا في تلقّيه صلى الله عليه وآله للوحي. ومن بين الآيات التي يُمكننا الاستناد إليها في هذا الصدد الآية الأخيرة من سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1]، حيث يرى هؤلاء أنّ الاعتقاد بأكثر من ذلك لا يعدو كونه غلوًّا. ومن الجدير بالذكر أنّ هذا الرأي ليس مجرّد تصوّر عامّي يُؤمن به بعض الناس العاديّين، بل إنّه يُمثّل اعتقاد بعض العلماء والأفاضل الذين حضرت عند عددٍ منهم، حيث يرفضون الاعتقادات السائدة بيننا نحن الشيعة والتي تقضي بوجود اختلاف من الأساس في الشخصيّة والوجود بين الرسول والإمام من جهة، وبقيّة الناس من جهة أخرى، وينسبون ذلك إلى الغلاة.

لكنّنا نُؤمن بأنّه ليس من السهولة بمكان التسوية بين الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وبين الآخرين، لأنّه توجد في متناولنا المئات من الروايات

---

(١) سورة الكهف، الآية ١١٠.

التي تحكي عن أنّ علم الرسول والإمام فوق العلم الإنسانيّ المتعارف. فقد ورد في إحدى الروايات أنّ شخصًا جاء إلى بيت الإمام الباقر عليه السلام، وطرق الباب، ففتحت جارية الباب، فقام ذلك الشخص بالمزاح معها، وفجأة، صرخ الإمام عليه السلام عليه من داخل الدار، ووبّخه، وحينما وصل عند الإمام عليه السلام، قال له: «أقسم بالله تعالى أنّي قمت بهذا العمل لكي يزداد يقيني بكم»، فقال له عليه السلام: «إذا كنت تظنّ أنّ هذا الحائط سيمنع أبصارنا عن رؤيتكم كما يمنع أبصاركم، فلن يكون هناك أيّ فارق بيننا وبينكم، احذر أن تعود لمثل هذا العمل!»[1]. وإن الإخبار بالمغيّبات لا يختصّ بالأئمّة المعصومين عليهم السلام، بل نُقل ما يُشبه هذه الكرامات حتّى عن بعض العلماء الأعاظم[2]، فهذه الحكايات هي على قدر من الكثرة إلى درجة تجعل التشكيك في أصل المسألة مجرّد وساوس ذهنيّة تتعارض مع ما هو متعارف.

ومع ذلك، يبقى السؤال التالي: هل لهذا العلم حدّ أو لا؟ وإذا كان له حدّ، فما هو؟ إذ بمقتضى الروايات التي تحدّثت عن ليلة القدر، يتبيّن أنّ الإمام عليه السلام يطّلع كحدّ أقلّ على كافّة حوادث السنة التي تعرض الملائكة مقدّراتها عليه، بمعنى أنّ الملائكة تُنبئه عليه السلام بجميع شؤون تلك السنة. وفي هذه الحالة، يُطرح علينا السؤال التالي: إذا كان الإمام عليه السلام يعلم بكافّة الأخطار التي ستُواجهه في السنة القادمة،

---

(١) «لئِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ هَذِهِ الْجُدْرَانَ تَحْجُبُ أَبْصَارَنَا كَمَا تَحْجُبُ أَبْصَارَكُمْ إِذًا لَا فَرْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم» [محمد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٤٦، الصفحة ٢٤٩].

(٢) وعلى سبيل المثال، يُحكى أنّ أحدهم عزم في مشهد على زيارة آية الله الميلانيّ، وحينما أراد في الصباح أن يذهب إليه، التفت عند استيقاظه من النوم إلى لزوم أداء غسل الجنابة، لكنّه ذهب للقائه من دون غسل لضيق الوقت؛ وعندما أراد توديعه، خاطبه آية الله الميلانيّ بعبارة مفادها «كان يجدر بك المجيء وأنت على غسل».

لماذا يُعرّض نفسه الشريفة لها؟ ومن هنا، تُطرح علينا تساؤلات أخرى من جملتها: إذا كان الإنسان مطّلعًا على خطر سيُواجهه، أيكون هناك إشكال شرعيّ في الإقدام عليه؟ وبعبارة أخرى: هل إنّ إلقاء النفس في الضرر يكون محرّمًا على الدوام، بحيث لا يجوز للإنسان أبدًا القيام بفعل يُؤدّي به إلى الهلاك؟ فهل كان ذهاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد في ليلة التاسع عشر جائزًا، مع أنّه كان يعلم بتلقّيه للضربة؟ فقد جاء في الروايات أنّه عليه السلام لم ينم تلك الليلة، وكان يُكرّر نظره إلى السماء، ويقول: «وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ وَإِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي وُعِدْتُ»[1]، وعليه، فإنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بما سيقع عند ذهابه إلى المسجد، فلماذا سار إلى مقتله؟ أوليس هذا العمل هو عين الإلقاء بالنفس في التهلكة التي نهى عنها القرآن الكريم حينما قال الباريُ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[2]. وبالمناسبة، فإنّ البعض يستدلّ بهذه الآية ليثبت عدم جواز وضع الإنسان نفسه في مواضع الخطر، ويُوسّعون هذه المسألة لتشمل حتّى قصّة الإمام الحسين عليه السلام، ويُثيرون التساؤلات التالية: لماذا سلك الإمام الحسين عليه السلام هذا الدرب، مع علمه بقتله في كربلاء؟ وبما أنّه عليه السلام كان يعلم باستشهاده في كربلاء، وكان يُشير بأنحاء مختلفة إلى نتيجة هذا السفر منذ بداية حركته من المدينة، فلماذا توجّه إلى مكان يضع فيه نفسه وعائلته في مواجهة الخطر؟ حتّى أنّ البعض سعى لاعتبار عزم الإمام الحسين عليه السلام على الذهاب إلى كربلاء شاهدًا على عدم علمه

---

(١) محمد بن الحسين الشريف الرضيّ، **خصائص الأئمة**، الصفحة ٦٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

بالحوادث المستقبليّة[١]. وإجمالًا، فقد شغلت هذه المسألة أذهان الناس فترةً من الزمن، لا سيّما طلّاب العلم.

إنّ أهمّ إشكال يُطرح في هذا المجال، ويُعدّ من الإشكالات القويّة حقًّا ويتعيّن علينا تقديم جواب حاسم عليه، هو أن يُقال: إنّ القرآن الكريم صرّح بنفسه بأنّ الرسول الأكرم لا يعلم الغيب، حيث أُمر ﷺ بأن يقول للناس: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[٢]، ففي هذه الآية الشريفة أُمر رسول الله ﷺ بأن يقول: «لو أنّني كنت أعلم الغيب، لقمت ببعض الأعمال التي تجلب لي خيرات أكثر، وتُبعد عنّي شرور السيّئات، لكنّكم ترونني أُعاني بدوري من المصاعب، وتُواجهني مشكلات عديدة، ممّا يدلّ على أنّني لا أعلم الغيب». وهذا في الحقيقة عبارة عن دليل أقامه القرآن الكريم بذاته على عدم اطّلاع النبيّ على الغيب. ومن هنا، كيف يتسنّى لنا الادّعاء أنّه ﷺ كان يعلم بكلّ شيء؟ فإذا لم يثبت هكذا علم للرسول، فإنّه لن يثبت لغيره بطريق أولى، وحتّى لو توفّرت الروايات على بعض العبارات التي تحكي بظاهرها عن علمه ﷺ بالغيب، فعلينا أن نُفسّرها بحدسيّاته التي كانت تصدق، مع أنّ الحدس ليس بحجّة، حيث كان الرسول في بعض الحالات يقوم ببيان حدسه، شأنه في ذلك شأن بقيّة الناس، لكن، بشكل عامّ، قد يُحالف الحدس الصواب، وقد يُجانبه. نعم، يبقى أنّ حدسيّاته ﷺ تكون صائبةً في معظم الأحيان. وعلاوةً على ذلك، جرى

(١) قبل انتصار الثورة الإسلاميّة، صنّف أحدهم كتابًا سعى فيه لإثبات عدم اطّلاع الإمام الحسين عليه السلام على عاقبة ذهابه إلى كربلاء؛ وفي نفس تلك الأيّام، جرى تأليف كتاب في الردّ عليه من قبل أحد الفضلاء، والذي صار فيما بعد من مراجع التقليد.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٨٨.

التصريح في القرآن الكريم بأنّه لا يعلم الغيب إلّا الله تعالى، كما جاء في سورة النمل: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾[1].

فقد أمر الباريُ عزّ وجلّ رسوله الكريم بأن يُعلن عدم علمه بالغيب. وفي الحقيقة، فإنّ الفارق الوحيد بينه ﷺ وبين الآخرين يتمثّل في تلقّيه للوحي، واطّلاعه عليه، وهو بحدّ ذاته نحو من أنحاء العلم بالغيب، وإلّا، فإنّ النبيّ لا يختلف عن بقيّة الناس في غير الوحي. وتجدر الإشارة إلى أنّه إذا لم نتمكّن من حلّ هذه المعضلة، فإنّ الدور لن يصل إلى علم الإمام، لأنّه إذا سلّمنا بأنّ الفارق الوحيد بين علم الرسول وعلم الآخرين هو في اطّلاعه ﷺ على الوحي، فإنّ العلم الخاصّ سينتهي بانتهاء الوحي والنبوّة.

وفي المقابل، يرى البعض أنّ الرسول ﷺ والأئمّة عليهم السلام لهم علم بكافّة الحوادث الصغرى والكبرى التي تقع في العالم، سواءً في الماضي أو الحاضر أو المستقبل من دون استثناء، حيث تتوفّر هذه الطائفة في ادّعائها على مجموعة من الأدلّة.

٣. العلم الحاضر والعلم القريب من الحاضر

لتسليط الضوء على الأبعاد المختلفة لعلم الإمام، يتعيّن علينا الالتفات إلى مجموعة من المسائل الجوهريّة: الأولى أنّه متى ما قيل إنّ فلانًا يعلم بقضيّة ما، فإنّ ذلك لا يعني أنّ هذه القضيّة حاضرة في اللحظة ذاتها بموضوعها ومحمولها المحدّدين في ذهنه، وأنّه ملتفتٌ إليها. وعلى

---

(١) سورة النمل، الآية ٦٥.

سبيل المثال، فإنّ الفقيه هو من حصل على ملكة الاجتهاد، أي من يقدر على التفكير في أيّ مسألة شرعيّة يريدها، ويجتهد فيها، ويفتي على أساسها؛ لكنّ ذلك لا يعني أنّ المسائل برمّتها حاضرة في ذهنه، فممّا لا شكّ فيه أنّ الناس العاديّين لا يُمكنهم أبدًا امتلاك كافّة المسائل بنحو جاهز وحاضر في أذهانهم، بل ينبغي كحدّ أقلّ أن يطرح عليهم أحدٌ السؤال، لكي يُفكّروا، ويُجيبوا بعد ذلك. نعم، يبقى أنّ هؤلاء ليسوا كالجهّال الذين لا علم لهم بالجواب، بل إنّهم يتمتّعون بملكة الاجتهاد، أي يستطيعون أن يعثروا على جواب المسائل عن طريق التفكير.

ويُمكننا أن نضرب مثالًا آخر على ذلك بعالم الرياضيّات. فإذا قلنا إنّه قادر على حلّ المسائل الرياضيّة المعقّدة، فإنّ ذلك لا يعني أنّ حلّ كلّ هذه المسائل حاضر الآن في ذهنه. ففي هكذا موارد، نلاحظ وجود نحوٍ من العلم والبذور العلميّة. وبعبارة أخرى، إنّ هناك نورانيّة خاصّة إذا التفت إليها العالم، فإنّه يتمكّن من العثور على جواب المسألة، والعكس صحيح. ومن هنا، فإنّ المراد من توفّر الناس - حتّى العاديّين منهم - على علم ما لا يعني أنّ هذا العلم حاضر في أذهانهم على الدوام، وأنّهم ملتفتون إليه، بل من الممكن أن يتمتّع أحدٌ بملكة العلم، فيُعدّ ذلك بحدّ ذاته علمًا بنحو ما. ومن باب المثال، إذا سُئل الفقيه الحاصل على ملكة الاجتهاد عن مسألة معيّنة، فإنّه قد يقول: «المسألة غير حاضرة في ذهني، وعليّ الرجوع إلى المصادر»، فرغم أنّه فقيه، ومتصدٍّ للفتوى، وفتواه حجّة بالنسبة للآخرين، إلّا أنّه قد يفتقر إلى الحضور الذهنيّ.

فالمسألة الأساسيّة المطروحة هنا هي أنّ العلم له مراتب، وأن كون الإنسان عالمًا بقضيّة ما لا يلزم منه حضور هذه القضيّة في ذهنه دائمًا. وبالالتفات إلى هذا الأمر بوسعنا القول: إن من الممكن لشخصٍ أن يقول

عن مسألة معيّنة: «أعلم بها»، وأن يقول عن المسألة عينها: «لا علم لي بها»، ويكون في القولَين صادقًا. كان مؤسّس الحوزة العلميّة في قمّ آية الله الحائري رحمه الله يقول: «يوجد نوع من العلم قد يُسمّى بالعلم الجيبيّ، فعلى سبيل المثال، إذا كان أحدٌ منهمكًا في تناول السحور، فسُئل عن طلوع الفجر، فإنّه يستطيع أن يعرف الجواب إذا نظر إلى الأفق؛ غير أنّه إن قال من دون أن يتطلّع إليه: «لا أعلم هل طلع الفجر أم لا»، فإنّه سيكون صادقًا في كلامه؛ لكن، نفس هذا الشخص قد يقول بمعنى ما: «أنا أعلم بذلك»، لأنّه إذا رفع رأسه، وألقى نظرة على الأفق، فإنّه سيحصل على الجواب؛ فمثل هذا العلم كشخص توجد في جيبه ورقة مكتوب عليها اسم أحدهم، فلو سُئل عن ذلك الاسم، لاستطاع أن يُخرج تلك الورقة، ويقرأه، ويُجيب بالتالي عن السؤال، لكنّه يستطيع أيضًا أن يقول بنفسه: «لا أعلم»، فتكون دعواه صحيحة تمامًا».

فهناك مجموعة من العلوم هي بنحوٍ يكون بالإمكان إنكارها من جهة، وادّعاؤها من جهة أخرى، وإن من شأن الالتفات إلى هذه المسألة الإعانة على فهم طائفة من الروايات الواردة بخصوص علم الإمام. يوجد في كتاب الحجّة من **أصول الكافي** فصل في باب علم الإمام عنوانه: «إِذَا شَاءُوا أن يَعلَمُوا عُلِّمُوا»[1]، ويُراد من هذه الروايات أنّ الأئمّة يتوفّرون على مقام يتيسّر لهم فيه علمُ كلّ ما يريدون، لكن، إذا اقتضت المصلحة أن لا يعلموا بشيء من الأشياء، فإنّهم لا يُقدمون على ذلك العلم. ومن هنا، إذا طُرح سؤال عن قضيّة الإمام الحسن عليه السلام، وأنه هل كان يعلم بوجود السمّ في ذلك الماء الذي تسبّب في موته أم لا، فإنّنا نجيب بأنّه كان يعلم، ولا يعلم في الوقت ذاته، لأنّه في تلك الظروف لم يكن مطلّعًا

---

(١) محمّد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ١، الصفحة ٢٥٨.

- بحسب العلم العاديّ - على تلك المسألة. ولهذا، يُمكننا أن نقول إنّه لم يكن يعلم، لكنّه لو شاء أن يعلم لَعَلِم. ولهذا، بوسعنا القول إنّه كان يعلم.

٤. الله تعالى مدبّر العباد المخلصين

وفي هذا المقام، يُطرح عددٌ من الأسئلة الفرعيّة: بأيّ نحو تتحقّق إرادة الإمام عليه السلام أو عدم إرادته؟ فمن جهتنا نحن، لكي نريد شيئًا ما، علينا أن نتوفّر على حافز يُحرّكنا إليه، ومن المعلوم أنّ كلّ واحد منّا يمتلك حافزًا لمعرفة الحقائق، وعليه، كيف يُمكن للإنسان أن لا يرغب في معرفة الحقيقة، إذا كان يتوفّر على وسيلة العلم بها؟!

يستدعي الجواب التفصيليّ على هذا السؤال مجالًا آخر، لكن بوسعنا القول إجمالًا: إنّ المصالح المرتبطة بالشؤون الحياتيّة للإنسان في هذا العالم تقتضي أن لا يكون مطّلعًا على بعض المسائل، إذ لو كان عارفًا بها، لما تحقّقت تلك المصالح. وعلى سبيل المثال، أُمر نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بالتضحية بابنه، لأنّه شاهد في إحدى الرؤى المختصّة بالأنبياء أنّه يذبح إسماعيل عليه السلام، فعلِم بأنّه كُلّف بذلك. وقد تحدّث نبيّ الله إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عن هذه المسألة، وقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾[1]، فأجابه إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]، ويحكي هذا الجواب عن أدب العبوديّة الذي كان يتسم به هذا النبيّ العظيم. فلو كان إبراهيم يعلم بمنحه فديةً، وبقاء إسماعيل حيًّا، هل

---

(١) سورة الصافّات، الآية ١٠٢.

(٢) سورة الصافّات، الآية ١٠٢.

ستكون في التضحية بابنه أيّ مزيّة له عليه السلام؟ من المسلّم أنّه لو كان نبيّ الله إبراهيم عليه السلام يعلم بمجيء الفدية، وعودة إسماعيل سالمًا من مكان التضحية، لما أكسبه إقدامه على ذلك العمل أيّ مزيّة، إذ ما أكثر الذين سيُقدمون عليه في حالة كهذه. فالأمر الذي رفع من مقام نبيّ الله إبراهيم عليه السلام هو اعتقاده بأنّ ابنه سيُذبح بإذن الله تعالى، وإقدامه على هذا الفعل رغم اعتقاده ذاك، من دون حتّى أن ترتجف يده.

وهكذا أيضًا بالنسبة لما جاء في حكاية نبيّ الله نوح، فحينما رأى ابنه يغرق، خاطب ربّه قائلًا: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[1]، ونجده عليه السلام تحدّث مع البارئ عزّ وجلّ بهذا النحو، لأنّه تعالى وعده بنجاة أهله. وفي الحقيقة، فإنّه طلب من ربّه أن يُنجي ابنه، لكنّه تعالى أجابه بقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[2]، ويعني جواب الله تعالى أنّ الأهل لا يُراد به ما يشمل ابن نوح، لأنّه ولد عاقّ، ولا يدخل في ضمن أهل بيت النبوّة. فلو كان نبيّ الله تعالى نوح عليه السلام يعلم بعدم شمول ذلك الوعد لابنه، لما طلب من ربّه نجاته. ومن هنا يُعلم أنّ علم الأنبياء عليهم السلام لا يعمّ كلّ شيء.

إنّ المصالح الكامنة وراء بعض الأمور لا تتحقّق إلّا عند عدم العلم بها، كما أنّ المزية والفضيلة التي تترتّب على هكذا أمور لا تحصل للإنسان إلا إذا كانت غير واضحة بالنسبة إليه. وأفضل نموذج على ذلك ما شاهدناه في قصّة نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، مع أنّه لو كان عليه السلام يُريد أن يعلم، لعلّمه الله تعالى.

---

(١) سورة هود، الآية ٤٥.

(٢) سورة هود، الآية ٤٦.

وهنا، قد يُطرح علينا السؤال التالي: لماذا لم يشأ نبيّ الله إبراهيم عليه السلام أن يكشف له البارئ عزّ وجلّ عن حقيقة تلك المسألة؟ وللجواب على هذا السؤال يتعيّن علينا البحث عن مسائل أعمق، لكنّ الجواب الإجماليّ يتمثّل في أنّه: إذا قام العبد بتسليم إرادته لله رغبةً وطواعيةً، فإنّه تعالى سيُحقّق له ما فيه مصلحته القصوى، وسيُفهمه ما يحتاج أن يفهمه. وفي المقابل، إذا لم يكن صلاحه في العلم بتلك المسألة، فإنّ البارئ عزّ وجلّ لن يُطلعه عليها. يقول الله تعالى في الحديث القدسيّ المسمّى بحديث قرب النوافل: «... وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِـهِ...»[1]، فهذه حقيقة وعد الله تعالى بها، حيث إنّ الذين يضعون أنفسهم تحت إرادة الله تعالى بإرادتهم واختيارهم، فإنّ الله تعالى يتكفّل بتدبير شؤونهم.

وقد جاء هذا المعنى في دعاء عرفة بالنحو الآتي: «إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي وَبِاخْتِيَارِكَ عَنِ اخْتِيَارِي»[2]. وعلى أيّ تقدير، فإنّ الرواية المعروفة برواية قرب النوافل تتوفّر على سند معتبر، ومحتوى رفيع جدًّا، بحيث إنّ الشيخ البهائيّ خصّص لها قسمًا من كتابه الأربعين. فمن المؤكّد أنّ الله تعالى أنجز هذا الوعد لأوليائه، كما أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ حضرات المعصومين عليهم السلام هم أفضل هؤلاء الأولياء، فحينما يُسلّمون أنفسهم للبارئ عزّ وجلّ باختيارهم وإرادتهم، فإنّه متى ما توجّب أن يُريدوا شيئًا، فإنّ الله تعالى يُهيّئ الأرضيّة لانبثاق هذه الإرادة في قلوبهم، كما نُقل عن الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام: «قُلُوبُنَا أَوْعِيَةٌ

---

(١) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٣٥٢.

(٢) محمّد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٩٥، الصفحة ٢٢٦.

لِمَشِيَّةِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ شِئْنَا»[١]، أي إنّ كلّ ما يُريده الله تعالى، يتحقّق في قلوبنا، وكلّ ما نُريده، يكون مطابقًا لما أراده الله تعالى، فإذا لم تتحقّق في أنفسنا إرادة شيء، فإنّ ذلك يرجع إلى أنّ الله تعالى لم ير مصلحةً في إرادتنا له. ومن هنا، إذا ورد سؤال: متى يعلم الإمام بما يقع، وعن الأمور التي يعلم بها، فإنّه بوسعنا أن نجيب بأنّه عليه السلام قادر على العلم في كلّ لحظة بكلّ ما يُريده، لكنّه لا يُريد أن يعلم، إلّا حينما تكون هناك مصلحة، حيث إنّ الله تعالى هو العالم بهذه المصلحة. فحينما تترتّب على علم الإمام مصلحةٌ متعلّقة به هو أو بالعالَم، فإنّ تلك الإرادة تنبثق فيه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]، وعندما لا يرى البارئ عزّ وجلّ فائدةً في علمه، سواءً كان ذلك لمصلحته الشخصيّة، أو مصلحة المجتمع، أو مصلحة الوجود برمّته، فإنّ تلك الإرادة لا تنبثق فيه. وهذا لا يتعارض مع اطّلاعه على كلّ شيء، لأنّ العلم بالأشياء يكون في متناوله، ويستطيع الرجوع إليه، لكن، حينما لا تكون هناك مصلحة في ذلك، فإنّ إرادة الاطّلاع على ذلك العلم لا تنبثق فيه. وهذا نظير من يمتلك جهازًا يُمكّنه من الاتّصال بالشبكة العنكبوتيّة عن طريق الضغط على زرّ واحد منه، غير أنّه لا يُريد الاتّصال بها حاليًّا. وعليه، إذا قيل إنّ المعصومين عليهم السلام مطّلعون على الأشياء برمّتها، فإنّ المراد من ذلك أنّ كافّة العلوم في متناولهم؛ وإذا قيل إنّهم لا يعلمون ببعض الأمور، فإنّ معنى ذلك أنّهم لا يتوجّهون إليها، حيث إنّ توجّههم هذا متوقّف على إيجاد الله إرادة ذلك في أنفسهم، لأنّهم سلّموه تعالى إرادتهم واختيارهم، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢٥، الصفحة ٣٣٧.

(٢) سورة التكوير، الآية ٢٩.

وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾[١]. فإذا سلّم الإنسان نفسه للبارئ بهذا النحو، فإنّه عزّ وجلّ يتولّى تدبير شؤونه، وبحقّ، فإنّ الله تعالى ثبت بنحو عجيب على هذا الوعد، وسيفي به لأوليائه: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾[٢]. ومن هنا، قد يكون العلم - بأحد المعاني - موجودًا، مع أنّ الإنسان لا يكون ملتفتًا حضوريًّا إليه، إلّا أنّه متى ما شاء، التفت إليه، وصار مطّلعًا على تلك المسألة، على أنّ أولياء الله تعالى لا تنبثق فيهم هذه المشيئة، إلّا حينما يوجدها الله تعالى في أنفسهم. ولا يخفى أنّ هذا لا يعني كونهم مجبورين، لأنّهم سلّموا إرادتهم له تعالى باختيارهم وإرادتهم، نظير أن يُعطي أحدٌ صديقه محفظة نقوده، ويقول له: «يُمكنك أن تستعمل هذه النقود متى ما شئت»، ففي هذه الحالة نجد أنّ أموال هذا الشخص لا تُنفق عن إجبار، لأنه هو الذي جعل ثروته في متناول صديقه لكي يُنفق منها. فأولياء الله تعالى سلّموه اختيارهم وإرادتهم باختيارهم، وطلبوا منه تدبير إرادتهم بما يرتضيه هو، ويرى فيه مصلحة، وهذا لا يتعارض مع مسألة الإرادة والاختيار الشخصيّين.

وتبيّن أيضًا أنّ قولنا إنّهم عليهم السلام يعلمون بكلّ شيء لا يتعارض مع ما يُنقل عنهم أحيانًا بخصوص خفاء بعض الأشياء عليهم. فعلى سبيل المثال، جاء في الروايات أنّ الإمام المعصوم عليه السلام قد يقول لأصحابه أحيانًا: مرّت أيّام دون أن أرى فيها فلانًا، هل حصل له شيء؟ فيُجيب الأصحاب مثلًا بأنّه مريض، فيذهب لعيادته، فلو أنّ جميع الأشياء كانت منكشفةً له في كلّ وقت، لكان ينبغي أن يعلم بما حدث لذلك الشخص. وبالتالي، لا يطرح ذلك السؤال، إذ بالنظر إلى ما ذكرناه، يتبيّن أنّه عليه السلام لم يكن

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٠.

(٢) سورة هود، الآية ٤٥.

يرغب في استعمال العلم الذي في متناوله، لأنّ الله تعالى رأى مصلحة في ذلك، وقد ورد في القرآن الكريم كلام يدلّ على أنّ بعض الأولياء والأنبياء لم يكونوا مطّلعين على أمر ما، أو أنّهم تركوا الأولى، فاستغفروا الله تعالى بعد ذلك، فمن باب المثال، نجد نبيّ الله تعالى موسى عليه السلام يُخاطب فرعون قائلًا: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[1].

٥. حفظ الدين أوجب من حفظ النفس

المسألة الثالثة المطروحة في هذا المقام أنّ البعض قد يقول: كلّ من يعلم بأنّ المسار الذي يسلكه يُفضي به إلى خطر مُحدِق لا يجوز له أن يلقي بنفسه في التهلكة؛ لأنّ أيّ نوع من الإضرار بالنفس حرام.

هذا الكلام لا يعدو كونه مغالطة، إذ ليس كلّ إقدام على الضرر حرام. فمن باب المثال، قد يكون من اللازم على المجاهد أن يُلقي بنفسه في حقل الألغام، مع أنّه يعلم بأنّ هذا العمل سيتسبّب في قتله؛ وأساسًا، فإنّ أصل المشاركة في جبهات القتال - ولا سيّما في الخطّ الأمامي - هو إقدام على الضرر، بحيث إنّ التهديد قد يطال بهذا العمل حتّى روح الإنسان، لذا فإنّ الإقدام على بعض الأضرار يكون واجبًا أحيانًا، إذا كان مقدّمة لمصلحة أهمّ. فحينما يكون الدين في خطر، ينبغي التضحية بالنفس، فقد يعلم المجاهد بأنّه سيُقتل في هذا الطريق، إلّا أنّ ذلك لا يُعفيه من أداء تكليفه، بل يتعيّن عليه إكمال مسيرته. فحينما يكون من الواجب علينا نصرة دين الله تعالى، فأيّ قيمة تمتلكها نفوسنا حتّى نحرص على المحافظة عليها؟ فالمجاهد الذي يُضحّي بنفسه في هذا السبيل قد يبقى أيّامًا أقلّ في هذه الدنيا، لكنّه عوضًا عن ذلك سيحصل

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢٠.

- من جهة - على نعم أخرويّة أبديّة لا يُمكن مقارنتها أبدًا بنعم الدنيا، وسيكون - من جهة أخرى - عملُه سببًا في إحياء الدين، ونجاة البلاد الإسلاميّة من الخطر.

وحينئذ، كيف يُمكننا القول إنّ إلقاء النفس في الخطر في هكذا موارد لا يجوز لمجرّد احتمال الضرر، أو حتّى العلم القطعيّ به؟! ففي الحالات التي يكون فيها الإقدام على الخطر مقدّمةً لأداء تكليف واجب ذي مصلحة أهمّ، فإنّ هذا العمل ليس فقط أنّه غير محرّم، بل واجب وضروريّ أيضًا. وبعبارة أخرى، فإنّ المحافظة على النفس أمر مهمّ، لكن قد تُزاحمها مسألة أهمّ، وفي هذه الحالة ينبغي التضحية بالمهمّ في سبيل الأهمّ.

نحن نعتقد أنّ سيّد الشهداء عليه السلام كان على علم بتفاصيل واقعة كربلاء، إذ لا يُمكن للمؤمن التشكيك بإلهام الله لأوليائه، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾[1]، وكما جاء أيضًا في موضع آخر: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[2]، حيث يصرّح الباري في هذه الآية الكريمة بوحيه لأمّ موسى عليه السلام، فهل يُمكن - والحال هذه - أن لا يوحي للنبيّ والإمام؟ أجل، يبقى أنّ الوحي هنا هو بمعنى الإلهام، وليس الوحي الذي يختصّ بمقام الرسالة والنبوّة. ولقد قال سيّد الشهداء عليه السلام في ليلة عاشوراء: «كلّ من يبقى معي غدًا يُستشهد»، حيث نجد هذا الإمام الشهيد يُضحّي بنفسه لتوقّف بقاء الدين على هذا العمل؛ فهو صار إمامًا، لكي يهدي الآخرين، وهداية الأمّة إلى يوم القيامة رهينة بهذا العمل، فكيف لا يكون مثل هذا الإقدام واجبًا؟ فرغم أنّ قيمة نفس الإمام

---

(١) سورة المائدة، الآية ١١١.

(٢) سورة القصص، الآية ٧.

أعلى من جميع المخلوقات، إلا أن دين الله، ومشيئته تعالى القاضية بهداية الناس أهمّ من المحافظة على نفسه عليه السلام.

ومن هنا، حينما يعلم الإمـام بـأنّ هذه الشهادة وسيلة لهداية الآخرين، وسبب لرضا الله تعالى، وتكليف ملقى على عاتقه، فإنّه يُقدم على الجهاد، بحيث لا يكون في هذا الإقدام أيّ إشكال، بل الأكثر من ذلك، أنّه يكون واجبًا. وعليه، مع أنّ الإمام مطّلع على الحوادث التي ستقع، فإنّه يُبادر إليها عن وعي، ويتحمّل تلك المصائب، في سبيل تحقيق مصلحة أهمّ، وتكليف أعلى وأوجب.

نعم، كما أسلفنا الذكر، قد يكون من الصلاح عدم اطّلاع الإنسان على المستقبل، كما حصل مع نبيّ الله إبراهيم عليه السلام حينما أعدّ إسماعيل عليه السلام للذبح، ووضع السكّين على حلقومه، حيث لم تكن هناك مصلحة في علمه بنزول الفدية، وبعدم التضحية بابنه عليه السلام؛ إذ في ذلك الامتحان، كان ينبغي أن يُعلم أن إبراهيم عليه السلام إلى أيّ مدى هو مستعدّ للتنازل عن رغباته وأحبابه، بل وحتّى أبنائه امتثالًا للأمر الإلهيّ. لقد كان امتحانًا شاقًّا جدًّا، ولعلّه بعد اجتيازه قال البارئ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾[1]، حيث شكّل ذلك الامتحان إحدى هذه الكلمات، وهو الذي جعل من إبراهيم إبراهيم. فلو كان عليه السلام يعلم بأنّ السكّين لن يقطع أوداج إسماعيل عليه السلام، وبأنّه ستجري التضحية بفدية عوضًا عن ابنه، لما كان لاصطحاب ابنه إلى المذبح أيّ قيمة، إذ حين العلم بحقيقة المسألة، فإنّها لن تكون ذات بال، وحينئذ، قد يتمكّن الآخرون بدورهم من القيام بهذا

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

العمل دون أيّ عناء. وعليه، تكون المصلحة في هكذا موارد في عدم التفات الإنسان إلى النتيجة، وعدم اطّلاعه عليها؛ فلو شاء إبراهيم لعلم، لكنّ الله تعالى لم يشأ أن يطّلع عليه‌السلام على عاقبة الأمر، ولم ير صلاحًا في ذلك. وبما أنّ قلب هذا النبيّ الكريم وعاءٌ لمشيئة الله تعالى، فإنّه لم يطّلع حقيقةً على النتيجة.

فبناءً على ما ذكرنا، علمُ الإمام ليس بنحوٍ تكون كافّة الحوادث الجزئيّة والكلّية التي تقع في العالم معلومةً له عليه‌السلام عن طريق حضورها بأجمعها في ظرف إدراكه الذهنيّ. لكنّه يمتلك وسيلةً تُمكّنه من العلم، بحيث متى ما حصل لديه توجّه، وطلب من الله أن يُعلّمه، فإنّه تعالى يُعلّمه، وهذه ليست بالمسألة الغريبة، بل هي نظير عالمٍ حصل على ملكة الاجتهاد، وصار بوسع الآخرين أن يُقلّدوه، كما أصبح قادرًا على أن يُصدر فتاوى، لكن، قد لا تكون مسألة معيّنة حاضرةً الآن في ذهنه، وقد لا يكون متوجّهًا إليها. وفي هذه الحالة، ينبغي كحدّ أقلّ أن يستحضر موضوع هذه المسألة ومحمولها، أو يتعيّن عليه أن يتأمّل قليلًا حتّى يُجيب عليها، فباعتبار أنّه يتوفّر على ملكة الاجتهاد، فإنّه لا يحتاج للإجابة على المسائل إلى الدراسة والتحصيل، لكن، مع ذلك، يتعيّن عليه التفكير فيها، وتركيز الانتباه عليها. ولهذا، نستطيع القول إنّه من ناحية يعرف الجواب، ومن ناحية أخرى لا يعرفها. فحينما تتنزّل الملائكة على أمير المؤمنين في ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك، فإنّها تعرض عليه - كحدّ أقلّ - مقدّرات تلك السنة، والتي من ضمنها مقدّراته هو عليه‌السلام. ومن هنا، فإنّه عليه‌السلام يكون مطّلعًا كحدّ أقلّ على هذه المقدّرات عن طريق تعليم الملائكة إيّاه في ليلة القدر. أجل، يبقى أنّ لأمير المؤمنين عليه‌السلام علمًا يفوق بكثير هذه المراتب، ولا يحتاج فيه إلى تعليم الملائكة، لكن بوسعنا القول إنّه عليه‌السلام كان بالحد

الأدنى مطّلعًا على مقدّراته وضربه على رأسه الشريف عن طريق تعليم الملائكة، ومع ذلك ذهب إلى المسجد، لأنّه كان يعلم بأنّ المصلحة المترتّبة على شهادته أقوى من تلك المترتّبة على حفظ نفسه، لأنّها وسيلة لتحقّق الأهداف الإلهيّة في هداية الناس، واختبارهم. ولهذا، كان من اللازم القيام بذلك الفعل، فالإقدام على ضرر ذي مصلحة أقوى من مصلحة الحفاظ على سلامة الإنسان ونفسه واجبٌ؛ كما أنّه لا توجد أيّ قاعدة عامّة تُحرّم كلّ إقدام على الضرر، فمن الممكن أن يكون ضرر ما طريقًا لبلوغ مصلحة أقوى، وأداء تكليف أهمّ؛ فنجد أمامنا في موارد كهذا تكليفَين متزاحمَين: أحدهما المحافظة على النفس، والثاني تكليف أهمّ، من المؤكّد لزوم التضحية بالنفس في سبيله. وإن بوسعنا العثور بكلّ وضوح على مثل هذه الموارد في سيرة النبيّ الأعظم ﷺ، والأئمّة الأطهار عليهم السلام، وأصحابهم، وسنسعى هنا لاستعراض نموذج عنها.

كان الحجّاج بن يوسف رجلًا خبيثًا جدًّا، قام يومًا باستدعاء أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وقال له: «عليك أن تتبرّأ من عليّ!»، فقال له: «لا أفعل ذلك!»، فهدّده الحجّاج بالموت عدّة مرّات، لكنّه لم يقبل، فأمر الحجّاج في الأخير بقطع يديه ورجليه، ممّا أدّى إلى شهادته[1]. لقد كان بمقدور ذلك الرجل أن يُظهر براءته ظاهريًّا، ويُحافظ على حياته بواسطة التقيّة، لكن، بما أنّه كان يعلم بأنّ التضحية بروحه في سبيل أمير المؤمنين عليه السلام ستُسجّل في التاريخ، وسيتعلّم الآخرون منه درسًا في الفداء والشجاعة، فقد قاوم، وقدّم نفسه فداءً لأمير المؤمنين عليه السلام. فمثل هؤلاء هم الذين حافظوا على التشيّع والإسلام الحقيقيّ حيًّا، وعرّفوا الناس على الإمام عليّ عليه السلام. ولقد كانت المصلحة المترتّبة على هذه

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، الجزء ٤، الصفحة ١٣٣، الحاشية ٢.

التوعية أقوى من الإبقاء على نفس ذلك الصحابيّ، حيث كان يرى بأنّ دماءً جديدةً سوف تتدفّق بواسطة عمله في عروق الإسلام والتشيّع، ليتعلّم الناس بعد مرور آلاف السنين دروسًا في الفداء من هذه القصّة، وكان يعتقد بأنّ ذلك العمل سُيؤسّس صفًّا دراسيًّا يتعرّف فيه طلبته على الإمام عليّ عليه السلام، فيدفعهم ذلك إلى التضحية بأنفسهم. فحتّى لو افترضنا أنّ ذلك الصحابيّ كان سيعيش أكثر، ويعقد دروسًا لتعليم القرآن، لكن، ألم يكن من بين حفظة القرآن وقرّائه من حارب الإمام عليه السلام، نظير الخوارج وأصحاب النهروان، بحيث إنّ أحدهم هوى بالسيف على هامته الشريفة؟[1]

ومن هنا، فإنّ القول إنّ كلّ إقدام على الضرر حرام لا يعدو كونه مغالطة، فحتّى في الموارد التي نقطع فيها بوجود خطر وضرر، إذا كانت هناك مصلحة أقوى وتكليف أهمّ من المحافظة على النفس، فإنّ الإقدام على الخطر قد يكون واجبًا، فضلًا عن كونه جائزًا. ويبقى أنّ بعض الفقهاء يرون بأنّ ذلك الصحابيّ كان مخيّرًا، فاختار بنفسه الشهادة. لكن، على أيّ تقدير، سواءً قلنا إنّ فعله كان واجبًا أو مستحبًّا، فليس الإقدام على كلّ ضرر محرّمًا بالضرورة، بل قد يكون في بعض الحالات واجبًا. وتُعدّ حكاية عبور بعض شبابنا الأعزّاء لحقول الألغام في فترة الدفاع المقدّس نموذجًا عن هكذا تزاحمات، بحيث نجدهم قد حدّدوا تكليفهم بكلّ وضوح، وتركوا لنا دروسًا وعبرًا في هذا المجال، ولو أنّنا قصّرنا في الاعتبار منهم. فهل بوسعنا أن نقول إنّهم ارتكبوا عملًا قبيحًا حينما عرّضوا أرواحهم

---

(١) من الواضح هنا أنّ المصنّف المبجّل لا يريد أن يُفاضل بنحو مطلق بين التضحية بالنفس وتعليم القرآن مثلًا، إذ لا يُمكن تعميم هكذا أحكام على كلّ الأفراد، بل إنّ الأمر يختلف من واحد إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى. ولهذا، نرى أنّ معظم الأئمّة عليهم السلام اختاروا التقيّة، وتفرّغوا لتعليم الناس، وتربية الأصحاب، والمحافظة على الكيان الشيعيّ، وتنميته وتطويره. [المترجم]

للخطر في سبيل المحافظة على الإسلام والثورة؟ فلو أنّ هذا النوع من الحماسة والتضحية لم يكن، لما بقي شيء من الإسلام والثورة. نرجو من الله تعالى أن يزيد من نور معرفته في قلوبنا ببركة وجود أمير المؤمنين، وأن يُوفِّقنا جميعًا إلى الاقتداء بسيرته وسنّته عليه السلام.

«السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَحْرَصَنَا بِالْأَمْسِ عَلَيْكَ، وأَشَدَّ شَوْقَنَا غَدًا إِلَيْكَ؛ السَّلَامُ عَلَيْكَ وعَلَى فَضْلِكَ الَّذِي حُرِمْنَاهُ، وعَلَى مَاضٍ مِنْ بَرَكَاتِكَ سُلِبْنَاهُ».

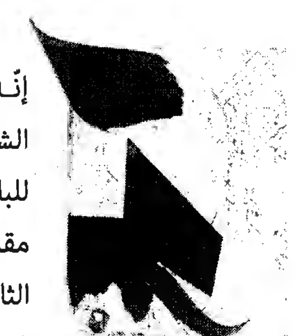
إلى هنا، نكون قد طالعنا ثمانية عشر سلامًا من التسليمات العشرين الموجّهة إلى شهر رمضان المبارك، ويبقى علينا استعراض سلامَين يُشكّلان نهاية هذا القسم من دعاء الوداع الشريف. فحينما يُريد الإنسان توديع صديقه، فإنّ آخر عبارة يستخدمها تكون من هذا القبيل: «لقد استمتعت كثيرًا طيلة هذه الفترة التي كنت فيها برفقتك»، أو «إنّه ليحزنني كثيرًا أن ترحل». ومن هنا، فإنّنا نجد الإمام السجّاد عليه السلام يقول في الجمل الأخيرة من دعاء الوداع: «بالأمس (حينما كنت بيننا)، كنّا حريصين جدًّا على الانتفاع منك، وحسن الاستفادة من فرصة وجودك؛ وعندما سترحل غدًا، فإنّنا سنشتاق كثيرًا إليك، ونظلّ ننتظر عودتك سنة كاملة. السلام عليك، وعلى تلك الفضائل التي فقدناها وحُرمنا منها، وعلى تلك البركات الماضية التي سُلبناها، بحيث لن تشملنا بسبب رحيلك».

ويبدو أنّ مراد الإمام عليه السلام من هذه الفضائل تلك التي يحصل عليها الإنسان في شهر رمضان. كما يُحتمل أيضًا أن يكون المراد منها الفضائل التي لم نُوفّق لنيلها، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أقوى بحسب الظاهر.

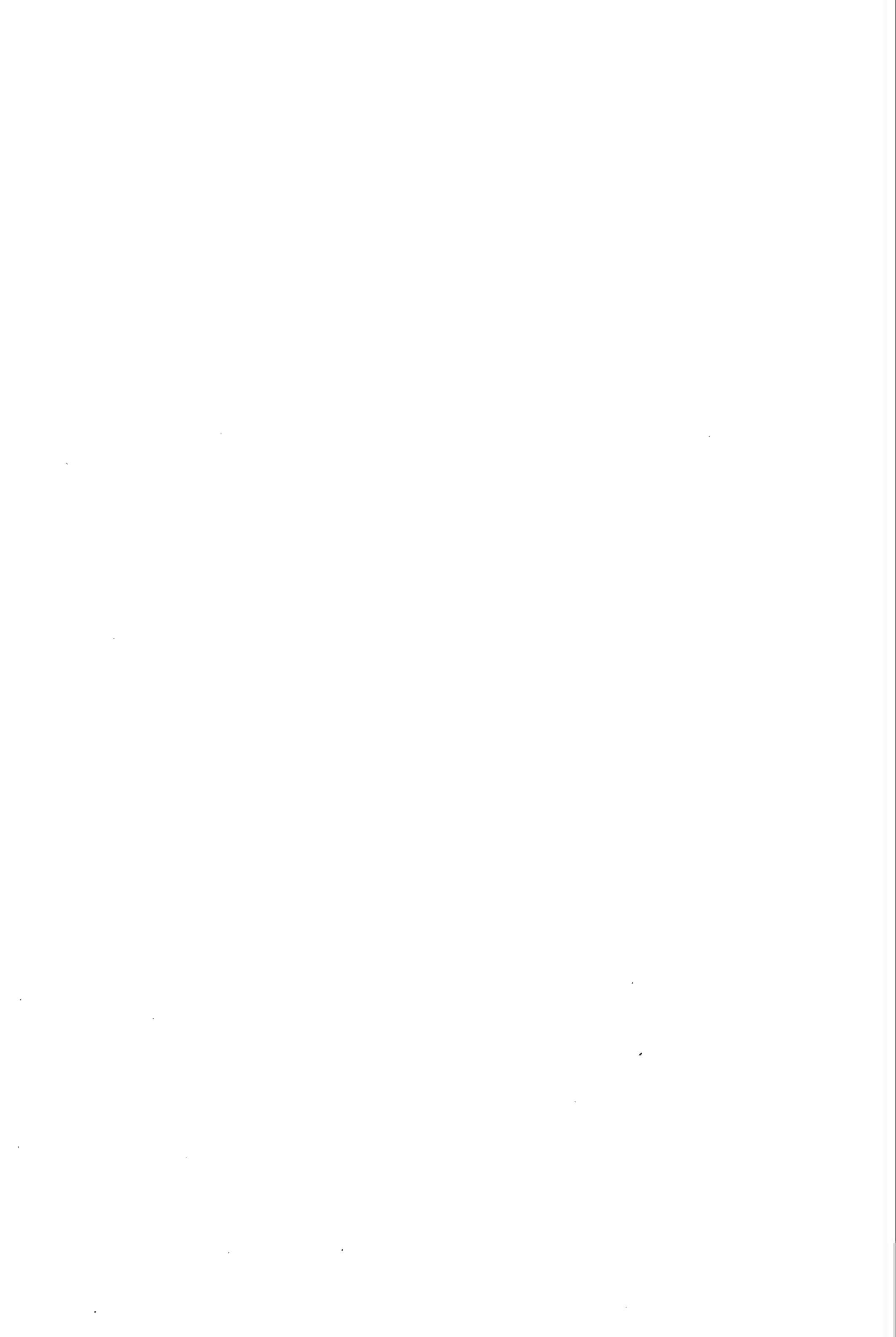


القسم الثالث: تمنّيات الإمام زين العابدين عليه السلام من الله تعالى

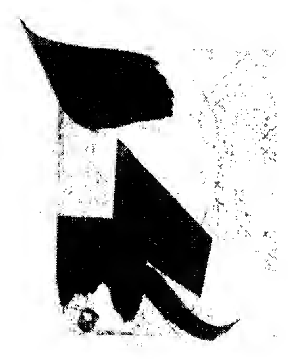


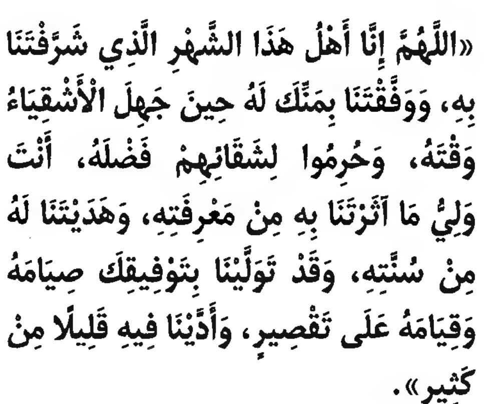


إنّـه بوسعنا - كما مرّ معنا سابقًا - تقسيم دعـاء الـوداع الشريف إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل بمثابة خطاب موجّه للبارئ عزّ وجلّ، وفي مقام مدحه تعالى والثناء عليه، وهو مقدّمة لكلّ دعاء ينبغي فيه مراعاة آداب العبوديّة، والقسم الثاني عبارة عن خطاب موجّه لشهر رمضان المبارك يجري فيه توديع هذا الشهر العظيم، وأمّا القسم الثالث، فيتوجّه فيه الكلام مرّة أخرى لله تعالى، ويتمّ فيه استعراض مجموعة من الحاجات والطلبات، وهو ما يُمثّل نهايةً لهذا الدعاء الشريف.



الفصل الأوّل: ولاية الله تعالى على أهل شهر رمضان المبارك





«اللَّهُمَّ إِنَّا أَهْلُ هَذَا الشَّهْرِ الَّذِي شَرَّفْتَنَا بِهِ، وَوَفَّقْتَنَا بِمَنِّكَ لَهُ حِينَ جَهِلَ الْأَشْقِيَاءُ وَقْتَهُ، وَحُرِمُوا لِشَقَائِهِمْ فَضْلَهُ، أَنْتَ وَلِيُّ مَا آثَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، وَهَدَيْتَنَا لَهُ مِنْ سُنَّتِهِ، وَقَدْ تَوَلَّيْنَا بِتَوْفِيقِكَ صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ عَلَى تَقْصِيرٍ، وَأَدَّيْنَا فِيهِ قَلِيلًا مِنْ كَثِيرٍ».

١. أقسام الناس من حيث تعاطيهم مع شهر رمضان المبارك

بعد التسليمات التي ذكرها الإمام السجّاد عليه السلام في مقام وداعه للشهر الفضيل، فإنّه يُعيد توجيه كلامه لله تعالى، ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنَّا أَهْلُ هَذَا الشَّهْرِ الَّذِي شَرَّفْتَنَا بِهِ، وَوَفَّقْتَنَا بِمَنِّكَ لَهُ حِينَ جَهِلَ الْأَشْقِيَاءُ وَقْتَهُ، وَحُرِمُوا لِشَقَائِهِمْ فَضْلَهُ**».

فإذا أردنا أن نستعرض هذا الدعاء بعبارات يسهل بيانها، فإنّنا نقول: «إلهي، لقد كان الناس في تعاطيهم مع شهر رمضان المبارك على

طائفتين، الأولى: هم أهل هذا الشهر، والطائفة الثانية: هم الذين لم يعرفوه، ولم يمتلكوا أهليّة الانتفاع به، إلهي، لقد شرّفتنا أنت بهذا الشهر، ووفّقتنا بفضلك وإحسانك لصيامه، وأداء عباداته المستحبّة، في الوقت الذي لم يعرف الأشقياء قدره، وحُرموا بسبب شقائهم فضله».

قد يفهم من العبارة التي قال فيها الإمام عليه السلام: «**جَهِلَ الْأَشْقِيَاءُ وَقْتَهُ**»، أنّ الأشقياء جهلوا زمان هذا الشهر، لكن يبدو أنّ هذه العبارة كنائيّةٌ يُراد منها أنّهم جهلوا قدر شهر رمضان المبارك، أي إنّ بركات هذا الشهر هي على درجة من الوفرة، بحيث إنّ كلّ من يعلم بحلوله سوف يعرف قدره بالضرورة، وكلّ من حُرم من هذه البركات، فإنّ حاله كحال من لم يعلم بحلول شهر رمضان من الأساس. وفي المقابل، فإنّه عليه السلام يقول: «وأمّا إذا صرنا من أهل هذا الشهر، فإنّ ذلك ببركة توفيقك ونعمتك التي حبوتنا إيّاها، فأنت الذي منحتنا هذه المعرفة، واصطفيتنا لهذه النعمة، ولقد حظينا بهذا التوفيق في ظلّ ولايتك، وأنت الذي هديتنا للمنهج الذي علينا أن نسلكه، والسنن التي علينا أن نعمل بها في هذا الشهر، لكن، مع ذلك، فقد ابتلينا بالتقصير، ولم نؤدّ حقّ هذا الشهر كما ينبغي، ولم نعمل بقليلٍ ممّا يجب علينا فيه».

إنّ هذا الأسلوب من الكلام في مقام مناجاة الله تعالى يتضمّن دقائق معرفيّة لطيفة جدًّا ينبغي علينا تعلّمها، والالتفات إليها حين الكلام مع البارئ عزّ وجلّ في أوقات أخرى.

ففي هذه العبارة، نجد الإمام السجّاد عليه السلام يُقسّم الناس بدايةً إلى طائفتين، الأولى: هم أهل هذا الشهر الذين عرفوا قدره، والثانية: هم أهل الشقاء الذين جهلوا قدره ومنزلته، وتجدر الإشارة إلى أنّه قد يرد توهّم على هذا التقسيم، مُفاده: أنّ كلّ من يطرحه يُريد في الحقيقة أن يضع

نفسه في مقابل الأشقياء، ويقول: «باعتبار أنّني أدّيت التكاليف الملقاة على عاتقي في هذا الشهر، فإنّني أفضل منهم». إنّ هذه الأفضليّة ممّا لا يُمكن إنكاره، حيث إنّ الطائفة الأولى قد حظيت حقيقةً بسعادة لم تنلها الطائفة الأولى، إلّا أنّ أدب العبوديّة والتوحيد يقتضي أن نعدّ هذه الحسنات من الله أيضًا، ولهذا، علينا أن نُخاطبه تعالى بقولنا: «صحيح أنّنا صمنا وصلّينا، لكن، لو أنّك لم تُعرّفنا أنت بالشرف الكبير الذي يتمتّع به شهر رمضان المبارك، وبكيفيّة الانتفاع به، لحُرمنا بدورنا أيضًا من فيوضاته، وبالتالي، فإنّك أنت الذي مننت علينا حينما منحتنا المعرفة بهذا الشهر العزيز»، ولا يخفى أنّه إذا كان البارئ عزّ وجلّ لم يتفضّل على الأشقياء بهذا التوفيق، فإنّ ذلك ليس بسبب بخله، بل إنّ أعمالهم السيّئة هي التي أدّت إلى سلب ذلك التوفيق منهم، وحرمانهم من أهليّة إدراك هذه المعرفة. وعلى أيّ تقدير، فعلينا أن نعترف لله تعالى بأنّ: «هذه المعرفة توفيقٌ حبوتنا إيّاه في ظلّ ولايتك علينا».

٢. تحليل لمعنى الولاية

«أَنْتَ وَلِيُّ مَا آثَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ»؛ في هذه الفقرة، علينا أن نُسلّط الضوء قليلًا على كلمة «الوليّ»، فبحسب ما بلغه تتبّعي لهذه الكلمة، لا يوجد للفظة «الولاية» ومادّة «و-ل-ي» مرادف دقيق في اللغة الفارسيّة، كما أنّ موارد استعمالها مختلفة جدًّا، حيث إنّ من ضمن هذه الموارد استعمالها في من ينصر الإنسان، ويُخلّصه من الورطة حينما يكون محتاجًا إلى المساعدة، فعلى سبيل المثال، ورد في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1]، كما جاء في مقابل ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

ٱلطَّٰغُوتُ﴾[١]، ويقول الباريُ عزّ وجلّ في موضع آخر: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢]، ففي هذه الموارد، تُترجم كلمة «وليّ» عادةً في الفارسيّة إلى «يار» و«ياور» بمعنى الصديق والنصير. وأمّا الاستعمال الآخر لهذه الكلمة، فهو عبارة عن معنى ذي طرفين اثنين، طرفه الأوّل متّصل بالله تعالى، والثاني متّصل بالعبد، إذ إنّ كلمة «وليّ» هنا عبارةٌ لها معنى مشترك بين الله تعالى والعبد، بحيث يكون الله وليًّا للمؤمن، والمؤمن وليًّا لله تعالى أيضًا، ولهذا، فإنّ هذا اللفظ يُنسب إليهما معًا. ويُشار إلى أنّ كلمة «وليّ» في شعار «أشهَدُ أَنَّ عَلِيًّا وَلِيُّ اللهِ» لها نفس هذا المعنى، فمن ناحية، يكون الله تعالى وليّ عبده، والعبد وليّ ربّه، وقد تُستعمل كلمة «وليّ» الواردة بهذا المعنى للتعبير عن العلاقة القائمة بين مؤمنين، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٣]، إذ تُترجم هذه الكلمة هنا في الفارسيّة إلى «دوست» بمعنى الصديق والمحبّ. إنّ وجود ترجمات مختلفة لكلمة «وليّ» يدلّ على عدم وجود مرادف دقيق لها في اللغة الفارسيّة، بحيث ينبغي في كلّ مورد النظر إلى خصوصيّة هذا المورد، وتفسير هذه الكلمة بمقتضى ذلك.

إنّ مفهوم الولاية يتقوّم بميزتين، متى ما لاحظناهما في شيء، فإنّ هذه الكلمة ستصدق عليه، وإلا فلا، وهاتان الميزتان هما:

الأولى: أنّه ينبغي اعتبار وجود قرب واتّصال بين شيئين.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

(٢) سورة الشورى، الآية ٨.

(٣) سورة التوبة، الآية ٧١.

والثانية: أنّ هذا الاتّصال يجب أن يكون بحيث يترك أحدهما في الآخر، أو بعضهما في بعض تأثيرًا إيجابيًّا، وليس أيّ اتّصال كيفما كان.

ومن باب المثال، فإنّ البيت أو المصنع المتّصل بمحطّة توليد الطاقة الكهربائيّة لا يُعدّ مصداقًا للاتّصال الولائيّ. وعليه، فإنّ الاتّصال الذي ينجم عنه تأثير إيجابيّ (سواء من طرف واحد أو من الطرفين) هو المفهوم الذي وُضعت له كلمة «وليّ»، فالله تعالى وليّ المؤمن، أي إنّه له علاقة قرب به، ويترك فيه تأثيرًا إيجابيًّا.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «أَنْتَ وَلِيُّ مَا آثَرْتَنَا بِهِ»؛ فالله تعالى له علاقة بالمؤمنين والسعداء، هي التي أدّت إلى أن يمنحهم تلك المعرفة، وهي علاقة على درجة كبيرة من القرب، بحيث صارت مصدرًا لهذا التأثير الإيجابيّ. والمسألة المهمّة التي ينبغي علينا التركيز عليها كثيرًا أنّ الإمام السجّاد عليه السلام - وكما هو مشهود بصور مختلفة في عبارات هذا الدعاء - يُبرز هنا أدب العبوديّة بقوله: «إلهي، إذا كنت من أهل الصلاة والصيام، فإنّ الفضل في ذلك يرجع إليك، لأنّك أنت الذي حبوتني بهذا التوفيق وهذه المعرفة، ولو لم تتفضّل عليّ أنت، فمن أين لي الحصول على هذا التوفيق؟ ولهذا، فإنّ فضل هذا العمل يرجع إليك، وعلاوةً على ذلك، فإنّني مبتلى بالتقصير، لأنّني لم أؤدّ حقّ هذه النعمة، وأنجزت القليل فقط ممّا هو مفروض عليّ». فأحيانًا، قد يكون الإنسان في مقام الحوار، والسؤال عن الأحوال، والمجاملات العامّية، فيلجأ إلى استخدام بعض العبارات المتعارفة من قبيل: «بنفسي أنت!» أو «لقد تفضّلت عليّ!»، حيث يكون الجميع عالمًا بأنّ عبارات كهذه لا حظّ لها من الواقعيّة، لكنّه من المؤكّد أنّ الإمام السجّاد عليه السلام لا يُجامل الله تعالى حينما يُناجيه، بل

يسعى للحكاية عن الواقع، وإن كان إدراك هذا الواقع وإنجازه هو بحدّ ذاته نعمة أخرى.

٣. الله تعالى مسبّب الأسباب

إنّ كلّ ما نملكه هو مِن الله، وفي القرآن الكريم، كما نُسبت الهداية إليه تعالى، فقد نُسب إليه الإضلال أيضًا، حيث جاء في القرآن الكريم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾[1]، فالله تعالى هو - بمعنى من المعاني - مصدر جميع الأشياء، كما أنّ سلسلة الأسباب والمسبّبات ترجع برمّتها إليه، إذ هو الذي خلق هذا العالم، ووضع هذه الأسباب، ولهذا، بوسعنا نسبة كلّ شيء إليه. والجدير بالذكر أنّ جميع الأفعال التي نؤدّيها بعدّة وسائط تتوفّر على نفس هذا الحكم، فعلى سبيل المثال، حينما يُقال: «إنّ العمدة أنشأ بالمدينة مشروعًا للقطار الحضريّ»، فإنّ ذلك لا يعني أنّه قام بنفسه بهذا العمل، بل إنّه في الحقيقة أصدر أمره للقيام به، وأعطى الانطلاقة لإنجازه عن طريق إمضائه، بحيث لولا إصداره لذلك الأمر، لما تحقّق هذا العمل. فعند العرف، حينما يُـؤدّى عمل عن طريق عدّة وسائط، فإنّه يُنسب أيضًا إلى الآمر نسبةً صحيحة، إذ من المؤكّد أنّ أمر الآمر له تأثير في تحقّق الفعل، فنفس تلك الأسطر المعدودة التي يخطّها الآمر على الورقة - بصفتها معبّرة عن إذنه وإمضائه - هي التي تُشكّل بداية العمل، بحيث لولاها لما شُرع فيه. وفي هذا العالم، نرى الشمس تشعّ، فتُسخّن مياه البحر، ويتحوّل هذا الماء إلى بخار، ويصير سحابًا، ثمّ يتسبّب بعد ذلك الهواء البارد والساخن في جريانه، فتتشكّل الرياح التي تُحرّك السحب من مكان إلى آخر، ممّا يُؤدّي إلى هطول الأمطار في

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦.

المواضع التي تتوفّر على ظروف مناسبة، لكن، يبقى في الأخير أنّ الذي هيّأ كلّ هذا الجهاز العظيم هو الله تعالى، فبوسعنا القول: إنّ الله سخّر السحاب، وأرسلها إلى مختلف البلدان، حيث نجد القرآن الكريم ينسب إليه تعالى أيضًا هذا العمل، ويقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾[1]، ومن هنا، يُمكننا أن نقول عن جميع الظواهر الكونيّة: إنّ الله تعالى هو الذي أرسى نظامها، بحيث لو لم يوجِد تلك الحلقة الأولى، فإنّ بقيّة الحلقات لم تكن لتوجد، فبوسعنا القول إنّ الله تعالى هو الذي يقوم بكلّ هذه الأفعال[2].

٤. المالكيّة والعلّية الطوليّة

وفي هذا المقام، يُطرح علينا إشكال، مُفاده: إذا قلنا إنّ الله تعالى هو الذي يقوم بكافّة الأفعال، فما هو دورنا هنا إذًا، ولو صحّ أنّه عزّ وجلّ صاحب كلّ تأثير في هذا العالم، فإنّ الطاعة والعصيان اللذان يصدران من الإنسان هما من فعل الله، فلا يوجد أيّ سبب لأن يُدخلنا تعالى إلى الجنّة أو النار. لقد أساء البعض استخدام هذا الاعتقاد، ولكي يُبرّروا تكاسلهم، وهروبهم من أداء التكاليف الملقاة على عواتقهم، فإنّهم يعتذرون بأنّ كلّ ما جاء به التقدير، سيحصل، ولا داعي لأن نُتعب أنفسنا، فالعبادة التي يُؤدّيها الإنسان هي في الحقيقة من فعل الله تعالى، ولهذا، فإنّنا لا نستحقّ الذهاب إلى الجنّة، ولا إلى النار، ونخلص إلى أنّه:

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٧.

(٢) تجدر الإشارة إلى أنّه إذا أردنا أن نُدقّق النظر في هذه المسألة أكثر، مستعينين في ذلك بنظريّة صدر المتألّهين الشيرازيّ قدّس الله تفسه الزكيّة في هذا المجال التي تتكئ على بحث الوجود الرابط، فإنّنا سنكتشف أنّ للبارئ عزّ وجلّ علاقة مباشرة بالأفعال. [المترجم]

أوّلًا: إذا اعتقدنا أنّ جميع الأفعال تُنسب إلى الله تعالى إمّا بواسطة أو من دون واسطة، فإنّنا سنواجه السؤال التالي: ما هو دور البقيّة في أداء الأفعال؟

وثانيًا: كما نُخاطب الله تعالى في مقام الدعاء والمناجاة، ونقول: «إلهي، أنت الذي وفّقتنا للقيام بهذا الأعمال»، علينا أيضًا أن نقول له إذا ابتلينا بالغفلة والضلالة: «إلهي، أنت الذي هيّئت الأسباب لضلالنا، وأنت الذي خلقت الشيطان، وجعلت فينا الأهواء النفسانيّة، ولهذا، ينبغي أن ننسب إليك أيضًا هذه الذنوب».

ولا يخفى أنّ هذا الكلام واهٍ، ولا أساس له من الصحّة، لكنّه علينا في مقام الأخذ والردّ أن نُجيب عن هذه الإشكالات الإبليسيّة[1]، حيث إنّ تساؤلات من هذا القبيل كانت تُثار منذ سالف الأيّام من قبل الملحدين خاصّة، لا سيّما بعدما نسب الأنبياء عليهم السلام هذه الأفعال إلى الله تعالى، وطرحوا مسألتي القضاء والقدر الإلهيّين، والتوحيد الأفعاليّ، وأمّا في رواياتنا، فقلّما نُشاهد السؤال عن هذه المواضيع في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، لكن، منذ زمان أمير المؤمنين عليه السلام، صار الحديث كثيرًا عن أنّه: إذا كانت جميع أفعالنا تتحقّق وفقًا للقضاء والقدر الإلهيّين، فما هو دورنا في هذا المجال؟ حيث جاء في رواية مشهورة أنّ شيخًا سأل أمير المؤمنين عليه السلام بعد رجوعه من حرب صفّين: «أخبرنا عن مسيرنا الى الشام أكان بقضاء اللّه وقدره؟»، فقال الإمام عليه السلام: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئًا ولا هبطنا واديًا إلّا بقضاء اللّه وقدره»، فقال الشيخ: «فعند اللّه أحتسب عنائي، ما أرى عليّ من الأجر شيئًا [لأنّ

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الإشكالات الإبليسيّة، راجع: محمد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ، **معرفة الله**، الجزء ٣، الصفحة ١٣٢.

الله تعالى هو الذي أجبرني على هذا العمل]»، فقال الإمام عليه السلام: «مه يا شيخ [لا تتفوّه بمثل هذا الكلام]، لقد عظّم اللّه أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرّين»، فقال الشيخ: «وكيف [كنّا أحرارًا ومختارين في ذهابنا إلى صفّين] والقضاء والقدر ساقانا؟»، فقال الإمام عليه السلام:

«ويحك، لعلّك ظننت قضاء لازمًا وقدرا حتمًا، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولم تك لائمة من اللّه لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذمّ من المحسن، تلك مقالة عبّاد الأوثان، وجنود الشيطان، وشهود الزور، وأهل العمى عن الصواب، وهم قدريّة هذه الأمّة ومجوسها، إنّ اللّه سبحانه أمر تخييرًا ونهى تحذيرًا، وكلّف يسيرًا، ولم يُعص مغلوبًا ولم يُطع مُكرهًا، ولم يُرسل الرسل إلى خلقه عبثًا، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾».

ومن هنا، فقد اقتنع ذلك الشيخ، وانتابه السرور، وقال شعرًا في مدح أمير المؤمنين عليه السلام[1].

إنّ الهدف من وراء ذكر هذا الحديث عرضُ نموذج عن الشبهات التي كانت مطروحة في زمان أمير المؤمنين عليه السلام، لا سيّما بعد طروء بعض المشاكل، كالحرب، حيث كان يظنّ الناس أنّهم إذا اعتقدوا بتحقّق هذه المسائل وفقًا للقضاء والقدر الإلهيّين، فإنّ جهودهم لن تكون لها

(١) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ١، الصفحة ١٥٥.

أيّة قيمة، ولا يخفى أنّ بعضهم لا يصيرون مجبّرة، إلّا عند أداء التكاليف الشاقّة، فيقولون: «لا يحتاج الأمر إلى جهودنا، بل علينا أن نظلّ ننتظر ما الذي سوف يُقدّره الله تعالى لنا».

لقد أثيرت العديد من الأبحاث بخصوص هذه الشبهة طيلة فترة حياة الأئمّة الأطهار عليهم السلام وفي موارد مختلفة، وأكثر هذه الأبحاث تفصيلًا ما ورد في رسالة بعثها مجموعة من الشيعة إلى الإمام الهادي عليه السلام، طلبوا منه فيها أن يُبيّن لهم العقيدة الصحيحة في باب الجبر والاختيار، حيث كتب الإمام عليه السلام رسالة مفصّلة في هذا المجال وردت في كتاب تحف العقول[1] تحت عنوان «رسالة ردّ الجبر والتفويض»، وهي رسالة بديعة ذات أسلوب رفيع جدًّا أوصي الأصدقاء من أهل العلم الذين لم يطالعوها بمراجعتها، هذا، وقد تحدّثت سابقًا عن هذه الرسالة، وأتطرّق إليها مرّة أخرى هنا من أجل التأكيد، حيث سأسعى لتقديم عرض إجماليٍّ عنها. إنّ أسلوب هذه الرسالة جذّاب كثيرًا، وينبغي علينا تعلّمه، ففي بدايتها، يذكر الإمام مقدّمة عن مسألة الجبر والاختيار، موضّحًا كيف يجب علينا التعامل مع مثل هذه المسائل، كما أنّه عليه السلام يستعرض مختلف الآراء المطروحة بشأن هذه المسألة، وأنّ بعضًا يقول بالجبر، وآخرين يعتقدون بالتفويض، وبعضًا أيضًا يقول بآراء أخرى، وبعد ذلك، يُشير عليه السلام إلى منهج عامّ لحلّ مثل هذه المسائل، حيث يقول ما مُفاده: «علينا أن ننطلق من اليقينيّات، ونتمسّك بدليل معتبر لا يملك معه جميع أطراف النزاع خيارًا آخر سوى الاعتراف»، وبما أنّ أطراف النزاع في هذه المسألة كلّهم مسلمون، فإنّ الإمام عليه السلام يأتي بالقرآن الكريم باعتباره دليلًا معتبرًا يتّفق عليه كافّة المسلمين الذين يعتقدون بأنّه كلام

(١) الحسن بن عليّ بن شعبة الحرّاني، **تحف العقول عن آل الرسول** صلى الله عليه وآله، الصفحة ٤٥٨.

الله تعالى. وبعد إيراده لهذه المقدّمة، يدخل الإمام عليه السلام في صلب المسألة، ويستعرض حلًّا لها من خلال جعله روايةً منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام محطًّا للبحث، ناقلًا في ضمن ذلك مجموعة من الروايات عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا أسلوب مثير جدًّا للاهتمام، حيث نرى فيه أنّ إمامًا يكتب رسالة، يجعل فيها حديثًا منقولًا عن إمام آخر محطًّا للبحث، ويستعين برواية عن إمام ثالثٍ لأجل توضيح ذلك الحديث، والمسألة الأخرى المثيرة للاهتمام أيضًا أنّ الإمام الهادي عليه السلام لم يأت في بعض الموارد على ذكر أيّ اسم لرواة هذه الأحاديث.

ومن ضمن الروايات التي ينقلها عليه السلام في هذه الرسالة، رواية عن رجل اسمه عَبَايَةَ بنَ رِبعيٍّ الأَسَديٍّ سأل أمير المؤمنين عليه السلام: «ما معنى الاستطاعة التي بها نقوم ونقعد ونفعل؟»، حيث من الواضح أنّ الرواي كان يُواجه مشكلة في مسألة الجبر والتفويض، وأنّ مراده أنّه إذا قلنا بكون أعمالنا من فعل الله تعالى، فإنّه سيُعدّ جبرًا، وعليه، فلن يكون لاستطاعتنا معنىً محدّدٌ، ومن ناحية أخرى، إذا اعتقدنا بالتفويض، فإنّ قدرة الله تعالى واستطاعته لن يكون لها أيضًا معنىً واضحٌ، وهنا، نجد الإمام عليه السلام يُعيد توجيه السؤال لذلك الرجل، قائلًا: «هذه الاستطاعة التي تنسبها إلى نفسك هل تملكها من دون الله أو مع الله؟»، ومراد الإمام عليه السلام من هذا السؤال أنّه: حينما يقول الإنسان: «أنا أستطيع الكلام والقيام والجلوس و...» هل هذه الاستطاعة والقدرة على أداء تلك الأفعال في عرض قدرة الله تعالى، أم أنّه وحده الذي يمتلك هذه القدرة من دون الله تعالى، ولهذا، فإنّه عليه السلام يسأله: «تَملِكُ مَعَ اللهِ أَم دُونَ اللهِ»، فلم يُحر عباية جوابًا، فقال له عليه السلام: «قل يا عباية»، فقال: «وما أقول؟»، فقال له الإمام ما مُفاده: «لو قلت بأحد الأمرين، لكفرت»، فقال: «فإذًا، ماذا أقول؟»، فقال له عليه السلام: «إِنَّكَ تَمْلِكُهَا بِاللَّهِ الَّذِي يَمْلِكُهَا مِنْ دُونِكَ، فَإِنْ

يُمَلِّكْهَا إِيَّاكَ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ عَطَائِهِ، وإِنْ يَسْلُبْكَهَا، كَانَ ذَلِكَ مِنْ بَلَائِهِ، هُوَ الْمَالِكُ لِمَا مَلَّكَكَ، وَالْقَادِرُ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَقْدَرَ»[١]، وهذا يعني أنّ مالكيّتنا تقع في طول مالكيّة الله تعالى، وليس مع مالكيّته، فلا يصحّ القول: إنّ الله تعالى مالك، ونحن أيضًا مالكون في عرضه، بحيث لا توجد لنا أيّة حاجة إليه، فمثل الاستطاعة التي تكون مع الله تعالى مثل شخصين لكلّ واحد منهما لباسه الخاصّ، من دون أن يكون أحدهما محتاجًا في ممتلكاته هذه إلى الآخر، وممّا لا ريب فيه أنّ هذا الاعتقاد كفر، لأنّ جميع الأشياء تتحقّق وفقًا لمشيئة الله تعالى، ولا يقدر أيّ أحد على أن يكون مالكًا لشيء في عرضه تعالى، كما أنّه إذا قلنا «إنّ لنا استطاعة لا يملكها الله تعالى»، فإنّنا نكون قد حكمنا بما هو أسوأ، ووصفنا البارئ عزّ وجلّ بالعجز، ومن هنا، علينا القول: إنّنا نملك قدرة واستطاعة، إلا أنّ كلّ ما نملكه ممنوح لنا من قِبل الله، وهو في الوقت ذاته، لم يخرج من ملكيّته تعالى، فمالكيّته أعلى من مالكيّتنا، لأنّه مالِكُنا ومالكُ استطاعتنا وقدرتنا، فمالكيّتنا هي بسبب تمليك الله تعالى لنا، فليست هي معها، ولا منفصلة عنها، فإذا أعطى أحدًا شيئًا، فمن مِلكه الذي اختصّنا به، ولم يخرج في الوقت ذاته من دائرة مالكيّته، فالله تعالى قال: لك الحقّ في استخدام ما ملّكتك إيّاه، وليس لزيد وعمرو الحقّ في ذلك، فهذه أمانة وضعتها بين يديك.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الرسالة مفصّلة، وتتضمّن أبحاث مثيرة للاهتمام كثيرًا، وينبغي التأمّل وإعمال الدقّة فيها.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٤٦٧.

٥. أدب الدعاء

فحينما يوفّقنا الله تعالى للصيام، فإنّنا نصوم، لكنّه هو الذي يمنحنا القدرة على هذا الصيام، فنحن نريد الصوم، غير أنّه تعالى هو الذي يهبنا القدرة على إرادة الصوم، ولهذا، فإنّ الفعل يتحقّق بإرادتنا، إلا أنّه لا يخرج في الوقت ذاته عن ملك البارئ، لأنّنا - نحن وأفعالنا - ملكٌ له عزّ وجلّ، فكما أدركنا بأنّنا نؤدّي أفعالنا عن اختيار، فإنّه علينا أن نعلم أيضًا بأنّ نسبة بعض هذه الأفعال إلى الله تعالى لا تجوز، فصحيح أنّ هناك بعض الأمور التي بوسعنا نسبتها إلى الإنسان، وإلى الله تعالى كذلك، كما نقول عن العلم: «إنّ الله تعالى يمنحني العلم، ولهذا، فإنّ الله تعالى عالم، وأنا أيضًا عالم، غير أنّ ما أعلمه ممنوح لي من قبله عزّ وجلّ»، إلّا أنّنا لا نستطيع القول بخصوص الأكل: «إنّني آكل، والله تعالى أيضًا يأكل»، حيث ينشأ هذا الاختلاف من الخصائص التي يتّسم بها كلّ مفهوم، باعتبار أنّ بعض المفاهيم تتوفّر على أمور تتوقّف في قوامها على موجودات جسمانيّة، ولهذا، لا يُمكن لهذه المفاهيم أن تصدق على ما وراء الجسمانيّات. أجل، يبقى أنّ بعض المفاهيم كالأكل يُمكننا القول عنها: إنّ وجودها، والقدرة على القيام بها من الله تعالى ومملوكة له، غير أنّ الأكل بمعنى وضع شيء في الفم، وابتلاعه، لا يُمكننا نسبته إلى الله تعالى. وعلى أيّ تقدير، فليس بمقدورنا أن ننسب إلى البارئ عزّ وجلّ ما يوجب نقصه، أو يتلازم معه، لكن، مع ذلك، فإنّه بوسعنا نسبة وجود كافّة الأشياء، بما فيها الشيطان إلى الله، فوجود الشيطان وقدرة إغوائه للناس كلاهما مخلوق له تعالى، ولهذا، يُمكننا أن ننسب كلّ شيءٍ - حتّى الإضلال - بهذا الاعتبار إلى البارئ عزّ وجلّ، بخلاف بعض الأفعال كالجلوس والقيام، فمع أنّه بوسعنا القول إنّ قدرة وجود هذه الأفعال من

الله تعالى، لكنّنا لا نستطيع نسبتها إليه، والسبب في ذلك يرجع إلى الخصائص التي يتوفّر عليها هذا المفهوم.

فحتّى في الموارد التي يتسنّى لنا فيها نسبة الفعل إلى الله تعالى وإلى العبد معًا، حينما نريد أن نناجي الباري، فإنّ أدب العبوديّة يقتضي نسبة الحسنات إليه عزّ وجلّ، والسيّئات إلينا، حيث جاء في الحديث القدسيّ: «يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ وَأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي»[1]، فالسبب في تحقّق الأفعال السيّئة يعود إلى النقائص التي يُعاني منها العبد، كما أنّ علّة صدور المعاصي من العبد ترجع إلى جهاته العدميّة، فالنقص يعني العوز، وهي مسألة تنسجم مع العبد. ومن هنا، فإنّ أدب العبوديّة يقتضي من الإنسان أن يتذكّر في مقام حمد الله تعالى وذكر نعمه أنّه هو الذي وفّقه لأداء الحسنات، وأن ينسب إلى نفسه - في مقام طلب العفو عن الذنوب - القصور والتقصير. فهذا الكلام هو عين الصواب، وليس من المجاملة في شيء، لأنّ الله تعالى لا يُعاني من أيّ نقص، فإنّ النقائص من حيث هي نقائص لا تُنسب إليه، فهو كمال محض. وعليه، فمتى ما وُجد نقصٌ، فإنّه لا يتعلّق بربوبيّة الله تعالى، بل سببه هو عدم إزالة النقص عن المخلوق، ممّا يعني أنّه يتعلّق بهذا المخلوق، ولهذا السبب، يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «أَنْتَ وَلِيُّ مَا آثَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ». فنفس هذه المعرفة التي نمتلكها هي أمرٌ اختارنا الله تعالى من أجل التمتّع به، فصمنا وصلّينا بسبب هذا التوفيق، لكن، يبقى أنّ هذا الصوم وهذه الصلاة مقرونان في الوقت ذاته بالتقصير، بحيث إنّ كلّ ما نؤدّيه يُشكّل مقدارًا قليلًا من كثير ما ينبغي علينا فعله، فالإنسان لا يملك من نفسه أيّ شيء، كما قال الباريء تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

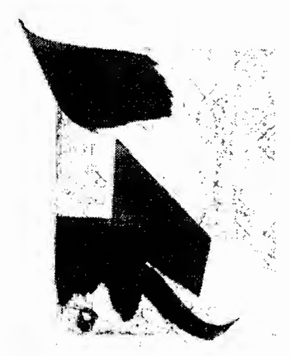
(١) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ١، الصفحة ١٥٧.

ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1]، ومن هنا، فإنّ قُبح السيّئات يعود إلى النقص الذي يكتنفها، ولهذا السبب، فإنّ السيّئات منّا، والحسنات والكمالات تتعلّق بالله تعالى. ولقد أشرنا آنفًا إلى أنّ الناس ينقسمون في تعاطيهم مع شهر رمضان المبارك إلى طائفتين، طائفة حظيت بالجدارة والاستحقاق، فأضحت من أهل السعادة، وطائفة أخرى ابتُليت بالشقاء، فصارت تُعاني من الحرمان، لكن، لا ينبغي علينا أن ننسى أنّه إذا أصبحنا من أهل رمضان، فإنّ الفضل في ذلك يرجع إلى توفيق الله تعالى.

---

(١) سورة فاطر، الآية ١٥.





«اللَّهُمَّ فَلَكَ الْحَمْدُ إِقْـرَارًا بِـالْإِسَـاءَةِ، واعْتِرَافًا بِالْإِضَاعَةِ، ولَكَ مِنْ قُلُوبِنَا عَقْدُ النَّدَمِ، ومِنْ أَلْسِنَتِنَا صِـدْقُ الِاعْتِذَارِ، فَأْجُرْنَا عَلَى مَا أَصَابَنَا فِيهِ مِنَ التَّفْرِيطِ أَجْرًا نَسْتَدْرِكُ بِهِ الْفَضْلَ الْمَرْغُوبَ فِيهِ، ونَعْتَاضُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الذُّخْرِ الْمَحْرُوصِ عَلَيْه».

تندرج هذه الفقرة في آخر قسم من الدعاء الذي أنشأه الإمام السجّاد في وداع شهر رمضان المبارك، حيث نجده عليه السلام يوجّه كلامه للبارئ عزّ وجلّ، قائلًا: «إنّنا نحمدك ونُثني عليك لأنّك جعلتنا من أهل هذا الشهر، ومنحتنا شرف نيل فضيلة الصيام فيه، وأداء أعماله، ثناءً مقرونًا بالإقرار بارتكابنا للأعمال السيّئة وغير اللائقة، وبالاعتراف بتضييعنا لأعمارنا (أو لحقّ هذا الشهر)، وبأنّنا لم نُحسن الاستفادة من هذه الأعمار كما ينبغي، لكن، مع ذلك، فإنّنا نودعك قلوبَنا المعتصرة بالندم الكبير، لاهجة ألسنتنا بالاعتذار، فكلّ ما يُمكننا تقديمه لك هو الندم القلبيّ، والاعتذار باللسان، لكن، مع ذلك، فإنّنا نرجو منك أن تهب لنا أجرًا يجبر

تقصيرنا، ويُعوّضنا عن تلك الذخائر التي كنّا نتوقّع الظفر بها في هذا الشهر».

١. حمد الله تعالى على الأعمال الحسنة مقرون بالالتفات إلى المعاصي

فبالنظر إلى العبارتين اللتين ذكرناهما في الفصل السابق، نخلص من هذه الفقرة من الدعاء إلى مجموعة من النقاط بخصوص أدب العبادة والدعاء والعبوديّة، وذلك بالنحو الآتي:

أوّلًا: أنّه يتوجّب علينا أن نحمد الله على كلّ فعل خير نقوم به، لأنّه تعالى هو الذي وفّر لنا الوسائل اللازمة، ووفّقنا لأدائه، لكن، علينا أن لا نكتفي بهذا المقدار فقط، لأنّ الإنسان معرّض باستمرار للخطإ والغفلة والجهل ووساوس الشيطان، فحينما يقوم بعمل حسن، قد يحمد الله تعالى ظاهرًا، لكنّه يعتقد في باطنه بأنّه يختلف عن الآخرين كثيرًا، فكأنّ الإنسان في هذه الحالة يقول في ضمن حمده للبارئ عزّ وجلّ: «على الله تعالى أن يُقدّر عباده الصالحين من أمثالي أنا!»، فيُؤدّي هذا الاعتقاد إلى تعريض أجره على أعماله الحسنة للبوار، بحيث إنّ الغرور يستولي على قلبه، وتضمحّل حالة العبوديّة والتواضع التي ينبغي أن يشعر بها في مقابل خالقه، ولهذا، علينا أن نتوجّه أكثر إلى قصورنا وتقصيرنا حتّى حينما نثني على الله تعالى بسبب التوفيقات التي منحنا إيّاها، فكلّ إنسانٍ له أخطاؤه التي تتناسب مع مكانته الخاصّة، وحينما يقول الله تعالى لنبيّه الكريم ﷺ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾[1]، فإنّ حال غيره يكون واضحًا جدًّا! فحتّى عباد الله المخلصون والمعصومون يرون أنفسهم في تلك المقامات التي يحتلّونها (وهي لا

---

(١) سورة محمّد، الآية ١٩.

تقبل القياس أبدًا مع مقامات غيرهم) مقصّرين، فتراهم يستغفرون، كما أنّ الله تعالى أمرهم بالاستغفار.

٢. عدم تعارض استغفار المعصومين مع عصمتهم

منذ القديم، طرح بعضهم إشكالًا، مُفاده: أنّ الآية الشريفة: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ تدلّ على أنّ الأنبياء يذنبون أيضًا، وعليه، فهم غير معصومين، وقد أشار السيّد الخمينيّ قدس سره في كتاب كشف الأسرار إلى نقطة دقيقة في الجواب عنه، حيث ألّف هذا الكتاب في الردّ على كتاب آخر اسمه "اسـرار هزار ساله"، والذي طرح فيه صاحبه مجموعة من الإشكالات بخصوص الإسلام والتشيّع، فألّف القائد الراحل كتابًا في الردّ عليه، وسمّاه بهذه المناسبة "كشف الأسرار". إنّ أحد الإشكالات المثارة في ذلك الكتاب يتعلّق بعصمة الأنبياء والأئمّة، حيث جاء فيه أنّ العلماء تحدّثوا كثيرًا عن هذه العصمة، لكنّنا نشاهد في القرآن الكريم أنّ الله تعالى يأمر نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله بالاستغفار من ذنوبه، ممّا يـدلّ على أنّـه كان يرتكب المعاصي، كما أنّ الأئمّة أيضًا كانوا في أدعية كثيرة يطلبون من الله تعالى أن يتجاوز عن معاصيهم، ويُظهرون الندم الشديد على هذه المعاصي، فحينما نجدهم يعترفون بذنوبهم، فكيف يُمكنكم ادّعاء أنّهم معصومون؟ وفي هذا العصر، نرى هناك مساعٍ في المواقع الإلكترونيّة وكتب الضلال ومواضع أخرى لإلقاء هذا الإشكال في أذهان شبابنا، ومع أنّه أجيب عنه باستمرار طيلة الألف السنة الماضية، لكن، يبدو الأمر وكأنّ هذه الإجابات تُطوى في ملفّ النسيان بشكل مستمرّ، فيُعيد بعض الشياطين الجُدد إثارته، ممّا يضطرّ مجموعة أخرى من العلماء للإجابة عنه مرّة ثانية.

يقول القائد الراحل قدس سره في ردّه على هذا الإشكال: افرضوا أنّ رجلًا كُسرت رجلُه، وصار يتألّم منها كثيرًا، فاضطرّ للاستلقاء على السرير، ومدّ رجله، فحينما تأتي شخصيّة عظيمة لزيارته، وتفقّد أحواله، فإنّه إذا كان إنسانًا مؤدّبًا، فإنّك ستراه يعتذر باستمرار بسبب عدم استطاعته طوي رجليه، هذا، مع أنّه لا يُتوقّع أبدًا من هكذا مريض أن يطوي رجليه أو يقوم من مكانه، وذلك بسبب مرضه، لكن، مع ذلك، فإنّك تراه يخجل من تلك الشخصيّة العظيمة بسبب عجزه ذاك. إنّ استغفار المعصومين عليهم السلام لله تعالى يُشبه اعتذار ذلك المريض، فحينما ينظرون إلى قصورهم الذاتيّ الملازم لمخلوقيّتهم وحياتهم في هذه الدنيا، فإنّهم يشعرون بالخجل أمام الله، ويبعثهم هذا الشعور على الاعتذار منه تعالى بشكل دائم، فمتى ما قاس المعصومون عليهم السلام حالهم بالعظمة الإلهيّة، انتابهم الخجل، فيحثّهم ذلك على الاعتذار.

لقد استعان القائد الراحل (أعلى الله تعالى درجاته في الجنّة) بهذا المثال للإجابة عن ذلك الإشكال، وليزيد من إيماننا وبصيرتنا، ولهذا، علينا نحن كذلك أن ندعو الله تعالى أن يُوفّقنا حتّى نُحسن الاستفادة من تراث العلماء والعظماء، فلا يؤول الأمر إلى أن يتحمّل هؤلاء المتاعب الشاقّة، ويُجيبوا عن الإشكالات، ثمّ تمرّ عدّة سنوات، فتطرح عين هذه الإشكالات مرّة أخرى، لتظهر لنا وكأنّها مسائل جديدة. لقد أُلّف بعد ذلك الكتاب كتابٌ آخر اسمه "٢٣ سال" سعى من خلاله المصنّف إلى التشكيك في سنّة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، وبالمناسبة، فإنّ مؤلّفي كلا الكتابين كانا من أهل العلم، وقد تصدّى في ذلك العصر بعض الفضلاء الذين أصبحوا حاليًّا من مراجع التقليد للجواب عن الكتاب الأخير، لكنّنا لا زلنا نرى نفس تلك الشبهات تُطرح مجدّدًا بطرق مختلفة، وعلى أيّ تقدير، فما دام الإنسان في هذا العالم، فإنّ الشيطان موجود، وما دام هناك تكليف، فإنّ وساوسه

ستستمرّ، حيث إنّ البارئ عزّ وجلّ أعطاه هذه الفرصة، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[1]. فالشيطان بإمكانه أن يطرح كلّ يوم شبهات جديدة، أو عين تلك الشبهات القديمة، ولكن بصياغة وأسلوب حديثين.

وعلى أيّ حال، فإنّ أدب العبوديّة يقتضي من الإنسان ـ كلٌّ بحسب مستوى معرفته وعمله ـ أن يلتفت إلى نقائصه، وكحدّ أقلّ إلى نقصه الذاتيّ، وأن ينتبه إلى أنّه لا يملك من نفسه أيّ شيء، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2]، وينبغي عليه أن يقيس هذه النقائص إلى العظمة الإلهيّة، حتّى تحصل له حالة من التذلّل والتضرّع.

ومن هنا، إذا أدّينا عملًا حسنًا، علينا أن نعلم بأنّ توفيق أدائه هو بحدّ ذاته نعمة من النعم الإلهيّة، وأنّنا صرنا بذلك مدينين لله، وعلينا أن نشكره تعالى على توفيقه إيّانا لأداء العبادة، ومن آداب العبوديّة أن يتوجّه الإنسان في مقابل البارئ عزّ وجلّ إلى نقائصه ومعاصيه، فحتّى الذين لم يسقطوا في فخّ المعاصي البيّنة يُعانون في عوالمهم الخاصّة من مجموعة من النقائص التي بوسعهم الالتفات إليها، والاعتذار إلى الله تعالى منها، فليس المراد من المعاصي مجرّد احتساء الخمر، والعربدة، بل إنّ للمنزّهين عن تلك المعاصي بعض الهفوات أيضًا، وقد ورد في الروايات: «مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ فِي غَنَمٍ قَدْ غَابَ عَنْهَا رِعَاؤُهَا بِأَضَرَّ فِي دِينِ الْمُسْلِمِ مِنْ حُبِّ الرِّئَاسَةِ»[3]. افرضوا قطيعًا من الخرفان غاب عنه راعيه،

---

(١) سورة الحجر، الآيات ٣٦ إلى ٣٨.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٥.

(٣) محمد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٢٩٧.

وهجم عليها ذئبان من ناحيتين، فلو اقتصر الهجوم على ذئب واحد، لتمكّنت الخرفان من الهروب من الجهة الأخرى، لكن، حينما يهجم ذئبان من ناحيتين، فإنّ احتمال نجاة الخرفان ضعيفٌ جدًّا، لأنّ الذئب يمتاز من بين الحيوانات بأنّه لا يكتفي بقتل الفرائس التي يستطيع أكلها، بل يقتل في البداية كلّ من يقع في طريقه، ثمّ يلتهم بعد ذلك بمقدار طاقته، ويترك البقيّة، وحينئذ، إذا فرضنا أنّ ذئبين جائعين هجما من جهتين على قطيع غاب عنه راعيه، فكم يا ترى من الضرر سيلحقه بهذا القطيع؟ من الواضح أنّه سيقضي على الجميع، ولن يبقي منه أيّ واحد. يقول الإمام المعصوم عليه السلام في هذه الرواية: إنّ ضرر هذين الذئبين ليس بأكثر من ضرر حبّ الرئاسة على دين المسلم، أي: إنّ الضرر الذي يُلحقه طلب الرئاسة بدين المسلم يفوق الضرر الذي يُلحقه الذئبان بذلك القطيع، وفي الحقيقة، فإنّ الإمام عليه السلام يريد القول: إنّ حبّ الرئاسة يقضي تمامًا على دين المسلم الذي ابتُلي به.

٣. معنى تبديل السيّئات بالحسنات

تتمثّل أوّل خطوة للاستغفار في الندم على المعصية، وما يُمكنه مساعدة الإنسان على الشعور في نفسه بحالة الندم: التفكّرُ في الضرر الذي يُلحقه الذنب بسعادته، فإذا فكّر العاصي في نفسه بأنّه ارتكب عملًا جعل حياته في مهبّ الريح، وألحق الضرر بآخرته، وأنّه فضلًا عن عدم الاستفادة من ثروة عمره، فقد اشترى بهذه الثروة نار جهنّم، فإنّه سيندم على تصرّفه، وفي هذه الحالة، فإنّ الله تعالى سيغفر ذنبه، كما وعد بذلك، أجل، يبقى أنّ هذه الندم ينبغي أن يكون حقيقيًّا، لا أن يندم العاصي في تلك اللحظة فقط، ثمّ ما إن تسنح له الفرصة مرّة أخرى للعصيان، حتّى يُسارع إليه مرّة أخرى، فإنّ ندمًا من هذا القبيل لا يكون

صادقًا وحقيقيًّا، ووعدُ الله تعالى لا يتعلّق إلّا بالندم الحقيقيّ والصادر من صميم القلب، ولهذا، جاء في الروايات: «كَفَى بِالنَدَمِ تَوبَةً»[١]، فإذا استشعر الإنسان بهذه الحالة حقيقةً، فإنّ عليه أن يعزم على عدم تكرار أخطائه السابقة.

إنّ الندم الحقيقيّ يستتبعه محو المعاصي من صفحة الوجود الإنسانيّ وكتاب عمله، لكنّ هذا الكتاب يبقى خاليًا إلى أن يأتي الإنسان بعمل حسن. وهنا، نجد البارئ عزّ وجلّ يتلطّف على عبده أكثر، فإذا توجّه هذا العبد إلى ربّه بالدعاء، وطلب منه العفو عن ذنوبه، فإنّه تعالى يكتب له في صحيفة أعماله أجرًا على هذا الدعاء باعتباره عملًا عباديًّا، بحيث لو فرضنا أنّه عَبَد الله تعالى بدلًا من تلك المعصية، لما حصل على ثواب أكثر، ولعلّ هذا البيان قد يكون من المعاني التي تصبو إليها الآية الشريفة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢]، ففي هذه الآية الشريفة، يُؤكّد الله تعالى على أنّ العصاة الذين ينجون من العذاب هم من يتوبون ويُؤمنون ويأتون بعمل صالح، فإذا قاموا بذلك، فإنّ الله تعالى يُبدّل سيّئاتهم بحسنات، ولعلّ المراد من هذه الآية أنّه لو كان العاصي قد قام بعمل حسن بدلًا عن تلك المعصية، لكُتب في صحيفته ثوابٌ عليها، لكن، بعدما تاب الآن وندم، فإنّ الذنب سيُمحى من صحيفته، ويُكتب فيها بواسطة دعائه واستغفاره ثوابًا يُعادل ثواب ذلك العمل الذي كان عليه تأديته. وعليه، ففضلًا عن محو الذنب من صحيفة أعماله، فإنّ ثوابًا سيُكتب فيها، ليملأ مكان هذا الذنب.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٤٢٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٧٠.

لقد قـام بعض الكتّاب المشهورين في سنوات ما قبل الثورة بالاستهزاء بهذه الآية الكريمة، فكان يقول: «بالنظر إلى هذه الآية، فإنّ الضرر يلحق الذين لا يرتكبون المعصية، لأنّ الذي يُذنب يذوق حلاوة المعصية، ويُكتب له أجر فوق ذلك!». إنّ هذا النوع من الكلام ناجم عن ضعف في المعرفة والرؤية في مجال المعارف الإسلاميّة، فبمقتضى ما قرّرناه آنفًا، نخلص إلى أنّ الثواب الذي يُكتب لأولئك العصاة هو في الحقيقة نتيجة لتوبتهم وإنابتهم ودعائهم، لأنّ الدعاء يُعدّ بحدّ ذاته عبادة، كما جاء في الحديث الشريف: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[1]، فإذا كانت هذه العبادة صادقة، فإنّها ستستتبع أجرًا عظيمًا. ومن هنا، فإنّ الإله الرؤوف يتعامل بهذا النحو مع عباده العصاة الذين يتوبون ويُنيبون إليه، وليس مع أيّ عاصٍ كيفما كان.

٤. الفارق بين الدعاء وقراءة الدعاء

وهنا، يُطرح علينا السؤال التالي: ما الذي يعنيه دعاء الله تعالى والطلب منه بصدق؟ فنحن عادةً نقرأ الدعاء في شهر رمضان المبارك، وحينما يجري استخدام كلمة «الدعاء»، فإنّ الذي يأتي إلى أذهاننا هو قراءة بعض الأدعية، مثل دعاء كميل، لكنّ هذا العمل ليس في الحقيقة دعاءً، بل هو قراءة لدعاء وردنا عن الإمام عليه السلام، فالدعاء يختلف عن قراءة الدعاء، لأنّ «الدعاء» يعني طلب شيء من أحدهم. هذا، مع أن قراءة الدعاء هي أمر جيّد وجميل، وعسى أن لا يُؤدّي كلامنا ذاك إلى أن نترك هذا العمل! لأنّ قراءة الدعاء هي في نهاية المطاف عبارة عن توجّه لله تعالى وذكره، وتُعتبر من الأعمال القيّمة جدًّا، إلّا أنّها تختلف عن الدعاء،

---

(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٩٠، الصفحة ٣٠٠.

فالدعاء يتحقّق بانبثاق عباراته من قلب الإنسان، ويكون معبّرًا عن مقتضى حاله، بحيث كأنّه بنفسه يُنشيء هذه العبارات.

فالبارئ عزّ وجلّ قال في كتابه العزيز: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]، ولم يقُل: «إذَا قَرَأَ الدُّعَاء»، فقراءة عبارة الدعاء التي غالبًا ما تتمّ من دون الالتفات إلى المعنى ليست هي طلب شيء من الغير، بينما الدعاء الحقيقيّ يتمثّل:

أوّلًا: في أن يعلم الداعي ما الذي يقوله.

وثانيًا: أن تكون حاله منسجمة مع العبارات التي يُجريها على لسانه.

والمسألة الأخرى التي تُشير إليها الآية الشريفة أنّ الله تعالى قال: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾، ولم يقل: «إذا دَعا»، فياء المتكلّم محذوفة في كلمة «دعانِ»، وتدلّ عليها الكسرة في نون الوقاية، ولهذا، فإنّ معنى هذه الآية: «حينما يدعوني، فإنّني أستجيب له»، لكن، عندما ندعو الله تعالى لكي يُوسّع رزقنا، هل يكون دعاؤنا حقيقيًّا، أم أنّنا إلى جانب ما نقوم به من تخبّط وتملّق وإرشاء... فإنّنا ندعو الله تعالى احتياطًا، إذ لا يوجد في ذلك أيّ ضرر؟ إنّ هذا النحو من الطلب هو في الحقيقة ليس دعاء لله تعالى وطلب منه، بل هو دعاء لزيد وعمرو وطلب منهما، وهو طلب من المرتشي، أي: إنّ هذا الدعاء هو في الحقيقة عين التملّق الذي يُمارسه الإنسان تجاه المرتشي، بينما الدعاء الحقيقيّ يتمثّل في أن يتوجّه الإنسان في طلبه إلى الله تعالى حقيقةً.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

ولا يخفى أنّ البارئ عزّ وجلّ شاء أن تجري أفعاله بواسطة مجموعة من الأسباب، لكنّ الداعي الحقيقيّ لا يتعلّق قلبه إلّا بالله، ويعدّ الأسباب مجرّد وسائل وضعها تعالى بمقتضى حكمته، وعلى سبيل المثال، إذا ابتُلي هذا الإنسان بالمرض، فإنّه يطلب الشفاء من الله تعالى. أجل، يبقى أنّ تكليفه الواجب يستدعي منه الذهاب عند الطبيب، وتناول الدواء الذي وصفه له، غير أنّ هذا العمل يختلف عن مسألة طلب الشفاء من الله تعالى، لأنّه يكون من باب أداء التكليف، وأثناء ذلك، فإنّ قلب الداعي الحقيقيّ يكون متعلّقًا بالبارئ عزّ وجلّ، وطالبًا الشفاء منه هو، كما ورد في القرآن الكريم نقلًا عن كلام إبراهيم الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1]، فإذا تحقّق الإنسان بهذه الحال، فإنّ الله تعالى سيمنحه ثوابًا لا يُمكننا قياسه أبدًا بالعديد من العبادات والأعمال الحسنة، حيث سيُعدّ دعاءٌ مثل هذا مخًّا للعبادة.

٥. حقيقة العبوديّة

لقد خلقنا الله تعالى في هذا العالم من أجل نيل رحمة خاصّة لا يُمكننا الوصول إليها إلا عن طريق العبادة، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، فبمقتضى الظروف التي يخضع لها هذا العالم، لا يتسنّى للإنسان عادةً التعرّف على عبوديّته، أو أنّه لا يلتفت إليها، إذ نظنّ أنّ الحياة محصورة في امتلاكنا لعمل ومكانة اجتماعيّة وراتب، ولهذا، فإنّنا لا نحسّ بحاجة ماسّة إلى الله تعالى، ولا ننتبه إلى أنّ أعمالنا هل هي لتحصيل رضا الله تعالى، أم لا؟ بل نجد

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٨٠.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

البعض يذكر في كتابه: «لو فرضنا من باب المحال أنّ الله تعالى غير موجود، لما أُلحق بالعالم أيّ ضرر جرّاء ذلك!»، فمن بين المسائل التي أثـارت الاهتمام في علم الكلام، مسألة هل تحتاج المخلوقات بعد وجودها ومجيئها إلى هذه الدنيا إلى الله تعالى في استمرار حياتها، وبقائها في هذا العالم أم لا؟ وبعبارة فنّية: هل يحتاج المعلول إلى علّته بقاءً، كما يحتاج إليها حدوثًا، أم لا؟ فأجاب بعضٌ بما يلي: حينما يخلق الله تعالى شيئًا، فإنّ فعله ينتهي، ولا يعود ذلك الشيء محتاجًا عمليًّا إلى الله، حتّى إنّ هناك من يرى بأنّه لو قلنا بعدم استحالة عدم الله، وكان تعالى غير موجود، لما أُلحق بالوجود والمخلوقات أيّ ضرر جرّاء ذلك، ولاستمرّ هذا العالم على حاله. ويبدو أنّ باطن بعض الناس يشتمل على هذا النوع من الادّعاء للربوبيّة، وعلى حدّ قول أحد العظماء، إنّ ما جرى على لسان فرعون حينما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1] قد تجده في قلوب آخرين أيضًا، وإذا لم يُصرّحوا به، فلعدم وجود من يقبل بكلامهم، حيث يرون أنّهم إذا تحدّثوا بهذا الكلام، فإنّ الناس سيتّهمونهم بالجنون، وأمّا فرعون، فإذا كان قد تفوّه بذلك الكلام، فلأنّ الأرضيّة كانت مهيّأة للاعتراف به، وكان الناس مستعدّين للقبول. فلو فرضنا أنّ للإنسان مريدين يخرّون للأرض سجّدًا إذا قال: «أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلى»، فحينئذ، فسنرى ما هي الأمور التي يدّعيها هكذا إنسان!

إنّ أوّل خطوة في طريق معرفة الله تعالى تتمثّل في أن نُدرك بأنّنا عبيد لا نملك من أنفسنا شيئًا، بل إنّ كلّ ما نملكه هو من عطاء الله تعالى، ومع أنّه يدخل الآن في ملكيّتنا واقعًا، إلّا أنّه يقع تحت تصرّف الله تعالى، بحيث يأخذه منّا متى ما شاء، ويبقى أنّ هذا الأمر لم يصل

---

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

بعدُ إلى مستوى العبادة، بل يدخل في معرفة الله تعالى. وحينما نُبرز هذه المعرفة في مقام العمل، ويصير سلوكنا تجلّيًا لها، فحينئذ تتحقّق العبادة، ولا تبقى أدعيتنا من دون إجابة. لكن، إذا كنّا نؤدّي الصلاة في اتّجاه القبلة لمجرّد أنّ الله تعالى قال ذلك، ونُجري بعض الكلمات على ألسنتنا لأنّه أمر بذلك، ونأتي بالصوم لأنّه حثّ عليه... فإنّنا سنكون قد اكتفينا بأداء العبادات الواجبة، وأمّا إذا كانت جميع أفعالنا وتصرّفاتنا تخضع لمشيئته تعالى، وحصرنا التوجّه والاتّكال به تعالى فقط من أجل تلبية حاجاتنا، فإنّنا سنكون قد توفّقنا للقيام بالعبادة، ولهذا، يقول البارئ عزّ وجلّ في محكم كتابه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1]، حيث يدلّ تقدّم الجارّ والمجرور في هذه الآية على الحصر، بمعنى أنّه علينا التوكّل على الله تعالى فقط، فإذا تمكّن الإنسان من بلوغ هذه المرتبة، فإنّه سيتوجّه في كلّ طلباته إلى الله تعالى، وفي هذه الحالة، إذا دعا، فإنّ دعاءه لن يُردّ أبدًا.

ومن هنا:

أوّلًا: إذا أدّينا عملًا حسنًا، كصلاة الليل، فعلينا أن لا نغترّ، بل يجب أن نعلم بأنّ لله تعالى عبادًا نظير الشيخ حسن علي النخودكي الأصفهاني، الذي كان يعبد الله تعالى من الليل إلى الصباح، في الجوّ البارد، وتحت الثلج، فكان يستغرق في عبادته إلى درجة عدم شعوره ببرودة الجوّ، حيث ينقلون عنه حكاية مشهورة سمعتها من كثيرين قد يبلغ عددهم حدّ التواتر.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢٣.

نقل نظام التولية.. رئيس حرّاس العتبة الرضويّة المقدّسة عن أحوال الشيخ حسن علي النخودكي الأصفهاني ما يلي:

«في ليلة من ليالي الشتاء، كان البرد قارسًا، والثلج يهطل، وكان دوري في الحراسة، وفي أوّل الليل، جاءني خدّام العتبة المباركة، وقالوا لي: «لا يوجد زائر في الحرم الشريف بسبب برودة الجوّ وهطول الثلج، فَأذن لنا في غلق أبواب الحرم»، فأعطيتهم إذنًا بذلك، فأغلق مسؤولو الغرف الأبـواب، وجـاؤوا بالمفاتيح، لكنّ مسؤول سطح الحرم المطهّر قال: «الحاج الشيخ حسن علي النخودكي الأصفهاني من أوّل الليل إلى الآن فوق السطح منهمك في الصلاة أسفل القبّة، وهو راكع منذ فترة، وذهبت إليه مرّات عديدة، لكنّه لا زال في حال ركوع، فَأْذن لي أن أخبره بأنّنا نريد غلق الأبواب»، فقلت له: «كلا، اتركوه وشأنه، ودعوا كمّية من الحطب في الغرفة الموجودة أعلى السطح، ليستفيد منها عند الفراغ من صلاته، وأغلقوا باب السطح»، ففعل المسؤول المذكور ما طلبت منه، وعاد الجميع إلى منازلهم. وفي تلك الليلة، هطل ثلج كثير، وعندما جئنا في السحر لفتح أبواب الحرم، قلت لمسؤول السطح: «اذهب، وانظر الشيخ حسن علي في أيّة حال هو؟»، وبعد دقائق، رجع الخادم، وقال: «ما زال الشيخ راكعًا، وقد غطّى الثلج ظهره»، فعلمنا بأنّه ظلّ راكعًا منذ أوّل الليل إلى السحر، من دون أن يشعر بالبرد القارس في تلك الليلة الشتويّة الباردة، وفرغ من صلاته حين حلول أذان الفجر»[1].

إنّ هذه الصلاة تختلف كثيرًا عن الصلاة التي يشعر فيها الإنسان حين التسليم بأنّه تحرّر من السجن!

---

(١) علي مقدادي الأصفهاني، **نشان از بى نشانها**، الجزء ١، الصفحة ٨٥، الحكاية ٧٤.

ثانيًا: عند الرجوع إلى كلام أهل البيت عليهم السلام، يُمكننا أن نتعلّم هذا الأدب الذي يقضي بأن نلتفت عند القيام بعمل حسن إلى أخطائنا وتقصيرنا أيضًا، فإذا انقضى شهر رمضان المبارك، وتوفّقنا لأداء بعض العبادات، علينا أن نصبّ تفكيرنا أكثر على أنّنا كنّا نحمل على عاتقنا مجموعة من التكاليف، فقصّرنا في أدائها، ولهذا، علينا أن نسعى للتعويض عنها. فإذا فكّرنا في أخطائنا، وندمنا حقيقةً على ارتكابها، وعزمنا بجدّ على عدم تكرارها مرّة أخرى، فإنّ أخطاءنا السابقة ستُمحى. وإذا دعونا الله في حالة تضرّع نرى فيها أنفسنا أنّنا لا شيء، واستغفرناه، فإنّه تعالى سيُسجّل في صحيفة أعمالنا ثواب عبادةٍ قد يفوق ثواب العبادات التي أدّيناها في شهر رمضان المبارك. فإذا أدركنا حقيقةً وبصدق أنّنا لا نملك من أنفسنا شيئًا، وأنّ الله تعالى هو الذي يمنحنا كلّ شيء، وأنّه بمقدوره جبر أخطائنا الماضية، فإنّه عزّ وجلّ سيتدارك نقائصنا السابقة.

فبالنظر إلى النقاط التي أشرنا إليها، نعود الآن إلى الكلام الشريف للإمام السجّاد عليه السلام، ففي العبارة التي ذكرناها في الفصل السابق، يُناجي الإمام ربّه قائلًا: «إلهي، أحمدك على أن أكرمتني، وحبوتني المعرفة بشهر رمضان المبارك، ووفّقتني لصيامه»، لكن، في الفقرة التي أوردناها في هذا الفصل، يقول عليه السلام: «إلهي، أنا أحمدك، لكنّ حمدي إيّاك مقرون بإقراري بالذنب، واعترافي بتضييع عمري (أو تضييع حقّ شهر رمضان)، وأنا أعاهدك الآن على الندم الحقيقيّ، وأعتذر منك بصدق».

فإذا كان اعتذار الإنسان صادقًا، فإنّه سيقترن بانهمال الدموع، فالإنسان الذي خسر ثروةً كان بوسعه الاستعانة بها للظفر بالسعادة الأبديّة، إذا استوعب الحالة التي هو فيها، فإنّ نفسه سترتعش، وستنهمل

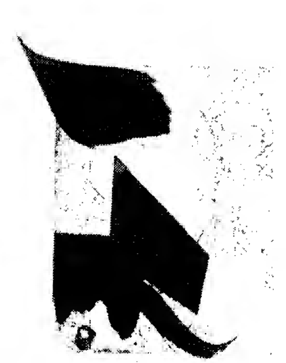
الدموع من عينيه. بعد ذلك، يقول الإمام عليه السلام: «إلهي، امنحنا أجرًا يُعوّض ذلك الفضل الذي كنّا نتمنّاه، لكنّنا لم نصل إليه، وتلك الذخائر والكنوز التي كنّا نحرص عليها، ولم نتمكّن من نيلها في أيّام شهر رمضان المبارك».

أجل، من الجدير بالذكر أنّ عبارة «**فَأْجُرْنَا عَلَى مَا أَصَابَنَا فِيهِ مِنَ التَّفْرِيطِ أَجْرًا...**» يكتنفها بعض الغموض، وينبغي علينا تفسيرها بنوع من التكلّف. كما أنّني لم أعثر على نسخة أخرى توجد فيها عبارة مشابهة لهذه العبارة حتّى يتسنّى لنا القول إنّ هذه النسخة قد وقع فيها تصحيف. ويتمثّل الغموض الذي يكتنف العبارة في:

أوّلًا: أنّ التفريط والتقصير ليس له أجر. فإذا وقع الإنسان فيه، فإنّ الواجب عليه طلب العفو من الله تعالى.

وثانيًا: أنّ «أصابنا» تعني أنّ هناك شيء أتانا من خارج أنفسنا، بينما نحن نعلم أنّ التفريط عمل يصدر من نفس الإنسان، ولهذا، فإنّ نسبة هذَين الأمرَين بعضهما إلى بعض فيها تكلّف، هذا، وقد طالعت في بعض الشروحات أنّ طائفة من المؤلّفين قالوا في رفعهم لهذا الإبهام إنّ «على» في عبارة «على ما أَصَابَنا» هي بمعنى «مع»، فيكون المراد من الجملة السابقة: «امنحنا الأجر مع أنّنا قصّرنا وفرّطنا»، لكنّ هذا التفسير لا يخلو أيضًا من تكلّف، لأنّ «أصابنا» تعني أنّ هناك شيئًا قد وصلنا من الخارج، وليس أنّنا ارتكبنا بأنفسنا ذلك التقصير، فالتقصير الذي يقع فيه الإنسان بنفسه لا يُنسب إلى شيء خارج عن وجوده، وعلاوةً على ذلك، فإنّ التفريط والتقصير لا يكون عليه أجر، وبالتالي، لا ينبغي علينا توقّع ثواب عليه. وعليه، يبدو أنّنا لا نستطيع تفسير هذه العبارة من دون تكلّف، وأنّه من المحتمل وقوع تصحيف فيها.





«وَأَوْجِبْ لَنَا عُذْرَكَ عَلَى مَا قَصَّرْنَا فِيهِ مِنْ حَقِّكَ، وابْلُغْ بِأَعْمَارِنَا مَا بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُقْبِلِ، فَإِذَا بَلَّغْتَنَاهُ فَأَعِنَّا عَلَى تَنَاوُلِ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ الْعِبَادَةِ، وأَدِّنَا إِلَى الْقِيَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وأَجْرِ لَنَا مِنْ صَالِحِ الْعَمَلِ مَا يَكُونُ دَرَكًا لِحَقِّكَ فِي الشَّهْرَيْنِ مِنْ شُهُورِ الدَّهْرِ، اللَّهُمَّ ومَا أَلْمَمْنَا بِهِ فِي شَهْرِنَا هَذَا مِنْ لَمَمٍ أَوْ إِثْمٍ، أَوْ وَاقَعْنَا فِيهِ مِنْ ذَنْبٍ، واكْتَسَبْنَا فِيهِ مِنْ خَطِيئَةٍ عَلَى تَعَمُّدٍ مِنَّا، أَوْ عَلَى نِسْيَانٍ ظَلَمْنَا فِيهِ أَنْفُسَنَا، أَوِ انْتَهَكْنَا بِهِ حُرْمَةً مِنْ غَيْرِنَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، واسْتُرْنَا بِسِتْرِكَ، واعْفُ عَنَّا بِعَفْوِكَ، ولَا تَنْصِبْنَا فِيهِ لِأَعْيُنِ الشَّامِتِينَ، ولَا تَبْسُطْ عَلَيْنَا فِيهِ أَلْسُنَ الطَّاعِنِينَ، واسْتَعْمِلْنَا بِمَا يَكُونُ حِطَّةً وكَفَّارَةً لِمَا

أَنْكَرْتَ مِنَّا فِيهِ بِرَأْفَتِكَ الَّتِي لَا تَنْفَدُ، وفَضْلِكَ الَّذِي لَا يَنْقُصُ».

١. الاعتذار عن التقصير وطلب التوفيق للتعويض

بعد التسليمات التي ذكرها الإمام السجّاد عليه السلام وداعًا لشهر رمضان المبارك، فإنّه يُثني على البارئ عزّ وجلّ إذ وفّقه لإدراك هذا الشهر الفضيل، وصيامه وأداء عباداته، مُبرزًا ندمه على ما رافق هذه العبادات من قصور وتقصير، ولهذا، فإنّه يقول: «إنّنا نُعاهدك على أن نُحافظ بثبات على هذا الندم، ونعتذر منك باللسان أيضًا، فعاملنا أنت كذلك بفضلك وكرمك، حتّى نُعوّض ما فاتنا من شهر رمضان المبارك»، ثمّ يقول عليه السلام بعد ذلك: «إلهي، أوجب أنت أيضًا على نفسك قبول عذرنا على كلّ تقصير صدرنا منّا تجاهك في هذا الشهر»، وهنا نُلاحظ استخدام تعبير أدبي، فحينما نقول: «**أَوْجِبْ لَنَا عُذْرَكَ**»، فإنّ المتبادر إلى الذهن بدوًا أنّ لله تعالى عُذرًا، لكنّ المراد لغةً من «عَذَره فهو معذور» أنّه قَبِل عذره، فللدلالة على طلب العذر، يُستفاد في اللغة من كلمة «اعتذار»، بينما تُستخدم لفظة «عذر» في قبوله.

فبما أنّنا لم نستطع قضاء شهر رمضان المبارك بتمامه في العبادة، وصدرت منّا أيضًا أخطاء في هذا الشهر الفضيل، فإنّنا نبقى نَحِنُّ إلى شهر رمضان خالٍ من العصيان والزلل، ولهذا، يلتجئ الإمام السجّاد عليه السلام إلى ربّه قائلًا: «ابلُغ بالعمر الذي سنستقبله شهرَ رمضان اللاحق، وإذا أبلغتنا إيّاه، فوفّقنا فيه لعبادتك كما أنت أهلٌ لذلك، ومكّنا فيه من أداء طاعتك كما تستحقّ، وأجرِ على أيدينا فيه الأعمال الحسنة التي تُؤدّي إلى درك حقّك في هذين الشهرين من شهور الدهر».

وردت في بعض النسخ كلمة «أبلغ»، لكنّها لا تصحّ على ما يبدو، ففي عبارة «بلغ به» توجد باء التعدية، كما أنّ المجرور يُعدّ فيها مفعولًا ثانيًا. والمراد من هذه العبارة أنّنا لم نقم في شهر رمضان المبارك الذي مرّ علينا بتأدية تلك العبادة التي تستحقّ، فامنحنا في شهر رمضان القادم توفيقًا، لكي نتمكّن من أداء حقّك فيه، وتعويض ما فاتنا في الشهر المنصرم»، هذا، وقد ذكر بعض الشراح أنّ عبارة «في شهور الدهر» أُضيفت للإشارة إلى أنّ المراد ليس فقط شهر رمضان لهذه السنة، والسنة القادمة، بل المراد توفيق يعوّض عن كلّ أشهر رمضان المبارك.

٢. الاعتذار عن ارتكاب الذنوب العمديّة والسهويّة

يُخاطب الإمام عليه السلام ربّه قائلًا: «إلهي، إذا كنّا قد ألممنا ببعض اللمم والإثم، أو ارتكبنا مجموعة من الذنوب، أو اكتسبنا خطايا عن عمد، أو ظلمنا أنفسنا عن نسيان، أو وقعنا في خطإ لا يقتصر ضرره علينا فقط، بل يُؤدّي أيضًا إلى هتك حرمة الآخرين، فإنّنا نطلب منك أن تُصلّي على محمّد وآل محمّد، وأن تُغطّينا بسترك، وتغفر لنا بعفوك».

لقد استُعير مصطلح «اللمم» من القرآن الكريم، حيث نجده يُستعمل في حقّ الذنوب الصغيرة، والتي تصدر من الإنسان من دون تأمّل وتفكّر، ويندم عليها بسرعة، كما أنّ «ألَـمَّ»[1] تعني قارَبَ العمل، فالذي يُقدم على عمل ويشرع فيه، لكن من دون أن يستمرّ فيه، يكون فعلُه مصداقًا للمم. وفي المقابل، فإنّ «الإثم» هو الذنب الذي يرتكبه العاصي عن عمد وتأمّل وتكون له تَبِعات، وقد اعتبر بعض العلماء أنّ مثال اللمم نَظَرُ العاصي إلى غير المحرم، وغضّه لبصره بسرعة، وندمه

(١) والأصل: ألْـمَمَ من (لمم).

على هذا الفعل، بخلاف شرب الخمر مثلًا، الذي لا يُعدّ مجرّد زلّة آنيّة، بل يستتبعه السكر، وتضييع حقوق الآخرين، والعشرات من المعاصي الأخرى. هذا، وتشمل كلمة «الذنب» هذين النوعين معًا.

وفي هذه الفقرة، نجد الإمام السجّاد عليه السلام - علاوةً على طلبه العفو من البارئ عزّ وجلّ على ارتكاب أيّ نحو من الأخطاء والمعاصي - يرجو منه تعالى أن يستر هذه الذنوب عن أعين الآخرين، لا سيّما الذي يشمتون بالمؤمنين، ولا يحبّونهم، وينتهزون الفرصة للطعن فيهم، أي: الذي يرغبون في العثور على ضعفٍ في المؤمنين والمتشرّعين، ويُسلّطون الضوء عليه ليتمكّنوا بذلك من استصغارهم. هذا، وتوجد العديد من الدوافع من وراء الشماتة، ومن ضمنها الحسد، فإذا كان هناك إنسان معروف بالتقوى والإيمان، وله مكانة في المجتمع، وصدرت منه زلّة، فإنّ أعداءه سيسعون لتكبير هذه الزلّة، وإسقاط ذلك الإنسان من أعين الناس، لكي يقولوا: انظروا إلى هذا الذي كان إلى اليوم يأمر الآخرين وينهاهم كيف سقط الآن بنفسه في هذه زلّة!

يُخاطب الإمام عليه السلام ربّه قائلًا: «ولا تجعلنا محطّ أنظار الشامتين، ولا تبسط علينا ألسن الطاعنين، ووجّهنا إلى عمل يُؤدّي إلى تساقط تلك الذنوب، ويكون كفّارة لما أنكرت منّا بعطفك الذي لا ينتهي، وفضلك الذي لا ينقص». هذا، وتُعتبر كلمة «أنكَرتَ» من المصطلحات القرآنيّة التي تعرّفنا على معناها في ذيل البحث المعنون بـ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وتجدر الإشارة إلى أنّ استعمال كلمتي «المعروف» و«المنكر» لإرادة المعنى الذي نستعمله فيها هذه الأيّام لم يكُن معمولًا به في الثقافة العربيّة السائدة، حيث إنّ كلمة المعروف تعني الأمر الذي عُرف، وكلمة المنكر يُراد بها الأمر غير المعروف، لكنّ هاتين الكلمتين

جاءتا في القرآن الكريم - بالترتيب - بمعنى «الفعل الحسن» و«الفعل السيّء». ولعلّ الحكمة في جعل هذا الاصطلاح أنّ الله تعالى يُريد أن يقول: إنّ الإنسان العاقل أو المؤمن عارفٌ بالأعمال الصالحة، ولا علم له أبدًا بالأعمال الطالحة، وفي الحقيقة، فإنّه عزّ وجلّ يُريد أن يُلقي هذا المعنى الذي يُفيد بأنّ المجتمع الإيماني والإسلامي لا يعرف المعصية بتاتًا، فكأنّه غير عالم بالذنوب من الأساس، هذا، وتعني عبارة **أَنكَرتَ مِنّا** في هذه الفقرة من الدعاء: «أنت لا تتوقّع منّا ولا تقبل أن نقوم بهذا العمل».

٣. الثروة والصحّة والشرف بما هي نعم إلهيّة

وفي هذا المقام، ينبغي علينا الإجابة عن السؤال الذي يقول: هل طلب ستر المعاصي والعيوب عن الآخرين هو لأجل الاحتراز عن شماتتهم؟ وبعبارة أخرى: هل طلب المحافظة على الشرف عبارة عن طلب مستقلّ في عرض طلب العفو عن الذنوب، أم لا؟ ولا يخفى أنّ طلب ستر المعاصي لا يعني عدم طلب غفرانها، لأنّ طلب الستر وطلب العفو ينتميان إلى مقولتين مختلفتين، فمن الممكن أن يغفر الله تعالى للإنسان ذنوبه، بل قد يمحوها أيضًا من صحيفة أعماله، لكن، هل يحظى ستر الخطايا والعيوب بكلّ هذه الأهمّية حتّى يطلبه الإنسان من الله تعالى بشكل منفصل؟

إنّ المحافظة على حُرمة الإنسان في المجتمع نعمة إلهيّة كبقيّة النعم الإلهيّة الأخرى، ومن باب المثال، فإنّ الصحّة من النعم الموهوبة التي تنضوي تحتها الآلاف من النعم، فكلّ عضو من أعضاء بدننا معرّض لأمراض مختصّة به، بحيث إنّ المحافظة على جميع هذه الأعضاء من تلك الأمراض تُسمّى بالصحّة، والتي هي من النعم الإلهيّة العظمى، وممّا لا

شكّ فيه أيضًا أنّ الرزق الحلال والواسع من النعم الإلهيّة الأخرى، فالرزق الواسع الذي يُجنّب الإنسان ضنك العيش، ويُوفّر له ضروريّات الحياة بكلّ يُسر، ولا يُلجئه للناس نعمةٌ. وبالمناسبة، فإنّنا نجد مثل هذه الطلبات في الأدعية الواردة عن المعصومين ﷺ، نظير: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ الْوَاسِعِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ رِزْقًا وَاسِعًا حَلَالًا طَيِّبًا»[1]، ولا ريب في أنّ هذه نعمٌ كلّها، وإذا وهبها الله تعالى للإنسان، فإنّه من الواجب عليه أداء شكرها، ومعرفة قدرها. وفي المقابل، إذا حُرم الإنسان من نعم كهذه، فإنّ عليه طلبها واستجداءَها من البارئ عزّ وجلّ. كما أنّه إذا كان هناك من يتمتّع بهذه النعم، لكنّه لا يُنفقها في مواردها المناسبة، فإنّ عليه مع ذلك أن يُؤدّي شكرها، ويعترف أمام الله تعالى: «يا إلهي، لقد حبوتني بهذه النعمة، لكنّني أسأت استخدامها، والتقصير منّي أنا، إلهي، لقد كان بمقدوري استعمالها بشكل صحيح، وتحصيل ثواب عظيم بواسطتها، لكنّني قصّرت في ذلك».

٤. النعم الإلهيّة غاية أم وسيلة؟

بعدما عرفنا أنّ تلك الأمور عبارة عن نعم إلهيّة، فإنّ التساؤلات التالية ستُطرح علينا: إلى أيّة درجة ينبغي على الإنسان الاهتمام بهذه النعم؟ وكيف يُمكنه الاستفادة منها؟ وما هي النظرة التي ينبغي عليه أن ينظر بها إليها؟ هل يتعيّن عليه أن ينظر إليها بوصفها وسيلة أو غاية؟ إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات تتوقّف على مراتب معرفة الإنسان، فكلّنا يرغب في التوفّر على أبدان سليمة، وإذا أُصبنا بمرض طفيف، يذهب النوم عن جفوننا، ولا نستطيع الدراسة، وأداء العبادات بنحو قويم... كما

---

(١) محمّد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٥٥٠.

أنّ امتلاك وجاهة في المجتمع هي نعمة أخرى نطلبها جميعًا، فإذا كان الإنسان يحظى بالاحترام في المجتمع، فإنّه يتمتّع حقيقةً بنعمة إلهيّة، هذا، مع أنّ المحافظة على حُرمة الآخرين تُعدّ من الفرائض الدينيّة، حيث جاء في الروايات أنّ حرمة عرض المؤمن لا تقلّ عن حُرمة دمه، بل تُضاهي حُرمة الكعبة المشرّفة، فمن الواجب المحافظة على أعراض الآخرين وحُرمتهم. حتى إذا ارتكب المؤمن معصية، فلا يحقّ لأحد إذاعة هذا الأمر، لأنّه من الغيبة المحرّمة، بل في بعض الأحيان، قد تكون هذه الإذاعة أعظم من نفس ذلك الذنب، لأنّها تُوَدّي إلى انتهاك حُرمة المؤمن.

ويبقى أنّ الاستفادة من هذه النعم قد تتحقّق بصور مختلفة، حيث نجد بعض الأفراد يسعون إلى امتلاك الصحّة، والخلوّ من الأمراض والآلام، والتمتّع بالاحترام في المجتمع، وبعضًا آخر يرغبون في التوفّر على رزق واسع، لمجرّد أن يأكلوا ويلبسوا جيّدًا، ويعيشون براحة ورفاهيّة. هذا، مع أنّ أهدافًا كهذه لا تحظى بقيمة كبيرة، بل إنّ هذه المحبّة إذا اتّسعت، وتغلّبت على بقيّة شؤون الإنسان الحياتيّة، فإنّها ستكون مصداقًا لحبّ الدنيا المذموم الذي يُعدّ منشأ لكافّة الذنوب، مثما جاء في الروايات: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[1]. وعليه، قد تُصبح بعض النعم، كالثروة والجاه، هدفًا للإنسان، فيتعلّق بها قلبه إلى درجة تُصبح عائقًا أمام أدائه لتكاليفه الواجبة، وعلى سبيل المثال، فإنّ الإنسان قد يصير عاشقًا للثروة والمال، بحيث يمنعه ذلك عن أداء فرائضه الماليّة الواجبة، نظير: الزكاة والخمس وحقّ الجار وحقّ الوالدين وحقوق الأقارب والمحتاجين، وتقديم العون لجبهات القتال، ومساعدة المسلمين المعوزين في بقيّة البلدان.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ١٣١.

فحينما تكون الثروة هدفًا، فعلاوةً على عدم أداء الإنسان لحقوقه المفروضة، فإنّ هناك خطرًا آخر يهدّده، ويتمثّل في إنفاق المال والثروة في سبيل الوصول إلى أهـداف دنيويّة وضيعة، بل مخالفة للدين. وأحيانًا، قد يُنفق بعض الأثرياء على مأدُبةٍ مبلغًا يُغطّي نفقات عشرة أسر لمدّة سنة كاملة، هذا، مع أنّه قد يكون عملًا مُسوَّغًا ومباحًا، لكن، في بعض الحالات، نجد هؤلاء يبذلون كلّ هذه الأمـوال لأجل تضييع حقوق الآخرين، فمن باب المثال، قد يطّلع أحد الأغنياء على أنّه من المقرّر اختيار أحدهم لتقلّد منصب أو مسؤوليّة، وللحيلولة دون ذلك، واستبداله بشخص أقلّ جدارة، أو ليست له أهليّة بتاتًا، فإنّه يُنفق مبالغ طائلة، ويُقيم المأدبات الفاخرة، ويمنح الهدايا لبعض الشخصيّات البارزة وأصحاب السلطة، ففي الظاهر، تكون الهديّة أمرًا مستحبًّا، لكنّ ما يحظى بأهمّية أكبر هو الدافع الكامن من ورائها، فلماذا لا يمنح هؤلاء تلك الهدايا إلى الفقراء؟! ولماذا لا يهبونها للأشخاص غير المعروفين؟! ولماذا يخصّون بها الشخصيّات المؤثّرة التي تكون كلمتها مسموعة، ويُمكنها تقديم العون لهم؟ ففي نهاية المطاف، سيصل الأمر إلى إضرار هذا البذل والعطاء بالدين، سواءً كان ذلك عن وعي أو لا، فصحيح أنّ هذه الثروة نعمة إلهيّة، أي: أنّها موهوبة من الله تعالى، ومن شأنها تخليص آلاف الناس من المرض بل الموت، والاستفادة منها أيضًا في التعليم، أو المحافظة على ماء وجه الكثيرين، لكن، مع ذلك، فإنّها تُنفق فيما يُلحق الضرر بالمجتمع والدين معًا، وتكون سببًا للمساءلة يوم القيامة عن كلّ ريال منها، وحينئذ، هل يُمكننا ادّعاء أنّ ثروة كهذه مطلوبة؟

٥. شرط الدعاء الضمنيّ للتمتّع بالنعم الدنيويّة

في ضمن كافّة الأدعية التي يدعو بها المؤمنون، يوجد شرطٌ مفادُه أن لا تترتّب على طلبهم أضرار دنيويّة وأخرويّة، كما أنّ هناك شرطًا غير مصرّح به حينما نريد أن ندعو للآخرين، ويتمثّل في وجود مصلحة في تلك المسألة التي نريدها لهم، فلو كانت نعمٌ من قبيل الرزق والجاه ستُؤدّي إلى خروج الإنسان من الدين جملةً وتفصيلًا، فهل يُمكننا القول مع ذلك إنّنا نُريدها؟ وخلافًا للنغم الدنيويّة، فإنّ النعم الأخرويّة لا تخضع لهذا شرط، لأنّها لا تُلحق الضرر بأيّ أحد.

وعليه، حينما نطلب النعم الدنيويّة - سواء أكانت لأنفسنا أم للآخرين -، علينا أن نشترط عدم ترتّب أيّ ضرر عليها بالنسبة إلينا أو بالنسبة إلى الآخرين، لا سيّما تلك النعم ذات الصلة بالشرف والمكانة الاجتماعيّة، فلو صارت هذه النعم هدفًا بالنسبة إلينا، فإنّنا سنُبتلى بحبّ الرئاسة، والذي يُعدّ أقرب شيء للكفر، حيث ذكرنا في الأبحاث السابقة روايةً تقول: «مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ فِي غَنَمٍ قَدْ غَابَ عَنْهَا رِعَاؤُهَا بِأَضَرَّ فِي دِينِ الْمُسْلِمِ مِنْ حُبِّ الرِّئَاسَة»[1]، بينما جاء في موضع آخر: «مِن حُبِّ المَالِ والشَرفِ»[2]، حيث يُراد من الشرف الحُرمة والجاه والمكانة الاجتماعيّة.

فهل يجدر بالإنسان أن يطلب من الله عزّةً تُفضي إلى هلاك دينه؟ بل عليه في الحقيقة أن يرجو منه تعالى ألف مرّة أن لا يبتليه بشيء كهذا. وما هو الأفضل للإنسان؟ أن يعرفه كافّة الناس ويحترمونه، أم أن تكون آخرته عامرة؟ إنّ المحافظة على الجاه مسألة مهمّة، حيث نرى

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٣١٥.

الباري عزّ وجلّ يُثني في كتاب العزيز على الفقراء الذين يُحافظون على ماء وجههم، ولا يسمحون لأيّ أحد بالاطّلاع على معاناتهم، قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1]، فهذا الجاه يحظى بقيمة كبيرة، لكن، إذا أصبح كصنم بالنسبة إلى الإنسان، فإنّه سيسحبه إلى أعماق جهنّم، وذلك حينما يتجذّر في قلبه، إلى درجة أنّه متى ما وقف بين خيارين: إمّا المحافظة على دينه، أو جاهه، فإنّه يُرجّح المحافظة على جاهه وشرفه على مسألة الحفاظ على الدين والنظام الإسلامي وقيم الثورة الإسلاميّة، حيث إنّه من شأن حبّ الدنيا أن يبلغ بالإنسان إلى هذا المستوى، ولهذا، علينا الاستعاذة بالله تعالى من هذه الأمور، ومن هنا، فإذا طلب الإنسان من ربّه المحافظة على جاهه وشرفه، فإنّ عليه أن يستحضر في صميم قلبه المسألة التالية: «إنّني لا أريد المحافظة على جاهي، إلّا إذا كان ديني سيبقى محفوظًا، فلا يُلحق هذا الجاه أيّ ضرر بديني، ولا يُهدّم آخرتي، ولا يتسبّب في احتراقي بنار جهنّم».

٦. النعم الدنيويّة أداة للامتحان

إنّ جميع النعم الإلهيّة التي يهبها الباري عزّ وجلّ للإنسان هي في الحقيقة أدوات لامتحانه، حيث أشار تعالى إلى هذه الحقيقة في آيات قرآنيّة عديدة، منها: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًاۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، ويقول تعالى في موضع آخر: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3]، وأيضًا: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٦٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٣٥.

عَظِيمٌ﴾[١]، كما نقرأ في آية أخرى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٢]، ومن هنا، فقد تكون أسرة الإنسان سببًا في ضياع دينه، كأن تكون هذه الأسرة تلهث وراء اللذّات الدنيويّة، فتدفع الإنسان إلى إهلاك دينه، والعياذ بالله تعالى!

فإذا كان الإمام السجّاد عليه السلام يطلب من الله تعالى في هذا الدعاء ستر العيوب... فليس ذلك بسبب ما يمنحه الجاه من متعة فقط، بل لأنّ هذه الأمور تُمكّن الإنسان الساعي للقرب الإلهيّ من تحصيل العديد من الفوائد، فالذي يُحبّ خدمة الناس في المجتمع لا يُمكنه الحصول على ثقتهم إذا كانت سمعته سيّئة، ولو كان اتّهامُه بذلك باطلًا، لأنّه سيُعدّ حينئذ إنسانًا خائنًا، وعليه، فلا يُمكنه عمليًّا الاضطلاعُ بأيّة مهمّة أساسيّة في المجتمع. فالمشكلة التي يُعاني منها هذا الإنسان لن تقتصر على ذهاب سمعته، وتوجّس الناس منه، بل ستشمل أيضًا حرمانه من عدّة خيرات وبركات، وعدم قدرته على أداء الأعمال الخيريّة، فإذا أصبحت سمعة الإنسان سيّئة، فلن يعتني أحد بكلامه، ولو كان عالِمًا، هذا، مع أنّه كان بوسعه هداية أحد الناس أو عدّة أفراد منهم بواسطة علمه، والحصول بذلك على ثواب إلهيّ غير محدود، ومن هنا، يسعى المؤمنون للحصول على هذا الجاه وهذه السمعة، لكي يؤدّوا خدمات أكبر وعبادات أكثر... فهي أهداف عظيمة جدًّا، لكن، بما أنّنا غير مطّلعين على عواقب الأمور، ينبغي علينا أن لا ننسى الشرط التالي، ولا نغفل عن القول: «إلهي، نحن نطلب منك هذه النعمة، لكن، بشرط أن لا تُلحق الضرر بديننا»، ولو لم نُجر ذلك على ألسنتنا، وتوجّهنا إليه بقلوبنا فحسب.

---

(١) سورة التغابن، الآية ١٥.

(٢) سورة التغابن، الآية ١٤.





«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِـهِ، واجْبُرْ مُصِيبَتَنَا بِشَهْرِنَا، وبَـارِكْ لَنَا فِي يَوْمِ عِيدِنَا وفِطْرِنَا، واجْعَلْهُ مِنْ خَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْنَا أَجْلَبِهِ لِعَفْوٍ، وأَمْحَاهُ لِذَنْبٍ، واغْفِرْ لَنَا مَا خَفِيَ مِنْ ذُنُوبِنَا ومَا عَلَنَ، اللَّهُمَّ اسْلَخْنَا بِانْسِلَاخِ هَذَا الشَّهْرِ مِنْ خَطَايَانَا، وأَخْرِجْنَا بِخُرُوجِهِ مِنْ سَيِّئَاتِنَا، واجْعَلْنَا مِنْ أَسْعَدِ أَهْلِهِ بِهِ، وأَجْزَلِهِمْ قِسْمًا فِيهِ، وأَوْفَـرِهِـمْ حَظًّا مِنْهُ، اللَّهُمَّ ومَـنْ رَعَى هَذَا الشَّهْرَ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وحَفِظَ حُرْمَتَهُ حَقَّ حِفْظِهَا، وقَامَ بِحُدُودِهِ حَقَّ قِيَامِهَا، واتَّقَى ذُنُوبَـهُ حَـقَّ تُقَاتِهَا، أَوْ تَقَرَّبَ إِلَيْكَ بِقُرْبَةٍ أَوْجَبَتْ رِضَاكَ لَهُ، وعَطَفَتْ رَحْمَتَكَ عَلَيْهِ، فَهَبْ لَنَا مِثْلَهُ مِنْ وُجْدِكَ، وأَعْطِنَا أَضْعَافَهُ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّ فَضْلَكَ لَا يَغِيضُ، وإِنَّ خَزَائِنَكَ لَا تَنْقُصُ بَلْ

تَفِيضُ، وإِنَّ مَعَادِنَ إِحْسَانِكَ لَا تَفْنَى، وإِنَّ عَطَاءَكَ لَلْعَطَاءُ الْمُهَنَّا، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، واكْتُبْ لَنَا مِثْلَ أُجُورِ مَنْ صَامَهُ، أَوْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

١. التعويض عن مصيبة فقدان شهر رمضان المبارك

كما أسلفنا الذكر، فإنّ دعاء وداع شهر رمضان المبارك ينقسم بشكل عامّ إلى ثلاثة أقسام: ففي الأوّل، حمد الله تعالى والثناء عليه، وفي الثاني وداع لهذا الشهر الفضيل والسلام عليه بتسليمات خاصّة، بينما يتضمّن القسم الثالث تمنّيات الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى، حيث وصلنا في الحديث عن هذه التمنّيات إلى أنّه عليه السلام رجا ربّه التجاوز عن الذنوب والتقصيرات التي تصدر منّا في شهر رمضان المبارك، والصون من نظرات الشامتين، وهنا، يستمرّ الإمام عليه السلام في استعراض تمنّياته قائلًا: «إلهي، صلّ على محمّد وآل محمّد، وعوّضنا عن المصيبة التي حلّت بنا عند ذهاب هذا الشهر»، ففي هذه الفقرة، وردت عبارة «**مُصِيبَتَنَا بِشَهْرِنَا**»، وهي من العبارات المختصّة باللغة العربيّة التي لا يوجد لها مرادف دقيق في اللغة الفارسيّة، فكلمة «مصيبت» (المصيبة) التي تُستعمل حاليًّا في اللغة الفارسيّة تعني الحادثة المريرة التي يُبتلى بها الإنسان، حيث يُشتقّ من أصل هذه الكلمة فعل «أصابه» أي أدركه وبلغه، فحينما يرمي أحدهم الهدف بالسهم، يُقال له: أصابه، أي: بلغ الهدف، ثمّ إنّ هذا المعنى عُمّم بالتدريج إلى أمور أخرى، لا سيّما تلك الأشياء التي تبلغ الإنسان بشكل دفعي ومفاجئ، والتي صار يُطلق عليها مصيبة، ففي هذه الحالة الخاصّة، كأنّ هناك إنسان يُطلق السهم، فيُصيبنا

نحن باعتبارنا هدفًا، حيث يُقال عن ذلك في اللغة العربيّة: «لقد أُصبنا بواسطة شيء أصابنا»، وأمّا في اللغة الفارسيّة، فإنّنا نقول: «مصيبت به ما رسيد»، أي: وصلت المصيبة إلينا، ولا يخفى أنّها ليست عين الترجمة العربيّة لهذه العبارة، بل هي ترجمة معرّبة نستخدمها في اللغة الفارسيّة، ومن هنا، لا ينبغي علينا ترجمة: «**مُصِيبَتَنَا بِشَهْرِنَا**» بطريقة يُفهم منها كأنّ المصيبة أصابت شهر رمضان المبارك، لأنّ المراد من هذه العبارة أنّ المصيبة أصابتنا نحن حين ذهاب الشهر الفضيل، فإذا أردنا إرجاع العبارة إلى اللغة الفارسيّة، لا ينبغي ترجمة «ب» عينًا إلى «ب»، بل يتعيّن القول: «بسبب ذهاب هذا الشهر، أصابتنا مصيبة»، وتنطبق المسألة ذاتها على كلمة «السؤال»، حيث نقول في اللغة الفارسيّة: «اين مطلب از استاد سؤال كردم»، فإذا أردنا ترجمة هذه الجملة حرفيًّا إلى العربيّة، فإنّه علينا أن نقول: «سألتُ هذا الأمر عن الأستاذ»، في حين أنّه يُقال في اللغة العربيّة: «سألتُ الأستاذ عن هذا الأمر»، لأنّ المفعول المباشر في الجملة العربيّة هو شخص المسؤول. وفي القرآن الكريم، يقول الباريُ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1]، وتُترجم هذه الآية الكريمة إلى الفارسيّة أحيانًا بالنحو التالي: «إنّه سيُسأل كلّ من العين والأذن والقلب»، في حين أنّ المسؤول هو الإنسان، بينما يُعدّ السمع والبصر مسؤولًا عنه، أي: إنّ الإنسان سيُسأل عنها، لا أنّها تقع طرفًا في السؤال. أجل، يبقى أنّ هناك كلامًا آخر يُفيد أنّ أعضاء الإنسان تنطق يوم القيامة، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2]، غير

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

(٢) سورة يس، الآية ٦٥.

أنّ الآية السابقة لم تكن في صدد بيان هذا الأمر، بل إنّ البارئ تعالى يُريد أن يقول فيها: «إنّ السمع والبصر من النعم التي وهبتكم إيّاها، وسأسألكم عن "البصر وما نظرتم به إليه، والسمع وما أصغيتم به إليه"، وليس أنّه سيسأل العين بذاتها: "إلى ماذا نظرتِ؟"». وعلى أيّ تقدير، فإنّ اللغة العربيّة مملوئة بهذه النكات الأدبيّة، وإذا لم ننتبه إليها عند إرجاع النصّ من اللغة العربيّة إلى الفارسيّة، فإنّنا سنسقط في كثير من الأخطاء، بل قد نحصل أحيانًا على بعض النتائج العجيبة والغريبة، ولهذا، علينا إعمال الدقّة حين ترجمة هكذا موارد، وعلى سبيل المثال، إذا قيل: «أصيب فلانٌ بماله»، فليس المراد منها أنّ «ماله صار مصيبة بالنسبة إليه»، بل المراد منها أنّه «فقد ماله»، وعليه، فإنّ معنى الجملة التي يقول فيها الإمام عليه السلام: «**مُصِيبَتَنَا بِشَهْرِنَا**» أنّنا فقدنا هذا الشهر.

«**وبَارِكْ لَنَا فِي يَوْمِ عِيدِنَا وفِطْرِنَا**»؛ بوسعنا القول: إنّ هذه الجملة عطف تفسير على الجملة الأولى، ففي تلك الجملة، قال الإمام عليه السلام: «لقد رحل عنّا شهر رمضان، وصرنا محرومين من بركاته، فاجبر يا إلهي مصيبتنا هذه»، وأمّا هنا، فكأنّه يُطرح سؤال عن: «كيف يُمكن جبر هذه المصيبة؟»، فيُجيب الإمام عليه السلام: «إلهي، أنزل علينا في يوم عيدنا من الرحمة والبركة ما يجبر هذا النقص، واجعل هذا العيد من أفضل الأيّام التي مرّت علينا، استجلابًا للعفو، ومحوًا للذنب، واغفر لنا المعاصي التي ارتكبناها في السرّ والعلن».

«**اللَّهُمَّ اسْلَخْنَا بِانْسِلَاخِ هَذَا الشَّهْرِ مِنْ خَطَايَانَا**»؛ كلمة «سلخ» تعني في الأصل نزع جلد الحيوان، فحينما يقطع الجزّار رأس الحيوان، فإنّه ينزع جلده، ويُقال حينئذٍ: «سَلَخَه»، فالسلّاخ يُطلق على الذي ينزع الجلود. وتُستخدم هذه الكلمة في نزع الجلد بجميع أنواعه، حتّى إنّه

يُقال للحيوان الذي ينزع جلده بنفسه: «انسلخ»، كما يُطلق أيضًا على آخر يوم من الشهر: «سَلخُ الشهر»، أي آخر جلد يُسلخ عن هذا الشهر. يقول الإمام عليه السلام: «إلهي، كما حلّ الآن سلخ هذا الشهر وآخر يوم منه، فاسلخنا نحن أيضًا من جلد الذنوب، وأخرج بخروج هذا الشهر من سيّئاتنا، واجعلنا من أسعد الناس الذين سعدوا به، واجعل حظّنا منه أوفر من الجميع».

٢. طلب الرحمة العليا

إلى هنا، كان لحن كلام الإمام له مستوى واحد، حيث كان عليه السلام يرجو من الله تعالى بعبارات مختلفة غفران الذنوب وإنزال الرحمة، لكنّنا نرى هنا تغييّرًا في لحن كلامه، وأنّه عليه السلام يضع قدمه على مرقاة أعلى، ويقول: «إلهي، امنحنا من خزائنك مثل ذلك الثواب الذي منحته في هذا الشهر لأفضل عبادك الذين تمكّنوا بكلّ جدارة من أداء حقّه، وحافظوا على حُرمته كما ينبغي...». إنّ هذه المسألة أرقى من المسائل السابقة، فطلب غفران الذنوب وتحصيل الرحمة العظيمة هو أمر معروف لدينا، ولا يبعث على التعجّب، وأمّا طلب ثواب يُضاهي ثواب الذين أحيوا جميع ليالي هذا الشهر الفضيل، وأدّوا فيه كافّة العبادات والمناجاة، وذرفوا الدموع، وأنفقوا الكثير، وسهروا على خدمة الفقراء، وتجاوزوا عن أخطاء الآخرين... فهو الأمر الذي يُثير تعجّبنا نحن الذين اكتفينا بأداء الواجبات وقليل من المستحبّات.

وفي بقيّة الدعاء، يقوم الإمام عليه السلام برفع المستوى أكثر، ويقول: «لا تمنحنا فقط مثل ثواب أفضل عبادك، بل هب لنا أضعاف ما وهبتهم، لأنّ فضلك وكرمك لا نهاية له، وخزائنِ رحمتك وبركاتك لا تنقص، بل تفيض، فهي كالنبع الذي يطفح بنفسه، بحيث مهما اغترفوا منه، فإنّه يضلّ

يفيض ويترع، كما أنّ معادن إحسانك لا تفنى، وعطاءك هو بحقٍّ العطاءُ الهنيء».

ونقرأ أيضًا في كتاب الله العزيز: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[1]، ففي هذه الآية الشريفة، لم يقل الباري عزّ وجلّ: «عِندَنَا خِزَانَتَهُ»، بل قال: ﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾، حيث إنّ عدد هذه الخزائن ومقدارها غير محدود، وهو تعالى مالكها، فمهما أعطى منها لأيّ أحد، فإنّه لا ينقص منها شيء، بل إنّها تفيض، إذ ليس شأنها شأنَ وعاء الماء الذي ينقص حينما يغترفون منه، بل هي كالنبع الفوّار الذي كلّما استقوا منه، فإنّه يفيض، ويطفح، وحينئذ، هل يُمكن وجود أعلى من هذه الطلبة، وهل يتسنّى لنا تصوّر ذلك؟ وبعد ذلك، يستعرض الإمام عليه السلام شيئًا أرقى ممّا طُلب لحدّ الآن، ويقول: «إلهي، صلّ على محمّد وآل محمّد، وهب لنا مثل ثواب الذي صام لك في هذا الشهر، أو عبدك فيه إلى يوم القيامة»، حيث يُمثّل ذلك أقصى طلب من الله تعالى يُمكننا تصوّره.

٣. الحكمة من الرغبات التي لا حدّ لها ولا حصر

في هذا المقام، قد يُثار السؤال التالي: هل تأتي على بالنا حقيقةً رغبة كهذه، حتّى نطلبها من الله تعالى؟ وإذا أتت، وطلبناها منه تعالى، هل حقيقةً سيستجيب لنا؟ وهل الاستجابة لهذا الصنف من الدعوات متاحة؟ فإذا كان ذلك ممكنًا، ألا يلزم منه تساوينا يوم القيامة مع أنبياء الله تعالى وأوليائه؟ وإذا لم يكن ممكنًا، لماذا علّمونا أن ندعو الله تعالى بهذا النحو؟ ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الأسئلة تُثار بشكل أعمّ بخصوص

---

(١) سورة الحجر، الآية ٢١.

العديد من الأدعية، فعلى سبيل المثال، حينما نطلب من الله تعالى في الدعاء الذي نقرأه يوميًّا في شهر رمضان المبارك: «اللَّهُمَّ أَغْنِ كُلَّ فَقِيرٍ، اللَّهُمَّ أَشْبِعْ كُلَّ جَائِعٍ»، ما هو الأمر الذي نطلبه حقيقةً؟ وعندما ندعو الله تعالى أن يشفي كلّ مريض، هل مرادنا من ذلك هو أن يتمّ بواسطة هذا الدعاء إقفال كافّة المستشفيات، والعيادات الطبّية، والصيدليّات، بحيث لا يعُد أيّ واحد محتاجًا إلى الدواء؟ وهل يليق بنا فعلًا أن نطلب من الله تعالى مثل هذا الأمر أوّلًا؟ وثانيًا، هل تكون الاستجابة لهذا الطلب ممكنة؟ لا يخفى أنّ هذه المسألة غير مستحيلة، بل ممكنة عقلًا، بل إذا استجاب الله تعالى لها، فلا يحقّ لأيّ أحد الاعتراض، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[1]، لكنّ كلامنا هو بخصوص الوعد والوعيد على الأعمال، والثواب والعقاب المعيّنين لها، وكذلك بخصوص الاختلافات الموجودة بينها، فإلى ماذا سيؤول ذلك كلّه؟

٤. التعرّف على الرحمة الإلهيّة اللامحدودة

لهذا الأدعية تجلّيات متعدّدة، ومن ضمنها أنّها تصير سببًا لالتفات الإنسان إلى سعة الرحمة الإلهيّة، وانتباهه إلى أنّه إذا أراد الله تعالى أن يمنح كلّ واحد من عباده نعمةً، سواءً كان ذلك بمقدار ما تبلغه عقولهم أم لا، فإنّ ذلك لن ينقص من خزائنه شيئًا، إذ ليس للبارئ عزّ وجلّ أيّ حدّ، بحيث إذا بلغت رغبات عباده هذا الحدّ، فإنّ خزائنه ستعجز عن التلبية، فيحظر الله تعالى الدعاء، ويقول: أيّ دعاء هذا؟ إذا قمتُ بهذا النحو من البذل والعطاء، فلن يبق أيّ شيء في خزائني!

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٣.

ليس لرحمة الله تعالى أيّ حدّ، بحيث يصير هذا الحدّ مانعًا للناس من أن يتجاوزوه في طلباتهم، بل على الإنسان أن يُدرك بأنّ جهاز الرحمة الإلهيّة غير محدود، فالله غير بخيل، ولا ينقص من خزانة رحمته أيّ شيء مهما أعطى لأيّ أحد، لأنّه تعالى متى ما أراد شيئًا، فإنّه يقول له «كن» فقط، فتتحقّق هذه الإرادة، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، فخزائن الله تعالى ليست مثل مستودعاتنا التي تخلو تدريجيًّا، فتحتاج لأن تُملأ، فتعمل الملائكة يدًا بيد على حمل البضائع، ووضعها في مكانها.

إنّ سعة الرحمة الإلهيّة ولا تناهيها حقيقة نغفل عنها في كثير من الأوقات، ونظنّ بأنّ الله تعالى قد حدّد - في نهاية المطاف - لكلّ واحد مقدارًا معيّنًا، وعلى هذا الأساس خلق الجنّة، فإذا أراد أن يُدخل الجنّة أناسًا يتجاوزون هذا المقدار، فإنّها لن تتّسع لهم، ممّا سيضطرّ بعضًا إلى العيش في الجنّة عن طريق الشراكة، نظير شخصين يعيشان في بيت واحد، لكنّ هذا الظنّ لا يعدو كونه اعتقادًا ساذجًا، لأنّ رحمة الله هي على درجة من السعة، بحيث لا ينقص منها شيء، ولو أعطى الله تعالى منذ الأزل وإلى الأبد لكلّ أحد كلّ شيء.

٥. تعلّم التفكير في الآخرين

التجلّي الثاني من تجلّيات هذه الأدعية: أنّها تُنبّهنا إلى أن لا نُفكّر في أنفسنا وحاجاتنا فقط، بل علينا أن نتعلّم بأنّه متى ما طلبنا من الله تعالى شيئًا، أن نطلبه للآخرين أيضًا، فمن باب المثال، حينما نشعر بالجوع، ونطلب الرزق من الله، عوض أن نقول: «إلهي، تفضّل علينا بالرزق»،

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٨.

فلنقل: «اللهمّ أشبع كلّ جائع»، وإذا أردنا لباسًا، فلنقل: «اللهم اكسُ كلّ عريان»، فبواسطة هذه الأدعية، علينا أن نوجد أو نُقوّي في أنفسنا سعة النظر، والشفقة، والعطف تجاه الآخرين، وعلينا أن نُحبّ الخير للجميع، سوى أولئك الذين نهى الله تعالى عن الاستغفار لهم بسبب عداوتهم له، حيث ورد في الكتاب العزيز: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[1]، ويقول الباري تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[2]، ولهذا، لا يحقّ لنا طلب المغفرة للكفّار والمشركين الذين يُعادون الله وأولياءه، لكنّ ذلك بسبب نهيه تعالى عن هذا الفعل.

فلا ينبغي أن تكون لنا نظرة ضيّقة، وبخاصّة حينما نقف في وجه بحار الرحمة الإلهيّة، فلا يصحّ لنا أن نعتقد بأنّه متى ما استجاب الله تعالى لدعائنا، فإنّ حصّتنا ستنقص، ولن يُسمح لنا بطلب المزيد، بل إنّ الله تعالى يقول: «مبارك عليك حصّتك!»، ويحثّنا أيضًا بقوله: «ادع للآخرين أيضًا»، حيث تحتلّ هذه الحقيقة أهمّية بالغة في الثقافة الإسلاميّة، لا سيّما الشيعيّة، ففي العديد من الروايات، جاء أنّه كلّما دعوت الله تعالى لأخيك بإخلاص ومن دون علمه، فإنّ الله تعالى سيُعطيك ضعف ذلك مائة ألف مرّة، حيث رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، نُودِيَ مِنَ الْعَرْشِ: "وَلَكَ مِائَةُ أَلْفِ

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٣.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٤.

ضِعْفِ مِثْلِهِ"، وَإِذَا دَعَا لِنَفْسِهِ، كَانَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ [عند الاستجابة]، فَمِائَةُ أَلْفٍ مَضْمُونَةٌ خَيْرٌ مِنْ وَاحِدَةٍ لَا يُدْرَى يُسْتَجَابُ لَهُ أَمْ لَا»[1].

٦. الحكمة شرط ضمنيّ في كافّة الطلبات (الحكمة بمنزلة ركن أساسيّ في الدعاء)

وأمّا المسألة الثالثة، والتي تتصّف بنوع من الدقّة، فهي أنّ الدعاء الحقيقيّ يتوفّر على ركنين ينقسم أحدهما إلى قسمين، ومن هنا، بوسعنا القول: إنّ الدعاء الحقيقيّ له ثلاثة أركان: الأوّل أن يكون الطلب واقعيًّا، وليس مجرّد جريان بعض الكلمات على لسان الإنسان، والتي لا يعلم هل يُريدها فعلًا أم لا، والثاني أن يتوجّه بطلبه إلى الله، ولهذا، تلزمه معرفته تعالى، لكي يتعرّف على طريقة عمل نظام الكرم الإلهيّ، وعلى العلاقة القائمة بين الدعاء وبين سننه عزّ وجلّ، فإذا كانت السنن الإلهيّة تقتضي عدم القيام ببعض الأمور، فإنّ طلب هذه الأمور يكون أشبه شيء بالمزاح، فنحن نعلم - مثلًا - أنّ قاتل سيّد الشهداء عليه السلام لا يُغفر له، وحينئذ، هل يجدر بنا أن نطلب من البارئ عزّ وجلّ أن يعفو عنه؟ فالله تعالى يقول: «لقد خلقت الإنسان لكي أضع بين يديه نتائج أفعاله الاختياريّة، وهذه النتائج تخضع لحساب، وتعتمد على معايير، فأنا لا أمنح على كلّ معصية قصرًا في الجنّة، وفي المقابل، لا أُذيق الذي يُقدّم خدمات عديدة حميمَ جهنّم». فالثواب والعقاب يتناسبان مع الأعمال، بل إنّ الطاعة والمعصية يتجسّدان بأنفسهما في ذلك العالم، كما أفاده العديد من المحقّقين. وعلى أيّ تقدير، فإمّا أن يكون فعل الإنسان هو العلّة الواقعيّة للثواب أو العقاب، أو أن يظهر هذا الفعل بحقيقته يوم القيامة، حيث جرى

(١) محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق)، **من لا يحضره الفقيه**، الجزء ٢، الصفحة ٢١٢.

التحقيق عن هذه المسألة في الكتب الكلاميّة، والتفسيريّة أحيانًا، ممّا لا يُبقي أيّ شكّ في كون الخلقة الإلهيّة ليست عبثيّة، هذا، وقد استدلّ الباريُ عزّ وجلّ على إثبات القيامة بحقّية خلقه وعدم عبثيّته، ويقول في كتابه العزيز: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1]، فهل يُمكن للذي قضى عمره في ارتكاب أفحش المعاصي أن يقول في آخر حياته: «إلهي، ضعني في أعلى درجة من الجنّة إلى جانب أفضل عبادك»، مسوّغًا طلبه هذا بقوله: «ألم تقل أنت بنفسك: "ادعوني أستجب لكم"؟، فها أنا ذا أدعوك أن تغفر لي كلّ هذه السنوات التي قضيتها في المعصية، وتهبني بعد ذلك كلّ ما وهبته لرسول الله صلى الله عليه وآله»![2] إنّ هذا الفعل عبثيّ، كما أنّ خلق الإنسان لم يُؤخذ فيه هذا الهدف، لأنّ الإنسان خُلق لكي يتوصّل إلى نتائج أعماله، وهي سنّة إلهيّة، حيث ورد في القرآن المجيد: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[3]، وفعل الله تعالى منزّه تمامًا عن اللغو والعبث.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

(٢) مع أنّ ما ذكره المصنّف المعظّم قد يصدق في كثير من الحالات التي لا يكون فيه دعاء الإنسان يتّصف بهذه الدرجة من الصدق والجدّ، لكن، قد نجد بعض الموارد التي يصل فيها صدقُ الإنسان في الدعاء درجةً، بحيث لو أنّ الله تعالى أعطاه عمرًا أكثر، لعوّض كلّ ما فاته من أعمال، ولعلّ الآية الشريفة التالية تُشير إلى هذا الأمر: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة النساء، الآية ١٠٠]، كما أنّ توبة بعض العصاة في أواخر حياتهم (كالحرّ بن يزيد الرياحيّ رضوان الله تعالى عليه) قد تُمثّل شاهدًا على هذه الدعوى، إذ قضى عُمرَه في تولّي الظالمين، لكنّه تاب في آخر حياته، وقبل منه الإمام الحسين عليه السلام توبته، فصار من أنصاره المحشورين معه، لكن، مع ذلك كلّه، فإنّ هذا لا يعني مساواة المحسن بالمسيء، بل إنّ المراد منه أنّ توبة الإنسان قد تبلغ درجة من التأثير في وجوده، والتغيير في نفسه، بحيث إنّه يطوي في بعض اللحظات ما كان عليه أن يطويه في سنوات عديدة. [المترجم]

(٣) سورة فاطر، الآية ٤٣.

أجل، يبقى أنّ الله تعالى يمنح على عمل حسن صغير ثوابًا غير محدود، ولو أُدّي في ساعة واحدة، وذلك لأنّ لكلّ عمل امتدادًا غير محدود، فمع أنّ الأعمال التي نقوم بها في هذه الدنيا محدودة باعتبار تحقّقها في الدنيا وفي زمان ومكان خاصّين، لكن، من شأنها أيضًا أن تتوفّر على امتداد غير محدود، وتفتح قناتها الخاصّة في الامتداد اللانهائيّ باعتبار تأثيرها في روح الإنسان والعالم المحيط به. إنّ البارئ عزّ وجلّ لا يُحبّ الأمور العبثيّة، بل يرغب في الأفعال الحكيمة، فتفضّله وكرمه غير عبثيّ، بل يخضع لحساب خاصّ، بمعنى: أنّ مضاعفته للثواب تعتمد على حساب وقانون محدّد. وعليه، فإذا كان الفعل عبثيًّا، فإنّ الله تعالى لن يقوم به. ومن هنا، فإذا قلنا إنّ الله تعالى يُضاعف الثواب - تفضّلًا - على العمل عشر مرّات، أو سبعمائة مرّة، أو سبعة آلاف مرّة، أو سبعمائة ألف مرّة، أو سبعمائة مليون مرّة، أو أكثر، فإنّ ذلك لا يعني عدم خضوع هذه المضاعفة لأيّ حساب، أجل، يبقى أنّ كلّ ما يُريده الله يتحقّق، إلّا أنّه تعالى لا يُريد العبث واللغو، بل إنّ فعله حكيم. ولهذا، علينا الالتفات حين الدعاء إلى من ندعوه، فالذي ندعوه له سنن، وأفعاله حكيمة وذات أهداف وغايات، ولا يخفى أنّ هذه الأهداف قائمة على اللطف والتفضّل، وليس على استحقاق العباد ولياقتهم، لكن، مع ذلك، نفس هذا التفضّل يخضع لحساب خاصّ، لا أنّه لغويّ وعبثيّ. ومن هنا، فإنّ الله تعالى لا يأمر بإدخال أحد في أعلى درجة من الجنّة، وآخر في أعماق جهنّم من دون سبب، بل إنّ جميع أفعاله تعالى محسوبة، ولها ظاهر وباطن، فمضاعفته للثواب خاضعة لحسابات وقواعد دقيقة، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[١]. فالباريء عزّ وجلّ عدّ فعله مطهّرًا ومنزّهًا عن اللعب، وعليه فإنّ كافّة موارد الثواب والعقاب قائمة على مبادئ حكيمة، فلا يصحّ أن نقول: إذا قضى أحدهم عمرًا مديدًا في المعصية، ثمّ ندم في الأخير، واكتفى بقول «أستغفر الله»، وعفا الله تعالى عنه، فإنّه سيصل إلى درجة تُضاهي درجة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وإلا، أفلا يكون أمر كهذا لغويًّا؟ ولو صحّ ذلك، لماذا خلق الله تعالى إنسان كهذا، وصبّ عليه كلّ هذه التكاليف؟

فلو كان من المقرّر أن يكون فعل الله تعالى قائمًا على العفو فقط، لخلق الجميع في الجنّة منذ البداية، ولما خلق هذا العالم بما يتضمّنه من امتحانات وابتلاءات ومصائب تعرّض لها أعزّ عباده، فلماذا قيل لسيّد الشهداء عليه السلام: «إنّ لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلّا بالشهادة»[٢]؟ فإذا تساءل أحدٌ عن سبب عدم إدخال الله تعالى لسيّد الشهداء وبقيّة أهل الجنّة إلى الجنّة منذ البداية، فإنّنا سنُجيب بأنّ هذه الخلقة تتناسب مع خلقة الملائكة، حيث جاء في القرآن الكريم على لسان الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[٣]، بينما خُلق الإنسان لكي يصل إلى درجات أعلى من الملائكة، لكن، بشرط أن يسلك هذه الطريق باختياره وسعيه، وفي هذه الحالة، هل يستوي الذي قضى عمرًا مديدًا في التمرّد على الله تعالى، مع الذي تحمّل كلّ تلك المشاقّ بواسطة دعاء واحد؟ ولا يخفى أنّ هذا الكلام لا يعني كذب آيات من قبيل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

(١) سورة الأنبياء، الآيات ١٦-١٨.

(٢) محمد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٤٤، الصفحة ٣٢٨.

(٣) سورة الصافّات، الآية ١٦٤.

دَعَانِۖ﴾(١)، بل المراد من هذه الآيات أنّه متى ما كان طلب العبد واقعيًا، وصدر الدعاء منه حقيقةً، فإنّ الاستجابة ستكون حتميّة، ومن هنا، فينبغي أن يكون الدعاء حقيقيًا، وحينما نطلب من الله الحكيم شيئًا، يجب أن لا يكون هذا الطلب لغويًا وعبثيًا. يقول البارئ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢)، ويُراد من عبارة «بغير حساب» أنّ عطاء الله غير قائم على حسابات العباد، بل إنّ رحمته تعالى لا حدّ ولا حصر لها، لكن، يبقى أنّ صفة الحكمة هي التي تُعيّن مجرى هذه الرحمة، وبعبارة أخرى: لا تخضع رحمة الله تعالى بالنسبة لجميع الناس لأيّة حدود من ناحية مبدأ الخلقة وفاعل هذه الرحمة، لكن، من جهة القابل (أي: الإنسان الذي يتلقّى هذه الرحمة)، فإنّ هناك بعض الحدود، وفي الحقيقة، فإنّ القابل لا يستطيع الاستفادة من الرحمة الإلهيّة غير المتناهية بما يفوق سعته.

علينا أن نطلب من الله تعالى أن يُكرمنا بفضله، لأنّنا لا نستحقّ كرمه، لكن، مع ذلك، فإنّ تفضّله يخضع إلى حساب خاصّ، أي: إنّ التفضّل يصدق على كلّ واحد بنحو معيّن، وعلى سبيل المثال، فإنّ هذا التفضّل لن يشمل أبدًا حال أفرادٍ كالشمر، إذ حينما ارتكب ذلك الظلم في حقّ الإمام المعصوم عليه السلام، لم يُبق لنفسه أيّة قابليّة لإدراك أيّ نوع من الفضل الإلهيّ، وعليه، فإنّ الأدعية التي نقلها إلينا الأئمّة المعصومون عليهم السلام صحيحة بأجمعها، ويتعيّن علينا قراءتها، ومن اللازم علينا أن نطلب من الله تعالى في مقام الدعاء: «اللهمّ أشبع كلّ جائع»، لكنّ كلّ هذه الأدعية تخضع لقيد، مُفاده: أنّ الاستجابة مشروطة بعدم

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٢) سورة الزمر، الآية ١٠.

معارضة الحكمة، من هنا، بما أنّنا نقف أمام بحار الرحمة الإلهيّة غير المتناهية، فلا غضاضة في أن نطلب المزيد من الله تعالى، لكن، علينا أن نعلم في الوقت ذاته أنّنا نقف أمام إله حكيم يبني كافّة أفعاله على الحكمة، ولا يقبل إلا بالأشياء التي لا تتعارض مع سننه الراسخة.

وعليه، فإنّ هذه الأدعية صحيحة بأجمعها، وتلزمنا قراءتها، لكنّ استجابتها مشروطة بعدم معارضة الحكمة.





«اللَّهُمَّ إِنَّا نَتُوبُ إِلَيْكَ فِي يَوْمِ فِطْرِنَا الَّذِي جَعَلْتَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِيدًا وسُـرُورًا، ولِأَهْـلِ مِلَّتِكَ مَجْمَعًا ومُحْتَشَدًا مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ أَذْنَبْنَاهُ، أَوْ سُوءٍ أَسْلَفْنَاهُ، أَوْ خَاطِرِ شَرٍّ أَضْمَرْنَاهُ، تَوْبَةَ مَنْ لَا يَنْطَوِي عَلَى رُجُـوعٍ إِلَـى ذَنْـبٍ، ولَا يَعُودُ بَعْدَهَا فِي خَطِيئَةٍ، تَوْبَةً نَصُوحًا خَلَصَتْ مِنَ الشَّكِّ والِارْتِـيَـابِ، فَتَقَبَّلْهَا مِنَّا، وارْضَ عَنَّا، وثَبِّتْنَا عَلَيْهَا، اللَّهُمَّ ارزُقْنَا خَوْفَ عِقَابِ الْوَعِيدِ، وشَوْقَ ثَوَابِ الْمَوْعُودِ حَتَّى نَجِدَ لَذَّةَ مَا نَدْعُوكَ بِهِ، وكَأْبَةَ مَا نَسْتَجِيرُكَ مِنْهُ، واجْعَلْنَا عِنْدَكَ مِنَ التَّوَّابِينَ الَّذِينَ أَوْجَـبْـتَ لَهُمْ مَحَبَّتَكَ، وقَبِلْتَ مِنْهُمْ مُرَاجَعَةَ طَاعَتِكَ، يَا أَعْدَلَ الْعَادِلِينَ».

١. يوم السرور... يوم الأوبة إلى الله تعالى

بعدما طلب الإمام السجّاد الرحمة الإلهيّة الواسعة في يوم عيد الفطر لأجل التعويض عن التقصيرات المرتكبة في شهر رمضان المبارك، تطرّق عليه السلام لخصائص يوم العيد، حيث طرح في البداية مسألة التوبة. ففي العبارات السابقة، نُلاحظ وجود بعض الإشارات أو التصريحات لهذه المسألة، لكنّه عليه السلام يتعرّض لها هنا بتفصيل أكبر ولحن خاصّ، ويقول: «إلهي، إنّنا نؤوب إليك في يوم فطرنا هذا».

٢. أركان التوبة الكاملة

للتوبة أركان قد يُغفل عنها أحيانًا، هذا، مع أنّ المراد من التوبة ليس مجرّد التفات الإنسان إلى أعماله السيّئة، وندمه المؤقّت، وإجراء الاستغفار على لسانه، فأحيانًا، قد تحصل للإنسان حالة، فيندم على تصرّفاته، ويقول «أستغفر الله»، لكنّك تجده قبل أن يتمّ كلامه يغرق في التفكير في المعصية. لقد نهى أئمّتنا عن هذا النوع من التوبة، حيث جاء في نهج البلاغة أنّ رجلًا قال في محضر أمير المؤمنين: «أستغفر الله ربّي وأتوب إليه»، فانتبه عليه السلام إلى أنّ كلامه لا يحكي عن توبة حقيقيّة واستغفار واقعيّ، ولهذا، وبّخ هذا الرجل، وقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، أَ تَدْرِي مَا الاِسْتِغْفَارُ؟ الاِسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، والثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَدًا، والثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ ...، والرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حقَّهَا، والْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى يَلْصَقَ الْجِلْدُ بِالْعَظْمِ ويَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ

جَدِيدٌ، والسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»[١].

أجل، يبقى أنّ الاستغفار الذي تحدّث عنه أمير المؤمنين هو الاستغفار الكامل، وليس أنّه عليه السلام يُريد القول: إذا لم يتيسّر استغفار كهذا للإنسان، فليتخلّ عن التوبة مطلقًا، وليستمرّ في ارتكاب المعاصي، بل مراده عليه السلام أن لا نستخفّ بالتوبة، ونظنّ أنّ مجرد قول «أستغفر الله» يحلّ المسألة نهائيًا. لقد جرى التأكيد في القرآن الكريم على التوبة النصوح، حيث تعني كلمة «النصوح» في هذه العبارة: الخالصة، كما يُراد من العسل النصوح العسل الذي يخلو من الشمع، ويُصفّى تمامًا.

٣. الشكّ أوّل مانع عن التوبة النصوح

وفي هذا المقام، يُطرح علينا السؤال التالي: ما هو الأمر الذي يمتزج بالتوبة، فيُسقطها عن درجة الخلوص؟ والجواب أنّ كلّ مرحلة من مراحل التوبة قد تكتنفها مجموعة من الشوائب، فالتوبة التي تبدأ من فكر سليم هي التي تُؤدّي إلى انفعال النفس، والندم على المعصية، والقيام بأفعال باطنيّة (العزم على الترك) وظاهريّة، ولهذا، على المذنب أن يكون معتقدًا بأنّ الفعل الذي ارتكبه سيُفضي إلى هلاكه، وأمّا إذا لم يمتلك مثل هذا الاعتقاد، وكان يُعاني في أعماق قلبه من الشكّ بأنّ التبعات التي ذُكرت لبعض الأعمال هل هي حقيقيّة أم لا، وكان يقول «أستغفر الله» من باب الاحتياط فقط، فإنّه لن يكون قد حقّق الدرجة الأولى من التوبة الحقيقيّة، بل خلطها بالشكّ والريبة.

---

(١) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، تحقيق: صبحي صالح، الحكمة ٤١٧.

أحيانًا، قد تتجلّى هذه الشكوك بصور مختلفة، وعلى سبيل المثال، فإنّ الذي اعتاد على المعاصي، ورسخت في وجوده لذّتها، لا يكون مستعدًّا للاعتراف بها بكّل سهولة، وعمومًا، فإنّ الإنسان لا يُحبّ أن يظهر على أنّه شخص سيّء حتّى لدى نفسه، ولهذا، فإنّه يسعى في البداية إلى تبرئة نفسه عند ضميره، وإلقاء التقصير على الآخرين، ويقول مع نفسه: «لقد كان فلان هو المقصّر، لأنّه أغضبني، ودفعني إلى التلفّظ بكلام بذيء، وإلا، فإنّ كلامًا كهذا لا يصدر منّي، فلا يحقّ له أن يتصرّف معي بهذه الطريقة...»، فحينما يرتكب الإنسان العاديّ خطأ، فإنّه يُكرّر مثل هذا الكلام في نفسه، وإذا لم يتمكّن من تبرئة نفس لدى ضميره، ولم تفلح هذه الإسقاطات النفسيّة، فإنّه يلجأ في المرحلة اللاحقة إلى القول: «أنا لم أرتكب جناية! وهذا لم يكن بالأمر المهمّ! وليست كلّ الأحكام الفقهيّة قطعيّة، كما أنّ هناك خلافات كثيرة في الفتوى، ولعلّ بعضًا لا يعدّ هذا الفعل حرامًا!»، وأمّا إذا اتّضح وجود إجماع في الفتوى على حرمة ذلك العمل، واتّفاق الجميع على القول بحرمته، فإنّ بعضًا يلجأ إلى التعذير بطريقة أخرى، ويقولون: «إنّ الذين أفتوا بها الأمر ليسوا معصومين...»، وإذا تجاوزنا هذه المرحلة، وتبيّن أنّ الله تعالى نهى عن هذا الفعل قطعًا، وأوعد فاعله بالعذاب، فإنّهم يبدؤون في التشكيك في كلام الله تعالى، وحينما لا ينفعهم التشكيك في السند والدلالة، ويُقطع بالوعيد الإلهيّ القاضي بالعذاب، فإنّهم يصلون إلى حدّ القول: «ما الدليل على أنّ الرسول كان يقول الحقّ؟».

قبل عدّة سنوات، قال أحد أساتذة كلّية الإلهيّات بجامعة طهران لطلبته: «نحن لا نمتلك أيّ دليل يُشير إلى أنّ كلّ ما قاله الله تعالى أو رسله هو كلام واقعيّ، ولعلّ حديثهم عن كلّ هذا الوعد والوعيد مجرّد وسيلة تربويّة لإخافة الناس، حتّى يسود المجتمع الاطمئنان، ويعيش

الناس بأمان، هذا، مع أنّه ورد في النصوص الدينيّة أيضًا أنّ هذا الكلام هو لإنذار الناس وإخافتهم!»، وقد قال أحد الأصدقاء: «رأيت أحد الطلبة في مصعد كلّية الإلهيّات يرتجف، وتنهمل الدموع من عينيه بغزارة، فقلت له: "ماذا حصل؟"، فقال: «لقد كنّا نمتلك قليلًا من الدين والإيمان، فسلبه منّا أيضًا هذا الأستاذ!»».

وأحيانًا أيضًا، قد لا تُفلح إسقاطات كهذه، ويُدرك الإنسان حقيقةً بأنّه ارتكب عملًا سيّئًا، لكنّه يعتذر لفعله بالكلام التالي: «الكثير من الناس يُخطؤون ويُذنبون! ليس كلّ الناس معصومين! لكلّ واحد ذنوبه، وأنا لي أيضًا ذنوبي! فهذه مسألة عاديّة، ولا ينبغي أن تبعث على القلق أو الانتحار!» وعلى أيّ تقدير، حينما يرتكب الإنسان فعلًا سيّئًا، فإنّه لا يُريد عادةً أن يعترف، ويسعى لتبرئة نفسه عن طريق الإسقاط.

فالإنسان لا يندم حقيقةً، إلّا إذا تيقّن أنّ وعود القرآن والمعصومين تتّصف بالواقعيّة، وأنّ للمعاصي التي ارتكبها تبعات حقيقيّة تنتظره، بخلاف ما لو شكّ في هذه المسائل، واحتمل أنّ الهدف من ذكر تلك الوعود في القرآن الكريم مجرّد استعمال وسيلة تربويّة، وأنّ حقيقة جهنّم ليست كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[1]، فإنّ توبته في هذه الحالة لن تكون واقعيّة.

٤. العادات السيّئة المانع الثاني عن التوبة النصوح

بعدما يتيقّن الإنسان بأنّ عذابًا أليمًا ينتظره، وأنّ وعود الله تعالى وأوليائه ليست مجرّد مزاح، فقد تصدّه أحيانًا عادته على لذّة المعصية عن العزم

(١) سورة الحاقّة، الآية ٣٢.

على تركها، وهذا نظير المعتاد على شرب السجائر، فقد يكون مؤمنًا بأنّ هذا العمل سبب في ضياع ماله، والإضرار بصحّته وصحّة المحيطين به، لكنّه مع ذلك لا يكون مستعدًّا للإقلاع عنه، لأنّ اعتياده عليه يحجزه عن تركه. فبعض العادات لها طابع نفسي فقط، بينما لبعضها الآخر طابع فيزيولوجي أيضًا، تؤثّر في البدن، بحيث إذا حلّ وقت أدائها، فإنّ البدن يشعر بالحاجة إليها، وهذه مسألة يشعر بها الإنسان واقعًا في حياته، إذ متى ما اعتاد على شيء، فإنّه لا يستطيع العزم على تركه بكلّ سهولة. وعلى نفس هذا المنوال، فإنّ الذين يعتادون على معصية، لا يتمكّنون بكلّ يسر من العزم على تركها، وقد ظهرت في هذا العصر بعض العادات الجديدة، كاستعمال الشبكة العنكبوتيّة (الإنترنت)، ومشاهدة الأفلام الخلاعيّة، والتي تُعدّ أسوء من عادة شرب الخمر، حيث يُقال: إنّ بعض الدول قد لجأت إلى تشييد مستشفيات من أجل مساعدة المدمنين على الإنترنت، هذا، وقد بلغت درجة اعتياد بعض الناس على مشاهدة نوع من الأفلام إلى حدّ أنّهم لا ينامون إلّا بعد مشاهدتها، مع أنّهم مطّلعون على ما يستتبعه ذلك من مرض ومعصية وفساد أخلاقي وخلافات عائليّة.

فالإنسان الذي اعتاد على المعصية لا يستطيع العزم على الإقلاع عنها، ولو بعد تيقّنه من كونها معصية، وبأنّها تستتبع عذابًا عظيمًا، وبأنّ الحكم بكونها معصية لا يعتمد على مجرّد فتوى من مجتهد معيّن، أجل، ما دام لم يحن وقت تلك العادة، فإنّه قد يندم، بل وقد تنهمل الدموع من عينيه أيضًا، لكن، حينما يحلّ زمان العادة، فإنّه ينسى جميع تلك الأمور. لا ريب في أنّ هذه التوبة ليست نصوحًا، بل تكتنفها مجموعة من الشوائب، وقد سمعنا كثيرًا عن أفراد تابوا، وهيّؤوا لتوبتهم العديد من المقدّمات، كزيارة مشهد وكربلاء، لكن، بعد فترة قصيرة، عادوا إلى حالتهم السابقة، فشأنهم شأن بعض المدمنين الذين يتخلّون عن استعمال

الموادّ المخدّرة، لكن، ما إن تمرّ مدّة قصيرة، حتّى يرجعوا لاستهلاك هذه الموادّ، حيث يُعدّ ذلك من الآفات التي تقف في طريق العزم على ترك كلّ فعل خاطئ، ولا يقتصر على مدمني الموادّ المخدّرة، لأنّ للعادة أشكال متعدّدة، ومن هنا، فللوصول إلى التوبة النصوح، يتعيّن في الخطوة الأولى إزاحة جميع أنواع الشكّ والتردّد.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة: «إلهي، إنّنا نتوب إليك توبة نصوحًا خالصة من كلّ شكّ وريبة، وقد عزمنا بشكل جادّ على عدم الرجوع إلى الذنوب»، أجل، يبقى أنّ التعاليم الدينيّة والتجارب الشخصيّة تقضي بأنّ الإنسان لا يُمكنه الاطمئنان إلى مستقبله بنحو قطعيّ، فأحيانًا، يعزم أحدهم بجدّ على ترك المعاصي، بل وينذر نذرًا كبيرًا يتوجّب عليه أداؤه إذا رجع إلى الذنوب، لكن، مع ذلك، لا يُمكنه الاطمئنان إلى أنّ الشيطان قد يغرّه في يوم من الأيّام، ولا يخفى أنّ هذا لا يعني كونه متردّدًا، وأنّه لم يتّخذ قرارًا حاسمًا، بل المراد من ذلك أنّ له تجربة مع نفسه ومع الآخرين تفيد بأنّ الإنسان قد يقضي عمرًا مديدًا في الأعمال الصالحة، أو قد يتوب، ويتخلّى عن ارتكاب معصية لعدّة سنوات، لكن، بسبب طروء حادثة ما، يعود مرّة أخرى لارتكابها، ولهذا، علاوةً على الاستغفار، على الإنسان أن يطلب من الله تعالى العون، كما جاء في كلام الإمام السجّاد عليه السلام: **«وَثَبِّتْنَا عَلَيْهَا».**

فإلى جانب التوبة، على الإنسان أن يلتجئ إلى الله تعالى، قائلًا: «إلهي، غاية ما يُمكنني فعلُه أن أتوب إليك، وأعزم على ترك عصيانك، لكن، من الآن وصاعدًا، أعنّي أنت لكيلا أسقط مرّة أخرى في فخّ المعصية المظلم، وتفضّل عليّ بمددك حتّى أبقى ثابتًا وراسخًا على التوبة».

فبالنظر إلى هذه المقدّمات، بوسعنا أن نفهم السبب من وراء تأكيد الإمام السجّاد أوّلًا بقوله: «إلهي، أنا أتوب إليك في يوم عيد الفطر»، فلعلّ السبب في تأكيده عليه السلام على التوبة في يوم العيد أنّ الله تعالى جعله يوم سرور المسلمين، فقبل ذلك، طلب الإمام عليه السلام من ربّه: «اجبر تقصيراتنا في يوم عيد الفطر»، والآن، قد حلّ يوم العيد الذي ينبغي أن تُجبر فيه التقصيرات، وإذا اكتُنفت أعمالنا بالنقائص، ولم نتمكّن في شهر رمضان المبارك من رفعها، فإنّ اليوم هو آخر فرصة للتعويض عنها، ففي ظروف كهذه، يُناجي الإمام عليه السلام ربّه: لقد جعلت عيد الفطر محلًا لاجتماع كافّة المسلمين والمؤمنين، ومحطًّا لسرورهم، فأنت الذي أردت أن يفرح عبادك المؤمنون في هذا اليوم بعد قضائهم لشهر كامل في الصيام، وأنا أيضًا صمت، ولذلك، ستُحبّ أن أُسرّ أيضًا، ففي ظروف كهذه، أتيت إلى بابك، أطلب التوبة والأوبة منك، وحينئذٍ، أفلا يحسُن أن تقبلني، وتُثلج صدري؟

بالتأكيد، مع حلول عيد الفطر، والتواجد بين طائفة جَمَع اللهُ تعالى بينها لكي يُفيض عليها رحمة أعظم، فإنّ هناك اقتضاءً أكبر لقبول التوبة، بحيث يحقّ للتائب أن يتوقّع من الله تعالى قبول توبته، فلسان حاله في هذه الحالة يقول: «إلهي، أنت تُحبّ أن تسرّ المؤمنين في هذا اليوم، فأثلج صدري بقبول توبتي في يومنا هذا... اليوم الذي جعلته عيدًا، وسببًا لفرح المؤمنين، وزمانًا لاجتماع أهل ملّتك وتعاضدهم»، ومن الجدير بالذكر أنّ كلمة «الملّة» لا تُنسب عادةً إلى الله تعالى، وقد نُسبت إليه في هذا الدعاء فقط، فلا نجد في أيّة من الآيات القرآنيّة نسبة «الملّة» إليه تعالى، كما أشار إليه أيضًا بعض المتخصّصين في مجال اللغة، كالراغب الذي قال ما مفاده: «من الفوارق بين كلمتي "الدين" و"الملّة" أنّ الدين يُنسب لله تعالى وللأمّة ولآحادها، بينما لا تُنسب الملّة إليه

تعالى»[١]، ولو أنّها تُنسب إلى الفرد أو المجتمع، فنُسبت مثلًا في الكتاب العزيز إلى إبراهيم عليه السلام، حيث يقول البارئ عزّ وجلّ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[٢]،كما نجدها أيضًا نُسبت في آية أخرى إلى المجتمع، وذلك حينما أراد قوم شعيب منه أن يرجع إلى ملّتهم: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾[٣].

يوجد ترادف بين كلّ من «الجمع» و«المجمع» و«المُحتشَد»، لكن، قيل بوجود فارق دقيق وظريف فيما بينها، فيُقال لكلّ اجتماع «جمع»، ولمحلّ الاجتماع «مجمع»، وأمّا بالنسبة لكلمتي «الحشد» و«الاحتشاد»، فتُستعملان في حقّ الجمع الذي يُشكّل لأجل هدف معيّن، ويتعاون فيه أفراده للوصول إلى هدف مشترك، هذا، وتُستخدم اليوم كلمة «الحشد» في العراق في معنى يُرادف كلمة «بسيج» [في إيران][٤]. لقد استعان الإمام عليه السلام بعبارات ثلاث لتحديد الموارد التي نتوب منها، وذلك بالنحو الآتي:

«في هذا اليوم الذي هو يوم عيد وسرور، نتوب إليك من كلّ ذنب اقترفناه، وكلّ سيّئة ارتكبناها، وكلّ خاطرة بذيئة جاءت على بالنا، توبةً نعزم فيها من صميم قلبنا على عدم العودة إلى المعاصي والأخطاء، توبةً نصوحًا خالصة من كلّ شكّ، فاقبلها منّا، وارض عنّا، وثبّتنا عليها».

---

(١) الحسين بن محمد الراغب الأصفهانيّ، **المفردات في غريب القرآن**، ذيل كلمة «ملّة».

(٢) سورة آل عمران، الآية ٩٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٨٨.

(٤) ويُراد منها قوّات التعبئة. [المترجم]

٥. لذّة التوبة وغمّها

٣٦٨ بعد ذلك، يُقدّم الإمـام السجّاد عليه السلام طلبًا آخر يختلف عن طلباته السابقة. إنّ الذي يدفع الإنسان إلى اللجوء إلى التوبة هو الخوف من العقاب، ورجاء الثواب، غير أنّ الخوف من العقاب كيفما كان نوعه يجلب الحزن للإنسان، وعلى سبيل المثال، إذا فكّر الإنسان في أنّ عمره قد ضاع، فإنّ ذلك سيُحدث فيه نوعًا من الحزن، لكنّ الإمام عليه السلام يُخاطب ربّه بقوله: «إلهي، ألتمس منك أن تجعلني بحيث إذا كنت في مقام الخوف من عقابك أو الشوق إلى ثوابك، فإنّني ألتذّ بهذا الشعور الذي أعيشه، أي: بشعور أنّني أتخلّى عمّا يوجب العقاب، وأتمسّك بما يُحصّل الثواب».

وهنا، توجد مسألة دقيقة، مُفادها: أنّنا نظنّ أنّ الإنسان في جميع الأحوال إمّا يكون خائفًا أو آمنًا، وإمّا مغتمًّا أو مسرورًا، ولا يمكنه أن يكون في الوقت ذاته حزينًا ومسرورًا، بينما نعلم أنّه قد تعرُض بعض الحالات عليه، فيغتمّ، وتجري الدموع من عينيه، لكنّه يكون مسرورًا ببكائه، حيث إنّ البارئ عزّ وجلّ قد جعل في الإنسان القابليّة على أن يُبدي في آن واحد شعورين مختلفين تجاه شيء واحد، لكن من جهتين مختلفتين. ونرى بعض المحسوبين على التيّار التنويري يقولون: «ألا تعتقدون بأنّ الإمام الحسين عليه السلام بلغ درجةً رفيعة بشهادته؟ إذًا، عليكم أن تفرحوا لشهادته، لا أن تبكوا عليه!»، لكن، إذا تمكّن الإنسان من إدراك المسألة التي تحدّثنا عنها، والشعور بها، سيكون بوسعه الإجابة عن كثير من هذه الإلقاءات الشيطانيّة.

فالنفس الإنسانيّة تمتلك قابليّة النظر إلى حادثة واحدة من زاويتين مختلفتين، فينتابها الحزن من زاوية، ويعمّها السرور من زاوية أخرى. فالعائلة التي تُرسل ابنها إلى بلاد بعيدة لاكتساب العلم، أو الأرقى من

ذلك أنّها تُلقي به في ميدان المعركة مع الباطل، وتدعو له بالشهادة لكي تفتخر بذلك أمام سيّد الشهداء (عليه السلا)م، حينما تريد توديعه، فإنّها تحزن، وتذرف الدموع، فمع أنّها تكون سعيدة جدًّا من ناحية أنّ ابنها سيصل إلى مقامات عالية، إلا أنّها تحزن أيضًا من ناحية الفراق، وفي هذه الحالة، فإنّنا نرى تحقّق حادثة واحدة حقيقةً، وهي السفر، إلا أنّ هذه الحادثة تتوفّر على بُعدين اثنين، الأوّل: فراق الابن الذي يتسبّب في بكاء الأمّ، والثاني: التمهيد لبلوغ الابن درجات رفيعة، ممّا يوجب سرور الأمّ. وتُمثّل هذه المسألة حقيقةً ينبغي معالجتها بالاستعانة بالتجارب والتحليلات السيكولوجيّة، وإثباتها بطريقة علميّة بواسطة جمع الشواهد والقرائن، ولعلّه بمقدورنا تحديد العلاقة بين هذه الحالات، وبين الجهاز العصبي، وبيان تأثيراتها المختلفة على المحاور العصبيّة، والخلايا الدماغيّة، والاستعانة بذلك لحلّ المسائل الآنفة الذكر.

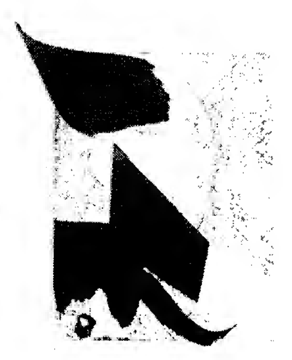
وعليه، من شأن حادثة واحدة أن تكون باعثة من جهة على الفرح، وموجبة من جهة أخرى للغمّ والحزن، وعلى نفس هذا المنوال، حينما نتوب، فإنّنا نفرح لتخلّصنا من الذنوب، لكنّنا في الوقت ذاته نحزن لارتكابنا هذه الذنوب. فالإمام السجّاد عليه السلام يطلب من الله تعالى توفيق التوبة والخوف من العقاب والشوق إلى الثواب، وفي نفس الحين، يُريد منه تعالى أن يُذيقه لذّة قبول هذه التوبة، أي: في عين إحساسه بالخوف والشوق، يُريد أن يشعر أيضًا بأنّ الله تعالى ينظر إليه بنظرة العطف، وأنّه يُربّت بيد إحسانه على رأسه، ويقبله. وفي هذا المقام، توجد مسألة دقيقة أخرى تتمثّل في أنّ طلب الأشياء من الله تعالى، وطرق بابه، والبكاء، وتعفير الوجه بالتراب لها لذّة خاصّة يُحبّ الإنسان تذوّقها، لكن، في الوقت ذاته، فإنّه يحزن لارتكاب الذنوب، ويقول مع نفسه: «ليتني لم أقترف تلك المعاصي».

٦. محبّة الله تعالى أرفع لذّة

٣٧٠ بعد ذلك، يُقدّم الإمام عليه السلام طلبًا لطيفًا، وذلك بالنحو التالي: «إلهي، لقد قلت في كتابك إنّك تُحبّ التائبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[1]، وأنا أريد أن أكون من الذين تُحبّهم»، فهذا الكلام أرفع بكثير من الأشياء التي طُرحت آنفًا، حيث نرى الإمام عليه السلام يطلب من ربّه: «أريدك أن تحبّني»، فعادةً، يسعى الإنسان لجلب محبّة المحيطين به، أعمّ من أن يكونوا من أفراد عائلته، أو جيرانه... لا سيّما إذا كانت من بينهم شخصيّة عظيمة، فإنّه يرغب في جلب محبّتها وانتباهها، كأن تصلنا مثلًا رسالة من سماحة السيّد القائد يقول فيها: «أنا أحبّك!»، ففي هذه الحالة، هل يوجد منّا من يقبل باستبدال هذه الرسالة بمقابل مادّي؟ فصحيح أنّه إذا بعث إلينا بمقدار من المال، فإنّنا سنفرح، لكن، شتّان بين حلاوة هذا المال، وبين حلاوة أن يُرسل أحدَهم، ويقول له: «اذهب إلى فلان، وقل له: "إنّني أحبّك"»؟ فهذه الرسالة هي على درجة من الحلاوة، بحيث تفوق كافّة العطاءات المادّية، أجل، يبقى أنّ الناس مختلفون فيما بينهم، وبحسب اختلافهم، تختلف الأمور التي يسعون وراء محبّتها، فعلى سبيل المثال، يُريد الأطفال أن يُحبّهم آباؤهم وأمّهاتهم، وحينما يكبرون، يسعون لاكتساب أصدقاء، ويرغبون في أن يُحبّهم أصدقاؤهم، وعندما يتزوّجون، فإنّهم يسعون لجلب محبّة أزواجهم، لكن، إذا بلغ الإنسان إلى مستوى، بحيث يصبُح الله تعالى يُحبّه، فإنّه يكون قد وصل إلى مقام يعلو كافّة المقامات، ولهذا، نجد الإمام عليه السلام يطلب من ربّه: «إلهي، اجعلني من التوّابين الذين قلت إنّك تُحبّهم».

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.



«اللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَنْ آبَائِنَا وأُمَّهَاتِنَا وأَهْلِ دِينِنَا جَمِيعًا مَنْ سَلَفَ مِنْهُمْ ومَنْ غَبَرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّنَا وآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى مَلَائِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ، وصَلِّ عَلَيْهِ وآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى أَنْبِيَائِكَ الْمُرْسَلِينَ، وصَلِّ عَلَيْهِ وآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، صَلَاةً تَبْلُغُنَا بَرَكَتُهَا، ويَنَالُنَا نَفْعُهَا، ويُسْتَجَابُ لَهَا دُعَاؤُنَا، إِنَّكَ أَكْـرَمُ مَنْ رُغِبَ إِلَيْهِ، وأَكْفَى مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْهِ، وأَعْطَى مَنْ سُئِلَ مِنْ فَضْلِهِ، وأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

١. الدعاء للآخرين

بعد حمد الله تعالى وتوديع شهر رمضان المبارك، تقدّم الإمام زين العابدين عليه السلام بمجموعة من الطلبات لله تعالى، والتي تمثّلت أساسًا

في غفران الذنوب، وجبران الأخطاء السابقة، والظفر ببركات في المستقبل، إلى بلوغ أعلى درجات الجنّة، وفي هذه الفقرة التي تتضمّن الجمل الأخيرة من هذا الدعاء الشريف، نجده عليه السلام يدعو للآخرين، وبطبيعة الحال، فإنّ أكثر من لهم حقّ على الإنسان أبوه وأمّه وأقاربه، ثمّ بقيّة المسلمين، وقد حظيت مسألة الإحسان إلى الوالدين - سواء حين حياتهم أو بعد وفاتهم - باهتمام خاصّ في القرآن الكريم، حيث جرى التعبير عنها بعبارات تحكي عن غاية عناية البارئ عزّ وجلّ بها، كما جاء في إحدى الآيات: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]، ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[2]، وبالطبع، فإنّ الوالدين مقدّمان على البقيّة، بحيث لا يُضاهيهما في الحقّ أيّ واحد من الناس العاديّين، أجل، يبقى أنّ لحقّ الرسول الأكرم والأئمّة الأطهار عليهم السلام مكانته وأدلّته الخاصّة، والتي سوف تأتينا فيما يلي من أبحاث.

بعد ذلك، يقوم الإمام عليه السلام بطلب كافّة الخيرات لجميع الذين يستحقّونها، وهو بالنسبة إلينا درسٌ نتعلّم منه عدم الاقتصار على رغباتنا الخاصّة حين الدعاء، وقد ذكرنا سابقًا أنّ أحد الأمور التي تُستفاد من هذا الدعاء أنّه على الإنسان الرفع من همّته عاليًا، وأن لا يكتفي بالأشياء التي يحتاجها فقط، بل عليه أن يطلب لنفسه ولغيره جميع ما يصل إليه عقله، وكلّ رحمة ونعمة يُمكن أن يُفيضها البارئ عزّ وجلّ على مخلوق، ولهذا السبب، رأينا الإمام يطلب من ربّه في نفس هذا الدعاء: «هبني ثواب جميع الذين قبلت منهم الصيام إلى يوم القيامة»، حيث

(١) سورة لقمان، الآية ١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

يُعلّمنا دعاؤه عليه السلام أن لا نُخضع طلبنا في مقام الدعاء لأيّ حدّ، وأن لا ننسى - من ناحية ثانية - الآخرين، ولا يخفى أنّ هذه الأدعية مكتنفة بشرط ضمنيّ مفاده ضرورة احتلال طلب الإنسان مكانه في داخل النظام الأحسن، وعدم معارضته للحكمة الإلهيّة، ولهذا، حينما ندعو للغير، علينا أن لا نشمل بهذا الدعاء الذين أشار البارئ عزّ وجلّ إلى عدم العفو عنهم مطلقًا، وحتّى إذا شملهم الدعاء ظاهرًا، فإنّهم سيخرجون عنه واقعًا.

ويصدق عكس هذه المسألة أيضًا، فقد جاء في زيارة عاشوراء: «اللهمّ العن بني أميّة قاطبة»، ولا ريب في أنّه إذا كان هناك مؤمن ينتمي إلى بني أمّية، يُعارضهم، ويُشايع عليًّا، فإنّه سيخرج من تلقاء ذاته عن هذه اللعنة، حيث تدخل هذه الاستثناءات في ضمن الأمور العرفيّة والعقلائيّة. وأبرز نموذج لهذه المسألة في القرآن الكريم الوعدُ الإلهيّ للنبيّ نوح بنجاة كافّة أسرته، في حين أنّه تعالى لم يُنجّ أحد أبنائه، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾[1]، ففي هذه الفقرة من الدعاء، يقول الإمام السجّاد: «إلهي، ارحم آباءنا وأمّهاتنا وأهل ديننا أجمعين، سواء الذين ارتحلوا عن هذا العالم، أو الذين بقوا إلى يوم القيامة»، حيث نجده عليه السلام يطلب المغفرة مُقدّمًا للذين قد يأتون بعد ألف سنة، ويرتكبون الذنوب، فحينما يقف الإنسان أمام بحار الرحمة الإلهيّة، عليه أن يمتلك مثل هذه السعة في النظر، ولا يخفى أنّ هذا الدعاء لن يشمل الذين يفتقدون الأهليّة له.

(١) سورة هود، الآية ٤٦.

٢. درجات الصلوات وعلوّ الصلوات الإلهيّة

في آخر فقرة من الدعاء، يُصلّي الإمام السجّاد على النبيّ الأكرم وآله الطاهرين عليهم السلام، ويقول: «إلهي، كما أهبطت رحمتك على جميع ملائكتك المقرّبين، وشملتهم برعايتك الخاصّة، اشمل بهذه الرحمة والرعاية النبيّ وأهل بيته عليهم السلام، وكما أنزلت صلواتك على أنبيائك، أنزل أيضًا هذه الصلوات على النبيّ وأهل بيته عليهم السلام، وكما صلّيت على عبادك الصالحين، صلّ عليه وآله أيضًا».

لقد أمرنا البارئ عزّ وجلّ في كتابه العزيز بأن نُصلّي على النبيّ الأكرم، حيث قال في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[1]، وفي آية أخرى، جاء في حقّ المؤمنين: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾[2]، فبمقتضى هذه الآيـة، يكون المراد من صلوات الله وملائكته على المؤمنين عنايتُه تعالى الخاصّة برقيّهم وكمالهم وتطوّرهم وتمتّعهم برحمته.

ونلاحظ أنّ الإمام عليه السلام أشار في البداية إلى الملائكة المقرّبين، ولعلّ السبب في ذلك تقدّم الملائكة زمانًا على خلق الإنسان وبعثة الأنبياء.

وبما أنّ الأنبياء هم أفضل الناس، فإنّ الإمام عليه السلام يذكرهم بعد الملائكة، ولا يخفى أنّ صلوات الله تعالى لا تختصّ هنا بالأنبياء، إذ هناك بعض الناس الذين يفوقون الأنبياء (سوى النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله) في

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

المرتبة، مع أنّهم ليسوا بأنبياء، ومنهم الأئمّة عليهم السلام بوصفهم قدرًا متيقّنًا. ويقول الإمام السجّاد عليه السلام ملتجئًا إلى ربّه: «كما صلّيت على جميع عبادك الذين يستحقّون صلاتك (أي الصالحين)، صلّ على نبيّنا وأهل بيته عليهم السلام»، ونلاحظ أنّ هذا التشبيه يتعلّق أوّلًا بأصل الصلاة، وثانيًا بكمّيتها (أي: بعدد الصلوات التي تنزل على كافّة الأنبياء والملائكة)، هذا، مع أنّ بعض الروايات تُفيد ببعث ١٢٤ ألف نبيّ، كما أنّ عدد الملائكة غير معلوم لدينا، بل بوسعنا القول إنّ هذا العدد يفوق حدّ إحصاء الإنسان. فالإمام عليه السلام يدعو ربّه: «صلّ على النبيّ وأهل بيته عليهم السلام بمجموع الصلوات التي تُصليّ بها على هؤلاء». وأمّا من حيث النوعيّة، فإنّه عليه السلام يقول: «ولتكن الصلاة التي تُصلّي بها على النبيّ وأهل بيته عليهم السلام أعلى من الصلوات التي تُصلّي بها على الملائكة والأنبياء»، حيث يحكي هذا الكلام عن الدرجات المختلفة للصلوات. فالصلاة على النبيّ الأكرم وأهل بيته عليهم السلام لا تُماثل الصلاة على الملائكة وبقيّة الأنبياء. بعد ذلك، يدعو الإمام عليه السلام بأن تكون هذه الصلاة، بنحوٍ يشمل فيضُها حالَنا نحن، ويصلنا نفعٌ منها، ويُستجاب دعاؤنا بواسطتها، فيكون شأنُها شأن الماء الذي يفيض من الحوض، ويجري من حافّته على أطرافه، فيُبلّلها، حيث إنّ الهدف من جريان الماء كان - في الأساس - هو ملأ الحوض، لكن، حينما يفيض، فإنّه سيشمل حتّى تلك الأمور المتطفّلة.

٣. غموض حقيقة الصلوات

البحث بخصوص الصلاة على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله له أبعاد مختلفة، من بينها أنّ حقيقة هذه الرحمة ما هي؟ وما المراد من هذه الصلوات المتنزّلة؟ ولا يخفى أنّه لا ينبغي علينا الطمع في إدراك حقيقة هذه الرحمة، وعمومًا، لكي نتحدّث عن الحقائق الخارجة عن دائـرة

المحسوسات، فإنّنا نستعمل عبارات عامّة ومبهمة، وعلى سبيل المثال، فإنّنا نُدرك ونفهم معنى الرؤية والسمع المتعلّقين بنا، لكن، حينما يأتي الكلام على رؤية الله تعالى، فإنّ حقيقة هذه الرؤية ممّا يخرج عن دائرة فهمنا وإدراكنا، فبالنسبة إلينا، تكون حقيقة الآيات التي يقول فيها البارئ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾[2] مبهمة، وغاية ما يُمكننا أن نُفسرها به أنّ الله عالم بالمبصرات والمسموعات، لأنّه تعالى منزّه عن العين والأذن والأعضاء لكي يستعملها في الرؤية والسمع، فعادةً، تكتنف معرفتُنا - نحن بني آدم - بالأمور الخارجة عن عالم المحسوسات بالغموض والإبهام، فلا يُمكن لأيّ أحد إدراك حقيقتها، اللهمّ إلّا بعض الخواصّ من العباد الذين كشف الله تعالى لهم طرفًا من ستار الغيب، فتمكّنوا بذلك من إدراك بعض الحقائق عن طريق الشهود، وفي الحقيقة، فإنّ وظيفة العقل تتمثّل في تجريد هذه المحسوسات وتعميمها، وإدراك الأشياء التي استوعبناها في وجودنا بواسطة العلم الحضوري، وحينما يتعلّق الأمر بأمور خارجة عن هذه المحسوسات، فإنّ الحديث عنها يتمّ بالاستعانة بعبارات مبهمة ليس غير، فنحن فقط عن طريق إشارة القرآن الكريم علمنا بأنّ ثمرة صلاة الله تعالى وملائكته على المؤمنين هو إخراجهم من الظلمات وسوقهم نحو النور، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾[3]، لكن، مع ذلك، فإنّ حقيقة هذه الظلمات، وذلك النور هي من الأمور المجرّدة عن المحسوسات التي لا يتسنّى لنا إدراك حقيقة أيّ منها كما ينبغي.. نرجو من الله تعالى أن يتفضّل علينا

(١) سورة غافر، الآية ٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

بالمعرفة، ويُوفّقنا لكي نُشاهد هذه الحقائق، ولو بعد نهاية حياتنا في هذا العالم كحدّ أدنى.

وأمّا المسألة الثانية المطروحة بشأن الصلاة، فتتعلّق ببيان سبب صلاتنا على الذين يُصلّي الله تعالى وملائكته عليهم، وكذلك السرّ في صلاة البارئ عزّ وجلّ على المؤمنين، فالصلاة عبارة عن رحمة إلهيّة خاصّة تحكي عن عناية خاصّة لله تعالى بالمؤمنين، لأنّ الرحمة الإلهيّة العامّة تشمل كلّ الموجودات، بل حتّى أصل وجود الشيطان هو رحمة إلهيّة، وأمّا الصلاة، فهي رحمة خاصّة ترفع من كمال الإنسان ومقامه ودرجته، ويُنزلها الله تعالى على النبيّ والمؤمنين، وفي هذا المقام، يُطرح علينا التساؤل التالي: ما هو الدور الذي نُؤدّيه نحن من خلال ذكر الصلوات؟ والحقّ أنّه حينما نذكر الصلوات، فإنّنا نطلب من الله تعالى أن ينزل رحمته الخاصّة على النبيّ وأهل بيته عليهم السلام، لأنّ صلاة الله تعالى تجلب للإنسان رحمة ومقامًا ومنزلة خاصّين، فالصلاة عبارة عن رحمة إلهيّة خاصّة، وذكرُنا للصلاة يعني أنّنا ندعو الله تعالى لكي يُنزل هذه الرحمة، وإلّا، فإنّنا لا نملك أيّ شيء يليق بمقام النبيّ وآله عليهم السلام.

٤. الفارق بين صلاة العاشق وصلاة التاجر

المسألة الثالثة المطروحة بخصوص الصلوات تتمثّل في الاهتمام بها في الأدعية والمناجاة، حيث ورد في ضمن آداب الدعاء أنّه: «إذا أحببتم أن يُستجاب لدعائكم، فصلّوا أوّلًا على النبيّ، ثمّ ادعوا بعد ذلك، واختموا دعاءكم بالصلاة أيضًا»، فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللّهِ عَزَّ وجَلَّ حَاجَةٌ فَلْيَبْدَأْ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، ثُمَّ يَسْأَلُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَخْتِمُ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَقْبَلَ الطَّرَفَيْنِ ويَدَعَ الْوَسَطَ إِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ

مُحَمَّدٍ لَا تُحْجَبُ عَنْهُ»[١]، فالكرم الإلهيّ أعلى من أن يقبل طرفي الدعاء، ولا يقبل وسطه، حيث تُعدّ هذه المسألة من لطائف الرحمة الإلهيّة، لكن، يبقى أنّ الدافع لذكر الصلوات لا ينحصر في ذلك، إذ لا تقتصر دوافع الإنسان الشعوريّة على رغباته الشخصيّة دائمًا، بل في كثير من الأحيان، يكون قصده الواعي خدمة الآخرين، وأبـرز مثال على ذلك، الخدمات التي تُقدّمها الأمّ لطفلها الرضيع في جوف الليل، فلو سألناها: «لماذا تتحمّلين كلّ هذه المشقّة؟»، لكان جوابها الحاضر أنّ الذي يدفعها لهذا العمل هو خدمة محبوبها (الطفل)، والاعتناء به.

فحينما يُحبّ الإنسان أحدًا حبًّا شديدًا، فإنّه يرغب من صميم قلبه أن يخدمه، من دون أن يُفكّر في نتائج هذه الخدمة ومنافعها، وقد شاهدتُ العديد من الطلّاب الشباب الذين يلتذّون بخدمة أساتذتهم لشدّة محبّتهم لهم، ويجدر بي هنا أن أشير إلى حكاية تحضرني عن أحد أساتذتي لكي تكون عبرةً لنا في هذا المقام. ففي النجف الأشرف، كنت أحضر درس المكاسب عند السيّد فاني الأصفهاني رحمه الله، وأعلى البارئ تعالى درجاته، وجزاه عنّا بكرمه خير جزاء المحسنين، فقد انتقل إلى جوار ربّه قبل عدّة سنوات، وكان هذا الأستاذ يُلقي سابقًا دروسًا في البحث الخارج بالمسجد الأعظم. فقبل أن يُناهز الستّين وبضع سنوات، حينما كان عمري يبلغ الثامنة عشرة سنة تقريبًا، حكى لنا هذه القصّة في مدينة النجف، فقال: في بداية دراستي الحوزويّة بأصفهان، كنت أحضر دروس السيّد محمد النجف آبادي، وقد كان يُدخّن النرجيلة، حيث كانت آنذاك من الأمور المتعارفة، ولم تكن مشينة في ذلك العصر، فكان تقديم النرجيلة للضيوف يُعدّ إكرامًا، بل يندرج في ضمن بنود مهر العروس،

---

(١) محمّد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٤٩٤.

فكان يقول: «لشدّة حبّي لأستاذي، فقد كنت أسعى لكي أعدّ له النرجيلة بنفسي، وفي أحد أيّام العيد، كنت أرتدي لباسًا أبيض، ومع ذلك، أحببت أن أُعدّ لأستاذي نرجيلة، ولهذا، فقد وضعت بعض قطع الفحم في "السلك الدوّار"، وشرعت في تدويره لإشعال الفحم، وأتذكّر كيف كانت شرارات النار تستقرّ على لباس العيد الأبيض الذي أكنت أرتديه، وتحرقه، لكنّني كنت ألتذّ وأفتخر بأنّ لباسي الجديد يحترق بسبب نرجيلة أستاذي».

ففي هكذا موارد، نرى بأنّ ما يبعث على الالتذاذ هي محبّة الأستاذ، بحيث إنّ التلميذ يرغب في أن يبرز لأستاذه محبّته الخالصة. ولا يخفى أنّ هذا الدافع يعود بنحو من الأنحاء إلى نفس العاشق، لأنّه في الحقيقة يلتذّ بخدمته لمعشوقه، فيكون الظفر بهذه اللذّة أمرًا مطلوبًا له، كما كان المرحوم فاني يقول: «كنت ألتذّ باحتراق لباسي فداءً لأستاذي»، أي: إنّه كان طالبًا لهذه اللذّة. فمثل هذه الأهداف تكون موجودة في العقل الباطن للعاشق، ومكنونة في أعماقه الوجوديّة، لكنّه لا يلتفت إليها، وبعبارة أخرى: فإنّ كلّ فعل يُؤدّيه أيُّ مخلوق إنّما يُؤدّيه في الأخير لأجل نفسه، والله تعالى فقط هو الذي لا يُؤدّي أيّ فعل لأجل ذاته، لأنّه لا يحتاج لأيّ شيء، فالمهمّ هنا هو طبيعة الدافع الشعوري الذي يمتلكه المخلوق، والفارق بين حبّ الذات وحبّ الغير يتّضح في هذا المستوى من الوعي الذهني.

والأمـر ذاتـه يصدق على مسألة الصلاة، فأحيانًا، يكون الدافع الشعوري الوحيد للإنسان من وراء ذكره للصلاة أن يجلب منفعة لنفسه، إلّا أنّ بعضهم يبلغ في عشقه للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام درجةً، بحيث يغفل عن لذّته ومنفعته الشخصيّتين، فيُؤدّي أفعاله لمجرّد محبّتهم وعشقهم، ويحصل له مثل هذا التوجّه للنبيّ وأهل بيته عليهم السلام

عندما تسنح له بعض الفرص، كجلسات الذكر والتوسّل كحدّ أدنى، ولو أنّه قد يفتقد هكذا توجّه في أوقات أخرى، بسبب انشغاله بأمور مختلفة. إنّ أفرادًا من هذا القبيل قليلون، لكنّهم موجودون، فهذا النوع من المحبّة للرسول وآله عليهم السلام يحظى بقيمة كبيرة، كما أنّ الصلوات التي تنبع من هكذا عشق تفترق كثيرًا عن الصلوات الأخرى.

إنّ الذي يتمكّن من الحضور عند عالم كبير، كأن يتشرّف - مثلًا - بخدمة سماحة السيّد القائد، قد يقوم بهذه الخدمة في مقابل أجر، وقد تكون خدمته لمجرّد المحبّة والعشق، فيفرح جذلًا بأنّه تمكّن من الحضور عنده، ويعتبر ذلك أعلى فخر ولذّة بالنسبة إليه، بل يخجل من الحديث عن المال والأجر، حيث إنّ مثل هذا الفارق قد يوجد بين صلواتنا على الرسول، فنحن عادةً ما نُصلّي عليه لأجل الحصول على منفعة، فنُريد كحدّ أدنى أن تكون هذه الصلوات مقدّمة لاستجابة دعواتنا، لكن، هناك من يُصلّي عليه لمجرّد العشق، وتكون أعلى لذّته إبراز التذلّل في مقابل الرسول وأهل بيته عليهم السلام، وبعبارة أخرى: فإنّ أرقى لذّة بالنسبة إليه تتمثّل في الخضوع لهم، وذرف الدموع أمامهم، فالتذاذه بإبراز الذلّة أمام المعشوق قد بلغ درجة، بحيث لا تُضاهيه أيّة لذّة أخرى، فمثل هذه الصلاة تحظى بقيمة عالية.

بعض القيم واللذائذ لا يُمكن بيانها ولا قياسها بالمعايير المرتبطة بالمحسوسات، وعلى سبيل المثال، فإنّ اللذّة التي يشعر بها العاشق من النظر إلى المعشوق أو ابتسامته لا تقبل البيان والقياس بمقياس الوزن والعدد، فلهذه اللذّة حقيقة مغايرة تستدعي مقياسًا آخر. ولله تعالى بالخواصّ من عباده وعشّاقه عنايةٌ خاصّة لا يتسنّى للآخرين فهمها، وإدراك اللذّة التي يشعر بها هؤلاء الخواصّ.

ولمزيد من التوضيح لهذه المسألة، نأتي بالمثال التالي: لنفرض أنّ شخصيّة عظيمة كسماحة السيّد القائد دعت مجموعة من الناس، واستضافتهم وجهًا لوجه، ففي هذه الحالة، قد يأتي بعض الناس لمجرّد الالتذاذ بالطعام، فتكون استفادتهم من المجلس مقتصرة على اللذّة الحاصلة من الأكل، وفي المقابل، قد يفرح بعض الناس، ويفتخرون بدعوتهم لهذا المجلس، وبما نالوه من احترام جرّاء ذلك، فيلتذوّن بهذا الأمر، لكن، قد يوجد من بين المدعوّين من يلتذّ بأمور خارجة عن الوصف. فمن الممكن أن تكون المسألة متساوية بالنسبة للجميع في الظاهر، بحيث لو سُئل شخص ينظر للأمور بنظرة ظاهريّة: «كيف كان المجلس؟»، لأجاب بقوله: «لقد استضاف سماحة السيّد الجميع بنحو متساوٍ، وأبدى احترامه ومحبّته للكلّ، وكان الطعام مشتركًا بين الجميع و...»، لكن، من المتيقّن أنّ اللذّة التي شعر بها المدعوّون ليست على حدّ سواء، فالذي يكون أسيرًا للطعام يلتذّ بما يأكله فقط، والذي يكون أسيرًا لحبّ الاحترام يلتذّ بما حظي به من احترام، ويفرحَ لدعوته من قبل السيّد القائد، واستضافته في محضره، فنوعيّة اللذّة التي يشعر بها هذا الأخير أجود من الأولى، ويستمرّ هذا الاختلاف في النوعيّة، حتّى نصل إلى شخص تجمعه بسماحة السيّد القائد علاقة خاصّة، فشتّان بين لذّة شخص كهذا، وبين بقيّة اللذّات، لأنّه يشعر بشيء لا يشعر به أيّ أحد آخر، ويلتذّ بأمر لا يُمكن مقارنته بأيّة لذّة أخرى. وتجدر الإشارة إلى أنّ اختلاف درجات الجنّة ولذائذها هي من هذا القبيل، حيث يرتبط أحد أنواع اللذّة بالفواكه والقصور والحور والغرف المتعدّدة، ففي الجنّة أيضًا توجد بنايات من عدّة طوابق، كما قال الحقّ تعالى في كتابه العزيز:

﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾[١]، فهذه الغرف تختلف فيما بينها، بحيث تقع غرف بعض أهل الجنّة فوق، وغرف آخرين تحت، وتكون حدائق وبساتين بعض أوسع من حدائق وبساتين آخرين. فإذا كانت طائفة من أهل الجنّة تنعم بضيافة الرسول الأكرم ﷺ، والتحقت بها ذرّيتها (كما أشار إلى ذلك البارئ تعالى في كتابه الحكيم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٢])، وفرضنا أنّ الجميع يُوزّع عليهم صنف واحد من الطعام، فممّا لا شكّ فيه أنّ اللذّة التي يشعر رسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين لا يُمكن مقارنتها باللذّة التي يشعر بها الآخرون، ولو كانوا ينعمون بجوارهم، لأنّ الشعور باللذّة يتوقّف على قابليّة الإنسان واستعداده، وإلّا، فلا بُخل ولا حظر من ناحية الله تعالى. فالإنسان لا يقدر على الالتذاذ أكثر ممّا تسمح به قابليّته، وحتّى إذا أفيض عليه بما يفوق استعداده، فإنّه لا يستطيع إدراكه، لأنّ اللذّة تابعة لموضوعها، أي: الإدراك الإنساني. ولهذا، على الإنسان أن يُدرك في البداية معنى النظرة الخاصّة والابتسامة الخاصّة حتّى يتسنّى له الالتذاذ بهما، وهي مسألة لا تُتاح للجميع، ففي المجلس الذي تحضره شخصيّة عظيمة، قد يلجأ أحدهم للمزاح، فتصدر ابتسامة من تلك الشخصيّة العظيمة، لكن، شتّان بين هذه الابتسامة، وبين تلك الابتسامة الخاصّة، وعلى حدّ قول الشاعر:

ميان ماه من تا ماه گردون
تفاوت از زمين تا آسمان

---

(١) سورة الزمر، الآية ٢٠.

(٢) سورة الطور، الآية ٢١.

[يقول: إنّ البعد بين قمري وقمر السماء، كالبعد بين السماء والأرض]

ومن هنا نقول: إذا أرادوا أن يُبيّنوا تلك المعاني الخاصّة، تعيّن عليهم الاستعانة بلغة أخرى تتناسب مع هذه المعاني، لكن، يبقى في الأخير أنّ هذه المفاهيم ستظلّ غامضة بالنسبة للذين لم يتمكّنوا من الوصول إلى تلك الحقائق.

وإذا نظرنا إلى هؤلاء الناس الذين يعيشون في هذا العالم، فإنّنا نجد أعمالهم قد تكون متشابهة تمامًا من الناحية الظاهريّة، وأمّا من الناحية القيميّة، فإنّها تكون عند الله تعالى مختلفة اختلاف السماء عن الأرض، وتوجد العديد من الشواهد على هذا الأمر، نظير الروايات التي تتحدّث عن الدعاء للأخ أو الأخت المؤمنَيْن، وأوردنا بعضها آنفًا، حيث جاء فيها: «إذا دعا المؤمن لمؤمن آخر في غيبته، ناداه ملك من السماء الدنيا: "لك مائة ألف ضعف"، ويتضاعف ذلك إلى أن يصل إلى سبعمائة ألف ضعف، ويزيد عليها الباريء عزّ وجلّ ألف ألف ضعف»[1]. فتصوّروا أنّه إذا دعونا لمؤمن بإخلاص أن يهبه الله مثلًا بيتًا، فإنّه تعالى يمنحنا ألف ألف ضعف من الثواب، فأيّ حساب هذا؟! وما أعجبه من عالم! ويا له من مكان يستوعب كلّ هذه البركات العظيمة! أجل، يبقى أنّ الرواية شرطت كون الدعاء «بظهر الغيب»، ولهذا، إذا دعا أحد لمؤمن بأن يزيد الله تعالى

---

(١) «مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ نَادَاهُ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا يَا عَبْدَ اللَّهِ لَكَ مِائَةُ أَلْفِ مِثْلِ مَا سَأَلْتَ وَنَادَاهُ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ لَكَ مِائَتَا أَلْفِ مِثْلِ الَّذِي دَعَوْتَ وَكَذَلِكَ يُنَادِي مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ تُضَاعَفُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيُنَادِيهِ مَلَكٌ يَا عَبْدَ اللَّهِ لَكَ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ ضِعْفٍ مِثْلِ الَّذِي دَعَوْتَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يُنَادِيهِ اللَّهُ عَبْدِي أَنَا اللَّهُ الْوَاسِعُ الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَنْفَدُ خَزَائِنِي وَلَا يَنْقُصُ رَحْمَتِي شَيْءٌ بَلْ وَسِعَتْ رَحْمَتِي كُلَّ شَيْءٍ لَكَ أَلْفُ أَلْفِ مِثْلِ الَّذِي دَعَوْتَ». محمّد باقر المجلسيّ، **بحار الأنوار**، الجزء ٩٠، الصفحة ٣٨٩.

في رزقه، وكان يقصد منذ البداية أن يقول له حينما يلتقي به: «لقد دعوت لك»، فإنّ ذلك يختلف كثيرًا عن دعاء الذي لا يجعل في باله هكذا قصد ونيّة، فيدعو لأخيه لمجرّد نيل رضى الله تعالى، فنفس هذه النوايا والأهداف هي التي توجب الاختلاف في ثواب الأعمال، بحيث يكون لدينا عملان متساويان في الظاهر، إلّا أنّ أحدهما يُجازى عليه بعشرة أضعاف، والآخر بألف ألف ضعف. إنّ مقام الذي يكون باعثه الوحيد على العمل هو محبّة الله، ويدعو للآخرين باعتبارهم عباده، ولأنّه تعالى يفرح للدعاء لهم يفترق كثيرًا عن مقام الذي يدعو للناس، حتّى يُخبرهم بدعائه لهم، فينال بذلك حظوة عندهم، فكلّما كان الدعاء أخلص، صارت دائرة ثوابه أوسع، إلى أن يُحطّم هذا الدعاء الخالص جميع الحدود، فيُعطَى عليه ثوابٌ «بِغَيرِ حِسَابٍ». وتصدق هذه المسألة بعينها على الصلوات، فقد يقصد أحدهم ذكرها في بداية الدعاء ونهايته لأنّها من أسباب استجابة الدعاء، لكنّ هذه الصلوات تختلف كثيرًا عن الصلوات التي تُذكر محبّةً للرسول الأكرم ﷺ فحسب، وحينئذٍ، لا ينبغي التعجّب إن قيل إنّ هذه الصلوات تعلو بألف ألف ضعف، بل من المؤكّد أنّ الفارق بين النوعين من الصلوات أكثر من ذلك بكثير، وعلينا أن نبذل كلّ سعينا، وندعو الله تعالى أن يمنحنا معرفته ومحبّته، ومعرفة أوليائه ومحبّتهم، حتّى تحظى أعمالنا الصغيرة بقيمة غير محدودة، وثواب من دون حساب.

٥. علاقة الصلوات بمقامات الأنبياء عليهم السلام

المسألة الأخرى المطروحة بشأن بالصلوات وكيفيّتها تتعلّق بالمعرفة التي نمتلكها عن النبيّ الأكرم، فالعديد من الناس تقتصر معرفتهم به ﷺ على كونه وُلد قبل ١٤٠٠ سنة تقريبًا في شبه الجزيرة العربيّة، وأنّه فَقَد والده قبل ولادته، وأمّه بعد فترة قليلة من ولادته، وأنّ السيّدة حليمة أرضعته،

وأنّه تاجر بأموال السيّد خديجة في شبابه، واصطُفي للنبوّة في سنّ الأربعين، فعكف على هداية الناس، وفي الأخير، ارتحل إلى جوار ربّه بعدما بلغ الثالثة والستّين من العمر، فغاية معرفة هؤلاء لا تتجاوز هذا الحدّ الذي لا يختلف فيه صلى الله عليه وآله عن بقيّة الناس، ولا يخفى أنّ هذه مسألة واقعيّة، كما أنّ بعض الآيات القرآنيّة التي تحدّثت عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كانت ناظرة في كثير من الموارد إلى نفس هذا البُعد، وذلك مثل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[1]، وأيضًا: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وكذلك: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، حيث نجد الباريَ عزّ وجلّ يقول لنبيّه: «لولا هدايتنا، لما علمت ما هو الكتاب ولا الإيمان»، ويقول له أيضًا: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾[3]، فكلّ هذه الآيات تحكي عن نشأة من نشآت الوجود النبويّ، والتي تتوفّر على مميّزات وآثار خاصّة، ففي هذه النشأة، لا يُلتفت عادةً إلى جانب الروح، فيظنّ الإنسان أنّ حياة كلّ فرد منحصرة في بدنه فقط، وحينما يتوقّف هذا البدن عن العمل، يظنّ أنّ ذلك الفرد قد انعدم.

غير أنّ الذين يمتلكون معرفةً أرفع يتوصّلون إلى توفّر الإنسان على بُعد آخر اسمه الروح، منزّه عن الخصائص المادّية، لكنّ له نوع ارتباط بالبدن، وحينئذ، إذا قيل لنا إنّ بعض أفراد الإنسان يمتلكون بُعدًا آخر

---

(١) سورة الضحى، الآيات ٦ إلى ٨.

(٢) سورة الشورى، الآية ٥٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٨٨.

زائـدًا على البعد الروحيّ، فـإنّ الإذعـان بذلك سيصعب علينا كثيرًا، وبالمناسبة، فقد جرى إثبات هذا الأمر في مدرسة التشيّع خصوصًا، وذلك في حقّ رسول الله وأهل بيته ﷺ، ويُطلق عليه «مقام النورانيّة» أو «النور»، ومن هنا، علاوةً على البدن المادّي، وكذلك النفس المتعلّقة بالبدن والمدبّرة له، فإنّ للرسول الأكرم ﷺ حقيقةً أخرى اسمها النور كانت موجودة قبل خلق نبيّ الله آدم ﷺ، وهي على درجة من القداسة، بحيث إنّ البارئ عزّ وجلّ أطلقها - بالاشتراك المفهومي - على نفسه، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، وأمّا بقيّة المخلوقات، فوجودها طفيلي على هذا النور، ومن هنا، لا ينبغي علينا الخلط في المسائل بين الأبعاد المختلفة لوجود النبيّ الأكرم ﷺ.

فحينما يُقال لنا: «ادعوا الله تعالى لكي يُصلّي ويُسلّم على النبيّ»، فإنّ هذه المسألة لها صلة بحياته في هذا العالم، أي ببعده الوجوديّ الذي يترقّى ويتكامل تدريجيًّا، حيث نراه يُصلّي ويُؤدّي العبادات، فإذا صلّى أكثر، حصل على ثواب أكبر... بمعنى أنّه يسلك عين ذلك الطريق الموضوع من أجل كمال الآخرين، وقد كان أمير المؤمنين ﷺ على نفس هذه الشاكلة، فكان يُؤدّي العبادات ذاتها، ويُناجي ربّه، ويصلّي الصلوات المستحبّة، ويتعاطى الزراعة، ويحفر الآبـار، ويقرأ القرآن، ويُؤدّي الصلوات المستحبّة أحيانًا في حال المشي، فحينما يُقال: إنّ أمير المؤمنين ﷺ كان يُصلّي كلّ ليلة ألف ركعة، فإنّ ذلك لا يعني أنّه كان يُؤدّي كافّة هذه الصلوات قائمًا في موضع واحد، وإلا، فكيف سيتسنّى له طرق أبواب الفقراء؟ لقد كان ﷺ يُؤدّي العديد من هذه الصلوات في

---

(١) سورة النور، الآية ٣٥.

حال المشي[١]، إذ لا يُشترط في الصلوات المستحبّة الجلوس والاستقرار والتوجّه إلى القبلة، بل يكفي فيها قراءة الأذكار مع الإيماء، حيث تحكي سيرة المعصومين عليهم السلام عن كون هذه الأمور سببًا لزيادة فضيلتهم، ومن هنا، إذا أدّينا عبادةً، وأهدينا ثوابها للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ درجة ذلك البُعد من حياته سترتفع، وسيكون لهديّتنا تأثير في ذلك، لكن، يبقى أنّ وجود النبيّ غير منحصر في هذا البُعد، بل له مقام آخر يقع فوق هذا الوجود المادّي، ولا يتأثّر بالهدايا التي نبعثها، بل إنّ كلّ كمال وخير يُعدّ شعاعًا من أشعّته. وبلوغ مرتبة أعلى من هذا المقام لا يتيسّر لأيّ مخلوق، وإلا لكان الحقّ تعالى قد منحه لرسوله، وهو مقام يأبى عن الرفعة، حيث بوسعنا إثبات ذلك عن طريق كلّ من القواعد العقليّة والروايات، ولا يخفى أنّ نظرنا هنا متعلّق بالمرتبة النازلة من وجود الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، والتي بمقتضاها وُلد في هذ العالم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وتعلّقت به مجموعة من التكاليف، وتوجّب عليه أداؤها بنحو أشقّ من بقيّة أفراد الإنسان، ففي هذه النشأة، يكون صلى الله عليه وآله وسلم إنسانًا كبقيّة الناس، وحينما يقول البارئ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٢]، و﴿قُلْ... وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾[٣]، فإنّه يُشير تعالى بذلك إلى نشأة مختلفة عن نشأته النوريّة، والتي تعجز عقولنا عن إدراكها، ولهذا، علينا أن نسعى للتقرّب إليه صلى الله عليه وآله وسلم بالطاعة والمحبّة وإهداء الصلوات، عساه أن يمنّ علينا بنظرة منه.

---

(١) قد يكون هذا التفسير لصلاة الإمام عليه السلام ألف ركعة في يوم واحد مقبولًا إلى حدّ ما، لكنّه لا ينفي وجود تفسيرات أخرى، كطيّ الزمان له عليه السلام، أو خلق أبدان أخرى تكون خاضعة لنفسه الشريفة، ممّا يُتيح له أداء كلّ هذه الصلوات، وهي أمور جرى إثباتها في محلّه. وعلى أيّ تقدير، لا ينبغي علينا قياس حالاته عليه السلام بحالاتنا نحن، لأنّه قياس مع الفارق. وقد ورد عنهم عليهم السلام أنّهم قالوا: «نحن أهل البيت لا يُقاس بنا أحد». [المترجم]

(٢) سورة الكهف، الآية ١١٠؛ سورة فصّلت، الآية ٦.

(٣) سورة الأحقاف، الآية ٩.



الفصل السابع: فلسفة ذكر الصلوات الشريف

ختمنا آخر فقرة من دعاء وداع شهر رمضان المبارك بذكر الصلاة على محمّد وآل محمّد ﷺ، حيث حظي هذا الذكر والدعاء بعناية خاصّة من قبل أهل البيت عليهم السلام الذين اهتمّوا به اهتمامًا بالغًا في أدعيتهم، ومن ضمنها دعاء وداع شهر رمضان المبارك، هذا، وقد وردت روايات عديدة تتحدّث عن فضيلة هذا الذكر، وهنا، يُطرح علينا التساؤل التالي: ما هي الخصائص التي يتميّز بها هذا الذكر الشريف، والتي كانت سببًا في اهتمام أهل البيت عليهم السلام به إلى هذا الحدّ، بحيث نجد أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام يلجؤون إلى تكرار الصلاة على محمّد وآل محمّد في ضمن أدعيتهم ومناجاتهم، مع أنّهم بأنفسهم من آل محمّد؟ ومن هنا، سنسعى آخر في فصل من الكتاب للإجابة عن هذا السؤال تبرّكًا باسم أهل البيت عليهم السلام، ليكون ذلك بمنزلة حسن الختام لهذا الكتاب.

١. الصلاة مقدّمة لنيل الرحمة الإلهيّة

بعدما نتعرّف على الأهمّية الكبيرة التي يحظى بها هذا الذكر الشريف، ولا سيّما بالنظر إلى الثواب المخصّص له، فإنّنا سنرغب في الظفر بالآثار والنتائج المترتّبة عليه، فعادةً، يكون أوّل دافع للإنسان لإجراء هذا الذكر

الشريف على لسانه وتكراره هو الحصول على ثوابه، وهذا نظير ما يحدث مع بقيّة الأذكار، وكذلك مع السور القرآنيّة الكريمة، حيث نُلاحظ اهتمام المسلمين بقراءتها بعدما بُيّنت فضائلها، ومثال ذلك، تسبيحات الزهراء عليها السلام الشريفة، والتي جرى تداولها الآن بين الشيعة الذين يهتمّون بقراءتها عادةً بعد الصلاة، بل الأطفال يتعلّمونها من الكبار، وينهمكون في ذكرها بعد الصلاة، ففي هذه الحالة، إذا سألناهم: «لماذا تحرصون على قراءة هذا الذكر؟»، فإنّهم سيُجيبون عادةً بأنّ «هذا الذكر له ثواب عظيم»، ومن هنا، فإنّ العلم بالأجر الكبير المترتّب على الصلوات يُشكّل أحد الدوافع للاهتمام بها عادةً.

والعنصر الآخر الذي قد يكون مؤثّرًا أيضًا في حضّنا على هذا الذكر يتمثّل في مساهمته في حلّ مشاكلنا الدنيويّة، فلكي يُشجّعنا أهل البيت على الزيادة في قراءته، ممّا يُؤثّر إيجابًا على آخرتنا، فقد سعوا عليهم السلام إلى بيان ثمراته الدنيويّة، فقالوا: «إنّ هذا الذكر سبب لاستجابة الدعاء»، ولا يخفى أنّ الإنسان له مجموعة من الحاجات، كسعة الرزق والشفاء من الأمراض ودفع البلاءات، وهي حاجات طبيعيّة لا تُثير أيّ إشكال، بل إنّ طلب الحاجات من الله تعالى أمر مرغوب جدًّا، لكن، إذا علمنا بوجود عنصر يرفع من احتمال الاستجابة، فإنّ دافعنا للاستعانة به سيقوى.

فنفس أهل البيت علّمونا التوسّل بهذا الذكر من أجل استجابة الدعاء، وهذا بحدّ ذاته من اللطف الخفيّ، لأنّهم عليهم السلام يُريدون منّا أن نحصل على فوائد هذا الذكر، وثوابه، والاستعدادت التي يُهيّئها لنيل الرحمة الإلهيّة، فغايتهم الأساسيّة تتمثّل في زيادة قربنا من الله تعالى، حيث يشتدّ هذا الهدف ويقوى أكثر في أصل الأمر بالدعاء، وإلا، فلماذا

قال البارئ عزّ وجلّ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1]؟ ولماذا نجد الإله الرؤوف يوقف إنزال رحمته واستجابته لطلباتنا على الدعاء، ويضعه شرطًا؟ إنّ الحكمة في هذا الشرط أنّه تعالى يُحبّ أن نلجأ إليه، فيصير ذلك سببًا في تقرّبنا إليه، وتمتّعنا بكمالات أكثر، وإلّا، فإنّه تعالى قادر على أن يُحقّق كافّة رغباتنا من دون الدعاء. أفلم يهبنا البارئ عزّ وجلّ العديد من النعم من دون دعاء؟! بل الحقّ أنّ معظم النعم الإلهيّة وُهبت لنا من دون أن نطلبها، فإذا قال الله: «ادعوني حتّى أستجيب لكم»، فلأنّ هذا الدعاء وسيلة لالتجائنا إليه تعالى، وسبب للزلفى لديه، أجل، يبقى أنّ دعاءنا له آثاره الخاصّة، ويُؤدّي أيضًا إلى الاستجابة، لكنّ محبّة الله تعالى لنا هي فوق ما يُمكننا تصوّره. فنحن نحرص كثيرًا على صحّتنا، وهي مسألة تحظى بأهمّية كبيرة بالنسبة إلينا، ولهذا، حينما نُصاب بالمرض، تجدنا - من ناحية - ننفق مبالغ طائلة للعلاج، ومن ناحية أخرى، ننذر ونلتجئ إلى الله تعالى لكي تعود إلينا صحّتنا. ولا يخفى أنّ البارئ عزّ وجلّ يعلم بأنّ الصحّة نعمة عظيمة، لكنّه يعلم كذلك بأنّ معرفته والارتباط به أهمّ وأعظم كثيرًا من سلامة البدن، ومن هنا، فإنّه تعالى يحضّنا على أن نطلب الصحّة منه، حتّى يمنحنا إيّاها، والسبب في ذلك أنّه يُريدنا أن نطرق بابه، لأنّ في ذلك كمالنا وبلوغنا الدرجات العالية.

فإذا كان أهل البيت عليهم السلام قد أوصونا بذكر الصلوات، فليس لأنّهم ينتفعون من ذلك، لأنّ مقامهم أرفع من أن يُريدوا منّا نفعًا، وفي الحقيقة، فإنّ لطفهم الدائم يقتضي أن يقوموا ببعض الأشياء حتّى يصلنا فيض منهم، لكن، لكي نحصل على هذا الفيض، يتوجّب علينا أن ندعو، فما دمنا لم نتّخذ قرارًا في هذا الإطار، ونلجأ إلى الدعاء، فإنّ قولهم

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

آمين لا يُحقّق لنا أيّ كمال. فمن الممكن أن يدعوا لنا، فيكون ذلك سببًا في شفائنا، وتمتّعنا بالصحّة، لكن، شتّان بين هذه الصحّة، وبين الصحّة التي تنشأ من قولهم: «عليكم بالدعاء، حتّى نؤمّن نحن على دعواتكم، فتُستجاب لكم»، لأنّنا في هذه الحالة سنحصل - إضافة إلى الصحّة - على معرفة الله تعالى، ونقوّي ارتباطنا به.

٢. الشعور بالامتنان للرسول وأهل بيته عليهم السلام

يتوفّر بعض المؤمنين الذين يفوقون الطائفة السابقة في المعرفة على دافع آخر لذكر الصلوات يتمثّل في الدافع الفطريّ لشكر المنعم، فالله تعالى خلقنا بحيث إنّه متى ما نالنا إحسانٌ أو عطاءٌ من أحدهم، فإنّنا نشعر بدينٍ تجاهه، ونُحبّ أن نشكره، ولو بالكلام على الأقلّ، لكي نؤدّي هذا الدين، فهذه الطائفة من المؤمنين حينما تلتفت إلى مقدار اعتناء الله تعالى وأهل البيت عليهم السلام بنا، والحقّ الكبير الذي لهم في أعناقنا بسبب هدايتهم لنا إلى طريق السعادة والخلاص، فإنّها تسعى لشكرهم، وتتساءل مع نفسها وتقول: أنّى لنا شكر الذين ضحّوا بأرواحهم وأحبّائهم، بل بطفلهم الرضيع، لكي نعرف الله تعالى، ونسلك طريق السعادة! فهذا الحقّ لا يُضاهيه أيّ حقّ من حقوق المخلوقات الأخرى، وهي مسألة بوسع الجميع إدراكها، ففي نهاية المطاف، كلّ من تعرّف على سبيل الهداية والسعادة يُدرك أنّه حصل على هذه المعرفة عن طريق أقوال رسول الله وأهل بيته عليهم السلام، وأفعالهم، وسيرتهم، وأنّهم هم الذين أرشدوه إلى طريق النجاة من العذاب الأبـدي، وسبيل الوصول إلى السعادة الأبديّة، وعليه، فسيشعر بالحقّ الكبير الذي لهم عليهم السلام في عنقه. فلولا إخراجهم للناس من ظلمات الضلالة إلى نور السعادة، لآلَ مصير ملايين من الناس إلى الضلالة والجاهليّة والحرمان من الرحمة الإلهيّة، وفي

الحقيقة، فإنّ إرشاداتهم عليهم السلام والمشقّات المتنوّعة التي تحمّلوها هي التي كانت سببًا في توصّلنا إلى طريق السعادة، ولهذا، فإنّ لهم حقًّا كبيرًا في أعناقنا، فكلّما ازدادت معرفتنا بعظمة الدين، وأهمّية اتّباع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وتأثير ذلك في سعادتنا، ازداد إدراكنا للحقّ العظيم الذي لهم في أعناقنا، حيث سعوا عليهم السلام إلى هدايتنا - وخصوصًا نحن الشيعة - لهذا الطريق من خلال أقوالهم، وسيرتهم العمليّة أيضًا، فنحن نعلم بحجم التضحيّات التي قدّموها - لا سيّما الإمام الحسين عليه السلام - من أجل إرشادنا وهدايتنا، وكيف أنّهم تحمّلوا مشقّة تعليم الناس وتربيتهم، ولم يبخلوا بأيّة تضحية أو إيثار في هذا المجال. لقد تحمّل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في مكّة الكثير من الأعباء، وهاجر منها إلى المدينة بعد سنوات من المحن والصعوبات، فأسّس هناك مجتمعًا إسلاميًّا ليكون منطلقًا لإيصال طريق السعادة إلى كافّة الناس، حيث كانت الغاية من كلّ تلك التضحيّات إكمال رسالته الهادفة إلى هداية البشر، هذا، مع أنّنا لا نستطيع القول إنّه كان يهدف من كلّ هذه الأتعاب تحقيق سعادته الشخصيّة فحسب، لأنّ الطريق كان بالنسبة إليه صلى الله عليه وآله واضحًا جدًّا، وكانت علاقته بالله تعالى محفوظة، وعليه، فإنّ التضحيّات التي كان يُقدّمها إنّما كانت لأجل هداية الناس، ولهذا، فإنّ أقلّ عمل يُمكننا تأديتُه لشكر هذه الأسرة العظيمة هو أن نهدي إليهم الصلوات، ونقول: «إلهي، لا قدرة لنا على مقابلة لطفهم بالمثل، ولهذا، فإنّنا نطلب منك أن تغمرهم برحمتك»، ومن هنا، فإنّ العنصر الثالث المؤثّر في إيجاد الدافع لذكر الصلوات يتمثّل في الالتفات إلى دور الرسول وأهل بيته عليهم السلام في سعادتنا.

إنّ الخدمات الجليلة التي قدّمها الرسول الأكرم وآله الطاهرين عليهم السلام جديرة بالتأمّل، وتحتاج إلى بحث طويل، حيث علينا أن ندرس أنواع

المشاقّ التي تحمّلوها، سواء في ذلك ما كان لهداية الناس في عصرهم، وما كان للإبقاء على مصباح الهداية مشتعلًا حتّى يصل للناس من بعدهم إلى يوم القيامة، فلقد كانت لديهم برامج لكلّ الناس، وكانوا يسعون إلى إيصال كلام الله تعالى - وهو المنهج الوحيد للسعادة - إلى أسماع العالمين قاطبة عن طريق مختلف الأقوال والأفعال، كما عملت هذه الأسرة العظيمة أيضًا على بيان جميع ما تتطلّبه هدايتُنا إلى السعادة، وذلك من خلال استعراض الحوادث الواقعة في آخر الزمان، والحديث عن الفتن التي سيُواجهها الإنسان، وطرق معالجتها، وسبل مواجهة كافّة الوساوس الشيطانيّة، والأعداء الظاهريّين والباطنيّين، لكن، للأسف، لا تجدنا نسعى بالمقدار المناسب للاستفادة من هذا المصدر المعرفيّ العظيم، وحسن استخدام هذه النعمة الكبيرة وهذا اللطف اللامحدود. فكلّما تأمّل الإنسان أكثر في المشاقّ التي تحمّلها أهل البيت عليهم السلام، ازداد دافعه لكي يطلب من الله تعالى أن يُعوّضهم على هذه المشاقّ، ويغمرهم برحمته الخاصّة، حيث بوسعنا إدراك هذه الحقيقة بقليل من التفكير فقط، ويبدو أنّنا لا نلتفت كثيرًا إلى ذلك الحقّ العظيم الذي يمتلكه أولئك العظماء في أعناقنا، لكن، قد يُساهم التفكّر والتدبّر في هذا الأمر في تعزيز الدافع لدينا لكي نصلّي عليهم، ونرجو لهم أفضل رحمة إلهيّة.

٣. محبّة الرسول وأهل بيته عليهم السلام في مرآة الصلوات

العنصر الآخر الذي من شأنه أن يُشكّل دافعًا للصلاة والتسليم على النبيّ وأهل بيته صلوات الله تعالى عليهم أجمعين يتمثّل في محبّتهم ومودّتهم، وهو عنصر يتوفّر - بمعنى من المعاني - في كافّة المسلمين، ولا يختصّ بنا نحن الشيعة فقط، لأنّ رحمتهم عليهم السلام شاملة للجميع، فكلّ

مسلم مدينٌ في معرفته بالإسلام - مهما بلغت - لهم، وللرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كحدّ أدنى، ولهذا، نرى أنّ جميع المسلمين الذين يتحلّون بالإنصاف يعترفون ببركات أهل البيت عليهم السلام، وبلزوم مودّتهم، وقد صنّف الشيعة وأهل السنّة العديد من الكتب في هذا المجال، حيث إنّ كتب علماء العامّة بخصوص فضائل أهل البيت عليهم السلام ولزوم مودّتهم كثيرة جدًّا. وعلى أيّ تقدير، فإنّ كافّة المسلمين - لا سيّما الشيعة - يعتقدون بهذه الحقيقة، ممّا يُساهم في إبدائهم محبّة خاصّة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، واعتبارهم ذلك أجرًا على رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ونحن نرى كيف أنّ بعض المسلمين السنّة يُشاركون في مراسم عزاء الإمام الحسين عليه السلام، إبرازًا منهم لمودّة أهل البيت عليهم السلام، وأداءً لأجر الرسالة النبويّة، ولهذا، فإنّ أهل الإنصاف يعترفون بمكانة أهل البيت عليهم السلام الرفيعة، وضرورة إظهار الامتنان لهم.

وهنا، يُطرح علينا إشكال، مُفاده: نحن نعدّ أنفسنا محبّين لأهل البيت عليهم السلام، غير أنّ هذه المحبّة لا تتجلّى عمليًّا في كافّة تصرّفاتنا، فتجدنا في بعض الأحيان نُبرز هذه المحبّة والمودّة بقوّة، فننعيهم في مجالس عزائهم، وننفق الأموال الطائلة، ونقيم النذورات وموائد الإطعام تخليدًا لذكراهم، ممّا يدلّ بأجمعه على محبّتنا لهم، لكن، حينما نتأمّل قليلًا، نرى أنّ أيدينا فارغة من تلك المحبّة التي يكون لها تأثير في كلّ أفعالنا، هذا، مع أنّ مرادنا من الأثر هنا ذلك الشيء الذي ينشأ من المحبّة مباشرة وبشكل خالص.

وبعبارة أوضح: فإنّ الأمر الذي يدفع الإنسان بدايةً للاهتمام بالأشياء التي تجلب له المتعة واللذّة هي نفس هذه المتعة واللذّة التي يتوقّعها منها، لكن، بعد ذلك، يبدأ تدريجيًّا بالتعلّق بنفس هذه الأشياء، أي إنّ

تلك اللذّات المتكرّرة والمميّزة تستتبع حلول كيفيّة نفسانيّة في الإنسان اسمها المحبّة. والمحبّة ليست حالة انفعاليّة وعابرة، بل هي أمر ثابت وراسخ، بحيث قد تمرّ عشرات السنين من دون أن يقدر الإنسان على إخراجها من قلبه، ويبقى أنّ بروز المحبّة تجاه شخصٍ ما ينشأ من اللذّة التي يحصل عليها الإنسان جرّاء الارتباط به (كأن ينظر إليه، أو يسمع صوته، أو يستفيد من علمه)، غير أنّ هذه المحبّة لا ترسخ بمجرّد الالتذاذ الحاصل مرّة واحدة فقط، فإذا تكرّر هذا الالتذاذ، فإنّ نوعًا من التعلّق يحدث للإنسان بذلك الشخص، بحيث يصير قلبه متوجّهًا إليه، ويرغب في رؤيته، أو الارتباط به بنحوٍ ما، ولو في زمانٍ لا يحصل له فيه ذلك الالتذاذ، ولو لم يكن له أيّ أمل في حصوله.

وحينما تشتدّ هذه المحبّة، تحصل للإنسان حالة يشعر فيها بأنّه يُريد التضحية بوجوده وبكافّة ما يملك فداءً لمحبوبه، وإذا سُئل: «لماذا ترغب بالتضحية بوجودك لأجله؟»، فإنّه يقول: «لأنّني أحبّه». ولا يخفى أنّ هذا الفداء يتوقّف على مرتبة تلك المحبّة، وشدّتها أو ضعفها، فإذا اشتدّت كثيرًا، فإنّ المحبّ يكون مستعدًّا للتضحية بنفسه وبجميع أقاربه في سبيل المحبوب، وقد نقل لنا التاريخ نماذج عن بعض مراتب هذه المحبّة من خلال حكايات العشّاق، مثل ليلى والمجنون، كما أنّ هناك بعض الأفراد الذين لهم تعلّق دائم بأهل البيت عليهم السلام، ويعشقونهم إلى درجة أنّه متى ما سمعوا أساميهم المباركة، حصلت لهم حالة خاصّة لا يُمكنهم وصفها، وذلك بسبب المحبّة. ففي قصّة ليلى والمجنون، حينما كان يلتقي المجنون بليلى، كان أمله الوحيد أن تشعر ليلى بأنّه يجود بنفسه لأجلها!

وبحقّ، هل يُمكننا أن نعثر في كلّ هذا الوجود على من هو أجدر بهذه المحبّة من محمّد وآل محمّد عليهم السلام؟ فهم أكمل وأعلى مخلوق من مخلوقات الله تعالى، ومهما أكننّا لهم من محبّة خالصة، فإنّه من الجدير بنا أن نعكسها في سلوكنا، أي: علينا أن نخدمهم من دون أيّ توقّع للمقابل، لكن، بما أنّنا لا نستطيع فعل أيّ شيء لهم، فإنّ أقصى خدمة يُمكننا تقديمها لهم أن نقول: «إلهي، أنت منبعُ أعلى وأفضل الرحمات والفيوضات، وأنت قادر على أن تمنحهم إيّاها، وأمّا نحن، فأيدينا خالية، ولا نملك أيّ شيء لتقديمه لهم، ولهذا، فإنّنا نرجوك أن تهبهم أفضل رحمة عندك، لأنّهم يستحقّون فعلًا هذه التفضّل منك»، فإذا استشعر الإنسان مثل هذه الحالة، فإنّ ثواب صلواته ودعائه سيفوق علمنا وتصوّرنا، وغاية ما سنعلمه في هذا الإطار أنّه عالٍ جدًّا.

٤. ارتباط قيمة العبادة بدرجات المحبّة

يُشبه اختلاف مراتب الصلوات وقيمتها ذلك الاختلاف القائم بين مراتب العبادة التي نُؤدّيها لله تعالى، فبمقتضى ما وصلنا عن أهل البيت عليهم السلام، فإنّ العبّاد على ثلاث طوائف[1]: طائفة تعبد الله تعالى خوفًا من عذابه، فشأنهم شأن الغلام التي يُطيع مولاه خوفًا من عقابه، ولهذا، فإنّ عبادتهم تُسمّى بـ «عبادة العبيد»، فلولا جهنّم، لما عبدوا الله تعالى أبدًا. وطائفة أخرى لها مستوى من العبادة يفوق قليلًا الأولى، فهؤلاء يعبدون الله تعالى للظفر بنعيم الجنّة، حيث يُقال لعبادتهم «عبادة التجّار»، ولا يخفى أنّه لا يوجد بأس في هكذا عبادة، كما قال البارئ عزّ وجلّ في

(١) محمّد بن يعقوب الكلينيّ، **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٨٤.

كتابه العزيز: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[2]، ففي نهاية المطاف، فإنّ البارئ عزّ وجلّ مطّلع علينا وعلى مقدار همّتنا، ويعلم جيّدًا أيّ موجود خلق. وأمّا الطائفة الثالثة، فهي التي تعبد الله تعالى لمجرّد محبّته، حيث يُطلق على هكذا عبادة اسم «عبادة الأحرار»، وهم الذين وهبوا قلوبهم لله تعالى.

وتنطبق هذه المراتب بعينها على محبّة أهل البيت عليهم السلام، فتارةً: تكون محبّتنا لهم نابعة من شفائهم لمرضانا، أو شفاعتهم لنا، وتخليصنا من العذاب، وهو أمر جيّد، ونرجو الله تعالى أن لا يحرمنا من هذه الدرجة، وتارةً أخرى: تكون لدينا حاجة، فنعاهدهم عليهم السلام على تقديم مبلغ معيّن إلى عتبتهم إذا قُضيت حاجتنا، حيث نجد أنّ بعض التجّار يُقدمون على صفقات صعبة يكون فيها - من ناحية - احتمال الحصول على ربح كبير، ومن ناحية أخرى، احتمال تعرّضهم لخسارة، فيتوسّلون إليهم عليهم السلام، ويُنذرون أنّه متى ما حصّلوا الربح المتوقّع، فإنّهم يهبون جزءًا منه للرسول الأكرم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام. فهذه العلاقة بأهل البيت عليهم السلام بدورها جيّدة، وتحكي عن إيماننا بهذه الأسرة الكريمة، وبمكانتها الرفيعة عند الله تعالى، وبكون دعائها مستجابًا، كما تُشير أيضًا إلى اعتقادنا بأنّهم يُحبّون شيعتهم، ولو كانت همّتهم ضعيفة، ويُشفقون عليهم.

---

(١) سورة الصفّ، الآية ١٠.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٩.

لكنّنا نجد أناسًا حينما يُغادرون منازلهم في الصباح، تكون قلوبهم ظمآنة لزيارة حرم السيّدة المعصومة عليها السلام، فلا يسكن اضطرابهم، ولا يهدؤون، حتّى يصلون إلى الحرم، ويلثمون أبوابه وجدرانه، فمصدر هذا الاضطراب ليس هو التطلّع إلى قضاء حاجة، حيث إنّهم لا يُريدون منها عليها السلام شيئًا، بل إنّ ظمأهم ناشئ من المحبّة التي يُكنّونها لتلك الأسرة الكريمة، ومن المعرفة التي يملكونها عن مقامها ومنزلتها، وقد أوجدت فيهم هذه المحبّة تدريجيًّا حالة من التعلّق والوله، بحيث لم يعودوا يهتمّوا بتحصيل تلك المنافع. وأشرنا سابقًا إلى أنّ حبّ الإنسان لأيّ أحد أو لأيّ شيء ينشأ بدايةً من حصوله على لذّة بسبب الارتباط به، لكن، مع تكرّر هذه اللذّات، فإنّه يُصبح متعلّقًا به بالتدريج، تعلّقًا غير مرهون بتلك اللذّات، بحيث إنّه يبقى، ولو انتفت هذه اللذائذ.

ففي البداية، تتحقّق معرفتنا بأهل البيت عليهم السلام عن طريق كراماتهم، فتكون هذه المعرفة سببًا لحبّنا لهم، لكن، إذا رفعنا من همّتنا قليلًا، وحافظنا على هذا الارتباط، وكرّرناه في حياتنا، سيحصل لدينا تعلّق بهم اسمه العشق، والذي تفوق لحظةٌ منه مئات السنين من العبادة الخالية منه، إذ إنّ بعض العبادات تفوق عبادات أخرى بسبعمائة ألف ضعف، لمجرّد أدائها بتوجّه قلبيّ، فمراتب الإخلاص في النيّة تكون سببًا لتضاعف ثواب العبادة من ضعف واحد، إلى عشرة أضعاف، أو سبعين ضعف، أو سبعمائة ضعف، أو مائة ألف ضعف، أو سبعمائة ألف ضعف... ومع أنّ المظهر الخارجي لهذه العبادات يكون واحـدًا، إلّا أنّ باطنها يكون على مراتب. إنّ قيمة القُبلة التي يضعها الزائر على ضريح السيّدة المعصومة عليها السلام لمجرّد المحبّة، فيكون قلبه يتحدّث في أعماقه بهذه الكلمات: «أحبّك يا سيّدتي المعظّمة! روحي لك الفداء! أنا لا أريد منك شيئًا!» لَيَ أرفع من الكثير من الأموال والنذورات والحاجات والإطعامات...

علينا أن نعمل على زيادة محبّتنا لله تعالى ومعرفتنا به، حتّى نتأسّى بالأئمّة المعصومين عليهم السلام، ويصير الدافع لدينا للعبادة هو حبّ البارئ عزّ وجلّ، أجل، يبقى أنّه تعالى خلق الإنسان، بحيث يخاف من النار، ولا يُحبّ أن يحترق بها، ومن جهة أخرى، فإنّه يرغب أيضًا في الحصول على نعم الجنّة، غاية الأمر أنّ محبّ الله لا يعبده تعالى لأجل هذه الأسباب. فإذا سعينا لكي نُصلّي طيلة الليل والنهار ركعتين نُناجي فيها الله تعالى بهذا النحو: «إلهي، إنّني أصلّي لك هذه الصلاة، حتّى أحافظ على محبّتي لك، بل لكي أحبّك أكثر، فأنا لا أريد منك ثوابًا آخر»، فإنّ قيمة هاتين الركعتين قد تفوق العبادة التي أدّاها الإنسان كلّ عمره، إذ إنّ قيمة العمل من حيث الجودة والكيف تفوق كثيرًا عند الله تعالى قيمته من حيث الكمّ، هذا، مع أنّ جودة العمل تابعة للمعرفة والمحبّة والارتباط القلبيّ، ولهذا السبب، علينا السعي لتعزيز هذا الارتباط.

٥. أغلى الحاجات

حتّى إذا أردنا ذكر الصلوات من أجل تلبية حاجاتنا، يحسُن بنا أن نجعل الحاجات التالية محطًّا لنظرنا عند وليّ العصر عجّل الله فرجه، فنقول له: «سيّدي، أنا أبعث إليكم بألف صلاة، حتّى تطلب من الله تعالى أن يزيد معرفتي بك»، فصحيح أنّ ختمة الصلوات لها تأثير كبير، حيث جرّب الكثيرون هذا الذكر، وتوصّلوا به إلى طلباتهم، كما كنّا نحن أيضًا في عهد الثورة الإسلاميّة ومقارعة الطاغوت نجتمع حين طروء أيّة مشكلة، ونؤدّي هذه الختمات، لكن، إذا أردنا أن نطلب أجرًا من قراءة هذه الصلوات، فليكن ذلك الأجر، إذ علينا أن نعتقد في قرارة أنفسنا بأنّه لا يفرق كثيرًا وجود اللذائذ الدنيويّة أو عدم وجودها، وبحقّ، إذا فكّرنا مع أنفسنا في الأيّام التي استمتعنا فيها كثيرًا، والأيّام التي عانينا فيها بشدّة، كم هي تلك

المتع أو المعاناة التي لا زلنا نتذكّرها؟ فكلاهما قد مرّ: أيّام الحزن وأيّام السرور! ولقد انقضت كلّ هذه الأيّام فعلًا وحقيقةً! وحينما نُفكّر فيها الآن، فإنّنا نشعر وكأنّها مجرّد أحلام! وهذا خلافًا للمعرفة والمحبّة، واللذين يبقيان في أعماق قلوبنا إلى الأبد، ويُساهمان في حشر الإنسان يوم القيامة مع الأئمّة الأطهار عليهم السلام، فأين هذا من ذاك؟ علينا أن نرفع من هممنا، وإذا كانت لدينا حاجات، فعلينا أن نهتمّ بحاجاتنا المعنويّة أكثر.

